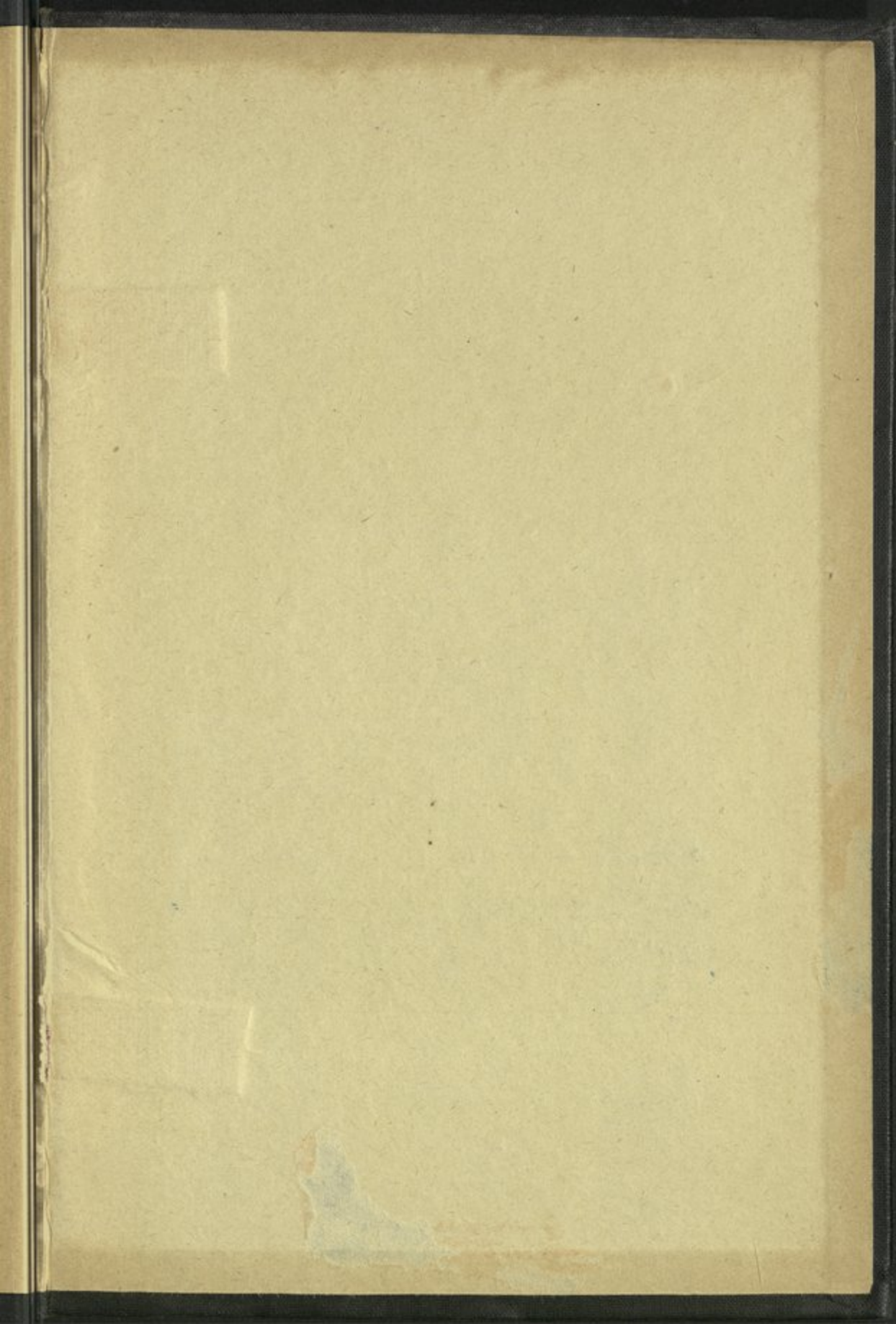


AUB Libraries



297.207

M29TA

J.4-6

SE 30 '58

~~NO 6-8~~

~~NO 6-8~~

~~NO 6-8~~

~~NO 6-8~~

~~24 Dec 64~~

JAFET LIB;
1 JUN 1993

07
A

Gift. Sept. 1951

A S.

V-4-6

297.207
M29LA
V.4-6
C.1



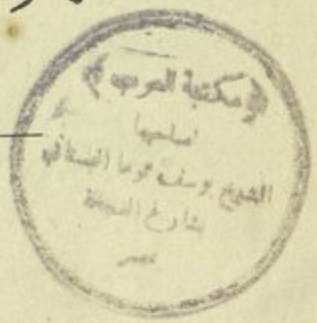
تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الرابع



77590

سُرُكَةُ مَكْتَبَةِ مَرْطُفِي أَبِي الْيَاسِي وَأَزْوَادِهِ بِمَرْسُ

Cat. Sept. 1951

WASCS
MUSM
2-EX
72



الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

٧٧٥٥

الجزء الرابع

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
المُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الطعام : كل ما يطعم ويتناول للغذاء كما قال « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ
مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ » وقالت عائشة رضي الله عنها « ما لنا طعام إلا الأسودان :

التمر والماء « وكثر استعماله في الخبز كما قالوا : أكل الطعام مأدوما ، وفي التبر ، ومنه حديث أبي سعيد « كنا نخرج زكاة الفطر صاعا من طعام أو صاعا من شعير »
والحل من حل الشيء ضد حرم ، وإسرائيل لقب نبي الله يعقوب ، ومعناه الأمير
المجاهد مع الله ثم شاع إطلاقه على جميع ذريته كما تدل على ذلك الأسفار المنسوبة
إلى موسى ، والفرية الكذب ، والافتراء اختلاق الكذب ، والحنيف المائل عن
الباطل إلى الحق ، وبكة من أسماء مكة (أبدلت ميمها باء) وهذا كثير الاستعمال
في الكلام ، قالوا : هذا دائم ودائب ، والآيات : الدلائل والعلامات ، والحجج (بكسر
الحاء وفتحها وبهما قرئ) القصد .

المعنى الجملي

كانت الآيات من أول السورة إلى هنا في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد
صلى الله عليه وسلم ، مع إثبات وحدانية الله تعالى ، وتبع ذلك محاجة أهل الكتاب
ودحض شبههم وتفنيدهم ما استحدثوه في دينهم من بدع وتقاليد لانص عليهما في كتابهم ،
أما هذه الآيات فقد جاءت لدفع شبهتين من شبهات اليهود :

(١) أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم ،
فكيف تأكل لحوم الإبل والبانها مع أن ذلك كان حراما في دين إبراهيم ؟ فأنت
قد استحللت ما كان محرما عليه ، فلست بمصدق له ، ولا بموافق له في الدين ، وليس
لك أن تقول إنك أولى الناس به ، فرد الله عليهم بأن كل الطعام كان حلالا
لبنى إسرائيل ، ولإبراهيم من قبله ، ثم حرم عليهم بعض الطيبات عقوبة لهم .

(٢) أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعنوا في نبوته ، وقالوا إن بيت المقدس
أفضل من الكعبة ، وأحق بالاستقبال ، فهو قد وضع قبلها وهو أرض الحشر ،
وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويصلون إليه ، فلو كنت على
ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا ، ولما تحولت عن بيت المقدس ، وعظمت مكانا آخر

وخالفت من تقدمك من الأنبياء ، فرد الله سبحانه شبهتهم ، بأن أول بيت بني للعبادة هو البيت الحرام بناه إبراهيم وولده إسماعيل للعبادة .

الإيضاح

أجاب الله سبحانه عن أولى الشبهتين بقوله :

(كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) أى إن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، ولإبراهيم من قبلهم ، ثم حرم عليهم بعض الطيبات فى التوراة عقوبة لهم وتأديباً كما يدل على ذلك قوله : « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

والمراد بإسرائيل الشعب كله كما هو شائع فى الاستعمال عندهم لا يعقوب فقط ، كما أن المراد بتحريم الشعب ذلك على نفسه أنه اجترح من السيئات ، وارتكب من الموبقات ما كان سبباً فى هذا التحريم كما ترشد إلى ذلك الآية التى أسلفناها .
وخلاصة هذا الجواب — أن الأصل فى الأطعمة الحل ، وما كان تحريم ما حرم على إسرائيل إلا تأديباً لهم على جرائم ومخالفات وقعت منهم ، وكانت سبباً فيما نالهم من التحريم لها ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأمته لم يجترحوا هذه السيئات فلا تحرم عليهم هذه الطيبات .

ومعنى قوله : من قبل أن تنزل التوراة ، أنه قبل نزول التوراة كان حلالاً لبني إسرائيل كل أنواع الأطعمة ، أما بعد نزولها ، فقد حرم عليهم أنواع كثيرة بسبب الذنوب التى اقترفوها ، وقد بينتها التوراة ، وبينت أسباب التحريم وعلاه .

(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فى دعواكم ، لا تخافون أن تكذبكم نصوصها ، فالحكم بيننا وبينكم كتابكم الناطق بصحة ما يقول القرآن ، فلو جئتم به لكان مؤيداً ما نقول من أن تحريم ما حرم ما كان إلا للتأديب والزجر وقد جاء فى سفر التثنية: قال موسى حين أخذ عليكم العهد بحفظ الشريعة (إنكم شعب

غليظ الرقبة يقاوم الرب) وقد روى أنهم لم يجروا على الإتيان بها ، وفلجت حجة القرآن .

وفي هذا أكبر دليل على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ هو قد علم أن ما في التوراة يدل على كذبهم ، وهو لم يقرأها ولا قرأ غيرها من كتب الأولين ، فهذا العلم لم يكن إلا بوحى من الله .

(فن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) أى فمن اخترع الكذب على الله وزعم أن التحريم كان على الأنبياء السابقين وأمهم قبل نزول التوراة — بعد أن ظهرت له الحجة بأن التحريم إنما كان بسبب ما ارتكب الشعب من الذنوب والخطايا ، وبعد أن طوب المدعون بالإتيان بالتوراة وتلاوتها ، فامتنعوا لئلا يظهر كذبهم ، وأن الله لم يحرم شيئاً قبل نزولها — فأولئك هم الظالمون لأنفسهم المستحقون لعذاب الله ، لأنهم قد حولوا الحق عن وجهه ، ووضعوا حكم الله فى غير موضعه ، فضلوا وأضلوا أشياءهم بإصرارهم على الباطل ، وعدم تصديقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(قل صدق الله) فيما أنبأني به من أن سائر الأطمعة كانت حلالاً لبنى إسرائيل ، وأنها إنما حُرمت على اليهود جزاء أفعالهم القبيحة ، وبذا قامت عليكم الحجة ، وثبت أنى مبلغ عنه ، إذ ما كان فى استطاعتي لولا الوحي أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون عن أنبيائكم .

(فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً) أى وإذ قد استبان لكم أن ما يدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم هو من ملة إبراهيم ، فعليكم أن تتبعوه فى استباحة أكل لحوم الإبل وألبانها ، وملته حنيفية سمحاء لا إفراط فيها ولا تفريط .

(وما كان من المشركين) الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ، أو يعبدون سواه ، كما فعله العرب من عبادة الأوثان ، وفعله اليهود من ادعائهم أن عزيزاً ابن الله ، وفعله النصارى من اعتقادهم أن المسيح ابن الله .

وخالصة هذا — أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام وكلياتها ، فأحل ما أحله هو من أكل لحوم الإبل وألبانها ، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله ، وما كان إبراهيم صلوات الله عليه إلا على هذا الدين .

ثم أجاب عن الشبهة الثانية فقال :

(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) أى إن البيت الذى نستقبله فى صلاتنا هو أول بيت وضع معبداً للناس ، بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام للعبادة ، ثم بنى المسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون ، بناه سليمان عليه السلام سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد فكان جعله قبلة أولى ، وبذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم على ملة إبراهيم ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهما .

والخلاصة — أن أول بيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء هو البيت الحرام ، فليس فى الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يؤثر من توارىخهم ، ويتبع هذا أولية الشرف والتعظيم .

(مباركا وهدى للعالمين) تطلق البركة على معنيين: أحدهما النمو والزيادة ، وثانيهما البقاء والدوام كما يقال تبارك الله .

والبركة والهداية من فضائله الحسية والمعنوية .

أما الأولى فهى أنه قد أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شىء مع كونه بواد غير ذى زرع كما قال تعالى : « يُجَيِّبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » فترى الأقوات والثمار فى مكة كثيرة جيدة ، وأقل ثمنا من كثير من البلاد ذوات الخيرات الوفيرة كصمر والشام .

وأما الثانية فلأن القلوب تهوى إليه ، فتأتى الناس مشاة وركباناً من كل فج عميق لأداء المناسك الدينية من الحج والعمرة ، ويولون وجوههم شطره فى صلاتهم

وربما لا تضى ساعة من ليل أو نهار إلا وهناك ناس يتوجهون إليه ، ولا شك أن هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات .

وكل هذا ببركة دعوة إبراهيم صلوات الله عليه « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

(فيه آيات بينات مقام إبراهيم) أى فيه دلائل واضحات أحدها مقام إبراهيم (موضع قيامه للصلاة والعبادة) وقد عرف ذلك العرب وغيرهم بالنقل المتواتر .

وإبراهيم أبو الأنبياء الذين بقى في الأرض أثرهم ، وجعلت النبوة والملك فيهم ، فأى دليل أبين من هذا على كون ذلك البيت من أول بيوت العبادة المعروفة .

(ومن دخله كان آمناً) أى وأمن من دخله ، والعرب جميعاً قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه ، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء ، وأمن أن يسفك دمه أو تستباح حرمانه مادام فيه ، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن واختلاف المنازع والأهواء ، وقد أقر الإسلام هذا ، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . ومن مم قال أبو حنيفة رحمه الله : من وجب قتله في الحل بقصاص أو ردة أو زناً فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج منه .

وفتح مكة بالسيف كان لضرورة تطهير البيت من الشرك ، وتخصيصه للعبادة ، فقد حلت للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار لم تحل لأحد قبله ، ولن تحل لأحد بعده كما جاء في الحديث .

على أن حل مكة وما يتبعها من أرباضها للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار أمر زائد على أمن البيت ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستحل البيت ساعة ولا مادونها ، بل كان مناديه ينادى : من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق بابَه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

وقد أخبر أبو سفيان النبي صلى الله عليه وسلم بقول سعد بن عبادَةَ الأنصاري حامل اللواء له في الطريق : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فقال صلى الله عليه وسلم « كذب سعد ، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » وما فعله الحجاج من رمى البيت بالمنجنيق ، فهو فعل السياسة التي قد تحمل صاحبها على مخالفة ما يعتقد حرمة ، ويقع به في الظلم والإحاد ، إذ هو وجدته لم يكونوا معتقدين حل ما فعلوا .

(والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) أى ويجب الحج على المستطيع من هذه الأمة ، وفي هذا تعظيم للبيت أيما تعظيم ، وما زال الناس من عهد إبراهيم إلى عهد محمد صلوات الله عليهما يحجون البيت عملاً بسنة إبراهيم ، جروا على هذا جيلاً بعد جيل لم يمنعهم من ذلك شركهم ولا عبادتهم للأوثان والأصنام ، فهي آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم .

واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه كما قال تعالى : « فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » وقال : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص ، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه ، وكل مكلف أدرى بنفسه في ذلك .

وقد اختلف في تفسيرها ، فقال بعضهم إنها القدرة على الزاد والراحلة مع أمن الطريق ، وقال بعض : إنها صحة البدن والقدرة على المشى ، وقال آخرون هي صحة البدن وزوال الخوف من عدو أو سبع مع القدرة على المال الذي يشتري منه الزاد والراحلة ، وقضاء جميع الديون والودائع ودفع النفقة التي تكفى لمن تجب عليه نفقته

حتى العودة من الحج . وخلاصة ذلك - أن هذا الإيجاب مشروط بالاستطاعة وهي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان .

(ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) المراد بالكفر هنا جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة بعد أن قامت الأدلة على ذلك ، وعدم الإذعان لما فرضه الله من حجه والتوجه إليه بالعبادة .

وفسر بعضهم الكفر بترك الحج فكأنه قال ومن لم يحج فإن الله غنى عن العالمين ، وعبر عنه بذلك تغليظاً وتشديداً على تاركه ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » وروى عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبة له : « أيها الناس ، إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً ، ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً » وأثر عن عمر أنه قال : لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له حجة (سعة) ولم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين .

ولهذه الأدلة قال كثير من الفقهاء : إن الحج واجب على الفور ، وقال آخرون : إنه واجب على التراخي .

وهذه الجملة تأكيد لما سبق من الوجوب ، فإنه بدأ الآية بأن قال : والله على الناس ، فأفاد أن ذلك ما كان لجرّ نفع ولا لدفع ضرر ، بل كان للعزة الإلهية ، ولكبرياء الربوبية ، وختمها بهذه الجملة المؤكدة لذلك ، ببيان أن فاعل ذلك مستأهل للنعمة برضا الله عنه ، وأن تاركه يسخط عليه سخطاً عظيماً .

وحسب البيت شرفاً أنه حرم آمن ومثابة للناس ومبارك وهدى للعالمين ، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرمة وفضله ، من أنه لا يسفك فيه دم ، ولا يعضد شجره ، ولا يختلى خلاه (لا يقطع نباته) وأن قصده مكفر للذنوب ماح للخطايا ، وأن العبادة التي تؤدي فيه لا تؤدي في غيره ، وأن استلام الحجر

الأسود فيه رمز إلى مبايعة الله تعالى على إقامة دينه والإخلاص له ، وأن الصلاة فيه بمائة ألف ضعف في غيره .

وكتب الأحاديث والسيرة مليئة ببيان فضله ، ومشيدة بذكره .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

شرح المفردات

آيات الله هي الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والشهيد العالم بالشيء المطلع عليه ، وتصدون من صدده أصدده صدا أى صرفته ، والسبيل يذكر ويؤنث وهو الطريق ، وتبعونها من بغاه يبغيه أى طلبه ، والعوج (بكسر العين) الميل عن الاستواء فى الأمور المعنوية كالدين والقول (وفتحتها) فى المحسوسات كالحائط والقناة والشجرة ؛ والمراد به هنا الزيف والتحريف .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما جاء فى التوراة والإنجيل من البشارة بمقدمه ، ثم ذكر شبهات القوم وكر عليها بالحجة ، ونقضها بما ليس بعده زيادة لمستزيد - أردف ذلك بخطابهم بالكلام اللين ، وبدأه بعنوان كونهم أهل الكتاب مما يوجب الإيمان به وبما يصدقه ؛ مبالغة فى تقييح حالهم فى تكذيبهم له ، إذ هم قد فعلوا ذلك على علم .

أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس - وكان عظيم الكفر شديد الطعن والحرد على المسلمين - على نفر من أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون فيه ، فغاضه مارأى من جماعهم وأفتبهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان منهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملاً بنى قَيْلَةَ (الأوس والخزرج) بهذه البلاد ، والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار : فأمر فتى شابا من اليهود — وكان معه — فقال اعمد إليهم فاجلس معهم وذكركم يوم بُعث ، وأنشدهم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار ففعل (وكان يوم بعثت يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر للأوس على الخزرج) فقبل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحى على الركب (أوس بن قيسى أحد بنى حارثة ابن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج) فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها جَدَّعة (شابة فتية ، يعنون الحرب) وغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا ، السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة (هى الحرة وهى أرض مستوية بظاهر المدينة) فخرجوا إليها ، وتجاوب الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التى كانوا عليها في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يامعشر المسلمين ، الله الله ، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع .

وأُنزل الله فيه (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) إلى آخر الآيتين .

السابقتين ، وأنزل عز وجل في أوس بن قيطى وجبار بن صخر ومن كان معهما (يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب — إلى قوله — لعلمكم تهتدون) .

الإيضاح

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون؟) أى لأى سبب تكفرون بتلك الآيات والله مطلع على أعمالكم ، لا تخفى عليه خافية من أمركم وهو مجازيكم بها؟ وذلك مما يوجب عليكم ألا تجترئوا على الكفر بآياته .

ولا يخفى ما فى هذا من التوبيخ والإيماء إلى تعجزهم عن إقامة العذر على كفرهم ، كأنه قيل هاتوا عذرکم إن كان ذلك فى مكنتم .

(قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأتم شهداء؟) أى لأى سبب تصرفون من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان الذى يرقى عقل المؤمن بما فيه من طلب النظر فى الكون ، ورتقى روحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة ، والأعمال الصالحة ، وتكذبون بذلك كفرا وعنادا ، وكبرا وحسدا ، وتلقون الشبهات الباطلة فى قلوب الضعفاء من المسلمين بغيا وكيدا للنبي صلى الله عليه وسلم ، تبغون لأهل دين الله ولئن هو على سبيل الحق عوجا وضلالا ، وزيفا عن الاستقامة على الهدى والحجة ، وأتم عارفون بتقدم البشارة به ، عالمون بصدق نبوته ، ومن كان كذلك فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال .

(وما الله بغافل عما تعملون) من هذا الصد وغيره من الأعمال ، فمجازيكم عليه ، وغير خاف ما فى هذا من تهديد ووعيد ، كما يقول الرجل لعبده وقد أنكر عليه اعوجاج أخلاقه : لا يخفى على ما أنت عليه ، وما أنا بغافل عن أمرك .

وإنما ختم هذه الآية بنفى الغفلة ، لأن صدمهم عن الإسلام كان بضرب من السكر والكيد ووجوه الخيل ، وختم الآية السابقة بقوله والله شهيد ؛ لأن العمل الذى فيها وهو الكفر ظاهر مشهود ،

وكرر الخطاب بيا أهل الكتاب ؛ لأن المقصد التوبيخ على أطف الوجوه ،
وهذا أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريق الضلال والإضلال ، وأدل على
النصح لهم ، والإشفاق عليهم .
والآية الأولى لكفهم عن الضلال ، والثانية لكفهم عن الإضلال .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى
عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

شرح المفردات

اعتصم بالشئ إذا تمسك به ، فنع نفسه من الوقوع في الهلاك كما قال تعالى
حكاية عن زليخا «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» والتقاء التقوى كالتؤدة من
أناد ، والحق من حق الشئ بمعنى وجب وثبت ، والأصل اتقاء حقا ، وحبل الله
كتابه من اعتصم به كان مستمسكا بأقوى سبب ، متحرزا من السقوط في قعر
جهنم ، وشفأ الحفرة طرفها ، وبه يضرب المثل في القرب من الهلاك ، فيقال أشفي على
الهلاك ، أى وصل إلى شفاه .

المعنى الجملى

بعد أن وبَّخ سبحانه أهل الكتاب على كفرهم وصددهم عن سبيل الله ، وأقام الحجج عليهم وأزال شبهاتهم — خاطب المؤمنين محذرا لهم من إغوائهم وإضلالهم ، مبيِّنا لهم أن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يطاعوا ، ولا أن يسمع لهم قول ، فهم دعاة الفتنة وحمالو حطبها ، ثم أمرهم بعد ذلك بتقواه والتمسك بحبله المتين ، ثم بتذكر نعمته عليهم ، وفعل الإنسان إما عن رهبة وإما عن رغبة ، والرهبة مقدمة على الرغبة ، وقد أشار إلى الأولى بقوله : (اتقوا الله حق تقاته) ، وإلى الثانية بقوله : (واذكروا نعمة الله عليكم) .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) أى إنكم أيها المؤمنون إذا أصغيتم إلى ما يلقيه إليكم هؤلاء اليهود مما يثير الفتنة ، ولنتم لهم فى القول ، واستجبتم لما يدعونكم إليه — ردوكم إلى الكفر بعد الإيمان كما قال تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ » والكفر يوجب الهلاك فى الدنيا والدين ، أما فى الدنيا فيوقوع العداوة والبغضاء ، وهيجان الفتنة المؤدى إلى سفك الدماء ، وأما فى الدين فلا حاجة إلى بيانه .

(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟) أى من أين يتطرق إليكم الكفر ، والحال أن القرآن يتلى عليكم على لسان رسوله غضا طرياً وبين أظهركم فرسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ، ويبين لكم ما أنزل إليكم ، ولكم فى سنته خير أسوة تغذى إيمانكم ، وتثير قلوبكم ، فلا ينبغي لمثلكم أن تلتفتوا إلى قولهم ، بل الواجب عليكم أن ترجعوا عند كل شبهة تسمعونها من

هؤلاء اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يكشف عنها ، ويزيل ما علق بقلوبكم منها .

(ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) أى ومن يستمسك بدين الله وكتابه ورسوله ، فقد حصل له الهدى إلى الصراط المستقيم لا محالة ، كما تقول إذا جئت فلاناً فقد أفلحت ، إذ هو حينئذ لا تخفى عليه المهالك ، ولا تروج لديه الشبهات قال قتادة : ذكر في الآية أمرين يمنعان من الوقوع في الكفر : أحدهما تلاوة كتاب الله ، وثانيهما كون الرسول فيهم ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد مضى إلى رحمة الله ورضوانه ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

(يأيتها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أى يجب عليكم تقواه حقاً ، بأن تقوموا بالواجبات وتجتنبوا المنهيات ، ونحو الآية قوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى بالغوا في تقواه جهد المستطاع .

وعن ابن مسعود أنه قال : تقوى الله أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُشكر فلا يكفر ، ويُذكر فلا يُنسى .

وعن ابن عباس أنه قال : هى أن يُجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم .

(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى ولا تموتن إلا ونفوسكم مخلصه لله ، لا تجامون شركة لسواه أى لا تكوننَّ على حال سوى الإسلام إذا أدرككم الموت . والخلاصة — استمروا على الإسلام ، وحافظوا على أداء الواجبات ، وترك المنهيات حتى الموت .

وقد جاء هذا فى مقابلة قوله : (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) .

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) أى تمسكوا بكتاب الله وعهده الذى عهد به إليكم ، وفيه أمركم بالألفة والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله ، والانتهاى إلى أمره .

وقد جعل الدين في سلطانه على النفوس ، وتصرفه فيها على حسب نواميسه وأصوله ، وما يترتب على ذلك من جريان الأعمال على حسب هديه — كأنه حبل متين يأخذ به الآخذ فيأمن السقوط في الهاوية ، كأن الآخذين به قوم على كثر مرتفع من الأرض يخشى عليهم السقوط منه ، فيأخذون بحبل موثق يجمعون به قوتهم ، فينجون من السقوط .

وفي الحديث « القرآن حبل الله المتين ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم » وجاء في معنى الآية قوله تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » فحبل الله في هذه الآية هو صراطه المستقيم ، كما أن أنواع التفرق هي السبل التي نهى عنها فيها .

ومن السبل المفرقة في الدين إحداث الشيع والمذاهب كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » ومنها العصبية الجنسية كما بين الأوس والخزرج كما تقدم ذلك ، وقد روى أبو داود عن مطعم بن جبير (ليس من آمن دعا إلى عصبية) .

وقد سار على هذا النهج أهل أوربا في العصر الحديث ، فاعتصموا بالعصبية الجنسية كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية وسرى ذلك إلى بعض البلاد الإسلامية ، فحاول أهلها أن يجعلوا في المسامير جنسيات وطنية . فدعا الترك إلى العصبية التركية ، والمصريون إلى الجنسية المصرية ، والعراقيون إلى الجنسية العراقية ، ظنا منهم أن ذلك مما ينهض بالوطن ، وليس الأمر كما يظنون ، فإن الوطن لا يرقى إلا باتحاد كل المقيمين فيه لإحيائه ، لا في تفرقهم ووقوع الشحناء والبغضاء بينهم ، فالدين يأمر باتحاد كل قوم تضمهم أرض واحدة ، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم ، ويأمر بالاعتصام بحبل الله المتين بين جميع الأقوام .

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته

إخواناً) أى واذكروا أيها المؤمنون النعمة التى أنعم الله عليكم بها حين كنتم أعداء يقتل بعضكم بعضاً ، ويأكل قويكم ضعيفكم ، نجاء الإسلام فألف بينكم وجمع جمعكم ، وجعلكم إخواناً ، حتى قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم ، وكان بعضهم يؤثر غيره على نفسه وهو فى خصاصة وحاجة إليه ، وأطفا الحروب التى تطاولت بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة ، وأنقذهم مما هو أدهى وأمر وهو عذاب الآخرة .

(وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) أى وكنتم بوثنيتمكم وشرككم بالله ، كأنكم على طرف حفرة يوشك أن ينهار بكم فى النار ، فليس بين الشرك والملاك فى النار إلا الموت ، والموت أقرب غائب ينتظر ، فأنقذكم الإسلام منها . وفى هذه الآيات جماع للمنن التى أنعم بها عليهم ، فقد أخرجهم بالإسلام من الشرك ومخازيه ، وألف بين قلوبهم حتى صاروا سادة البشر ، حين كانوا يعملون بكتابه ، وأنقذهم بذلك من النار ، فساعدوا بالحسنيين .

فانظر إلى آيات الله ، ودلائل قدرته ، كيف حول قوما متخاذلين تملأ قلوبهم الإحن والعداوات ، ويتربص كل منهما بالآخر ريب المنون — إلى جماعات متصافية القلوب ، مليئة بالحب والإخلاص ، وجهتهم جميعاً واحدة ، هى حكم الله ورفعة دينه ، ونشره بين البشر .

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) أى كما بين لكم ربكم فى هذه الآيات ما يضره لكم اليهود من غشكم ، وأمره إياكم بما أمركم به ، ونهيه لكم عما نهاكم عنه ، والحال التى كنتم عليها فى الجاهلية ، وما صرتم إليه فى الإسلام ، ليعرفكم فى كل ذلك مواقع نعمه — كذلك يبين سائر حججه فى تنزيله على لسان رسوله ، ليعدكم للاهتمام الدائم ، حتى لاتعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان . والاختلاف الذى يقع بين البشر ضربان :

(١) ضرب لايسلم منه الناس ، ولا يمكن الاحتراس منه ، وهو الخلاف

في الرأي والفهم ، وهو مما فطر عليه البشر ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » إذ أن العقول والأفهام ليست متساوية ، فالأسرة الواحدة تختلف أفهام أفرادها في الشيء الواحد ، كما يختلف حبهم له ، وميلهم إليه . وهذا ضرب لا ضرر فيه .

(٢) ضرب جدت الشرائع في هدمه ومحوه ، وهو تحكيم الرأي والهوى في أمور الدين وشئون الحياة .

وهاك مثلاً يتضح لك به ما تقدم — قد اختلف الأئمة المجتهدون في فهم كثير من نصوص الدين من كتاب وسنة ، وما كان في ذلك من حرج ، فمالك نشأ في المدينة ورأى ما كان عليه أهلها من صلاح وسلامة قلب ، فقال : إن عمل أهلها أصل من أصول الدين ، لأنهم تقرب عهدهم من النبي صلى الله عليه وسلم لا يتفقون على غير ما مضت عليه السنة في العمل ، وأبو حنيفة نشأ في العراق وأهلها أهل شقاق ونفاق ، فلم يجعل عملهم ولا عمل غيرهم حجة ، ولو اجتمع هذان الإمامان لعذر كل منهما صاحبه فيما رأى ، لأنه بذل جهده في بيان وجه الحق مع الإخلاص لله ، وإرادة الخير والطاعة لأمره ، ولكن جاءت بعد هؤلاء فرق من المسلمين قلبتهم فيما نقل عنهم ، ولم تقلدهم في سيرتهم ، وحكموا الرأي والهوى في الدين ، وتفرقوا شيعاً ، كل فريق يتعصب لرأى فيما وقع من أوجه الخلاف ، ويعادى الخالف له حتى حدث من ذلك ما نرى ، وما ذلك إلا لأن الحق لم يكن هو مطالب المتعصبين ، فليس من العقول أن أبا حنيفة أصاب في كل ما خالف فيه غيره من الأئمة ، وأن الشافعي ومالكا أخطأ في جميع ما خالفا فيه أبا حنيفة .

وإذا فكيف يمضى نحو أربعة عشر قرناً ولا يستبين لفقهاء مذهبه وجه الصواب في بعض المسائل الخلافية ، فيرجعون بعض آراء المذاهب الأخرى على مذهبه في تلك المسائل ، ويرجعون إلى الصواب فيها .

وهذا الضرب من الخلاف وهو تحكيم الرأى والهوى كان مصدر شقاء أم كثيرة فهوت بعد رفعتها ، وذلت بعد عزتها ، وضعفت بعد قوتها .

وقد حدث مثل هذا فى الفرق الإسلامية فى علم الكلام ، فإن أبدى أحدهم رأياً فى مسألة بادر مخالفه إلى الرد عليه ، وتفنيد مذهبه وتضليله ، ويقابله الآخر بمثل صنيعه ، ولو حاول كل منهما محادثة الآخر ، والاطلاع على أدلته ، ووزنها بميزان الإنصاف والحق لما حدث مثل هذا الخلاف ، بل اقتنع كل واحد منهما بما رأى مخالفه .

والمسلم ما دام محافظاً على نصوص دينه لا يخل بواحد منها ، مع احترامه لرسوله المفسر لكتابه لا يخرج من جماعة المسلمين لمخالفته سواه .

فإذا تحكّم الرأى والهوى ولعن بعضهم بعضاً ، وكفر بعضهم بعضاً ، فقد باء بها من قالها كما ورد فى الحديث .

وكذلك الحال فى الاختلاف فى المعاملة فى المسائل السياسية والدينية ، لا ينبغى أن يكون مفرقاً بين جماعة المؤمنين ، بل عليهم أن يرجعوا فى النزاع إلى حكم الله وآراء أولى العلم منهم ، وبذلك نتقى غائلة الخلاف ، ونكون فى وفاق ، ونصير ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

شرح المفردات

الأمة الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ، ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص ، والخير ما فيه صلاح الناس في الدين والدنيا ، والمعروف ما استحسنته الشرع والعقل ، والمنكر ضده ، وبيضاض الوجوه عبارة عن المسرة ، واسودادها عبارة عن المساءة ، وعلى هذا جاء قوله : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » بالحق أى بالأمر الذى له ثبوت وتحقق ولا مجال فيه للشبهات ، والظلم لغة وعرفا وضع الشيء في غير موضعه ، إما بنقصان أو بزيادة ، وإما ببدول عن وقته أو مكانه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله سبحانه المؤمنين فيما سلف بتكميل أنفسهم وتركيتها مما يشوبها من الأدناس والأرجاس ، بالعمل بتقوى الله ، والمحافظة على إخلاص الوجه له حتى الممات ، والاعتصام بحبل الله المتين يكون باتباع كتابه ، والجرى على سنة رسوله ، إذا اختلفت الأهواء ، وتضاربت الآراء .

أمرهم هنا بتكميل غيرهم من أفراد الأمة ، وحثهم على اتباع أوامر الشريعة ، وترك نواهيها ، تثبيتاً لهم جميعاً على مراعاة ما فيها من الأحكام ، والمحافظة على ما فيها من الشرائع والنواميس ، وأن يكون في نفوس أفرادها من حب الخير والحذب على ما فيه المصلحة لمجموعها ، ما يكون لحب الفرد لمصلحته ، وبذا تكون بينهم رابطة تجمعهم في طلاب الخير لهم جميعاً ، حتى تكون الأمة كأنها جسد واحد كما ورد

في الحديث « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسهر » رواه مسلم .
 وروى البخارى وغيره حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .
 والحافظ لوحدة الأمة ، ومناط بقاء جامعتها — أمر بعض أفرادها بعضاً بالاستمسك بالخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الإيضاح

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) أى ولتكن منكم طائفة متميزة تقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والمخاطب بهذا هم المؤمنون كافة فهم مكلفون بأن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة ، وذلك بأن يكون لكل فرد منهم إرادة وعمل في إيجادها ، ومراقبة سيرها على حسب الاستطاعة ، حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافاً أرجعوها إلى الصواب .
 وقد كان المسلمون في الصدر الأول على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة ، فقد خطب عمر على المنبر وكان مما قال : إذا رأيتم في أعوجاجاً فتقوموه ، فقام أحد رعاة الإبل وقال : لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .

وكان الخاصة من الصحابة متكاتفين في أداء هذا الواجب ، يشعر كل منهم بما يشعر الآخر من الحاجة إلى نشر لواء الإسلام وحفظه ، ومقاومة كل من يمس شيئاً من عقائده وآدابه ، وأحكامه ومصالح أهله ، وكان سائر المسلمين تبعاً لهم .
 ويجب فيمن يقوم بهذه الدعوة شروط ، ليؤدى وظيفته خير الأداء ، ويكون مثلاً صالحاً يحتذى به في عمله وعمله :

(١) أن يكون عالماً بالقرآن والسنة وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

(٢) أن يكون عالماً بأحوال من توجه إليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطباعهم وأخلاقهم ، أى معرفة أحوالهم الاجتماعية .

(٣) أن يكون عالماً بلغة الأمة التى يراد دعوتها ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة بتعلم العبرية لحاجته إلى محاوراة اليهود الذين كانوا يجاورونه ، ومعرفة حقيقة حالهم .

(٤) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم ، وبذلك يتيسر له معرفة ما فيها من باطل ، فإن الإنسان إن لم يتبين له بطلان ما هو عليه ، لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره وإن دعاه إليه .

وعلى الجملة فلا يقوم بهذه الدعوة إلا خواص الأمة العارفون بأمرار الأحكام ، وحكمة التشريع وفقهه ، وهم الذين أشار إليهم الكتاب الكريم بقوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » .

وهؤلاء يقومون بتطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد فى كل زمان ومكان على مقدار علمهم فى المساجد والمعابد والمنتديات العامة ، وفى المحافل عند سنوح الفرصة . فإذا هم فعلوا ذلك كثر فى الأمة الخير ، ونذر فيها وقوع الشر ، واثقلت قلوب أهلها ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ، وسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

وأمة هذه حالها تسود غيرها من الأمم باجتماع كلمتها ، واتفاق أهوائها ، إذ لا مطمح لها إلا رفعة شأن دينها ، وغزوة أبنائها ، وسيادتها العالم كله .

ولن يتم ذلك إلا إذا أعد أهلها للأمر عدته ، وكملوا أنفسهم بالمعارف والعلوم التى تحتاج إليها الأمم التى تبغى السعادة والرقى ، وتحلقوا بفاضل الأخلاق ، وحيد الصفات ، حتى يكونوا مثلاً علياً تحتذى ، ويشار إليها بالبنان . وإن ما أودع فى ديننا من هذا ، وما خلفه لنا السلف الصالح من الكنوز والثروة العالمية ، فيه غنىة

لمن يريد الخير والفلاح ، وقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن خير الناس فقال : أمرهم بالمعروف ، وأنهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم » .
وعنه أنه قال : « والذى نفسى بيده لتأمرنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم » .
وعن على كرم الله وجهه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ،
ومن غضب لله غضب الله له .

وبعد أن أمر سبحانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بين ما يجب أن تكون عليه الأمة الداعية ، الأمرة الناهية ، من وحدة المقصد ، واتحاد الغرض ، لأن الذين سبقوهم من الأمم لم يفلحوا لاختلاف نزعاتهم ، وتفرق أهوائهم ، لأن كلا منهم يذهب إلى تأييد رأيه ، وإرضاء هواه .

أما المتفقون في القصد ، فاختلافهم في الرأي لا يضيرهم ، بل ينفعهم إذ هو أمر طبيعي لا بد منه لتمحيصه وتبين وجوه الصواب فيه ، ومن ثم قال تعالى :
(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) أى ولا تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً ، تذهب كل شيعه منها مذهباً يخالف مذهب الآخر ، وتنصر مذهبها وتدعو إليه ، وتخطى ما سواه ، ولذا تعادوا واقتتلوا .

ولو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعتصم بحبل الله ، وتتجه إلى غاية واحدة ، لما تفرقوا ولا اختلفوا فيه ، ولما تعددت مذاهبهم في أصوله وفروعه ، وما قاتل بعضهم بعضاً — فلا تكونوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم .

(وأولئك لهم عذاب عظيم) وهذا العذاب يشمل خسران الدنيا ، وخسران الآخرة ، أما في الدنيا فلأن بأسهم يكون بينهم شديداً ، فيشقى بعضهم ببعض ، ويبتلون بالأمم التي تطمع في الضعفاء ، وتذيقهم الخزي والنكال ، وأما في الآخرة فعذاب الله أشد وأبقى .

وهذا الوعيد في الآية يقابل الوعد في الآية قبلها وهو قوله (وأولئك هم الفلاحون) فالفلاح فيها يشمل الفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) أى واذا كروا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه من حسن العاقبة ، وتسود وجوه لما ترى من سوء العاقبة ، وما يحل بها من النكال والوبال .

ونحو الآية قوله : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » وقوله : « وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا » وقوله : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَازِرَةٌ » وفى الحديث « إن أمتى يحشرون غرباً محجلين من آثار الوضوء » .

واستعمال البياض فى السرور والسواد فى الحزن عرف شائع لدى كل ناطق بالضاد ، ولا سيما وصف الكاذب بسواد الوجه كما قال شاعرهم :

* فتعجبوا لسواد وجه الكاذب *

والخلاصة — أن هؤلاء المختلفين المتفرقين لهم عذاب عظيم فى هذا اليوم كما تظاهرت على ذلك الآيات والأحاديث ، كما يكون لهم مثل ذلك فى الدنيا ، إذ هم لاختلاف مقاصدهم لا يتناصرون ولا يتعاونون ، ولا يآبهون بالأعمال التى فيها شرف الملة ، وعز الأمة ، فتسود وجوههم بالذل والكآبة حين يجنون ثمار أعمالهم ، وعواقب تفرقهم واختلافهم ، بغير الغاصب لهم ، وانتزاعه السلطة من أيديهم ، والتاريخ والمشاهدة شاهدا صدق على هذا .

أما المتفقون الذين اعتصموا وانتفقوا على الأعمال النافعة لخير الأمة وعزها ، وأصبح كل واحد منهم عوناً للآخر ، وناصراً له ، فأولئك تبيض وجوههم وتتألاً بهجة وسروراً حين تظهر لهم آثار اتفاقهم واعتصامهم ، بوجود السلطان والعزة والشرف ، وارتفاع المكانة بين الأمم .

ثم فصل سبحانه أحوال الفريقين فقال :

(فأما الذين اسودت وجوههم أ كفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى وأما الذين تفرقوا واختلفوا فاسودت وجوههم فيقال لهم هذا القول فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فلا بد أن يوجد فى الناس من يقول للأمة التى وقع فيها هذا الاختلاف — مثل هذا القول تغليظاً لها لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين ، وأما فى الآخرة فيوجبهم الله تعالى بمثل هذا السؤال .

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين فى الدين من الكفار والمشركين كما جاء فى قوله : « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » .

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقية من الكفر ، لأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، وهو ذو شعب كثيرة من أجلها تحرى العدل ، واجتناب الظلم ، فمن استرسل فى الظلم كان كافراً كما قال تعالى : « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . وكذلك من ترك الاتحاد والوفاق والاعتصام بجبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان .

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) أى وأما الذين ابيضت وجوههم باتحاد الكلمة ، وعدم التفرق فيكونون فى الدنيا خالدين فى النعمة ما داموا على تلك الحال ، وخالودهم فى الرحمة فى الآخرة أظهر .

(تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق) أى هذه الآيات تتلوها عليك مقرررة ما هو الحق الذى لا مجال للشبهة فيه ، فلا عذر لمن ذهب فى الدين مذاهب شتى ، واتبع سنن السابقين ، وجعل القرآن عضين .

فعلينا أن نستمسك بما به أمر ووعد عليه بالفوز والنجاح ، ونترك ما عنته نهى

وأوعد عليه بالعذاب الأليم ، حتى تكون أمة متفقة المقاصد ، متحدة فى الدين فنجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة .

(وما الله يريد ظلماً للعالمين) أى إن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه فإنما يريد به هدايتهم إلى ما يكمل فطرتهم ، ويتم به نظام جماعتهم ، فإذا هم فسقوا عن أمره حل بهم البلاء وكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بتفرقهم واختلافهم ، إلى نحو ذلك من الذنوب التى تفسد نظم المجتمع وتجعل أهله فى شقاء .

ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشا فيها فزحزحها عن الصراط المستقيم كما قال : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفى الظلم عنه تعالى فقال :

(ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور) أى إنه تعالى مالك العباد والمتصرف فى شئونهم على حسب سننه الحكيمة التى لا تغيير فيها ولا تبديل كما قال : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » وليس من أسباب ملكه شئ ناقص يحتاج إلى تمام فيتممه بظلم غيره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولأن الظلم ينافى الحكمة والكمال فى النظام وفى التشريع .

ومن حل عبده أو دوابه ما لا تطيق يقال إنه ظلمها ، ومن نقص امرأ حقها فقد ظلمه قال تعالى : « كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا » . وعلى الجملة — فالظلم الذى ينفيه تعالى عن نفسه هو ما ينافى مصلحة العباد وهدايتهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وبعبارة أخرى هو ما يخالف النظام والإحكام .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ

يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ
 أَيْنَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
 وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

شرح المفردات

كنتم : أى وجدتم وخلقتم ، أخرجت : أى أظهرت حتى تميزت وعرفت ، والأذى
 الضرايبير ، يولوكم الأذبار أى يهزموا ، والنلة هى الذل الذى يحدث فى النفوس من
 فقد السلطة ، وضربها عليهم هو إصاقها بهم وظهور أثرها فيهم ، كما يكون من
 ضرب السكة بما ينقش فيها ، وثقفوا وجدوا ، والحبل العهد ، وباءوا أى لبثوا وحلوا
 فيه من البوء وهو المكان ، ومنه تبوأ فلان منزلا كذا وبوأته إياه ، والاعتداء
 تجاوز الحد .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بالاعتصام بحبله ، وذكرهم بنعمته عليهم ، بتأليف قلوبهم
 بأخوة الإسلام ، وحذرهم من أن يكونوا مثل أهل الكتاب فى الترد والعصيان ،
 وتوعد على ذلك بالعذاب الأليم ، واستطرد بين ذلك بذكر من يبيض وجهه ومن
 يسود ، وبذكر شىء من أحوال الآخرة .

أردف ذلك بذكر فضل المتأخين فى دينه ، المعتصمين بحبله ، ليكون هذا باعثاً
 لهم على الانقياد والطاعة ، إذ كونهم خير الأمم مما يقوى داعيتهم فى ألا يفوتوا على
 أنفسهم هذه المزية ، وإنما يكون ذلك بالمحافظة على اتباع الأوامر وترك النواهي .

الإيضاح

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) أى أتم خير أمة فى الوجود الآن ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون إيماناً صادقاً يظهر أثره فى نفوسكم ، فيزعمكم عن الشر ، ويصرفكم إلى الخير ، وغيركم من الأمم قد غلب عليهم الشر والفساد ، فلا يأمرن بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً .

وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولاً وهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين كانوا معه وقت التنزيل ، فهم الذين كانوا أعداء ، فألف بين قلوبهم ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ، وكانوا يأمرن بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخاف ضعيفهم قلوبهم ، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم ، وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم ، فكانوا مسخرين لأغراضه فى جميع أحوالهم .

وهذا الإيمان هو الذى قال الله فى أهله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمِّمًا لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » وقال فيهم أيضاً « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما تركتهما إلا باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ومن حذا حذوهم .

وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مروان حين قال على المنبر : من قال لى اتق الله ضربت عنقه .

وما زال الشر يزداد ، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومما سلف تعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب الفضيلة ، كما تقول محمد كريم ، يطعم الناس ويكسوهم ، ويعني بشؤونهم .
وهذه الصفات وإن شاركتها فيها سائر الأمم ، فهي لم تكن فيها على الوجه الذي لهذه الأمة ، فالأمر بالمعروف كان فيها على أكد وجوهه وهو القتال إذا دعت إليه الحاجة ، وقد يحصل بالقلب واللسان ، ولكن أقوا ما كان بالقتال لأنه إلقاء للنفس في خطر الهلاك .

وأعظم المعروفات الدين الحق ، والإيمان بالتوحيد والنبوة ، وأنكر المنكرات الكفر بالله ، ومن ثم كان فرض الجهاد في الدين يحتمل الإنسان أعظم المضار لإيصال غيره إلى أعظم المنافع ، وتخليصه من أعظم الشرور ، لهذا كان عبادة من العبادات ، بل كان أجلها وأعظمها ، وهو في ديننا أقوى منه في سائر الأديان .

لاجرم كان ذلك موجبا لفضل هذه الأمة على سائر الأمم ، وهذا ما عناه ابن عباس بقوله في تفسير هذه الآية أى تأمر ونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويقروا بما أنزل الله ، وتقاتلونهم عليه ، ولا إله إلا الله أعظم المعروف ، والتكذيب أنكر المنكرات .

والخلاصة — أن هذه الخيرية لاثبتت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة ، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية ، ومن ثم أكد الأمر بهذه الفريضة في آيات هذه السورة بما لم يعرف له نظير في الكتب السابقة .

وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر ، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأنهما سياج الإيمان وحفاظه ، فكان تقديمهما في الذكر موافقا للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدما عليه .

(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) أى ولو آمنوا إيماناً صحيحاً يستولى على النفوس ، ويملك أزيمة القلوب ، فيكون مصدر الفضائل والأخلاق الحسنة ، كما تؤمنون — لكان ذلك خيراً لهم مما يدعونهم من إيمان لا يزرع النفوس عن

الشرور ، ولا يبعدها عن الرذائل ، إذ هو لم يؤت ثمرات الإيمان الصحيح الذى يحبه الله ورسوله ، ولا كان أثرا من آثاره الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر .

وبهذا تعلم أن الإيمان المنفى عنهم إيمان خاص له تلك الآثار التى تقدمت ، لا الإيمان الذى يدعيه كل من له دين وكتاب ، كما أنه إنما نفاه عن أكثر أفراد الأمة ، وأنهم هم الذين فسقوا وخرجوا عن حقيقة الدين ، ولم يبق عندهم إلا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة — لا عن جميعها ، إذ لا تخلو أمة ذات دين سماوى من هذا الإيمان ، ومن ثم قال :

(منهم المؤمنون وأكثرم الفاسقون) أى منهم المؤمنون المخلصون فى عقائدهم وأعمالهم كعبد الله بن سلام ورهطه من اليهود ، والنجاشى ورهطه من النصارى ، وأكثرم فاسقون عن دينهم متمردون فى الكفر .

وما من دين إلا يوجد فيه الغالون والمعتدلون والمفرطون المائلون إلى الفسوق والعصيان .

ويكثر الاستمساك بالدين فى أوائل ظهوره ، كما يكثر الفسق بعد طول الأمد عليه ، كما قال تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

ولم يحكم الدين على أمة حكما عاما بالفسق والضلال ، بل تارة يعبر بالكثير ، وأخرى بالأكثر كقوله فى بنى إسرائيل « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » وقوله فى النصارى واليهود « مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ » .

وعلى الجملة فالقرآن إذا عرض لوصف الأمم وبيان عقائدها وأخلاقها ، وزن ذلك بميزان دقيق يتحرى فيه ذكر الحقيقة مجردة عن كل مغالاة أو مبالغة بما لم يعهد مثله فى كتاب آخر .

فلو تصفحنا الأحكام التي حكم بها على أهل الكتاب ، وعرضناها على علماءهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم لقالوا إنها الحق الصراح .

(لن يضروكم إلا أذى) أى إن هؤلاء الفاسقين لا يقدرّون على إيقاع الضرر بكم بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح ، والظعن في الدين ، وإلقاء الشبهات وتحريف النصوص ، والخوض في النبي صلى الله عليه وسلم .

(وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) أى وإن يقابلوكم في ميدان القتال ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء ، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله ويستدبره في هربه منه ، فيكون قفاه إلى وجه من انهزم منه .

(ثم لا ينصرون) أى ثم إنهم لا ينصرون عليكم أبداً ماداموا على فسقهم ، ودمتم على خير يتكّم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

وفي الآية ثلاث بشارات من أخبار الغيب تحققت كلها ، وقد صدق الله وعده .

ومما سبق تعلم أن هذا الحكم إنما يثبت لهم إذا حافظوا على نصر الدين بنصر دينه كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » وكما قال في وصف المؤمنين المجاهدين « الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » .

(ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أى إنهم أزموا الذلة فلا خلاص لهم منها ، فخالهم معكم أنهم أذلاء مهضومو الحقوق رغم أنوفهم ، إلا بعهد من الله وهو ما قرّره الشريعة إذا دخلوا في حكمها من المساواة في الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء ، وعهد من الناس وهو ما تقتضيه المشاركة في المعيشة ، من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم في بعض الأمور ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسن معاملتهم ويقترض منهم ، وكذلك الخلفاء الراشدون .

والخلاصة — أن هؤلاء لا عزة لهم في أنفسهم ، لأن السلطان والملك قد قددا

منهم ، وإنما تأتيتهم العزة من غيرهم بهذين العهدين ، العهد الذى قرره الله ، والعهد الذى تواطأ عليه الناس .

(وباءوا بغضب من الله) أى وصاروا مستحقين غضب الله مستوجبين سخطه ، وأحاطت بهم المسكنة والصغار ، فهم تابعون لغيرهم يؤدون ما يضر عليهم من المال وادعين ساكنين .

وهذا الوصف صادق على اليهود إلى اليوم فى كل بقاع الأرض . وقد ارتفع الذل عنهم فى بلاد الإسلام بحبل من الله وهو ما ذكرناه فيما سلف من وجوب معاملتهم بالمساواة واحترام دماءهم وأعراضهم وأموالهم والتزام حمايتهم والذود عنهم بعد إنقاذهم من ظلم حكامهم السابقين ، وبحبل من الناس كما تقدم بيانه . وأما ارتفاع المسكنة بأن يكون لهم ملك وسلطان يوما ما ، فالقرآن ينفيه عنهم ، لأنه لم يستثن من ذلك شيئا ، كما استثنى فى الذلّة ، فاقضى بقاء ذلك عليهم إلى الأبد لكنهم يقولون إنهم مبشرون بظهور مسيح (مسيا) فيهم ومعناه ذو الملك والشرعية ، والنصارى يقولون : إن هذا الموعود به هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، والمراد بالملك الملك الروحانى .

والشاهد أنهم متفرقون فى أقطار الأرض على قلتهم ، منصرفون عن فنون الحرب وأعمالها ، بعيدون عن الزراعة ومتعلقاتها ، لعنايتهم بجمع المال من أيسر سبله ، وأكثرها نماء ، وأقلها تعباً وعناء ، وهو الربا .

وقد ذكر الله سبب ذلك وعلته فقال :

(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق) أى ذلك الذى ذكر من ضرب الذلّة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم للغضب الإلهى بسبب كفرهم ، وقتلهم النبيين بغير حق تعطيتهم إياه شريعتهم .

وفى النص على أن ذلك بغير حق مع أنه لن يكون إلا كذلك تشنيع عليهم ،

وإثبات لأن ذلك حدث عن عمد لا عن خطأ ، ثم أشار إلى سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال :

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى أنه ما جرأهم على ذلك إلا سبق المعاصى ، واعتداؤهم على حدود الله ، والاستمرار على الصغائر يفضى إلى الوقوع فى الكبائر . فمن جعلها ديدناً له واتخذها عادة وصل به ذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء المرشدين . وقتل الأنبياء وإن كان لم يصدر من اليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل ، بل كان من أسلافهم ، لكنهم لما كانوا راضين به مصوّبين من نسب إليهم ، إذ صار خلقاً لهم يتوارثه انخلف عن السلف ، والأبناء عن الآباء . والأمم متكافئة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيها ، وإن ظهر بعض آثاره فى زمن دون آخر .

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

شرح المفردات

يقال فلان وفلان سواء أى متساويان ، ويستعمل للواحد والمثنى والجمع فيقال هما سواء وهم سواء ، وقائمة أى مستقيمة عادلة من قولك أقت العود فقام أى استقام ، والتلاوة القراءة وأصلها الإتيان ، فكأنها إتيان اللفظ اللفظ ، وآيات الله هى القرآن ، والآناء الساعات واحدها أنى كهصا أو أنى كطبي أو إنو كجرو ، ويسجدون أى يصلون ، والمسارة فى الخير فرط الرغبة فيه ، فلن يكفروه أى يمنعوا ثوابه .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه أهل الكتاب فيما تقدم بذم الصفات ، وقبيح الأعمال ، وذكر الجزاء الذى استحقوه بسوء عملهم ، أعقبه ببيان أنهم ليسوا جميعاً على تلك الشاكلة ، بل فيهم من هو متصف بحميد الخلال وجميل الصفات .

الإيضاح

(ليسوا سواء) أى ليس أهل الكتاب متساوين فى تلك الصفات القبيحة ، بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ، وهذه الجملة كالتأكيـد لتلك .

وبعد أن وصف الفاسقين وذكر سوء عملهم — بين وصف المؤمنين ومدحهم بثمانية أوصاف كل منها منقبة ومفخرة يستحق فاعلها الثواب عليها .

١ — (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى منهم جماعة مستقيمة على الحق ، متبعة للعدل ، لا تنظم أحداً ، ولا تخالف أمر الدين ، وكان من تمام الكلام أن يقال ومنهم أمة مذمومة ، إلا أن العرب قد تذكر أحد الضدين وتستغنى به عن ذكر الآخر كما قال الشاعر :

دعاني إليها القلب إني لأمرها مطيع فما أدري أرشدُّ طلائِئها
يريد أم غي .

وهذه الجملة مبينة لعدم التساوى مزيلة لإيهامه .

والمراد بهذه الأمة جماعة من اليهود أسلموا كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم كما رواه ابن جرير عن ابن عباس ، وقال فى تفسير الآية : الأمة القائمة أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . وروى عن قتادة أنه كان يقول فى الآية : ليس كل القوم هلك ، قد كان لله فيهم بقية .

وهذه الآية حجة على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء ، وأن من أخذه مذعناً ، وعمل به مخلصاً ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر فهو من الصالحين . كما أن فيها استمالة لأهل الكتاب ، وتقديراً للعدل الإلهي ، وقطعاً لاحتجاج من يعرفون الإيمان والإخلاص ، إذ لولا هذا النص لكان لهم أن يقولوا : لو كان هذا القرآن من عند الله لما ساوانا بغيرنا من الفاسقين .

واستقامة بعضهم على الحق من دينهم لا ينافي ضياع بعض كتبهم ، وتحريف بعضهم لما في أيديهم منها ، ألا ترى أن من يحفظ بعض الأحاديث ويعمل بما علم ، ويستمسك به مخلصاً فيه — يقال إنه قائم بالسنة عامل بالحديث .

٣،٢ — (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) أى يتلون القرآن بالليل وهم يصلون متهمجين ، وخص السجود بالذكر من بين أركان الصلاة لدلالته على كمال الخضوع والخشوع .

٥،٤ — (يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى يؤمنون بإيمان إذعان بهما على الوجه المقبول عند الله ، ومن ثمرات ذلك الخشية والخضوع والاستعداد لذلك اليوم ، لا إيماناً لاحظ لصاحبه منه إلا الفرور والدعوى ، كما هو حال سائر اليهود ، إذ يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولكنه إيمان هو والعدم سواء ، لأنهم يقولون عزيز ابن الله ، ويكفرون ببعض الرسل ويصفون اليوم الآخر بخلاف صفته .

ولما كان كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير للعمل به ، وكان أفضل الأعمال الصلاة ، وأفضل الأذكار ذكر الله ، وأفضل العلوم معرفة المبدأ والمعاد — وصفهم الله بقوله : (يتلون آيات الله) للدلالة على أنهم يعملون صالح الأعمال ، وبقوله : (يؤمنون بالله) للإشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم .

٦ — (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أى أنهم بعد أن كلوا أنفسهم علماء وعملاً كما تقدم ، يسعون في تكميل غيرهم إما بإرشادهم إلى ما ينبغى بأمرهم بالمعروف ، أو بمنعهم عما لا ينبغى بالنهي عن المنكر .

وفي هذا تعريف باليهود المداهين الصادين عن سبيل الله .

٧— (ويسارعون في الخيرات) أى يعملون صالح الأعمال راغبين فيها غير متشاكين ، علماء منهم بجلالة موقعها ، وحسن عاقبتها ، وإنما يتباطأ الذين في قلوبهم مرض كما وصف الله المنافقين بقوله : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ » .

وهذه الصفة جماع الفضائل الدينية والخلقية ، وفي ذكرها تعريف باليهود الذين يتشاكون عن ذلك .

وعبر بالسرعة ولم يعبر بالعجلة ، لأن الأولى التقدم فيما ينبغى تقديمه وهى محمودة ، وضدها الإبطاء ، والثانية التقدم فيما لاينبغى أن يتقدم فيه ، ومن ثم قال عليه السلام « العجلة من الشيطان ، والتأنى من الرحمن » : وضدها الأناة وهى محمودة .

٨— (وأولئك من الصالحين) أى وهؤلاء الذين انصفوا بجميل الصفات من الذين صلحت أحوالهم ، وحسنت أعمالهم ، فرضيهم ربهم ، وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا فيمن أسلم منهم : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره .

والوصف بالصلاح هو غاية المدح ، ونهاية الشرف والفضل ، فقد مدح الله به أكبر الأنبياء كما سماعيل وإدريس وذى الكفل فقال : « وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ » وقال حكاية عن سليمان : « وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

ولأنه ضد الفساد وهو ما لاينبغى فى العقائد والأفعال ، فهو حصول ما ينبغى فى كل منهما ، وذلك منتهى الكمال ورفعة القدر وعلو الشأن .

(وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أى وما يفعلوا من الطاعات فلن يجرموا ثوابه ولن يستر عنهم كأنه غير موجود .

ولما سمي الله إنايته للمحسنين شكراً فى قوله : « فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »

وسمى نفسه شاكرًا في قوله : « فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » حسن أن يعبر عن عدم الإثابة بالكفر .

وهذه الجملة جاءت ردا على اليهود الذين قالوا لمن أسلم منهم : أنتم خسرتم بسبب هذا الإيمان ، وإشارة إلى أنهم فازوا بالسعادة العظمى ، والدرجات العليا .
وفيهما تعظيم لهم ليزيل من صدورهم أثر كلام أولئك الأوغاد .
(والله عليم بالمتقين) فهو يجزى العاملين على حسب ما يعلم من أحوالهم ، وما تنطوى عليه سرائرهم .

فمن كان إيمانه صحيحاً واتفق الله فاز بالسعادة .

وهذا كالدليل على ما قبله ، لأن عدم الإثابة إما للسهو والنسيان ، وإما للجهل وذلك ممتنع في حقه ، لأنه عليم بكل شيء ، وإما للعجز أو البخل أو الحاجة ، وذلك محال عليه ، لأنه خالق جميع الكائنات ، وهو القادر على كل شيء .
ولما انتفى كل هذا كان المنع من الجزاء محالا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

شرح المفردات

تغنى أى تجزى وتنفع ، ومثل الشيء مثله وشبهه ، والصر (بالكسر) والصره البرد الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أحوال الكافرين ، وما يحيق بهم من العقاب ، وأحوال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب ، جامعاً بين الزجر والترغيب ، والوعد والوعيد ، ثم وصف من آمن من الكفار بتلك الخلال الحسنة والمفاخر التي عددها لهم — أتبع ذلك بوعيد الكفار وتبئيسهم بأنهم لن يجدوا يوم القيامة ما يدفع عنهم عذابه ، ثم أرفده ببيان أن ما يفتقونه في هذه الحياة الدنيا في لذاتهم وجاههم وتأيد كلتهم لا يفيدهم شيئاً كزرع أصابته ريح فيها صرّ فأهلكته ، فلم يستفد أصحابه منه شيئاً .

الإيضاح

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) أى إن الذين كفروا من أهل الكتاب ومشركى مكة وغيرهم ممن كانوا يعيرون النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه بالفقر ، ويقولون : لو كان محمد على الحق ما تركه ربه في هذا الفقر الشديد ، ويتفاخرون بكثرة الأموال والأولاد كما حكى الله عنهم « نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ » لن تنفعهم هذه الأموال والأولاد يوم القيامة ، واقتصر على ذكرهما ، لأنهما من أعظم النعم ، ومن كان يرتع في بجموحة هذه النعم فقلما يوجه نظره إلى طلب الحق ، أو يصفى إلى الداعى إليه ، ومن ثم تراه يتخبط في ظلام دامس حتى يتردى في الهاوية ، ويقع في المهالك ، ولا ينفعه مال ولا ولد « يَوْمَ تَذْهَبُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ » ، يوم يوضع الميزان ويحاسب كل امرئ على التقير والقطمير .

ونحو الآية قوله : « وَاتَّقُوا يَوْمَ مَا لَاتُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً » وقوله : « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ » وقوله : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى » .

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى أولئك الملازمون للنار لا ينفكون عنها ، لأن ظلمة أرواحهم ، وفساد عقائدهم ، وسوء أعمالهم ، اقتضت خلودهم فى تلك الهاوية المظلمة المستعرة التى وقودها الناس والحجارة ، قد أعدت لكل من جحد بآيات ربه ، وأعرض عن دعوة أنبيائه ورسله ، ولم يصغ إلا لداعى الهوى والشهوات . وبعد أن أبان أن أموالهم لا تغنى عنهم شيئاً ، ذكر أن ما ينفقونه من المال فى سبيل الخير لا يجديهم ليزيل ما ربحوا بالبال من أنهم ينتفعون به وضرب لذلك مثلاً فقال :

(مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فى صحرٍ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) أى إن ما ينفقونه فى اللذات ، ونشر الصيت ، واكتساب الشهرة ، وتأيد الكلمة ، فيصددهم عن سبيل الله ، ويفسد عقولهم وأخلاقهم التى هى عماد المنافع كمثل ريح باردة أصابت حرث قوم فأهلكته .

وخلاصة ذلك — أن حالهم فيما ينفقون وإن كان فى الخير كحال الريح الشديدة البرد التى تهلك الزرع ، فهؤلاء لا يستفيدون من نفقتهم شيئاً ، كما أن أصحاب ذلك الزرع كذلك .

فهم إذا أنفقوا أموالهم فى بناء الحصون والقلاع لصد العدو ، وإقامة القناطر لحفظ المياه وأمن الطريق ، وفى الإحسان إلى الضعفاء واليتامى وذوى الحاجات ، ورجوا من ذلك الثواب الجزيل ، ثم قدموا إلى الآخرة ورأوا كفرهم قد أبطل آثار ذلك الخير ، كانوا كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعاً كثيراً ، فأصابت به ريح فأحرقته ، فلا يبقى له إلا الحسرة والندامة ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » وقوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَیًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » .

وجماع هذا كله قوله : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » .

ومما سلف تعلم أن هذا المثل ضرب لخيبتهم فى الآخرة ، وليس بالبعيد أن يكون أيضاً مثلاً لخيبتهم فى الدنيا .

ذاك أنهم أنفقوا الأموال الكثيرة فى جمع العساكر ، وتحملوا المشاق ، ثم انقلب الأمر عليهم ، فأظهر الله الإسلام وقواه ، فلم يبق للكفار من ذلك الإنفاق إلا الخيبة والحسرة .

وقد جعل الله هذا الحرث لقوم ظلموا أنفسهم ، لإفادة أن المنفقين لا يستفيدون منه شيئاً ، إذ حرث الكافرين الظالمين هو الذى يذهب بلا منفعة فى الدنيا ولا فى الآخرة .

أما حرث المسلم المؤمن فهو وإن ذهب حساً فهو لا يذهب معنى ، لما فيه من الثواب بالصبر على ما يصيبه من النكبات والأحزان .

والخلاصة — أن الجوائح قد تنزل بأموال الناس من حرث ونسل عقوبة لهم على ذنوب اقترفوها ، إذ لا يستنكر على القادر الحكيم الذى وضع السنن وربط الأسباب بمسبباتها فى عالم الحس ، أن يوفق بينها وبين سننه الخفية فى إقامة ميزان القسط بين الناس ، لهدايتهم إلى مابه كالمهم من طريق العلوم الحسية التى تستفاد من النظر والتجربة ، ومن طريق الإيمان بالغيب الذى يرشد إليه الوحي الإلهى .

ونحن نسمى ما يترتب عليه حدوث الشئ سبباً له ، وما يلبس السبب من النفع لبعض والضرر لآخرين حكمة له ، وكل ذلك مقصود للفاعل الحكيم .

(وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمهم الله بعدم انتفاعهم بنفقاتهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم بإنفاق الأموال فى السبل التى تؤدى إلى الخيبة والخسران على النهج الذى سنه الله فى أعمال الإنسان .

والآية نزلت فيما كان ينفقه أهل مكة ، أو ينفقه اليهود فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ومقاومته ، لأنهم هم الذين اختاروا ذلك لأنفسهم ، ولم يضروا النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، بل كان ذلك سبب سيادته عليهم ، وتمكنه منهم .

وقيل إنها نزلت فيما كان ينفقه المنافقون في بعض طرق البر رياء وسمعة أو تقيّة.
وقيل إن المثل ينطبق على الكافرين الذين ينفقون أموالهم في طرق البر رغبة
في الخير ، لأن شرط الثواب على تلك الأعمال الإيمان ، وقد ظلموا أنفسهم بترك
النظر في الدلائل بعد ما ظهرت ، أو بالجحود بعد النظر وإقامة الحجّة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآءِ نَسَمُ أَوْلَاءَ الْمُحِبِّونَهُمْ
وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُواكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا
خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُؤْتُوا بَعِيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ ، وَإِنْ
تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ حَيِّطٌ (١٢٠)

شرح المفردات

بطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره ، مأخوذة من بطانة الثوب للوجه
الذي يلي البدن ، ويسمى الوجه الظاهر ظهارة ، وهي تستعمل للواحد والجمع مذكراً
ومؤنثاً ، ومن دونكم أى من غيركم ، ويألونكم من ألا في الأمر يألو إذا قصر فيه ،
ويقال لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً أى لا أمنعك نصحاً ، ولا أنقصك
جهداً ، والخبال النقصان ، ومنه رجل مخبول ومخبل ومختبل إذا كان ناقص العقل ،
والفساد ، ومنه قوله تعالى : « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » أى فساداً

وضرراً ، ووددت كذا أى أحببته ، والعنت المشقة ، والبغضاء شدة البغض كالضراء شدة الضر ، والكتاب هنا المراد به جنس الكتب كما يقال كثر الدرهم فى أيدى الناس ، وعض الأنامل يراد به شدة الغيظ أحياناً ، كما يراد به الندم أحياناً أخرى ، وذات الصدور الخواطر القائمة بالقلب ، والدواعى التى تدعو إلى الأفعال ، أو الصوارف التى تدفعها عنه ، والمس أصله ما كان باليد كاللمس ، ثم سمي كل ما يصل إلى الشئ مساً ، فقالوا من التعب والنصب قال تعالى : « وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » وقال : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ » والحسنة المنفعة حسية كانت أو معنوية كصحة البدن والفوز بالغنيمة ، وأعظمها انتشار الإسلام وحصول الألفة بين المسلمين والسيئة الفقر والمهزيمة وحصول التفرقة بين الأقارب ، من ساء يسوء بمعنى قبح فهو سىء والأثى سيئة قال تعالى : « سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » والكيد الاحتيال لإيقاع غيرك فى مكروه ، والمحيط بالشيء هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، ويراد به فى حق الله العلم بدقائقه وتفصيل أجزائه ، فلا يعزب عنه شئ منه ، قال تعالى : « وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » وقال : « وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » .

المعنى الجملى

كانت الآيات السالفة حجاجاً مع أهل الكتاب والمشركين ، وإلزامهم بالحجة ، وبياناً لأحوال المؤمنين ، وتذكيراً لهم بما يكون من سوء العاقبة يوم القيامة ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والكلام فى هذه الآيات تحذير للمؤمنين من مخالطة الكافرين مخالطة تدعو إلى الإباحة بالأسرار ، والاطلاع على شئون المسلمين ، مما تقضى المصلحة بكتامه ، وعدم معرفة الأعداء له .

ومادعا إلى هذا النهى أنه كانت بين المؤمنين وغيرهم صلوات خاصة تدعو إلى الإباحة بالأسرار إليهم كالنسب والمصاهرة والرضاعة والعهد والمخالفة — إلى أن من

طبيعة المؤمن أن يبني أمره على اليسر والأمانة والصدق، ولا يبحث عن عيوب غيره. ولكن لما كان همّ المناصبين من أهل الكتاب والمشرّكين إطفاء نور الدعوة، وإبطال ما جاء به الإسلام، والمسامون لم يكن لهم غرض إلا نشر هذه الدعوة بسائر الوجوه التي يرونها كفيلة بإعلاء كلمة الدين — اختلف المقصدان، وافترق الغرضان، فلم يكن من الحزم أن يفضى الإنسان بسرّه إلى عدوه، ويطلعه على خططه التي يدبرها للفوز ببيغيته على أكمل الوجوه وأحكمها، وأقرّبها للوصول إلى الغرض، ومن ثمّ حذر الله المؤمنين من اطلاع أعدائهم على أسرارهم، لما في ذلك من تعريض مصلحة الملة للخبال والفساد.

أخرج ابن إسحق وغيره عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزّل الله فيهم هذه الآية ينهاهم عن مبايعتهم خوف الفتنة.

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يألونكم خبالاً، ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر) أى لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين كاليهود والمنافقين أولياء وخواص لكم دون المؤمنين، إذا كانوا على تلك الأوصاف التي ذكرت في هذه الآية:

(١) أنهم لا يألونكم خبالاً أى لا يقصرون في مضرّكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

(٢) أن يمتنوا ضرّكم في دينكم ودنياكم أشدّ الضرر.

(٣) أن يبدوا البغضاء بأفواههم، ويظهروا تكذيب نبيكم وكتابكم، وينسبواكم إلى الحق والجهل، ومن اعتقد حق غيره وجهله لا يجبه.

(٤) أن يكون الذى يظهر على لسانهم من علامات الحقد أقل مما في قلوبهم منه.

فهذه الأوصاف شروط في النهى عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين ، فإذا اعتراها تغير وتبدل كما وقع من اليهود ، فبعد أن كانوا في صدر الإسلام أشد الناس عداوة للذين آمنوا - انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط إذ صاروا عوناً للمسلمين على الروم في فتح مصر - فلا يمانع حينئذ من اتخاذهم أولياء و بطانة للمسلمين فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم ، وجرى الخلفاء من بعده على ذلك ، إلى أن نقل عبد الملك بن مروان الدواوين من الرومية إلى العربية .

وعلى هذه السنة جرى العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في نوط أعمال الدولة باليهود والنصارى حتى العصر الحاضر ، فإن كثيراً من سفراء الدولة العثمانية ووكلائها من النصارى ،

ومع كل هذا يرمينا الأجانب بالتمصب ، ويقولون : إن الإسلام لا تساهل فيه وهذا النهى المقيد بتلك الأوصاف شبيه بالنهى عن اتخاذ الكفار أنصاراً وأولياء في قوله : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تُوَلُّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

(قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) أى قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التى يتميز بها الولى من العدو ، ومن يصح أن يتخذ بطانة ، ومن لا يصح أن يتخذ لخياسته ، وسوء عاقبة مباطنته ، إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات التى تفرق بين الأعداء والأولياء ، وتعلمون قدر مواضع الله وحسن عواقبها .

ثم ذكر نوعاً آخر من التحذير عن مخالطة الكافرين واتخاذهم بطانة ، وفيه تنبيه لهم على خطئهم فى ذلك ، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعى الكف عن مخالطتهم .

(١) (هاأتم أولاء تجبونهم ولا يحبونكم) إى إنكم تحبون هؤلاء الكفار الذين هم أشد الناس عداوة لكم ، ولا يقصرون فى إفساد أمركم ، وتمنى عنتم ويظهرون لكم العداوة والغش ويتربصون بكم ريب المنون ، فكيف بكم توادونهم وتواصلونهم .
 وحب المؤمنين لهم وهم على تلك الشاكلة من أقوى البراهين على أن هذا الدين دين رحمة وتساهل ، لا يمكن أن يتصور ما هو أعظم منه فى ذلك .

(٢) (وتؤمنون بالكتاب كله) أى إنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب ، سواء منها ما نزل عليكم وما نزل عليهم ، فليس فى نفوسكم جحد لبعض الكتب الإلهية ، ولا للنبیین الذين جاءوا بها ، حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب - أما هم فيجحدون بعض الكتب وينكرون بعض النبیین .
 وخلاصة هذا - أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابتهم وكتابكم ، فبالكم لو كنتم لا تؤمنون بكتابتهم ، كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحرى ببغضهم ، ومع هذا تجبونهم ولا يحبونكم .

قال ابن جرير : فى الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين ، أعنى المؤمنين والكافرين ، ورحمة أهل الإيمان ورافقتهم بأهل الخلاف لهم ، وتساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان .

قال قتادة : فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه (أفناه وأهلكه) اه
 وفى هذا توبيخ للمؤمنين بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حنكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّهُمْ يَا لَمُونَ كَمَا تَأْمُونَ وَتَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ » .
 (٣) (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أى وإذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنوا لهم القول حذرا على أنفسهم منهم ، فقالوا آمنا وصدقنا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا هم صاروا فى خلاء حيث لا يراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغليظ منهم ،

حتى ليبلغ الأمر إلى عض الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه .

وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، وصالح ذات بينهم ، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلا إلى التشفى منهم ، فاضطروا إلى مداراتهم .

(قل موتوا بغيظكم) هذا دعاء عليهم بازدياد الغيظ حتى يهلكوا ، كقولهم : دم بعز ، وبت قرير عين ونحو ذلك ، والمراد بذلك ازدياد قوة الإسلام وعز أهله . وفي هذا عبرة للمسلمين لعلهم يتذكرون ، فيعلموا أن ما حل بهم من الأرزاء ما كان إلا بزوال هذا الاجتماع ، والتفرق بعد الاعتصام .

(إن الله عليم بذات الصدور) فيعلم ما تنطوى عليه صدوركم من البغضاء والحقد والحسد ، ولا يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم ، وما يبديه بعضكم لبعض من تدبير المكائد ونصب الحيل للمؤمنين ، وما تنطوى عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم ، ويجازي كلا على ما قدم من خير أو شر ، واعتقد من إيمان أو كفر . (إن تمسكم حسنة تسؤم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) أي إذا نالكم خير كالتصاركم على أعدائكم المقاومين لدعوتكم ، ودخول الناس في دين الله أفواجا أحزنهم ذلك وعز عليهم .

وإن نالتكم مساءة كالإخفاق في حرب ، أو إصابة عدو لكم ، أو حدوث اختلاف بين جماعتكم فرحوا بذلك .

قال قتادة في بيان ذلك : فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً ، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك ، وأعجبوا به وابتهجوا ، وهم كلما خرج منهم قرآن أكذب الله أحداثته ، وأوطأ محلته ، وأبطل حجته ، وأظهر عورته ، وذلك قضاء الله فيمن مضى منهم ، وفيمن بقي إلى يوم القيامة .

(وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) أى وإن تصبروا على مشاق التكليف ، فتمثلوا الأوامر ، وتتقوا كل ما نهيتهم عنه وحظر عليكم — ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة — فلا يضركم كيدهم ، لأنكم قد وفيتم لله بعهد العبودية ، فهو يفي لكم بحق الربوبية ، ويحفظكم من الآفات والخافات كما قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فاجتهد في اكتساب الفضائل .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر في كل مقام يشق على النفس احتماله ، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده وعشيرته ، ومعامله وقريبه مما يشق عليه ، فإن من لذات النفوس أن تفضى بما في الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به .

ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم من خطائهم وعشراتهم وحلفائهم لما بدا منهم من البغضاء والحسد — حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم ، وابتغاء ما يجب اتقاؤه للسلامة من عواقب كيدهم .

وفي الآية عبرة للمسلمين في معاملة الأعداء ، فإن الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين ، وابتغاء شرهم ، ولم يأمرهم بمقاولة الشر بمثله ، إذ من دأب القرآن ألا يأمر إلا بالحبمة والخير ، ودفع السيئة بالحسنة كما قال : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

فإن تعذر تحويل العدو إلى محب ، بدفع سيئاته بما هو أحسن منها — جاز دفع السيئة بمثلاً من غير بغى ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع بنى النضير ، فإنه حالفهم ووادهم فنكثوا العهد وخانوا وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب ، وحاولوا قتله ، فلم يكن هناك وسيلة لعلاجهم إلا قتالهم وإجلاؤهم من ديارهم .

(إن الله بما يعملون محيط) أى إنه تعالى عالم بعمل الفريقين ، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما ، ومقدماته ، ونتائجها وغاياتها ، فهو الذى يعتمد على إرشاده

في معاملة أحدهما للآخر ، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعمله ذلك المحيط بعمله ، وعمل من يناهضه ، ويناصبه العداوة ، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلة للوصول إلى أغراضهم ومآربهم .

وهذه الجملة كالعلة لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح .

وخلاصة المعنى — إن الله قد دللكم على ما ينجيكم من كيد أعدائكم ، فعليكم أن تمتثلوا وتعلموا أنه محيط بأعمالهم ، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بكم ، فثقوا به ، وتوكلوا عليه .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

شرح المفردات

غدا خرج غدوة — والغدوة والغداة ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس —
وتبوى أى تهى وتسوى ، والمقاعد واحدها مقعد مكان القعود والمراد المواطن
والمواقف ، والهلم حديث النفس وتوجهها إلى الشيء ، والطائفتان الجماعتان وهما
بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار أن تفشلا : أى تضعفا وتجبنا ، ولهما أى ناصرهما ،
والتوكل من وكل فلان أمره إلى فلان إذا اعتمد عليه فى كفايته ولم يتوله بنفسه ،
والأذلة واحدهم ذليل وهو من لامنعة له ولا قوة ، وقد كانوا قليلي العدة من السلاح
والدواب والزاد ، والكفاية سد الحاجة وفوقها الغنى ، والإمداد إعطاء الشيء حالا
بعد حال ، بلى كلمة للجواب كنعم ، لكنها لاتقع إلا بعد النفي وتفيد إثبات ما بعده ،
والفور الحال التى لا بقاء فيها ولا تراخى ، فعنى من فورهم أى من ساعتهم بلا إبطاء ،
ومسومين (بكسر الواو) من قولهم سوّم على القوم أى أغار عليهم ففتك بهم ، وقيل
من التسويم بمعنى إظهار سبب الشيء وعلامته أى معلمين أنفسهم أو خيلهم ، وطرفا
أى طائفة وقطعة منهم ، ويكتبهم من السكبت وهو شدة الغيظ ، أو الوهن الذى
يقع فى القلب .

استطرد دعيت إليه الحاجة

من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها نزلت فى غزوة أحد ، فوجب ذكر طرف
من أخبار هذه الواقعة ليستعين به القارئ على فهمها ، ويعرف مواقع أخبارها ،
ويستيقن من حكمها وأحكامها .

ولكن عليك أن تعرف قبل هذا ، أن قریشاً اغتازت من هجرة النبي صلى الله
عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، وحقدوا على أهلها إيواءهم للمسلمين ، وتهددوهم ،
فكان لابد من الاستعداد للدفاع ، وقد صار النبي صلى الله عليه وسلم داعية للدين ،
ورئيساً لحكومة المدينة ، وقائداً لجيشها .

هذا، وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات، بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ، وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في تسع منها أشهرها:

وقعة بدر

كانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه شِرْذِمَةٌ من الثوار يجب أن تقتل، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة وهي على طريق التجارة إلى الشام، فجَدَّ المسلمون في مهاجمة قوافل مكة، ونالوا أول انتصار لهم في السنة الثانية من الهجرة في غزوة بدر — بُرْ بين مكة والمدينة كانت لرجل يسمى بدرأً فسميت باسمه — وكانت هذه الواقعة نصراً مؤزراً للمسلمين، وكارثة كبرى على المشركين، وكان لها دوى عظيم في أرجاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها.

وقعة أحد

أحد جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال

ولما خذل المشركون في وقعة بدر ورجع قَلْبُهُمْ إلى مكة مقهورين — أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قتل من صناديد قريش، فاجتمعوا للحرب وكانوا نحو ثلاثة آلاف، فيهم سبعائة دارع، ومعهم مائتا فرس، وقائدهم أبو سفيان بن حرب، ومعه زوجه هند بنت عتبة، وكان جملة النساء خمس عشرة امرأة، ومعهن الدفوف يضربن بها ويبيكين على قتلى بدر، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقام في المدينة وقتلهم بها، ورأى باقي الصحابة الخروج لقتلهم، فخرج في ألف من الصحابة، إلى أن صار بين المدينة وأحد، فالتخذي عنده عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلث الناس، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعب من أحد، وجعل ظهره إلى الجبل، وكان عدة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعائة،

فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين ، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مصعب بن عمير ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، ولواؤهم مع بنى عبد الدار .
ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان ومعها النسوة يضربن بالدفوف ، وهي تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربا بكل بئار
وقاتل حمزة قتالا شديداً ، ولما قتل مصعب بن عمير أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الراية لعلي بن أبي طالب .

ولما انهزم المشركون طمعت الرماة في الغنيمة ، وفارقوا المكان الذي أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بتلازمته ، فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين ، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل ، وانكشف المسلمون وأصاب العدو منهم ، وكان يوم بلاء على المسلمين ، وكان عدة الشهداء من المسلمين سبعين رجلاً ، وعدة قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً ، ووصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصابته حجارتهم حتى وقع وأصيبت رباعيته ، وشجَّ في وجهه ، وكلمت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وجعل يدعوهم إلى ربهم ، فنزل قوله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » .

ودخلت حلقتان من حلق المغفرة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشجرة ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنية من ثنياته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، وامتنص مالك ابن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ، وطمع فيه المشركون وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » وأصابته طلحة يومئذ ضربة شديدة شلت يده ، وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجدعن الأنوف ، وصلمن الآذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت هند عن كبد حمزة ولاكتها ، ولم تستسغها ، وضرب أبو سفيان شدة حمزة بزج الرمح ، وصعد الجبل ، وصرخ بأعلى صوته ، الحربُ سجال يوم بيوم بدر ، اعلُ هُبَلُ (صنم بالكعبة) أى ظهر دينك .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولوا له هو بيننا وبينكم ، ثم سار المشركون إلى مكة ، وبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمه حمزة فوجده مبقور البطن ، مجذوع الأنف ، مصلوم الأذن ، فقال : لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم ، ثم أمر أن يسجى عمه ببردة ، ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحدا بعد واحد حتى صلى عليهم ثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بحمزة فدفن ، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنهم بها ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ادفنهم حيث صرعوا .

إذا علمت ما تقدم سهل عليك فهم هذه الآيات ، وما بعدها مما له صلة بهذه الواقعة الهامة في تاريخ الإسلام ، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين ، فقد كانت نبراساً لهم في كل حروبهم وأعمالهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده — إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ الآثار ، وأن كل ما حدث فيها إنما جر إليه الطمع في الغنيمة ، وجمع حطام الدنيا ، وهو ظل زائل وعرض مفارق .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفهم بالعداوة ، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم ، ثم أمرهم بالصبر والتقوى وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً — ذكّرهم في هذه الآيات بوقعة أحد ، وما كان فيها من كيد المنافقين ،

إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا ، ثم خرجوا معهم ، وانشقوا عنهم في الطريق ، ورجعوا بثلاث الجيش ، ليوقعوا الفشل بين صفوفهم ويخذلوهم أمام عدوهم . وما كان من كيد المشركين وتألبهم عليهم ، ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر حتى عن الغنيمة التي طمع فيها الرماة فتركوا مواقعهم ، وإلا تقوى الله ، ومن أهم دعائها طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى ، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قلتهم ، إذ جعلوا الصبر جنتهم ، وتقوى الله عُدَّتْهم ، فأصابوا من عدوهم ما أصابوا ، وكان لهم الفلج عليهم مما لا يزال مكتوباً في صحيفة الدهر مثلاً خالداً لصدق العزيمة ، والبعد عن مطامع هذه الحياة .

الإيضاح

(وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال) أى واذكر لهم أيها الرسول وقت خروجك من بيتك غدوة أحد غدوة سحر يوم السبت سابع يوم من شوال من سنة ثلاث للهجرة ؛ تهيء أمكنة للقتال ، منها مواضع للرماة ، ومواضع للفرسان ، ومواضع لسائر المؤمنين .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما يقول المؤمنون لك فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك عدوك وعدوهم ، كقول من قال : اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم في خارج المدينة ، وقول من قال : لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا ، ولما تشير به أنت عليهم ، عليم بأصلح تلك الآراء لك ولهم ، وبنية كل قائل ؛ من خلص منهم في قوله وإن أخطأ في رأيه كالثائلين بالخروج إليهم ، ومن لم يخلص في قوله ؛ وإن كان صواباً كعبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين .

قال ابن جرير : ضرب الله مثلاً أو مثلين على صدق وعده في الآية السابقة « وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً » بتذكيرهم بما كان يوم أحد من

وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر (وذنب الجماعة أو الأمة لا يكون عقابه قاصراً على من اقترفه بل يكون عاماً) وبما كان يوم بدر إذ نصرهم على قتلهم وذلتهم .
(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أى والله سميع عليم حين همت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ؛ وكانا جناحى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن تضعفا وتجبنا عن القتال حين رأوا انخزال عبد الله بن أبيّ ومن معه عن رسول الله .

وهذا المهم لم يكن عزيمة ممضاة ، ولكنها كانت حديث نفس ؛ وقلما تخلو النفس عند الشدة من بعض الملح ؛ فإن ساعدها صاحبها ذم ؛ وإن ردها إلى الثبات والصبر فلا بأس بما فعل ؛ ومما يدل على أن ذلك المهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى .
(والله وليهما) أى متولى أمورهما لصدق إيمانهما ؛ لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما ؛ فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع المنافقين ؛ وكانوا نحو ثلث العسكر ؛ بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين ؛ فوثقا به وتوكلا عليه .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى إن المؤمنين ينبغي أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه بالتوكل على الله ؛ لا بحولهم وقوتهم ؛ ولا بأنصارهم وأعاونهم ، بعد أخذ الأهبة والعدة تحقيقاً لسنن الله فى خلقه ؛ إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات ؛ وهو الخالق للسبب والمسبب ؛ والموجد للصلة بينها .

فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم فى العدد والعدد والسلاح ؛ وفى سائر عتاد الجيش ولذا قال .

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) أى إنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم وأنتم يومئذ فى قلة من العدد وفى غير منعة من الناس ؛ حتى أظهركم على عدوكم مع كثرة عددهم وعظيم منعتهم ؛ فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ ؛ فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم فى ذلك اليوم .

ولا ضير في النذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين ، ولم يكن المؤمنون بمقهورين ولا بمستذلين من الكفار ، وإنما كانت قوتهم أول تكونها .

(فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أى فاتقوا الله ربكم بطاعته واجتنب محارمه ، لتعدوا أنفسكم لشكره ، على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ، إذ من لم يروِّض نفسه بالتقوى يغلب عليه الهوى واتباع الشهوات ، فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع .

(إذ تقول للمؤمنين) أى ولقد نصركم الله بيدى فى ذلك الحين الذى كنت تقول فيه لهم : أن يكفيكم الخ .

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر الحاربي يريد أن يمد المشركين ، فشق ذلك عليهم ، فأنزله الله - أن يكفيكم أن يمدكم ربكم - إلى قوله : من الملائكة مسومين ، فبلغته هزيمة المشركين فلم يمد أصحابه ، ولم يمدوا بالخسة الآلاف .

(أن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير : أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر ، وأنهم قاتلوا الكفار .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم تقايل الملائكة سوى يوم بدر ، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون ولا يضربون .

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أى بلى يكفيكم ذلك ، ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم .

أى إن تصبروا على لقاء العدو ومناهضتهم ، وتتقوا معصية الله ، ومخالفة نبيه

صلى الله عليه وسلم ، ويحثكم المشركون من ساعتهم هذه — يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة ، ليعجل نصركم ، ويسهل فتحكم .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : أن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم ، وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أن الله أمدهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا يخبر تقوم الحجة به ، ولا خبر فنسلم لأحد الفريقين قوله :

غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُدِّدٌ كُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ » .

أما في أحد الدلالات على أنهم لم يمدوا أيمن منها في أنهم أمدوا ، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينزل منهم ما نيل اه .

والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذى يزيد في قوة القوم ، وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينتفع بهم ولو نفعا معنويا ، وذلك أن الملائكة أرواح تلبس النفوس فتتمدها بالإلهامات الصالحات التى تثبتها وتقوى عزيمتها .

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم) قال الزجاج : وما جعل الله ذكر المدد إلا بشرى اه .

يعنى وما جعل الله ذلك القول الذى قاله الرسول لكم (أن يكفيكم) الآية

إلا بشرى يفرخ بها روعكم ، وطمأنينة لقلوبكم التي طرقها الخوف من كثرة عدد عدوكم وعظيم استعداده .

وفي هذا إيماء إلى أن في ذكر الإمداد غايتين .

(١) إدخال السرور في القلوب .

(٢) حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته معهم ، فلا يجبنوا عن المحاربة .

(وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) العزيز هو القوى الذي لا يمتنع

عليه شيء ، والحكيم هو الذي يدبر الأمور على خير السنن وأقوم الوسائل ، فيهدى لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء ، ويصرفهما عن يشاء .

والمراد — أنه يجب توكلكم على الله لا على الملائكة ، فيجب على العبد

الأيتمك على الأسباب فقط ، بل يقبل على مسبب الأسباب ، إذ هو الذي لا يعجز عن

إجابة الدعوات ، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته ، ولا المعونة إلا من فضله وكرمه .

فإن حصل الإمداد بالملائكة فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر ، وهناك

أسباب أخرى كاللقاء الرعب في قلوب الأعداء ، ومعرفة المواقع ، كما فعل النبي صلى الله

عليه وسلم إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق وأخفاها على العدو ، وعسكر في أحسن

موضع وهو الشعب (الوادي) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل ، وجعل الرماة من

ورائهم ، إلى نحو ذلك من الأسباب التي تمكنه من الظهور على عدوه ، والغلبة عليه .

فلما اختل بعض هذه التدبيرات ، وفات الرماة مواضعهم لم ينتصروا .

والذي عليه أهل العلم أنه لم يحصل يوم أحد إمداد بالملائكة ولا وعد من الله

بذلك ، وإنما أخبر عن رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك لأصحابه وجعل الوعد به

معلقاً على شروط ثلاثة :

(١) الصبر . (٢) التقوى . (٣) إتيان الأعداء من فورهم ، ولم تتحقق

هذه الشروط ، فلم يحصل الإمداد ، ولكن القول أفاد البشارة والطمأنينة .

وحصل الإمداد بالفعل في وقعة بدر كما تقدم ذكره ، وسيأتي مزيد تفصيل له في سورة الأنفال .

وربما سأل سائل عن الفارق بين اليومين فقال : لم أمد الله المؤمنين يوم بدر بملائكة يثبتون قلوبهم ، وحرّمهم من ذلك يوم أحد حتى أصاب العدو منهم ما أصاب ! وجوابنا عن هذا — أن المؤمنين كانوا يوم بدر في قلة وذلة من الضعف والحاجة ، فلم يكن لهم اعتماد إلا على الله ، وما وهبهم من قوة في أبدانهم ونفوسهم ، وما أمرهم به من الثبات والذكر إذ قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

ولم يكن في نفوسهم تطلع إلى شيء سوى النصر ، وإقامة الدين والدفاع عن حوزته ، فكانت أرواحهم بهذا الإيمان مستعدة لقبول الإلهام من أرواح الملائكة والتقوى بالاتصال بها .

أما في يوم أحد فقد كان بعضهم في أول القتال قريباً من الافتتان بما كان من المنافقين ، ومن ثم همت طائفتان منهم أن تفشلا ، ولكن الله ثبتهما وباشرا القتال مع بقية المؤمنين حتى انتصروا وهزموا المشركين ، ثم خرج بعضهم عن التقوى وخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وطمعوا في الغنيمة وتنازعوا في الأمر ففشلوا وضعف استعداد أرواحهم ، فلم ترتق إلى الاستمداد من أرواح الملائكة ، فلم يكن لهم منهم مدد .

وحكمة ما حصل تمحيص المؤمنين كما سيأتي في قوله (وليحص الله) الآية ، وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات ، ومعرفة أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول ، وأن قتل الرسول أو موته لا ينبغي أن يثبط الهمم ، ولا يدعو إلى الانقلاب على الأعقاب ، وأن كل ما يصيب العباد من مصائب فهو نتيجة عملهم ، وعقوبة طبيعية على أفعالهم ، إلى نحو ذلك من الأسرار التي ستعلمها بعد .

روى أحمد ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو يوم بدر: اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً — وما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله كفك مناشدتك لربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، وأنزل الله يومئذ « إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أُنِي مُدِّكُمْ » الآية .

(ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) أى إن المقصود من نصركم بإمداد الملائكة أن يهلك طائفة منهم ، ويخزي طائفة أخرى ويغيظهم بالهزيمة ، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم في نصر .

وعبر بالطرف لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط ، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ، وقد أهلك الله من المشركين طائفة أول الحرب يوم أحد ، قدر عددهم بنحو ثمانية عشر رجلا .

وعبر بالخيبة دون اليأس ، لأن الأولى لا تكون إلا بعد توقع النصر وانتظاره ، والثانية بعده وبدونه ، وضد الخيبة الظفر ، وضد اليأس الرجاء .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها لبيان أن الأمر كله بيد الله فقال : (ليس لك من الأمر شيء) أى ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمرى ، وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، ثم أمرهم بعد ذلك ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري ، أفضى فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة أو عاجل العذاب بالقتل والنقم أو آجله بما أعددت لأهل الكفر بي من العذاب في الآخرة .

(أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) أى ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، ليس لك من الأمر شيء .

روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد : اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرث بن هشام ،

اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية ، فنزلت هذه الآية فتاب الله عليهم كلهم .

وروى أحمد ومسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا بنبیهم هذا وهو يدعوهم إلى ربهم ، فأنزل الله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) الآية .
وإن لما حدث في وقعة أحد لحكما دينية واجتماعية وحرية يمكن أن نجمها لك فيما يلي :

كان المؤمنون في وقعة بدر واثقين بنصر الله لنبیه وإظهار دينه ، لم يضعف إيمانهم بذلك قلتهم وضعفهم ، ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم ، ولما رأوا تباشير النصر ازدادوا إيمانا بأنهم المنصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ولكن خيل إلى الكثير منهم أن النصر سيكون بالآيات ، وخوارق العادات ، من غير التزام السنن الإلهية التي جعلها الله في هذا الكون ، وبنى عليها نظم الحياة ، وأن وجود الرسول بين ظهرانيهم ، ودعاءه ربه واستغاثته إياه أشد نكالا بالعدو من اتباع السنن الظاهرة التي من أهمها التزام النظام العسكري وإطاعة القائد ، وجودة التعبئة ، وحسن الحيلة ، والتدبير في وضع الخطط الحربية ، إلى نحو أولئك .
وفاتهم أن الدين الإسلامي دين الفطرة ، لا دين خوارق العادات ، وسلوك طريق المعجزات .

فلما قصروا في الأخذ بالأسباب يوم أحد ظهر عليهم عدوهم ، وجرح الرسول ، وإن كان هو لم يقصر ولم ينهزم ، ولكن البلاء إذا نزل لا يخص من كان السبب في وجوده كما قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وكان من هذا درس عظيم للمؤمنين لسوء بأيديهم وعلموا أن الرسول بشر ليس له من أمر العباد شيء ، وإمسا هو معلم وأسوة حسنة فيما يعلم ، والأمر كله لله يدبره بمقتضى سننه في الخلق .

هذا البيان الإلهي في تلك الموقعة التي رأوا نتائجها بأعينهم - برهان ساطع أمام الملأ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ لو كان زعيما سياسيا ، ومؤسسا لبناء مملكة يريد توطيد دعائمها بفتوحه لأطراف البلاد ، لما قال مثل هذا القول في مواطن الدفاع ، وحب النصر على الأعداء . ولا سبيل للنصر على العدو إلا بالاستعداد والحيلة ، وحسن التدبير والكياسة الحربية ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » ولا قوة إلا بالعلم والمال ، ولا مال إلا إذا انتشر العدل في الأمة وبث بين أفرادها روح التعاون والشورى في مهام الأمور كما قال : « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » .

(والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) قال ابن جرير : أى الله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ، ويقضى فيهم بما أحب ، فيتوب على من شاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من شاء منهم على جرمه ، فينتقم منه ، فهو الغفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه ، بفضله عليهم بالغو والصفح ، وهو الرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم اه .

وفي هذا تأديب من الله لرسوله ، وإعلام له بأن الدعاء على المشركين ولعنهم مما لم يكن ينبغي منك ، إذ الأمر كله لله ، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه ولا رأى ولا تدبير فيهما ، وإن كان ملصقا مقربا أو نبيا مرسلا ، إلا من سخره الله للقيام بشيء من ذلك ، فيكون خاضعا لذلك التسخير ، لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون ونظام الاجتماع .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْفَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)
 الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ،
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ
 يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ
 مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
 الْعَامِلِينَ (١٣٦)

شرح المفردات

ضعف الشيء مثله الذى يثنيه ، فضعف الواحد واحد ، لأنه إذا أضيف إليه
 ثناه ، وإذا ضاعفت الشيء منحت إليه مثله مرة فأكثر ، وهذه المضاعفة إما فى
 الزيادة فقط التى هى الربا ، وإما بالنسبة إلى رأس المال كما هو حاصل الآن فقد
 يستدين الإنسان المائة بثلاثمائة ، واتقوا الله أى اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه ،
 أعدت أى هيئت ، والمصارعة إلى المغفرة والجنة المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من
 الأعمال الصالحة كالإقبال على الصدقات وعمل الخيرات والتوبة عن الآثام كالربا
 ونحوه ، وعرضها السموات والأرض يراد به وصفها بالسعة ، والعرب تقول دعوى
 عريضة أى واسعة عظيمة . والسراء الحال التى تسر ، والضراء الحال التى تضر ،
 وفسرها ابن عباس باليسر والعسر أى السعة والضيق ويقال كظم القربة أى مלאها
 وسد رأسها ، وكظم الباب سده ، وكظم البعير جرته إذا ازدردتها وكف
 عن الاجترار ، ثم قالوا كظم الغيظ فهو كاظم ، وكظمه الغيظ والغم أخذ

بنفسه فهو مكظوم وكظيم قال تعالى: «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» وأخذ فلان بكظم فلان إذا أخذ بمجرى نفسه ، والغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال أو المعنوية كالشرف والعرض ، فيزعجها ذلك ويحفزها على التشفى والانتقام ، والغفوع عن الناس التجاوز عن ذنوبهم وترك مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ، والإحسان هنا الإتمام والتفضل على غيرك على وجه لا مذمة فيه ولا قبيح ، والفحشاء الفعلة الشنيعة القبيح التي يتعدى أثرها إلى غيرك كالزنا والغيبة ونحوهما ، وظلم النفس هو الذنب الذي يكون مقصورا على الفاعل كشرب الخمر ونحوه ، وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر وعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وعظمته وجلاله ، والاصرار الشد من الصر ، ويراد به شرعا الإقامة على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ البطانة من اليهود وأمثالهم من المشركين بشروط ذكرها هي مثار الضرر ، ثم بين لهم أن كيدهم لا يضرهم ما اعتصموا بتقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، ثم ذكرهم بما يدل على صدق ذلك بما حدث لهم حين صدقوا الله ورسوله من الفوز والفلاح في وقعة بدر ، وبما حدث لهم حين عصوا الله وخانفوا أمر القائد وهو الرسول صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد ، وكيف حل بهم البلاء ، ونزلت بهم المصائب مما لم يكونوا ينتظرون القليل منها .

نهام هنا عن شر عمل من أعمال اليهود ومن اقتدى بهم من المشركين وهو الربا ، مع بيان أن الربح المتوقع منه ليس هو السبب في السعادة ، بل السعادة إنما تكون في تقوى الله وامتنال أوامره ، وفي ذلك حث على بذل المال في سبيل الله كالدفاع عن الملة ، وتنفير من البخل والشح والسكّاب على جمع المال بكل وسيلة مستطاعة ، وشر تلك الوسائل أكل الربا أضعافا مضاعفة .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) أى لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافا مضاعفة بتأخير أجل الدين الذى هو رأس المال ، وزيادة المال إلى ضعف ما كان كما كنتم تفعلون فى الجاهلية ، فإن الاسلام لا يبيح لكم ذلك ، لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته .

قال ابن جرير : لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة فى إسلامكم بعد إذ هذاكم الله ، كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم أن الرجل منهم يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له للذى عليه المال : آخر دينك عنى وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فهام الله عز وجل فى إسلامهم عنه اه .

وقال الرازى : كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجداً لذلك المال قال الدائن زد فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فر بما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : أضعافا مضاعفة اه .

وربا الجاهلية هو ما يسمى فى عصرنا بالربا الفاحش وهو ربح مركب ، وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل ، ولا شئ منها فى العقد الأول كأن يعطيه المائة بمائة وعشرة أو أكثر أو أقل ، وكأنهم كانوا يكتفون فى العقد الأول بالقليل من الربح ، فإذا حل الأجل ولم يقض الدين وهو فى قبضتهم اضطروه إلى قبول التضعيف فى مقابلة الإساءة ، وهذا هو ربا النسبئة ، قال ابن عباس : إن نص القرآن الحكيم منصرف إلى ربا النسبئة الذى كان معروفا عندهم اه .

وعلى الجملة فالربا نوعان :

(١) ربا النسبئة وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، وهو أن يؤخر دينه

ويزيده في المال ، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة آلافا مؤلفة ، وفي الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدم محتاج ، فهو يبذل الزيادة ليفتدى من أسر المطالبة ، ولا يزال كذلك يعاوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ، ويوقعه في المشقة والضرر ، فمن رحمة الله وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهده ، وأذن من لم يدعه بجره وحرب رسوله ، ولم يحيى مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره ، ولهذا كان من أكبر الكبائر .

(٢) ربا الفضل كأن يبيع قطعة من الخلى كسوار بأكثر من وزنها دنائير ، أو يبيع كيله من التمر الجيد بكيلة وخفنة من التمر الرديء مع تراضى المتبايعين ، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه .

ومثل هذا لا يدخل في نهى القرآن ولا في وعيده ، ولكنه ثبت بالسنة فقد روى ابن عمر قوله صلى الله عليه وسلم « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل سواء بسواء ، ولا تشفوا بعضه على بعض إني أخشى عليكم الرماء - الربا - » .

وهذه الآية هي أولى الآيات نزولاً في تحريم الربا ، وآيات البقرة نزلت بعد هذه ، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً ، وقد يقول بعض المسلمين الآن : إنا نعيش في عصر ليس فيه دول إسلامية قوية تقيم الإسلام وتستغنى عن مخالفتها في أحكامها بل زمام العالم في أيدي أمم مادية تقبض على الثروة ، وبقية الشعوب عيال عنها ، فمن جاراها في طرق الكسب - والربا من أهم أركانها - أمكنه أن يعيش معها ، وإلا كان مستعبداً لها .

أفلا تقضى ضرورة كهذه على الشعوب الإسلامية التي تتعامل مع الأوربيين

كالشعب المصرى مثلا أن تتعامل بالربا كى تحفظ ثروتها وتميها ، وحتى لا يستنزف الأجنبي ثروتها وهى مادة حياتها ؟

وجوابا عن هذا نقول :

إن المحرمات فى الإسلام ضربان :

(١) ضرب محرم لذاته لما فيه من الضرر ، ومثل هذا لا يباح إلا لضرورة كأكل الميتة وشرب الخمر والربا المستعمل الآن وهو ربا النسبئة وهو متفق على تحريمه فإذا احتاج المسلم إلى الاستقراض ولم يجد من يقرضه إلا بالربا فالإثم على أخذ الربا دون معطيه ، لأن له فيه ضرورة .

(٢) ضرب محرم لغيره وهو ربا الفضل لأنه ربما كان سبباً فى ربا النسبئة ، وهو يباح للضرورة والحاجة أيضاً .

والمسلم يعرف إن كان محتاجاً إلى الربا ومضطراً إليه أم لا ، فإن كان محتاجاً حل له تناوله ويكون مثله مثل أكل الميتة وشرب الخمر ونحوها ، وإلا لم يحل ذلك ، إذ الربا يضر بإيمان المؤمنين ، وإن كان زيادة فى مال الرابى فهو فى الحقيقة نقصان ، لأن الفقراء الذين يشاهدونه يأخذ أموالهم بهذا التعامل يلعنونه ويدعون عليه ، وبذلك يسب الله الخير من يديه ، إن عاجلاً أو آجلاً فى نفسه وماله ، وتتوجه إليه المذمة من الناس لقساوة قلبه ، وغلظ كبده ، وقد ورد فى الأثر : إن أخذ الربا لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا حج ولا صلاة .

(واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اتقوا الله فيما نهيتم عنه من الأمور التى من جاتها الربا ، ولا تكن قلوبكم قاسية على عباده من ذوى الحاجة والبؤس ، فتحملوهم من الدين ما لا تحتمله طاقاتهم ، وتستغلوا عوزهم وحاجتهم ، فتشتطوا فى الربا حتى تخرى بيوتهم وتجعلوهم من ذوى الفاقة والمتربة — لعل ذلك يكون سبب فلاحكم فى دنياكم فإن الرحمة وحسن المعونة يوجدان المحبة فى القلوب ، والمحبة أساس السعادة فى الدنيا والآخرة .

(واتقوا النار التي أعدت للكافرين) أي وابتعدوا عن متابعة المرابين ، وتعاطى مايتعاطون من أكل الربا ، الذي يفضى بكم إلى دخول النار التي أعدها الله للكافرين . وفي هذا من شديد الزجر ما لا يخفى ، فإن المؤمنين الذين خوطبوا بانتقاء المعاصي إذا علموا أنهم متى فارقوا التقوى أدخلوا هذه النار كان انزعاجهم عن المعاصي أتم ، ومن ثم روى عن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يقول : إن هذه أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه .

(وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) أي وأطيعوا الله ورسوله فيما نهاها عنه من أكل الربا ، وما أمر به من الصدقة ، كي ترحموا في الدنيا بصلاح حال المجتمع وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم وقد ورد في الأثر « الراحمون يرحمهم الرحمن » رواه أبو داود والترمذي .

وفي هذا تأكيد بعد التأكيدات السالفة .

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) أي بادروا إلى العمل لما يوصلكم إلى مغفرة ذنوبكم ويدخلكم جنة واسعة المدى أعدها الله لمن اتقاه وامتثل أوامره ، وترك نواهيه ، فاعملوا الخيرات ، وتوبوا عن الآثام كالربا ونحوه ، وتصدقوا على ذوى البؤس والفاقة . روى أن رسول هرقل ملك الروم قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل وفيه : إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار [يريد أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم ، والليل في ضد ذلك الجانب ، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفلى] .

وقال أبو مسلم : إن العرض هنا ما يعرض من الثمن في مقابلة المبيع أى ثمنها لو بيعت كثمر السموات والأرض ، والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة خطرها ، وأنه لا يساويها شيء وإن عظم .

(أعدت للمتقين) أى هيئت لهم ، وفي الآية دليل على أن الجنة مخلوقة الآن ،

وأنها خارجة عن هذا العالم إذ أنها تدل على أن الجنة أعظم منه ، فلا يمكن أن يكون محيطا بها .

ثم وصف الله المتقين بجملة أوصاف فقال :

(١) (الذين ينفقون في السراء) أي الذين ينفقون في السعة والضيق ، فينفقون في كل حال على حسبها ، ولا يتركون الإنفاق بوجه .

وأثر عن عائشة أنها تصدقت بحبة عنب ، وأثر عن بعض السلف أنه تصدق ببصلة ، وفي الحديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، وردوا السائل ولو بظلف محرق » .

وقد بدأ الله وصف المتقين بالإنفاق لأمرين :

(١) أنه جاء في مقابلة الربا الذي نهى عنه في الآية السابقة ، إذ أن الصدقة إعانة للمعوز المحتاج ، وإطعام له ما لا يستحقه ، والربا استغلال الغني حاجة ذلك المعوز لأكل أمواله بلا مقابل فهي ضده .

ومن ثم لم يرد في القرآن ذكر الربا إلا ذم وقبح ، ومدحت معه الزكاة والصدقة ، اقرأ قوله : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّعِيفُونَ » وقوله « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ »

(ب) أن الإنفاق في حالى اليسر والعسر أدل على التقوى ، لأن المال عزيز على النفس ، فبذله في طرق الخير والمذافع العامة التي ترضى الله يشق عليها ، أما في السراء فلما يحدثه السرور والغنى من البطر والطفين وشدة الطمىح وبعد الأمل ، وأما في الضراء فلأن الإنسان يرى أنه أجدر أن يأخذ لا أن يعطى ، ولكنه مع هذه الحال لا يعدم وقتا يجد فيه ما ينفقه في سبيل الله ولو قليلا .

وحب الخير هو الذى يحرك فى الإنسان داعية البذل لإنفاق هذا العفو القليل ، فإن لم توجد تلك الداعية على حسب الفطرة فالدين ينمىها ويقويها ، إذ هو قد جاء لتعديل الأمزجة المعتلة ، وإصلاح الفطر المعوجة .

وقد أَرشدنا هدى الدين إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة في ذاتها مهما أَلح عليها الفقر وأن تتعود الإحسان بقدر الطاقة لتسمو عن الرذائل التي قد تجرّها إليها الحاجة ، فتبعد بقدر الإمكان عن ذل السؤال ومد الأيدي إلى الناس لطلب الإحسان وإراقة ماء الوجه أمام بيوت الأغنياء ، لما في ذلك من الذلة والصغار وهي مالا يرضاها مؤمن لنفسه يعتقد أن الأرزاق في قبضة الله وهو الذي يعطي ويمنع ، وقد جعل لكسب المال أوجها كثيرة يستطيع المرء أن يسعى إليها ليحصل عليه ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الحظ على اكتساب المال من كل طريق حلال ، والبعد عن ذل السؤال .

إلا أن بذل القليل من الأفراد والجماعات إذا اجتمع صار كثيرا ، ومن ثم كانت الأمم الراقية تقيم مشروعاتها النافعة للأمة في الزراعة أو الصناعة أو في بناء الملاجئ والمستشفيات بالتبرعات القليلة التي تؤخذ من أفرادها ، وبذا تقدمت في سائر فنون المدنية والحضارة .

ولذا حث الله على بذل الخير ولو قليلا بقوله : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا »

ومن هذا ترى أن الله جعل من أهم علامات التقوى بذل المال ، كما أن الشح به علامة عدم التقوى ، والتقوى هي السبيل الموصل إلى الجنة .

فانظر إلى أهل السراء الذين يقبضون أيديهم عن بذل المعونة للأفراد والجماعات ويكثرون في صناديقهم القناطر المنظرة من الذهب والفضة ، هل تغنيهم صلاتهم وصومهم شيئا مع هذا الشح البادى على وجوههم ؟ فما هي إلا حركات وأعمال ، مروا عليها دون أن يكون لها الأثر الناجع في نفوسهم ، إذ الصلاة التي يقبلها الله ، والصوم الذي يرضاه الله هو ما ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وأى منكر أشد من الضن بالمال حين الحاجة إليه لنفع أمة أو فرد .

ولو جاد المسلمون بأموالهم عند الحاجة إلى البذل لكان لنا شأن آخر بين
أرباب الديانات الأخرى ، ولكننا من ذوى العزة والمكانة بينها . (١)
ولكننا صرنا إلى ماترى ، عسى الله أن يغير من نفوس المسلمين ، ويرشدهم
إلى ما فيه صلاحهم باتباع أوامر كتابهم ، واجتناب نواهيه ، ففي ذلك السعادة لهم
فى الدنيا والأخرى .

(٢) (والكاظمين الغيظ) أى المسكين عليه الكافين عن إمضائه مع
القدرة عليه ، ومن أجب داعى الغيظ وتوجه بعزيمة إلى الانتقام لا يقف عند حد
الاعتدال ، ولا يكتفى بالحق ، بل يتجاوزه إلى البغى ، ومن ثم كان من التقوى كظمه
وقد أثر عن عائشة رضى الله عنها أن خادما لها غاظها فقالت : لله در التقوى
ما تركت لذى غيظ شفاء .

وقال عليه السلام « ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة موجهة يجربها
صاحبها بصبر وحسن عزاء ، ومن جرعة غيظ كظمها » وقال « ليس الشديد بالصرعة
لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » .

وخلاصة ذلك - هم الذين يكظمون غيظهم عن الإمضاء والنفاد ، ويردونه فى
أجوافهم ، وهذا كقوله فى الآية الأخرى « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » .

(٣) (والعافين عن الناس) أى الذين يتجاوزون عن ذنوب الناس ويتركون
مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ، وتلك منزلة من ضبط النفس وملك زمامها قل من
يصل إليها ، وهى أرقى من كظم الغيظ ، إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة .
أخرج الطبرانى عن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ، فليعف عن ظلمه ، ويعط من
حرمه ، ويصل من قطعه » .

وفى الآية إيماء إلى حسن موقع عفوه عليه السلام عن الرماة ، وترك مؤاخذتهم
بما فعلوا من مخالفة أمره ، وإرشاد له إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين

بما فعلوه بحمزة رضى الله عنه حتى قال حين رآه قد مثل به : لأمثلن بسبعين منهم .
(٤) (والله يحب المحسنين) أى والله يحب الذين يتفضلون على عباده البائسين

ويواسونهم ببعض ما أنعم الله به عليهم شكرا له على جزيل نعمائه .

أخرج البيهقي أن جارية لعلى بن الحسين رضى الله عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتيبأ للصلاة ، فسقط الإبريق من يدها فشجبه ، فرفع رأسه فقالت : إن الله يقول (والكاظمين الغيظ) فقال لها قد كظمت غيظى ، قالت (والعافين عن الناس) قال قد عفا الله عنك ، قالت (والله يحب المحسنين) قال اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

والإحسان إلى غيرك إما بإيصال النفع إليه ، وهو الذى عناه الله بقوله (الذين ينفقون فى السراء والضراء) ويدخل فيه إنفاق العلم بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ، وإنفاق المال فى وجوه الخير والعبادات ، قال صلى الله عليه وسلم « السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار » .

وإما بدفع الضر عنه إما فى الدنيا بالأى يقابل الإساءة بإساءة أخرى وهو ما عناه الله بقوله (والكاظمين الغيظ) قال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » وإما فى الآخرة بأن يعفو عماله عند الناس من التبعات والحقوق ، وهذا هو المراد بقوله (والعافين عن الناس) ومن ثم كانت هذه الآية جامعة لوجوه الإحسان إلى غيرك .

وقد ذكر الله الجزاء على الإحسان بقوله (والله يحب المحسنين) إذ محبة الله للعبد أعظم درجات الثواب .

(٥) (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) أى والذين إذا فعلوا من القبيح ما يتعدى أثره إلى غيره كالغيبة ونحوها ، أو فعلوا ذنباً يكون مقصوراً عليهم كشرب الخمر ونحوه — ذكروا عند ذلك وعد الله ووعيده ،

وعظمته وجلاله ، فرجعوا إليه تعالى طالبين مغفرته ، راجين رحمته ، علماً منهم أنه لا يغفر الذنوب سواه ، فهو الفعال لما يشاء بمقتضى حكمته وعلمه الواسع .
 (ومن يغفر الذنوب إلا الله) جملة جاءت معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، تصويهاً لفعل التائبين ، وتطبيهاً لقلوبهم ، وبشارة لهم بسعة الرحمة وقرب المغفرة ، وإعلاء لقدومهم بأنهم علموا أن لا مفرح للمذنبين إلا فضله وكرمه . وأن من كرمه أن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأن العبد إذا التجأ إليه ، وتنصل عن الذنب بأقصى ما يقدر عليه عفا عنه وتجاوز عن ذنوبه وإن جلت ، فإن عفوهُ أجلّ وكرمه أعظم ، كما أن فيها تحريضاً للعباد على التوبة وحثاً لهم عليها ، وتحذيراً من اليأس والقنوط .

(ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أى ولم يقيموا على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة ، وقد قال عليه السلام « لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » يريد صلى الله عليه وسلم أن الصغيرة مع الإصرار كبيرة ، وقوله: وهم يعلمون أى بقبحه والنهى عنه والوعيد عليه ، والفائدة من ذكر هذا بيان أنه إذا لم يعلم بقبحه يعذر فى فعله .

والمؤمن المتقى لا يصير على الذنب وهو يعلم نهى الله عنه ووعيدة عليه ، إذ يعلم أن الذنب فسوق وخروج عن نظام الفطرة السليمة ، واعتداء على حقوق الشريعة .
 فالآية تومئ إلى أن المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيراً كان أو كبيراً ، لأن ذكره لله يمنعه أن يقيم على الذنب ، إذ الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر ، ورب كبيرة أصابها المؤمن ببهاالة ، وبادر إلى التوبة منها فكانت مذكرة له بضعفه البشرى ، ودليلاً على أن للغضب سلطاناً عليه — تكون دون صغيرة يقترفها مستهيناً بها مصراً عليها مستأنساً بها ، فتزول من نفسه هيبة الشريعة ، ويتجرأ بعد ذلك على ارتكاب الكبائر فيكون من المهالكين وقد رووا حديث « ما أمر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » وقد ضعفه المحدثون ،

إلى أنه ليس المراد من الاستغفار الاستغفار باللسان ، وأنه كاف في التوبة ، وأن تحريك اللسان بكلمة أستغفر الله مرة أو عدة مرات يرفع إثم الذنب ، بل الاستغفار فيه هو التوبة النصوح التي عرفت معناها في قوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » لا كون اللفظ كفارة للذنب .

(أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)
 أى إن أولئك المتقين الذين وصفوا بما تقدم من الصفات — لهم أمن من العقاب ،
 ولهم ثواب عظيم عند ربهم في جنت تجري من تحتها الأنهار .
 (ونعم أجر العاملين) أى إن هذا الجزاء إنما هو على تلك الأعمال التي منها
 ما هو نافع للأمة كما نفاق المال في وجوهه ، ومنها ما هو إصلاح لنفس العامل ،
 فهو أجر للعمل وجزاء عليه ، ويتفاوت الناس في التقوى على حسب ذلك .

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
 (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)
 إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُهَا
 بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)

شرح المفردات

خلت مضت ، السنن واحدها سنة وهي الطريقة المعتبرة والسيرة المتبعة ، من قولهم سن الماء إذا والى صبه ، شبهت به السنة لتوالى أجزائها على نهج واحد ، بيان أى إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، هدى أى زيادة بصيرة

وإرشاد إلى طريق الدين القويم ، والموعظة ما يلين القلب ويدعو إلى التمسك بما فيه طاعة ، الوهن الضعف في العمل وفي الرأي وفي الأمر ، والحزن ألم يعرض للنفس إذا فقدت ماتج ، والقرح (بالضم والفتح) عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسم ، وقيل هو بالفتح الأثر وبالضم الألم ، والأيام واحدها يوم وهو الزمن المعروف والمراد بالأيام هنا أزمانه الفوز والظفر ، نداؤها نصرتها فنديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء كما وقع ذلك في يوم بدر وأحد ، وأصل المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر . والشهداء واحدهم شهيد وهو قاتل المعركة ، وقيل واحدهم شاهد، والتمحيص التخليص من كل عيب، ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه ، ومحص الله التائبين من الذنوب طهرهم منها ، والحق النقصان ، ومنه الحاق لآخر الشهر ، وفي الأساس محق الشيء محاه وذهب به .

المعنى الجملي

كان الكلام في سابق الآيات في قضية أحد وأهم أحداثها ، ثم ذكرهم بوقعة بدر وما كتب لهم فيها من النصر على قلة عددهم وعددهم .
وفي هذه الآيات وما بعدها يذكرهم بسنن الله في خليقته ، وأن من سار على نهجها أدى به ذلك إلى السعادة ، ومن حاد عنها ضل وكانت عاقبته الشقاء والبوار ، وأن الحق لا بد أن ينتصر على الباطل مهما كانت له أول الأمر من صولة ، كما وعد الله بذلك على السنة رساله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » .

الإيضاح

(قد خلت من قبلكم سنن) أي إن أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل ، وما يلابس ذلك من الحرب والطعان والنزال والملك

والسيادة يجرى على طرق قويمه وقواعد ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة العامة .

وقد جاء ذكر السنن الإلهية في مواضع من الكتاب الكريم كقوله : « قُلْ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَنْتَهُوا يُغْفَرُ لَهُمْ مَآ قَدْ سَلَفَ ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ » وقوله : في سياق دعوة الإسلام « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا » .

والمراد بذلك أن مشيئة الله في خلقه تسير على سنن حكيمة من سار عليها ظفر
وإن كان ملحداً أو وثنيا ، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً أو نبيا ، وعلى هذا
فلا عجب أن ينهزم المسلمون في وقعة أحد ، وأن يصل المشركون إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فيشجوا رأسه ، ويكسروا سنه ، ويردوه في حفرة .

والمسلمون الصادقون أولى الناس بمعرفة تلك السنن في الأمم وأجدر الناس بأن
يسيروا على هديها ، لذلك لم يلبث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن تابوا إلى رشدهم
يومئذ ورجعوا إلى الدفاع عن نبيهم وثبتوا حتى انجلى المشركون عنهم ولم ينالوا
ما كانوا يقصدون .

والمخلاصة — أن النظر في أحوال من تقدمكم من الصالحين والمكذبين يهديكم
إلى الطريق المستقيم ، فإن أتم سلككم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم ، وإن
سلككم سبيل المكذبين فخالكم كخالهم .

وفي الآية تذكير لمن خالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وإرشاد لهم
إلى أنهم بين عاملى خوف ورجاء ، فهي على أنها بشارة لهم بالنصر على عدوهم
إنذار بسوء العاقبة إذا هم حادوا عن سننه ، وساروا في طريق الضالين ممن قبلهم ،
وعلى الجملة فالآية خبر وتشريع وتتضمن وعداً ووعيداً وأمرأً ونهيأً .

وقد جرت سنة الله بأن للمشاهدة في تثبيت الحقائق ما ليس للقول وحده ،

إذ القول قد ينسى ويقل الاعتبار به ، من قَبَل هذا أرشدهم إلى الاعتبار وقياس ما فى أنفسهم على ما كان لدى غيرهم من قبلهم ومن ثم قال :

(فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى سيروا فى الأرض وتأملوا فيما حل بالأمة قبلكم ليحصل لكم العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ، وتسترشدوا بذلك إلى أن المصارعة قد وقعت بين الحق والباطل فى الأمم السالفة ، وانتهى أمرها إلى غلبة أهل الحق لأهل الباطل ، وانتصارهم عليهم ما تمسكوا بالصبر والتقوى ، ويدخل فى ذلك اتباع ما أمر الله به من الاستعداد للحرب وإعداد العُدَّة لقتال العدو كما أمر الله به فى قوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وجرى ذلك على سنن مستقيمة وأسباب مطردة لا تغيير فيها ولا تبديل .

والسير فى الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم - نعم العون على معرفة تلك السنن والاعتبار بها ، وقد نستفيد هذه الفائدة بالنظر فى كتب التاريخ التى دونها من ساروا فى الأرض ، ورأوا آثار الذين خلوا ، فتحصل لنا العظة والعبرة ، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون فى الأرض بأنفسهم ، ويرون الآثار بأعينهم

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) أى هذا الذى تقدم بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة ، فالإرشاد عام للناس وحجة على المؤمن والكاfer ، التقي منهم والفاجر ،

وذلك يدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة بنحو قولهم لو كان محمد رسولا حقا لما غلب فى وقعة أحد ، فهذا الهدى والبيان يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هى حاكمة على سائر خلقه ، فما من قائد يخالفه جنده ، ويتركون حماية الثغر الذى يؤتون من قبله ، ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم ،

والعدو مشرف عليهم ، إلا كان جيشه عرضة للانكسار إذا كر العدو عليه - قطع خط الرجعة - ولا سيما إذا كان بعد فشل وتنازع ، ومن ثم كان هذا البيان لجميع الناس ، كل على قدر استعدادده للفهم وقبول الحجة .

وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة ، فلا أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق ، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع ، فيستقيمون ويسيروا على النهج السوى ، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم مضرة عاقبتها ، فالمؤمن حقا هو الذي يهتدى بهدى الكتاب ويسترشد بمواعظه كما قال : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » فالقرآن يهديننا في مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نروى أنفسنا ، ونعرف كنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقا ، ففسير على سنن الله في طلبه وفي حفظه ، وأن نعرف كذلك حال خصمنا ونضع الميزان بيننا وبينه ، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين .

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أى لا تضعفوا عن القتال وما يتبعه من التدبير بسبب ما أصابكم من الجروح والفشل في يوم أحد ، ولا تحزنوا على من فقد منكم في هذا اليوم ، وكيف يلحقكم الوهن والحزن وأنتم الأعلون ، فقد مضت سنة الله أن يجعل العاقبة للمتقين الذين لا يحيدون عن سنته ، بل ينصرون من ينصره و يقيمون العدل ، فهم أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغى والانتقام ، أو للطمع فيما في أيدي الناس .

فهمة الكافر على قدر ما يرمى إليه من غرض خسيس ، ولا كذلك همة المؤمن الذي يرمى إلى إقامة صرح العدل في الدنيا والسعادة الباقية في الآخرة - إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره ، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسنته في نظم الاجتماع ، حتى صار ذلك الإيمان وصفا ثابتا لكم حاكما على نفوسكم وأعمالكم . وإنما نهى عن الحزن على ما فات ، لأن ذلك مما يفقد الإنسان شيئا من

عزيمته ، وبالعكس صلته بما يحب من مال أو متاع أو صديق تكسبه قوة وتوجد في نفسه سرورا ، والمراد من النهي عن مثل ذلك معالجة النفس بالعمل ولو تكلفا وخلاصة ذلك - الأمر بأخذ الأهبة وإعداد العدة مع العزيمة الصادقة والحزم والتوكل على الله حتى يظفروا بما طلبوا ويستعيضوا مما خسروا .

وقوله وأنتم الأعلون تبشير بما يكون في المستقبل من النصر لهم ، فإن من اخترق الإيمان الصحيح فؤاده ، وتمكن من سويداء قلبه يكون على يقين من العاقبة ، بعد مراعاة السنن والأسباب المطردة للظفر والفلاح (إن يمسمكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أى إن كان السلاح قد عضكم وعمل فيكم يوم أحد فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم في ذلك اليوم ، فقد قتل منهم مثل ما قتل منكم فلم يكونوا غالبين .
والخلاصة - أنه لا يسوغ لكم التقاعد عن الجهاد ، وليس لكم العذر فيه لأجل أن مسكم قرح ، فإن أعداءكم قد مسهم مثله قبلكم وهم على باطلهم لم يفتروا في الحرب ولم يهنوا ، فأنتم أجدر بصدق العزيمة لمعرفتكم بحسن العاقبة ، وتمسككم بالحق .

(وتلك الأيام نداؤها بين الناس) أى إن مداولة الأيام سنة من سنن الله في المجتمع البشرى ، فمرة تكون الدولة للمبطل ، وأخرى للمحق ، ولكن العاقبة دائما لمن اتبع الحق .

وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة .

فعلیکم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الإحكام حتى تظفروا وتفوزوا ، ولا يكن ما أصابكم من الفشل مضغنا لعزائمكم ، فإن الدنيا دول .

فيوما لنا ويوما علينا ويوما نساء ويوما نسر

ومن أمثال العرب : الحرب سجال ، روى أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ، ثم قال أين ابن أبي كبشة ؟ - يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وأبو كبشة زوج حليلة السعدية وهو أبوه من الرضاع - أين ابن أبي قحافة ؟ - أبو بكر - أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وهأنذا عمر ، فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال ، فقال عمر رضى الله عنه : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلناكم في النار ، فقال إنكم تزعمون ذلك ، فقد خبنا إذن وخسرنا .

(وليعلم الله الذين آمنوا) أى وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، ليقوم بذلك العدل ، ويستقر النظام ، ويعلم الناظر في السنن العامة ، والباحث في الحكم الإلهية أنه لا محاباة في هذه المداولة ، وليعلم الله الذين آمنوا منكم ، لأن الجهاد الاجتماعى الذى يدال به قوم على قوم مما يطهر النفوس ويتميز به الإيمان الصحيح من غيره .

والمراد من قوله (وليعلم الله) أى وليظهر علمه بذلك للناس بظهور ما يعلم لهم ، إذ علم الله بالأشياء ثابت فى الأزل ، فإذا وقعت حصل تغير فى ذلك المعلوم ، فصار حالا بعد أن كان مستقبلا ، فهو كقوله : « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » أى ليعلم الناس ذلك ويميزوه .

وإخلاصة - أن المراد من مثل هذه العبارة (ليعلم) - ليثبت ويتمحقق صدق إيمان الذين آمنوا ، لأنه متى ثبت وتمحقق كان الله عالما به على أنه حقيقة ثابتة ، إذ علم الله لا يكون إلا مطابقا للواقع ، فما لا يعلمه الله تعالى لا يكون له حقيقة ثابتة . (ويتخذ منكم شهداء) أى وليكرم ناسا منكم بالشهادة والقتل فى سبيل الله . ذلك أن قوما من المسلمين فاتهم يوم بدر ، وكانوا يتمنون لقاء العدو ، وأن يكون لهم يوم كذلك اليوم يقاتلون فيه ويلتمسون الشهادة .

والقرآن ملىء بتعظيم حال الشهداء قال تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » وقال تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ومن ثم كان من جملة فوائد هذه المداولة حصول هذا المنصب العظيم لبعض المؤمنين .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها لبيان أن الشهداء يكونون ممن أخلصوا في إيمانهم وأعمالهم ، ولم يظلموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله ونواهيه ، والخروج عن سننه في خلقه فقال :

(والله لا يحب الظالمين) أى إن الله لا يصطفى للشهادة الظالمين ماداموا على ظلمهم ، وفى ذلك بشارة للمتقين بحبة الله لهم ، وإنذار للمقصرين بأنه لا يحبهم الله ، وتعريض لأعدائهم المشركين بأن الله لا يحبهم ، لأنهم ظلموا أنفسهم وسفوهوا بعبادة المخلوقات ، وظلموا سواهم بالفساد فى الأرض ، والبغى على الناس وهضم حقوقهم ، ومن المعلوم أن الظلم لا تدوم له سلطة ، ولا تثبت له دولة ، بل تكون دولته سريعة الزوال ، قريبة الانحلال .

(وليحص الله الذين آمنوا) أى ونداول الأيام ليتميز المؤمنون الصادقون من المنافقين ، وتطهر نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها ، فتصير تبرا خالصا لا كدورة فيه ، فإن الإنسان كثيرا ما يشتبه عليه أمر نفسه ، ولا تتجلى له حقيقتها إلا بالتجارب الكثيرة ، والامتحان بالشدائد العظيمة ، فهى التى تمحصها وتنقى خبثها وزغليها ، كما أن تمحيص الذهب يميز بهرجه من خالصه .

فالمتعقد فى دين أنه الحق قد يخيل إليه وقت الرخاء أنه سهل عليه بذل ماله ونفسه فى سبيل الله ليرفع راية ذلك الدين ويدفع عنه كيد المعتدين ، فإذا جاء البأس ظهر له من نفسه غير ما كان يتصور ، انظر إلى الذين خالفوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وطمعوا فى الغنيمة ، وإلى الذين انهزموا وولوا الأدبار ، كيف محصهم الله

بتلك الشدائد فعاموا أن المسلم ما خلق للهو واللعب ، ولا للكسل والتواكل ، ولا لنيل
الظفر ونيل السيادة بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله في المخلوقات ، بل خلق
ليكون أكثر الناس جدا في العمل ، وأعظمهم تقانيا في أداء الواجب اتباعا للنواميس
والسنن التي وضعها الله في الخليقة .

وقد تجلى أثر هذا التمحيص في الغزوات التي تلت هذه الواقعة ، ففي غزوة (حراء
الأسد) أمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد
فامثل المؤمنون أمره بقلوب مطمئنة ، وعزائم صادقة ، وهم على ما هم عليه من الجراح
المبرحة ، والقلوب المنكسرة .

(ويمحق الكافرين) أى يجعل اليأس يسطو على قلوبهم ، وفقد الرجاء يذهب
بعزائمهم ، فلا يبقى لديهم شجاعة ولا بأس ، ولا قَلٌّ ولا كُتْرٌ من عزة النفس ،
فيكون وجودهم كالعدم لا فائدة فيه ، ولا أثر له ، فالكافرون المبطون لا يثبت لهم
حال مع المؤمنين الصادقين ، وإنما يظهرون إذا لم يوجد من أهل الحق والعدل من
ينازعهم ويقاوم باطلهم .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ
فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ
عَلَى عَقْبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَيَجْزِي
الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنَّ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا

لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ
 (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا
 وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا
 دُنْيَاً وَحُسْنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

شرح المفردات

الجهاد احتمال المشقة ومكافحة الشدائد ، يشمل :

- (١) الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته .
- (٢) جهاد النفس الذي سماه الساف (الجهاد الأكبر) ومن ذلك مجاهد الإنسان لشهواته خصوصاً في سن الشباب .
- (٣) المجاهدة بالمال لأعمال الخير النافعة للأمة والدين .
- (٤) المجاهدة بمدافعة الباطل ونصرة الحق .

تمنون الموت أى تتمنون الشهادة فى سبيل الله ، أن تلقوه أى تشاهدوا أهواله
 وتدوقوا مرارة كأسه ، رأيتوه أى رأيت أسبابه من ملاقاته الشجعان بعدتهم وأسلحتهم
 وكرمهم وفرمهم ومصاولتهم للفرسان ، وأتم تنظرون ، أى تعينونه وترويه رؤية لا خفاء
 فيها كما تقول رأيتك وليس بمعنى علة ، انقلبتم على أعقابكم أى رجعتكم كفاراً بعد إيمانكم ،
 ويقال لكل من عاد إلى ما كان عليه : رجع وراءه وانقلب على عقبيه ، ونكص
 على عقبيه .

والمؤجل ذو الأجل ، والأجل المدة المضروبة للشيء كما قال : « وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا
 الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا » ومنه الدين المؤجل الذى ضرب له أجل ومدة يؤدى فى نهايتها ،
 وكأين كلمة تفيد أن ما دخلت عليه كثير ، والرييون الجماعات الكثيرة واحدهم ربى
 وهو الجماعة ، والوهن ضعف يلحق القلب ، والضعف اختلال قوة الجسم ، والاستكانة

الخشوع والاستسلام للخصم ليفعل ما يريد، والصبر احتمال الشدائد ومعاناة المكاره، والإسراف في كل شيء مجاوزة الحد فيه كما قال: « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » وثبت أقدامنا أي حين جهاد أعدائك بتقوية قلوبنا وإزالة الخواطر الفاسدة من صدورنا .

المعنى الجملي

لا يزال الحديث مع من شهد أحداً من المؤمنين ، فقد أرشدهم الله في الآيات السالفة إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحزنوا أو يضعفوا ، وأن ما أصابهم من الحنة والبلاء جار على سنن الله في خليقته من مداولة الأيام بين الناس ، وفيه تمحيص لأهل الحق فإن الشدائد محك الأخلاق ، وفيه هدى وإرشاد وتسلية للمؤمنين حتى يتربوا على الصفات التي ينالون بها الفوز والظفر في جميع أعمالهم .
وهنا أبان لهم أن سبيل السعادة في الآخرة منوط بالصبر والجهاد في سبيل الله ، كما أن طريق السعادة في الدنيا يكون بإقامة الحق وسلوك طريق الإنصاف والعدل بين الناس ، فسنة الله هنا كسنته هناك .

الإيضاح

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)
أي هل جريتم على تلك السنن؟ هل تدبرتم تلك الحكم؟ أم ظننتم أنكم تدخلون الجنة وأنتم لم تقوموا بالجهاد في سبيله حق القيام ، ولم تتمكن صفة الصبر من نفوسكم تمام التمكن ، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد التحلي بهما .
وإنكم لو قتم بذلك لعلمه الله تعالى منكم وجزاكم عليه بالنصر والفوز في هذه الغزوة كما يجازيكم في الآخرة بدخول الجنة .
وقال أبو مسلم الأصفهاني في (أم حسبتم) إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكي .

وتلخيصه — لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد وهو كقوله :
« الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » .

وعادة العرب أن يأتوا بهذا الجنس من الاستفهام تأكيداً ، فلما قال ولا تهنوا ولا تحزنوا ، كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك واقع كما تؤمرون ، أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة ولا صبر .

وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى لما أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة وأوجب الصبر على تحمل متاعه ، وبين وجوه المصالح فيه في الدين والدنيا كان من البعيد أن يظن الإنسان أنه يصل إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة اه بتصرف .

وجهاد النفس على أداء حقوق الله وحقوق العباد مما يشق عليها احتمالها ويحتاج إلى مجاهدتها وترويضها حتى تذلل ويسهل عليها أداء تلك الحقوق ، وربما فضل هذا الجهاد جهاد الأعداء في ميدان القتال وخوض غمار الوغى؛ وأصعب من هذا وأشق دعوة الأمة إلى خير لها في دينها ودينها ، أو بث فكرة صالحة تغير بعض أخلاقها وعاداتها ، أو مقاومة بدعة فاشية بين أفرادها فإنها تجد مقاومة من الخاصة ، بله العامة ، فتراهم يرفضون راية العصيان في وجه الداعي ، ويشاكسون بكل الوسائل ، ولا سيما إذا تعلق بتغيير بعض عادات مرثوا عليها جيلاً بعد جيل ، ووجدوا من أشباه العلماء من يؤازرهم ويناصرهم في باطلهم .

وكثيراً ما يحدث للداعي التلف والهلاك ، أو ثلم العرض ، أو الإخراج من حظيرة الدين .

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) هذا خطاب لمن شهد من المسلمين وقعة أحد .

ذاك أن كثيراً من الصحابة وبعضهم لم يشهد بدرأ — كانوا يلحون في الخروج إلى أحد حيث عسكر المشركون ليكون لهم يوم كيوم بدر ، ويتمنون أن يلتقوا الأعداء ويصيبوا من الخير مثل ما أصاب أهل بدر .

فلما كان يوم أحد ولى منهم من ولى فعاتبهم الله على ذلك .
 روى عن الحسن أنه قال : بلغني أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
 كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبي صلى الله عليه وسلم لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك ،
 فلا والله ما كلهم صدق فأنزله عز وجل (ولقد كنتم تمنون الموت) الآية .
 ومعنى قوله فقد رأيتموه — أنكم شاهدتم أسبابه من ملاقاته الشجعان بعدتهم
 وأسلحتهم وكرهم وفرهم ، مشاهدة لا خفاء فيها ولا شبهة ، وكان لها الأثر العميق
 في نفوسكم .
 ومعنى تمنى الموت تمنى الشهادة في سبيل الله والقتال لنصرة الحق ولو ذهبت
 نفسه دونه .

وصفة القول — لقد كنتم تمنون الموت قبل أن تلاقوا القوم في الميدان ، فهأتم
 أولاء قد رأيتم ما كنتم تمنونه ، وأنتم تنظرون إليه لاتغفلون عنه ، فما بالكم دهستم
 عند ما وقع الموت فيكم ، وما بالكم تحزنون وتضعفون عند لقاء ما كنتم تحبون
 وتمنون ، ومن تمنى الشيء وسعى إليه لا ينبغي أن يحزنه لقاءه ويسوءه .
 وفي الآية الكريمة تنبيه لكل مؤمن إلى اتقاء الغرور بحديث النفس والتمنى
 والتشهى ، وهدية إلى اختبار نفسه بالعمل الشاق وعدم الثقة منها بما دون الجهاد
 والصبر على المكروه في سبيل الحق ، حتى يأمن الدعوى الخادعة التي يتوهم فيها أنه
 صادق فيما يدعى مع الغفلة أو الجهل بعجزه عنه .
 وكثيرا ما يتصور بعض الناس أنه يحب ملته ووطنه ويفكر في خدمتهما ويتمنى
 لو يتاح له أن يساهم في تلك الخدمة بنفسه أو بماله ، حتى إذا احتيج إليه وجد من
 نفسه الضعف ، فأعرض عن العمل قبل الشروع ، أو بعد أن ذاق مرارته وكابد مشقته .
 ولكن المؤمن حقا من وصل الأمر به إلى حد اليقين فيما يعتقد أنه حق ، وذلك
 يستدعى العمل مهما كان شاقا ، والجهاد مهما كان عسيرا ، والصبر على المكروه ،
 وإثبات الحق على الباطل .

وقد كان فيمن خوطبوا بهذه الآية جماعة ممن كانوا في المرتبة العليا من صدق الجهاد والصبر على المكاره ، وأولئك هم المجاهدون الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثبات الجبال الراسيات ، وهم نحو ثلاثين رجلا ، لكنه جعل الخطاب عاما ليكون الإرشاد والنصح عاما للجميع ، فيتمهم ذوو المراتب العالية أنفسهم بالتقصير ، فيزدادوا كمالا على كمالهم ، ويرعوى المقصرون وينزعوا عن خداع أنفسهم لهم ، وهذا من التمهيص العظيم الذى له أجل العواقب فى تهذيب الأنفس ، وقد ظهر أثر ذلك فى نفوس أولئك القوم فيما بعد ، ورباهم تربية كانت بها عزائمهم ماضية ، وهمهم صادقة ، فلم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا فيما حاولوه من جسيم الأمور .

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟) أى إن محمدا ليس إلا بشر قد مضت الرسل قبله فماتوا وقتل بعضهم كزكريا ويحيى ، ولم يكتب لأحد منهم الخلد .

أفان مات كما مات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين ، أو قتل كما قتل زكريا ويحيى ، تنقلبوا على أعقابكم راجعين عما كنتم عليه ؟ والرسول ليس مقصودا لذاته ، بل المقصود ما أرسل به من الهداية التى يجب على الناس أن يتبعوها .

قال أنس بن النضر فى الساعة التى زاغت فيها الأبصار والبصائر ، وبلغت القلوب فيها الحناجر ، وحين فشا فى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، وقال بعض ضعفاء المؤمنين ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى فياخذ لنا أمانة من أبى سفيان ، وقال ناس من أهل النفاق إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول (إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه) ثم قال (اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل رضى الله عنه) .

وأما المؤمنون الصادقون الموقنون فمنهم من ثبت معه ، ومنهم من كان بعيدا

عنه فرجع إليه كأبي بكر وعلى وطلحة وأبي دُجانة الذي جعل نفسه ترسا دونه ، فكان يقع عليه النبُل وهو لا يتحرك .

والخلاصة - أن قتل محمد صلى الله عليه وسلم لا يوجب ضعفا في دينه لأمرين :
(أ) أن محمداً بشر كسائر الأنبياء ، وهؤلاء قد ماتوا أو قتلوا .

(ب) أن الحاجة إلى الرسول هي تبليغ الدين فإذا تم له ذلك فقد حصل الغرض ولا يلزم من قتله فساد دينه .

وفي الآية هداية وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب أو عدم استمرارها ذا صلة بوجود القائد بحيث إذا قتل انهزم الجيش ، أو استسلم للأعداء ، بل يجب أن تكون المصالح العامة جارية على نظام ثابت لا يزله فقد الرؤساء ، وعلى هذا تجرى الحكومات والحروب في عصرنا الحاضر .

ومن توابع هذا النظام أن تعد الأمة لكل أمر عده ، فتوجد لكل عمل رجالا كثيرين ، حتى إذا فقدت معلما أو مرشداً أو قائداً أو حاكماً أو رئيساً أو زعيماً وجدت الكثير ممن يقوم مقامه ويؤدي لها من الخدمة ما كان يؤديه ، وحينئذ يتنافس أفرادها ويحفزون عزائمهم للوصول إلى ما يمكن أن يصل إليه كسب البشر ، وينال كل منه بقدر استعداده وسعيه وتوفيق الله له .

(ومن يتقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) أى ومن يرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئا بما فعل ، بل يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ، وحرمانها من الثواب ، فالله قد وعد بنصر من ينصره ويعز دينه ويجعل كلمته هي العليا ، وهو لا محالة منجز وعده .

ولا يحول دون ذلك ارتداد بعض الضعفاء والمناققين على أعقابهم ، فهو سيثبت المؤمنين ويمحصهم حتى يكونوا كالتبر الخالص ، فيقيموا دينه ، وينشروا دعوته ، ويرفعوا شأنه ، وتُنشَر على الخافقين رأيتُه ، وهو الذى بيده الخلق والأمر وهو القادر على كل شيء .

(وسيجزى الله الشاكرين) له نعمه عليهم بالإيمان والهداية إلى أقوم السبل .
 وفي الآية إرشاد إلى أن المصائب التي تحمل بالإنسان لا مدخل لها في كونه على
 حق أو باطل ، فكثيرا ما يتبلى صاحب الحق بالمصائب والزوايا ، وصاحب الباطل
 بالنعم والعطايا .

وفيهما إيحاء إلى أنا لا نعتمد في معرفة الحق والخير على وجود المعلم بحيث نتركهما
 عند موته ، بل نسير على منهاجها حين وجوده وبعد موته .

والخلاصة - أن الله أوجب علينا أن نستضيء بالنور الذي جاء به الرسول صلى
 الله عليه وسلم ، أما ما يصيب جسمه من جرح أو ألم ، وما يعرض له من حياة
 أو موت ، فلا مدخل له في صحة دعوته ، ولا في إضعاف النور الذي جاء به ،
 فإنما هو بشر مثلكم خاضع لسنن الله كخضوعكم .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا) أى ليس من شأن
 النفوس ولا من سنة الله فيها أن تموت بغير إذنه تعالى ومشيئته التي بها يجرى نظام
 الحياة وترتبط فيها الأسباب بالمسببات .

وقوله كتابا مؤجلا أى أثبتته الله مقرونا بأجل معين لا يتغير ، ومؤقتا بوقت
 لا يتقدم ولا يتأخر ، فكثير من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات
 الحروب ، أو يتعرضون لعدوى الأمراض ، أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة ، وهم مع
 ذلك لا يصابون بالأذى ، فالشجاع المقدم قد يسلم في الحرب ، ويقتل الجبان
 المتخلف ، ويفتك المرض بالشاب القوى ، ويترك الضعيف الهزيل ، وتقتال عوامل
 الأجواء الكهل المستوى ، وتتجاوز الشيخ الضعيف ، فللأعمار آجال ، وللآجال
 أقدار لا تخطوها ، والأقدار هي السنن التي عليها تقوم نظم العالم وإن خفيت على
 بعض الناس ، وإذا كان محيانا ومماننا بإذن الله فلا محل للخوف والجبن ولا عذر
 في الوهن والضعف ، ومما ينسب إلى علي قوله :

أىَّ يومٍ من الموت أفرَّ يوم لا يقدر أم يوم قُدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجو الحذر
 وفي الآية تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو ، فإنه إذا كان الأجل
 محتوماً ومؤقتاً بيمقات ، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المعارك واقتحم
 المهالك فلا محل إذاً للخوف والحذر — إلى ما فيها من الإشارة إلى كلاءة الله وحفظه
 لرسوله مع غلبة العدو له والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهضة للمختلس ، فلم يبق
 سبب من أسباب الهلاك إلا قد حصل ، ولكن لما كان الله حافظاً وناصرأ له لم يضره
 شيء ، وفيها إشارة إلى أن قومه قد قصرُوا في الذب عنه .

(ومن يرد ثواب الدنيا نُؤْتِه منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نُؤْتِه منها) أى من
 قصد بعمله حظ الدنيا أعطاه الله شيئاً من ثوابها ، ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظاً
 من ثوابها .

وفي معنى الآية الحديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ...
 وفيها تعريض بالذين شغلهم الغنائم يوم أحد ، فتركوا موقعهم الذى أمرهم النبي
 صلى الله عليه وسلم بلزومه ، وكأنه يقول لهم إن كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم
 ذلك ، وما عليكم إلا أن تسلكوا سبيله ، ولكن ليس هذا هو الذى يدعوكم إليه
 محمد صلى الله عليه وسلم ، بل يدعوكم إلى خير ترون حظاً منه في الدنيا والمعول عليه
 ما في الآخرة .

فأتم بين أمرين : إما إرادة الدنيا ، وإما إرادة الآخرة ، ولكل منهما سنن
 تتبع ، وطرق تسلك ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ
 نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ نَصِيبٍ » .

ومن هدى الإسلام أن يطلب المرء بعمله خيري الدنيا والآخرة معاً ويقول :
 (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) والله يعطيه كل ما يطلب أو بعضه على
 حسب سنن الله وتدييره لنظم الحياة .

وعلى الإنسان أن يعلم أن له طورين :

- (١) طور عاجل قصير وهو طور الحياة الدنيا .
- (٢) طور آجل أبدي وهو طور الحياة الآخرة .

وسعادته في كل من الطورين مرتبطة بإرادته وما توجهه إليه من العمل ، فالناس إنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد ، فقوم يحاربون حبا في الربح والكسب ، أو ضراوة بالفتك والقتل ، فإذا غلبوا أفسدوا في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، وقوم يحاربون دفاعا عن الحق وإقامة لقوانين العدل ، فإذا غلبوا عمروا الأرض وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فهل يستوى الفريقان وهما في المقصد مفترقان ؟

كذلك يطلب الرجل الربح والكسب أحيانا بكل وسيلة مستطاعة طلبا لذاته ، والحصول على شهواته ، فيغلو في الطمع ، ويمعن في الخيل ، ولا يبالي أمن الحرام أكل أم من الحلال ؟ يأكل الربا أضعافا مضاعفة ، فيجمع القناطير المقطرة ، وهو مع ذلك يمنع الماعون ، ولا يحض على طعام المسكين ، ولو سئل البذل في المصالح العامة كان أشد الناس بخلا وأقبضهم كفا ، بينما يطلب آخر الكسب طلبا للتجمل وحببا للكرامة في قومه وعشيرته ، فيقتصد في الطلب ، ويتحرى الربح الحلال ، ويلتزم الصدق والأمانة ، ويتعد عن الفسوق والخيانة ، وهو مع هذا ينفق مما أفاء الله به عليه ، فيواسي البائسين ، ويساعد المعوزين ، وتكون له اليد الطولى في الأعمال النافعة لأُمَّته ، فيشيد لها المدارس والمعابد ، والملاجئ والمستشفيات ، فهل ينظر الناس إلى هذين نظرة متساوية ، وهل هما في القرب عند الله بمنزلة واحدة ، أو يفضل أحدهما الآخر بحسن القصد والإرادة والميل إلى الخير وحب المصلحة العامة .

وقصارى القول — أن أقدار الرجال تتفاوت وتختلف باختلاف إراداتهم ، فبينما تتسع دائرة وجود الشخص على حسب كبر إرادته وسعة مقصده ، فتحيط بالكرة الأرضية ، بل فوق ذلك بما يكون له من الكرامة في العالم العلوى — إذا

بآخر تضيق دائرة وجوده إذا هو أخذ إلى الشهوات ، وركن إلى اللذات ، فيكون حظه من عمله كحظ الحشرات ، يأكل ويشرب ويبغى على الضعيف ويخاف من القوى .

والله قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم، ولا يقدر مثل هذا إلا القليل منهم .
(وسنجزى الشاكرين) الذين يعرفون أنعم الله عليهم ويستعملونها فيما يرتقى بهم إلى مراتب الكمال ، فيعملون صالح الأعمال التي ترفع نفوسهم ، وتنفع أمتهم كأحسن ابن النضر وأمثاله الذين جاهدوا وصبروا مع النبي صلى الله عليه وسلم بما كان لهم من الإرادة القوية التي كانت السبب في انجلاء المشركين عن المساهمين .

وبعد أن ضرب الله تعالى لهم المثل في أنفسهم بأنهم كانوا قبل الموقعة يتحرقون شوقا إلى لقاء العدو ، ثم أصابهم ما أصابهم عند لقائه — ضرب لهم المثل بغيرهم من أتباع الأنبياء السالقين ورَبِّهِم الذين لم يلحقهم وهن ولا ضعف بعد قتل أنبيائهم ، بل صبروا واحتملوا الإيذاء حتى تغلب الحق على الباطل .

وفي هذا من شديد التوبيخ لأولئك المنهزمين الذين لم يستنوا بسنة الرابانيين المجاهدين مع الرسل صلوات الله عليهم ، مع أنهم أجدر بذلك منهم إذ كانوا خير أمة أخرجت للناس فقال :

(وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) أى إن كثيرا من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من آمن بهم واعتقد أنهم هداة ومعلمون لأرباب معبودون ، فما وهنوا لما أصاب بعضهم من جرح أو قتل حتى ولو كان المقتول هو نبيهم نفسه ، لأنهم يقاتلون في سبيل الله لا في سبيل نبيهم ، علما منهم بأن النبي ما هو إلا مبلغ عن ربه وهاد لأمته « وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » وما ضعفوا عن جهاد عدوهم ، ولا استكانوا ولا خضعوا له ، ولا ولّوا الأدبار ، بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه في حال الحياة ، إذ هم على يقين من ربهم في أن الجهاد

في السبيل التي يرضاها من تقرير العدل في الأرض وحماية الحق وما يتبع ذلك ويلزمه .

والخلاصة — عليكم أن تعتبروا بحال أولئك الربيين وتصبروا كما صبروا ، فإن دين الله واحد ، وسنته في خلقه واحدة ، ومن ثم طلب إليكم أن تعرفوا عاقبة من سبقكم من الأمم ، وتقتدوا بعمل الصادقين الصابرين منهم ، وتقولوا مثل قول أولئك الربيين .

وبعد أن بين سبحانه مفاخر أفعالهم أردفها بمحاسن أقوالهم فقال :

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) أي إن هؤلاء الربيين لم يكن لهم من قول عند اشتداد الخطوب ونزول الكوارث إلا الدعاء لربهم بأن يغفر لهم بجهادهم ما كانوا ألموا به من الذنوب ، وتجاوزوا فيه حدود الشرائع ، وأن يثبت أقدامهم على الصراط القويم الذي هدام إليه حتى لا ترحزهم الفتن ولا يعرفهم الفشل والوهن حين مقابلة الأعداء ، وأن ينصرهم على القوم الكافرين الذين يجحدون الآيات ، ويعتدون على أهل الحق ، فلا يمكنونهم من إقامة ميزان القسط ، فما النصر إلا من عند الله يؤتیه من يشاء بمقتضى السنن التي هدى إليها خلقه ، وألهمها عباده .

وفي هذا إيحاء إلى أن الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان ، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ، ومن ثم سألوا ربهم أن يحو من نفوسهم أثر الذنوب ، وأن يوقفهم إلى دوام الثبات حين تزل الأقدام .

وقد قدموا طلب المغفرة من الذنوب على طلب النصر ليكون الدعاء في حيز القبول ، فإن الدعاء المقرون بالخضوع والطاعة الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة .

وفي طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دل عليها قوله : (ربيون كثير) إعلام بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات الأقدام والتمسك بأهداب الحق .

كما أن في ذكر قولهم هذا دون ذكر ما فيه جزع وخور — تعريضاً بأولئك المنهزمين من المسلمين يوم أحد .

(فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا) بالنصر على الأعداء ، والظفر بالغنيمة ، والسيادة في الأرض ، والكرامة والعزة وحسن الأحدثوة والذكر الحسن ، وقد سمي ذلك ثواباً لأنه جزاء على الطاعة ، وامتنال أوامر الله .

(وحسن ثواب الآخرة) بنيل رضوان الله ورحمته ، والقرب منه في دار الكرامة وقد فسر بقوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وقوله في الخبر « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وما حصلوا على ذلك إلا بما قدموا من صالح العمل الذي كان له أحسن الأثر في نفوسهم فارتقت به إلى حظيرة القدس ، وتخصيص الحسن بهذا الثواب إيذاناً بفضله ، وأنه المعتد به عند الله ، وأنه ثواب لا يشوبه أذى ، فهو ليس كثواب الدنيا عرضة للأذى والنقصات .

وإنما جمع لهم بين الثوابين ، لأنهم أرادوا بعملهم هاتين السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، كما هو شأن المؤمن « وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً » .

وهذه الآية وأشباهاها حجة على الغالين في الزهد الذين يتخرجون عن الاستمتاع بشيء من لذات الدنيا ، ويعدون ذلك منافياً للتقوى ، ومبعداً عن رضوان الله .

(والله يحب المحسنين) لأنهم هم الذين يقيمون سننه في أرضه ، ويظهرون بأنفسهم وأعمالهم أنهم جديرون بخلافه الله فيها ولا تكون أعمالهم إلا بما يرضى الله ، فهي من الله والله .

وقد جاء في الآية الترتيب هكذا — التوفيق على الطاعة ، ثم الثواب عليها ، ثم المدح على ذلك إذ سماهم محسنين ، ليكون في ذلك توجيه للعبد ليعلم أن كل ذلك بعنايته تعالى وفضله .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)
سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ
بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

شرح المفردات

المراد بالذين كفروا أبو سفيان لأنه كان شجرة الفتن ، وقال آخرون المراد عبد
الله بن أبيّ وأتباعه من المنافقين الذين ألقوا الشبهات في قلوب الضعفة من المؤمنين ،
وقالوا لو كان محمد رسول الله ما وقعت هذه الوقعة ، وإنما هو رجل كسائر الناس يوم
له ويوم عليه ، فارجعوا إلى دينكم الذى كنتم عليه ، يردوكم على أعقابكم أى يرجعوكم
إلى الكفر بعد الإيمان ، خاسرين أى لاستبدالكم ذلة الكفر بعرّة الإسلام ،
والانقياد للأعداء الذى هو أشق شىء على النفوس ، والحرامانكم من الثواب والوقوع
فى العذاب ، والمولى الناصر والمعين والرعب شدة الخوف التى تملأ القلب ، والسلطان
الحجة والبرهان وأصله القوة ، وسمى البرهان سلطانا لقوته على دفع الباطل ، والمثوى
المكان الذى يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى يثوى ثويا إذا أقام .

المعنى الجملى

بعد أن رغب الله المؤمنين فى الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان ما لهم
من الفضل وعظيم الأثر وحسن العاقبة .

نهام عن متابعة الكفار ببيان سوء مغبتها فى دينهم ودينام ، والخطاب موجه
إلى كل من سمع من المؤمنين مقالة أولئك القائلين من المنافقين - ارجعوا إلى إخوانكم
ودينكم ، فإن الكفار لما أرفجوا أن النبى قد قتل دعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين
إلى الكفر فنهام الله عن الالتفات إلى كلامهم .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) أي إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم فتقبلوا رأيهم وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون - يحملوكم على الردة بعد الإيمان والكفر بالله وآياته ويرجعوكم عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له خاسرين للدنيا والآخرة ، أما خسران الأولى فبخضوعكم لسلطانهم وذللتكم بينهم وحرمانكم من السعادة والملك والتمكين في الأرض كما وعد الله المؤمنين الصادقين « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » .

وأما خسران الثانية فبما يصيبكم من العذاب الأبدي في النار وبئس القرار .
(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) أي لا تفكروا في ولاية أبي سفيان وشيعته ، ولا عبد الله بن أبي وحزبه ، ولا تأهبوا لإغوائهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصرا ، وإنما الله هو الذي ينصركم بعنايته التي وعدكم بها في قوله : « فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاهُمْ وَمَا كُمْ زَعَمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَوْلَىٰ وَنَعِمَ النَّصِيرُ » فقد جرت سنته أن يتولى الصالحين ويخذل الكافرين كما قال : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ » .

(سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) أي إنه سبحانه سيحكم في أعدائكم الكافرين سنته ويلقى في قلوبهم الرعب بسبب إشرائهم بالله أصناما ومعبودات لم يقم برهان من عقل ولا نقل على ما زعموا من

ألوهيتها ، وكونها واسطة بين الله وخلقه ، وإنما قلدوا فى ذلك آباءهم الذين ضلوا من قبل ، ومن ثم كانوا عرضة لاضطراب القلب ، واتباع خطوات الوهم ، فهم يعدون الوسواس أسبابا ، والهواجس مؤثرات وعلا ، ويرجون الخير مما لا يرجى منه الخير ، ويخافون مما لا يخاف منه الضير .

وفى الآية إيماء إلى بطلان الشرك ، وسوء أثره فى النفوس ، إذ طبيعته تورث القلوب الرعب ، باعتقاد أن لبعض المخلوقات تأثيرا غيبيا وراء السنن الإلهية ، والأسباب العادية ، فالمشركون الذين جاهدوا الحق ، وآثروا مقارعة الداعى ومن استجاب له بالسيف ، بغيا وعدوانا — يرتابون فيما هم فيه ويتزلزلون إذا شاهدوا الذين دعواهم ثابتن مطمئنين ، ولا يزال ارتيابهم يزيد حتى تمتلئ قلوبهم رعبا .

والخلاصة — أن طبيعة المشركين إذا قاوموك أيها المؤمنون ، أن تكون نفوسهم مضطربة ، وقلوبهم ممتلئة رعبا وهلعا منكم فلا تخافوهم ، ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى موالاتهم والالتجاء إليهم .

وبعد أن بين أحوال هؤلاء المشركين فى الدنيا من وقوع الخوف والهلع فى قلوبهم — ذكر أحوالهم فى الآخرة فقال :

(وماوهم النار وبئس مثنوى الظالمين) أى إن مسكنهم النار بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة أهله ، وظلمهم للناس بسوء المعاملة .
وفى التعبير بالمثنوى النبىء عن المكث الطويل دليل على الخلود فيها .

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ
يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ،

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ
وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ، فَأَتَابَكُمْ عَمَّا
بِغَمٍّ لِكُنِيَ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى
طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ،
يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ
مَا قَاتَلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ
يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا
اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

شرح المفردات

تحسونهم: أى تستأصلونهم بالقتل من قولهم: جراد محسوس: إذا قتله البرد، وسنة
حسوس: إذا أتت على كل شيء، فكان القاتل أبطل حسه بالقتل كما يقال بطنه
أصاب بطنه، ورأسه أصاب رأسه، بإذنه أى بعونه وتأيبده، فشتم أى ضعفت،
فى الأمر أى أمر الحرب، صرفكم عنهم أى كفكم عنهم حتى تحولت الحال من الغلبة
إلى ضدها، لِيبتليكم أى ليختبركم، والمراد ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر،

عفا عنكم أى تاب عليكم ، تصعدون أى تذهبون فى الأرض وتبعدون ، يقال أصدنا من مكة إلى المدينة أى ذهبنا ، ولاتلون على أحد أى لا تلتفتون إلى أحد من شدة الحرب ، يقال فلان لا يلوى على شىء أى لا يعطف عليه ولا يبالى به ، فى أخراكم أى فى آخركم يقال جئت فى آخر الناس ، وفى أخراهم ، وفى أخرياتهم ، فأتابكم أى جازاكم ، الغم : ألم أو ضيق فى الصدر يكون من الأمر الذى يسوء الإنسان ولا يدرى الخرج منه ، والأمنة الأمن وهو ضد الخوف ، يغشى ويغشى ويستر ، يقال غشيه الغم أو النوم أى غطاه كما يلقي الستر على الشىء ، لبرز : أى نخرج لسبب من الأسباب ، إلى مضاجعهم : أى مصارعهم التى قدر قتلهم فيها ، وذات الصدور السرائر ، والجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين ، استزلهم أى أوقعهم فى الزلل والخطيئة ، ببعض ما كسبوا أى بسبب بعض الذنوب التى اقترفوها ، فمنعوا من التأييد الإلهى .

المعنى الجملى

روى ابن جرير عن السدى قال : لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأحد أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم ، فإننا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال : يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يُعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار؟ فقام إليه على بن أبى طالب فقال : والذى نفسى بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار ، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة ، فضربه على رقبة رجله فسقط فانكشفت عورته فقال : أنشدك الله والرحم يابن عم فتركه ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أصحاب على له : ما منعك أن تجهز عليه؟ قال : إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييت منه ، ثم شد الزبير بن العوام والمقداد

ابن الأسود على المشركين فهزماهم ، وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهزموا
أبا سفيان ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل فرمته الرماة
فانقمع .

ثم لما نظر الرماة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جوف عسكر
المشركين ينتهبونه بادروا الغنيمة ، فقال بعضهم : لا نترك أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر .

فلما رأى خالد قلة الرماة صاح في خيله ، ثم حمل على أصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم ، فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل تنادوا ، فشدوا على المسلمين فهزموهم
وقتلوا منهم نحو سبعين .

ونستخلص من هذه الرواية أمرين :

(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الرماة ألا يبرحوا مكانهم ، وأنه قال لهم
لا تزال غالبين ما ثبتم مكانكم .

(٢) أن الذي عصى أمره من الرماة عامتهم ، أما الذين بلغ الإيمان قرارة
نفوسهم فقد ثبتوا .

وروى الواحدى عن محمد بن كعب قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد - قال ناس من أصحابه ، من أين
أصابنا هذا ، وقد وعدنا الله تعالى النصر؟ فأنزل الله (ولقد صدقكم الله وعده) الآية .

الإيضاح

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) أى ولقد وفى لكم ربكم بوعده
الذى وعدكم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من النصر على العدو حين
تقتلونهم قتلا ذريعا بتيسير الله ومعونته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدهم
النصر يومئذ إن اتهموا إلى أمره .

(حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون) أى صدقكم الله وعده حتى ضعفتم في الرأى والعمل ، فلم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة ، وتنازعتم ، فقال بعضكم : ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون؟ وقال آخرون : لانخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعصيتم رسولكم وقأندكم بترك أكثر الرماة للمكان الذى أقامهم فيه يحمون ظهور المقاتلة بنضح المشركين بالنبل ، من بعد ما أراكم ماتحبون من النصر والظفر ، فصبرتم على الضراء ولم تصبروا على السراء .

وصفوة القول — أن الله نصركم على عدوكم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع وعصيان أمر قأندكم صلى الله عليه وسلم ، فاتتهى النصر ، لأن الله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط التقوى والصبر على الطاعة .

وفى قوله من بعد ما أراكم ماتحبون — تنبيه إلى عظم المعصية ، لأنه كان من حقهم حين رأوا إكرام الله لهم بإنجاز الوعد أن يمتنعوا عن عصيانه فلما أقدموا عليه لاجرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم .

(منكم من يريد الدنيا) وهم الذين تركوا مقعدهم الذى أقعدهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب من أحد وذهبوا وراء الغنيمة .

(ومنكم من يريد الآخرة) وهم الذين ثبتوا من الرماة مع قأندهم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة وكان الرماة قبلنا نحو خمسين ، والذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثون رجلا .

(ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) أى ثم كففكم عنهم حتى تحولت الحال من النصر إلى ضدها ، ليعاملكم معاملة من يمتحن ، ليستبين أمركم وثباتكم على الإيمان .

والخلاصة — أن الله صدقكم وعده ، فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حسن واستئصال ، ثم صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم ، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك أى ليكون ذلك ابتلاء واختبارا لكم بمحضكم به ، ويميز الصادقين من المنافقين .

(ولقد عفا عنكم) بذلك التمهيد الذي يحا أثر الذنب من نفوسكم حتى صرتم كأنكم لم تفشلوا ، وقد استبان أثر هذا العفو فيما بعد ، كما حدث في وقعة (حراء الأسد) .

(والله ذو فضل على المؤمنين) أى والله ذو فضل وطول على أهل الإيمان به وبرسوله ، فيعفو عن كثير مما يستوجبون به العقوبة من الذنوب ، ولا يذرم على ما هم عليه من تقصير يهبط بنفوس بعض ، وضعف يلم بأخرين ، بل يمحص ما في صدورهم حتى يكونوا من المخلصين الطائعين الخجبتين .

(إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) أى صرفكم عنهم حين أصعدتم وذهبتم منهزمين ، لا تلتفتون من شدة الدهشة التي عرتمكم ، والذعر الذي فجأكم .

وبينا أنتم في هذه الحال إذا بالرسول يدعوكم من ورائكم وينادى ، هلم إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكره فله الجنة ، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون ، وقد كان لكم أسوة بالرسول ، فتقتدون به في الصبر والثبات .

(فأنا بكم غما بغم) قال في الأساس : إنه لفي غمة من أمره : إذا لم يهتد للخروج منه ، ومنه قوله تعالى : « لا يَسْكُنُ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » والغم الأول ما حصل للصحابة رضوان الله عليهم بالهزيمة والقتل ، والغم الثانى للرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره ، أى إنكم لما أذقم الرسول غما بسبب عصيانكم أمره ، أذاقكم الله غم الانهزام وقتل الأحباب .

والخلاصة — أنه أذاقكم هذا عوض هذا .

وقد يكون المعنى — جازاكم غما متصلا بغم من الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الجرح والقتل وظفر المشركين بكم حتى صرتم من شدة الدهش يضرب بعضكم بعضا ، وقد فاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها .

(لى لا تحزنوا على ما فاتكم) أى لأجل أن تمرنوا على تجموع الغموم ،

وتتعدوا احتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعد على ما يفوت من المنافع والمغانم .
(ولا ما أصابكم) أى ولا تحزنوا على ما أصابكم من المضار ، إذ التربية إنما
تكون بالعمل والمران الذى يكمل به الإيمان وتثبت الفضائل .

(والله خبير بما تعملون) فهو عالم بجميع أعمالكم ومقاصدكم ، والدواعى التى
حفرتكم عليها ، وقادر على مجازاتكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .
وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن الإقدام على المعصية .

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة ناعسا) أى ثم وهبكم من بعد الغم الذى
اعتراكم أمانة أزال عنكم الخوف الذى كان بكم ، حتى نعستم وغلبكم النوم ، لتستردوا
ما فقدتم من القوة بما أصابكم من القرح وما عرض لكم من الضعف .
والنوم نعمة كبرى لمن يصاب بمثل تلك المصائب ، وعناية من الله يخص بها
بعض عباده فى مثل تلك المحن ليخفف وقعها على النفوس .

وعن أبى طلحة رضى الله عنه غشينا النعاس ونحن فى مصافنا ، فكان السيف
يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه ، وما من أحد إلا يميل تحت
حجفته (ترسه) .

وعن الزبير رضى الله عنه ، لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
اشتد علينا الخوف ، فأرسل الله علينا النوم ، والله إنى لأسمع معتب بن قشير
والنعاس يغشانى ، ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا .
(يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار الذين كانوا
على بصيرة فى إيمانهم .

(وطائفة قد أهتمهم أنفسهم) يقال همني الشيء أى كان من همى وقصدى
أى وجماعة من المنافقين كعبد الله بن أبى ومعتب بن قشير ومن لف لفهم ، قد شغلوا
بأنفسهم عن الرسول والدفاع عن الدين .

وخلاصة هذا — أن المؤمنين بعد انتهاء الموقعة صاروا فريقين :

(١) فريق ذكروا ما أصابهم فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم ، وذكروا وعد الله بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم ، ووثقوا بوعد ربهم ، وأيقنوا أنهم إن غلبوا هذه المرة بسبب ما أصابهم من الفشل والتنازع وعصيان الرسول ، فإن الله سينصرهم بعد ، فأنزله الله عليهم النعاس أمانة حتى يستردوا ما فقدوا من قوة ، ويذهب عنهم ما عرض لهم من ضعف .

(٢) فريق أذهلهم الخوف حتى صاروا مشغولين عن كل ماسواهم ، إذ الوثوق بوعد الله ووعد رسوله لم يصل إلى قرارة نفوسهم ، لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم ، لأجرم عظم الخوف لديهم وحق عليهم ما وصفهم الله به من قوله :
(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) غير الحق أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظنوه ، إذ كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد نبيا حقا ما ساط الله عليه الكفار وهذا مقال لا يقوله إلا أهل الشرك بالله ،

(يقولون هل لنا من الأمر من شيء ؟) أى يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار : هل لنا من النصر والفتح والظفر نصيب ؟ يعنون أنه ليس لهم من ذلك شيء ، لأن الله سبحانه وتعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهم قد فهموا أن النصر وحقية الدين متلازمان ، فما حدث فى ذلك اليوم دليل على أن هذا الدين ليس بحق ، وهذا خطأ كبير ، فإن نصر الله رسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالا ولكن العاقبة للمتقين .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها .

(قل إن الأمر كله لله) أى إن كل أمر يجرى فهو على حسب سننه تعالى فى الخليقة ، وعلى وفق النظم التى وضعها ، وربط فيها الأسباب بالمسببات .
ومن ذلك نصر من ينصره من المؤمنين كما وعد بذلك فى قوله : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقوله : « وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .
(يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك) أى يضمرون فى أنفسهم مالا يستطيعون

إعلانه لك ، فهم يظهرون أنهم يسألون مسترشدين طالبين النصر بقولهم (هل لنا من الأمر من شيء) ويبطنون الإنكار والتكذيب .
 (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) أى يقولون لو كان أمر النصر والظفر بأيدينا كما ادعى محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه ، وأنهم الغالبون لما غلبنا قط ، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة .

وهذا منهم تقرير لرأيهم واستدلال عليه بما وقع لهم ، وقد غفلوا عن أن الآجال محدودة ، والأعمار موقوتة بوقت لا تعدوه ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يجيبهم بقوله :
 (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)
 أى لو كنتم فى بيوتكم ولم تخرجوا للقتال — لخرج من بينكم من انتهت آجالهم وثبت فى علم الله أنهم يقتلون إلى حيث يقتلون ويسقطون فى البراز (الأرض المستوية) فتكون مصارع ومضاجع لهم .

والخلاصة أن الحذر لا يدفع القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير ، فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال ، وإلا انقلب علم الله جهلا ، فقتل من قتل إنما جاء لانتهاه آجالهم كما قدر ذلك فى اللوح المحفوظ ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله .

(وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم) أى وقد فعل ذلك ليكون القتل عاقبة من انتهت آجالهم ، ولتبتحن ما فى صدور المؤمنين من الإخلاص وعدمه ، فيظهر ما انطوت عليه من ضعف وقوة ، ويمحص ما فى قلوبهم من وساوس الشيطان ، ويظهرها حتى تصل إلى الغاية القصوى من الإيقان .

وقد قيل : لا تكثرهوا الفتن ، فإنها حصاد المناقنين .
 (والله عليم بذات الصدور) أى عليم بالأسرار والضمائر ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وفى هذا ترغيب وترهيب ، وتنبية إلى أن الله غنى عن الابتلاء والامتحان ،

وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كمران المؤمنين على الصبر وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين ، لأن الحقائق قد تخفى على أربابها ، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص ولا ابتلاء ، كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه كما تقدم .

(إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) أي إن الرماة الذين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين ، ما تركوا هذه المواقع إلا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل واستجراره لهم بالسوسة ، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص فيها الإنسان سهلت استيلاء الشيطان على نفسه ، فهم قد انحرفوا عن أماكنهم بتأول ، إذ ظنوا أنه ليس للمشركين رجعة من هزيمتهم ، فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنائم فوات منفعة ولا وقوع في ضرر ، ولكن هذا التأول كان سببا في كل ما جرى من المصائب التي من أجلها ما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذنب يجر إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة ، وعلى هذا فالزلل الذي أوقعهم فيه الشيطان هو ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليهم عن مكانهم طمعا في الغنيمة ، وهذا التولي هو بعض ما كسبوا .

وفي هذا إيماء إلى سنة من سنن الله في أخلاق البشر وأعمالهم ، وهي أن المصائب التي تعرض لهم في خاصة أنفسهم أو في شؤونهم العامة ، إنما هي آثار طبيعية لبعض أعمالهم ، ولكن الله قد يعفو عن بعض الأعمال التي لا أثر لها في النفس وليست ملكة ولا عادة لها ، بل صدرت هفوة غير متكررة ، وهي التي عناها سبحانه بقوله : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » وإليها الإشارة بقوله : « وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

فهذه المصائب والعقوبات ، سواء أكانت في الدنيا أم في الآخرة — آثار طبيعية للأعمال السيئة .

(ولقد عفا الله عنهم) أى إن ما صدر منهم من الذنوب فى هذا اليوم يستحق أن يعاقبوا عليه فى الدنيا والآخرة ، لكن الله عفا عن عقوبتهم الأخروية ، وجعل عقوبتهم فى الدنيا تربية وتمحيصا .

وفى هذا دفع لاستيلاء اليأس على نفوسهم ، وتحسين لظنونهم .
(إن الله غفور حلِيم) أى إن الله يغفر الذنوب جميعا صغيرها وكبيرها بعد التوبة والاعتذار ، حلِيم لا يعاجل بالعقوبة على الذنب .

وقد جاءت هذه الجملة كالسبب للعفو عن هؤلاء المتولين . وقد كانوا أكثر المقاتلين ، فإنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلا ، خمسة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار ، وقد بالغ بعض المنهزمين فى الفرار حتى إن بعضهم لم يرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد ثلاثة أيام ، فقال لهم لقد ذهبتم بها عريضة ، وبعضهم رجع فى ذلك اليوم واجتمعوا على الجبل كعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا
لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ
خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

شرح المفردات

المراد بالذين كفروا هنا المنافقون كعبد الله بن أبى وأصحابه ، ضربوا فى الأرض أى سافروا فيها للتجارة والكسب ، لإخوانهم أى فى شأنهم ، والأخوة تشمل أخوة النسب وأخوة الدين والمودة ، وغزى : واحدكم غاز وهو المقاتل فى الحرب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف لعباده المؤمنين أن الهزيمة التي حلت بهم يوم أحد كانت بوسواس من الشيطان استزلهم به فزلوا — حذرهم هنا من مثل هذه الوسوسة التي أفسد بها الشيطان قلوب الكافرين .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) أى لا تكونوا أيها المؤمنون كأوتك المناقين الذين قالوا فى شأن إخوانهم حين سافروا فى الأرض للتجارة والكسب فأتوا ، أو كانوا غزاة فى وطنهم أو فى بلاد أخرى فقتلوا ، لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا .

وعبر عن هؤلاء المناقين بالكافرين ، لبيان أن مثل هذا لا ينبغى أن يصدر من المؤمنين، بل إنما يصدر من الكافرين ، إذ أن من مات أو قتل فقد انتهى أمره ، فقولهم (لو كان كذا) عبث لأن ما وقع لا يرتفع ، والحسرة عليه لا تفيد ، ومن شأن المؤمنين أن يكونوا صحيحى العقل والإدراك .

إلى أن فى هذا القول جهلا بالدين وجحداً له فإن الله يقول : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا » وعقيدة القضاء والقدر لا تجعل المسلم مجبوراً على أفعاله التى تصدر منه ، فإن القضاء تعلق العلم الإلهى بالشىء ، والعلم انكشاف لا يفيد الإلزام ، والقدر وقوع الشىء على حسب العلم ، والعلم لا يكون إلا مطابقاً للواقع وإلا كان جهلاً .

والله تعالى قد جعل للإنسان اختياراً فى أعماله ، لكنه خلقه مع ذلك ناقص القدرة والإرادة والعلم ، فقد يعزم على العمل ثم تنفسخ عزيمته لتغير عامله بالمصلحة ،

أو لعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه ، مع اعتقاده بأنه هو الموافق للمصلحة لمرض يلم به ، أو مانع يحول بينه وبين تنفيذ ما عزم عليه .

وإنا لنرى هذا يحدث كل يوم ، فليس الإنسان بقادر على أن يفعل كل ما يشاء كما يخيل إلى الناس اغتراراً بما ينفذونه من عزائمهم ، فاختياره في أعماله وقدرته عليها ومعرفته الأسباب ، كل ذلك له حدود لا يتعداها ، فهو لا يحيط علماً بأسباب الموت ، ولا يقدر على اجتناب كل ما يعلم من أسبابه ، وما كل ما يتعرض له يقع ، فالذين يعرضون أنفسهم لنار الحرب قد يسلم أكثرهم ويقتل أقلهم .

ومن هذا تعلم أن الشيء متى وقع علم أن وقوعه لم يكن منه بد ، وأن الإنسان إذا كان يؤمن بمعونة الله وتأنيده ، وأنه يوقفه إلى علم ما يجهل من أسباب سعادته ، يكون مع أخذه بالأسباب أنشط في العمل ، وأبعد عن اليأس والكسل .

(ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) أى لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا فيمن ماتوا أو قتلوا ما قالوا ، ليكون عاقبة ذلك القول مع الاعتقاد حسرة في قلوبهم على من فقد من إخوانهم تزيدهم ضعفاً وتورثهم ندماً على تمكينهم إياهم من التعرض لما ظنوه سبباً ضرورياً للموت ، فإنكم إذا كنتم مثلهم في ذلك يصيبكم من الحسرة مثل ما يصيبهم ، وتضعفون عن القتال كما يضعفون ، فلا يكون لكم ميزة عنهم بالعقل الراجح الذى يهدى صاحبه إلى أن الذى وقع كان لابد أن يقع ، فلا يتحسر عليه ، ولا بالإيمان الصادق الذى يزيد صاحبه إيقاناً وتسليماً بكل ما يجرى به القضاء .

(والله يحيى ويميت) أى والله هو المؤثر وحده في الحياة والموت بمقتضى سننه في أسبابهما ، وليس للإقامة والسفر مدخل فيهما ، فإن الله قد يحيى المسافر والغاوى مع تعرضهما لأسباب الهلاك ، ويميت المقيم والقاعد وإن كانا تحت ظلال النعيم .

وقد أثر عن خالد بن الوليد أنه قال عند موته : ما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت كما يموت العير (الحمار) فلا نامت أعين الجبناء . (والله بما تعملون بصير) فلا يخفى عليه شيء مما تكونون فى أنفسكم من المعقنات

التي لها أثر في أفعالكم وأفعالكم ، فاجعلوا نفوسكم طاهرة من وساوس الشيطان حتى لا يصدر منها ما يصدر من الكفار .

وفي هذا تهديد للمؤمنين حتى لا يماثلوا الكفار في أقوالهم وأفعالهم .

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) الموت في سبيل الله هو الموت في عمل من الأعمال التي يعملها الإنسان في سبيل البر والخير التي هدى الله الإنسان إليها ورضاها منه ، فالحارب قد يموت في أثناء الحرب من التعب والإعياء ، أو الإتيان بعمل من الأعمال التي تستدعيها الحروب فيكون هذا موتاً في سبيل الله .

أى إن مغفرة الله ورحمته لمن يموت أو يقتل في سبيل الله ، خير لكم من جميع ما يتمتع به الكفار من المال والمتاع في هذه الدار الفانية ، فإن هذا ظل زائل ، وذلك نعيم خالد .

والخلاصة — أن ما ينتظره المؤمن المقاتل في سبيل الله من المغفرة التي تمحو ما كان من ذنوبه ، والرحمة التي ترفع درجاته — خير له مما يجمع أولئك الحريصون على الحياة الذين يتمتعون باللذات والشهوات .

فما أجدر المؤمنين أن يؤثروا مغفرة الله ورحمته على الحظوظ الفانية ، وألا يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت في سبيل الله ، فإن ما يلقونه بعدهما خير لهم مما كانوا فيه قبلهما .

(ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) أى إنكم بأى سبب كان هلاككم فإنكم إلى الله تحشرون لإلى غيره ، فيجزى كلا منكم بما يستحق من الجزاء ، فيجازى المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، ولا يرجى من غيره ثواب ، ولا يتوقع منه دفع عقاب ، فأثروا ما يقر بكم إليه ، ويحلب لكم رضاه من العمل بطاعته ، وعليكم بالجهاد في سبيله ، ولا تركنوا إلى الدنيا ولذاتها ، فإنها فانية ، وتلك الحياة الأخرى باقية خالدة .

والمراد من الحشر إلى الله في مثل هذا مما جاء في القرآن الكريم ، أن الإنسان في ذلك اليوم الذى يحشر فيه الناس يستقبل ما يلاقه من الله جزاء عمله ، لا يشغله عنه شيء ، فيكون بذلك راجعاً عن كل شيء فيه إلى الله ، محشوراً مع سائر الناس . أما الإنسان في هذه الدار فقد يغفل عن الله وينسى هيئته وجلاله ، وعظمته وسلطانه ، لاشتغاله بدفع المكروه عن نفسه ، وجلب اللذات والرغائب لها . وإذا كان هذا مصير كل حى مهما كان سبب موته أو قتله ، فالاشتغال بذكر سبب المصير ومبده لا يفيد ، وإنما الذى يجدر بالعاقل هو الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له ، والعمل لما به الفوز والسعادة فيه .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

شرح المفردات

اللين في المعاملة : الرفق والتلطف فيها ، والفظ : الخشن الشرس الأخلاق الجافى في المعاشرة في القول والفعل ، والغليظ : القاسى الذى لا يتأثر قلبه من شيء ، وانفض القوم : تفرقوا كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا » والمشاورة : من قولهم شرت العسل إذا اجتنيته واستخرجتها من موضعها ، والمراد بالأمر سياسة الأمة في الحرب والسلم والخوف إلى نحو ذلك من المصالح الدنيوية ، والتوكل : إظهار العجز والاعتماد على غيرك والاكتفاء به في فعل ما تحتاج إليه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد سبحانه عباده المؤمنين فى الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم — زاد فى الفضل والإحسان إليهم فى هذه الآيات بأن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على عفوهم وتركه التغليظ عليهم ، وقد نزلت هذه الآيات عقب وقعة أحد التى خالف فيها النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، وكان من جرّاء ذلك ما كان من الفشل وظهور المشركين عليهم حتى أصيب النبى صلى الله عليه وسلم مع من أصيب ، فصبر وتجلد ولان فى معاملة أصحابه وخاطبهم بالرفق ولم يعاتبهم ، اقتداء بكتاب الله إذ أنزل فى هذه الواقعة آيات كثيرة بين فيها ما كان من ضعف بعض المسلمين وعصيانهم وتقصيرهم ، حتى ذكر الظنون والهواجس النفسية ، لكن مع العتب المقترن بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة .

الإيضاح

(فما رحمة من الله لنت لهم) أى إنه قد كان من أصحابك ما يستحق الملامة والتعنيف بمقتضى الطبيعة البشرية ، إذ صدروا عنك حين اشتداد الأهوال ، وشمروا للهزيمة والحرب قائمة على قدم وساق ، ومع ذلك لنت لهم وعاملتهم بالحسنى بسبب الرحمة التى أنزلها الله على قلبك ، وخصك بها ، إذ أمذك بأداب القرآن العالية ، وحكمه السامية ، حتى هانت عليك المصائب ، وعلمتك ما لها من المنافع وحسن العواقب .

وقد مدح الله نبيه بحسن الخلق فى مواضع من كتابه فقال : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » وقال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « لاحم

أحبَّ إلى الله تعالى من حلم إمام ورقفه ، ولا جهل أبغض إلى الله من جهل إمام وخرِّقه» .

(ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) أى لو كنت خشناً جافياً فى معاملتهم لتفروا عنك ، ونفروا منك ، ولم يسكنوا إليك ، ولم يتم أمرك من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوى .

ذاك أن المقصود من بعثة الرسل تبليغهم شرائع الله إلى الخلق ، ولا يتم ذلك إلا إذا مالت قلوبهم إليهم ، وسكنت نفوسهم لديهم ، وذلك إنما يكون إذا كان الرسول رحيماً كريماً يتجاوز عن ذنب المسيء ، ويعفو عن زلاته ، ويخصه بوجوه البر والمكرمة والشفقة .

(وشاورهم فى الأمر) أى أسلك معهم سبيل المشورة التى اتبعتها فى هذه الواقعة ودم عليها — فإنهم وإن أخطئوا الرأى فيها ، فإن فى تربيتهم عليها دون الانقياد لرأى الرئيس وإن كان صواباً ، نفعاً فى مستأنف أمرهم ومستقبل حكومتهم ما حافظوا عليها .

فالجماعة أبعد عن الخطأ من الفرد فى أكثر الحالات ، وما ينشأ من الخطر على الأمة بتفويض أمرها إلى واحد مهما حصف رأيه ، أشد من الخطر الذى يترتب على رأى الجماعة .

ولما كانت الاستشارة سبيلاً للنزاع ولا سيما إذا كثر المستشارون — أمر الله نبيه أن يقرر هذه السنة عملاً ، فكان يستشير صحبه بهدوء وسكينة ويصغى إلى كل قول ويرجح رأياً على رأى بما يرى فيه من المصلحة والفائدة بقدر المستطاع .

وقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم بالشورى فى حياته ، فكان يستشير السواد الأعظم من المسلمين ، ويخص بها أهل الرأى والمكانة فى الأمور التى يضر إفشاؤها . فاستشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب ولم يبرم الأمر حتى صرح المهاجرون والأنصار بالموافقة ، واستشارهم يوم أحد كما علمت ، وهكذا كان

يستشيرهم في كل مهم ما لم ينزل عليه فيه وحى ، فإنه إذ ذلك لا بد من نفاذه ، ولم يضع النبي صلى الله عليه وسلم قواعد للشورى ، لأنها تختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية ، وبحسب الزمان والمكان ، ولأنه لو وضع لها قواعد لاتخذها المسلمون ديناً وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان ، ومن ثم قال الصحابة في اختيار أبي بكر خليفة ، رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا - أمره بالإمامة في الصلاة حين مرضه - أفلا نرضاه لديننا ؟ .

ولكن الخلفاء فيما بعد لم يتبعوا هذه السنة ، ولا سيما زمن الدولة العباسية ، إذ كان للأعاجم سلطان كبير في ملكهم ، ثم جرى على ذلك سائر الملوك من المسلمين فيما بعد ، وجاراهم على ذلك علماء الدين ، حتى ظن كثير من غير المسلمين أن السلطة في الإسلام استبدادية ، وأن الشورى اختيارية ، ولكن هذا بعيد من الصواب ، بعد أن صرح القرآن بالشورى وأمر نبيه بها وهو المعصوم عن الهوى .
وللشورى فوائد جمة منها :

- (١) أنها تبين مقادير العقول والأفهام ، ومقدار الحب والإخلاص للعصاة العامة .
 - (٢) أن عقول الناس متفاوتة وأفكارهم مختلفة ، فربما ظهر لبعضهم من صالح الآراء ما لا يظهر لغيره وإن كان عظيماً .
 - (٣) أن الآراء فيها تقلب على وجوهها ، ويختار الرأي الصائب من بينها .
 - (٤) أنه يظهر فيها اجتماع القلوب على إنجاح السعى الواحد ، وانفاق القلوب على ذلك مما يعين على حصول المطلوب ، ومن ثم شرعت الاجتماعات في الصلوات ، وكانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة .
- وعن الحسن رضي الله عنه : قد علم الله أن مابه إليهم حاجة ، ولكن أراد أن يستنَّ به من بعده ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه : ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(فإذا عزمتم فتوكل على الله) أى فإذا عقدت القلب على فعل شيء وإمضائه بعد المشاورة ومبادلة الرأى فيه ، فتوكل على الله ، وفوض الأمر إليه بعد أخذ الأهبة واستكمال العدة ، ومراعاة الأسباب التى جعلها الله وسيلة للوصول إلى المسببات كما ورد فى الحديث « اعقلها وتوكل » .

ولا تتسكل على ما أوتيت من حول وقوة ، ولا على إحكام الرأى وأخذ العدة ، فذلك كله ليس بكاف فى النجاح ما لم تقرن به معونة الله وتوقيفه ، لأن الموانع الخارجية والعوائق التى تحول دون الوصول إلى البغية ، لا يحيط بها إلا علام الغيوب ، فلا بد من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته .

وفى الآية إيماء إلى وجوب إمضاء العزيمة متى استكملت شروطها التى من أهمها المشورة .

وسر هذا أن نقض العزائم خور فى النفس ، وضعف فى الأخلاق يجعل صاحبه غير موثوق به فى قول ولا فعل ، ولا سيما إذا كان رئيس حكومة ، أو قائد جيش ، ومن ثم لم يضعغ النبى صلى الله عليه وسلم إلى مشورة من رجع عن رأيه الأول وهو الخروج إلى أحد حين لبس لامته وخرج ، إذ رأى أن هذا شروع فى العمل بعد أن أخذت الشورى حقه .

وبذلك علمهم أن لكل عمل ميقاتا محدودا ، وأن وقت المشورة متى انتهى جاء طور العمل ، وأن الرئيس إذا شرع فى العمل تنفيذيا للشورى لا يجوز أن ينقض عزمته ، ويبطل عمله ، ولو كان يرى أن أهل الشورى أخطئوا الرأى والتدبير كما حدث فى مسألة أحد كما تقدم .

ولا يزال أهل السياسة والحرب فى البلاد ذات الحضارة والمدنية يجرون على هذه القاعدة ويحولونها دستورا لأعمالهم ، ولا ينفذونها على أى حال ، حتى قال أحد كبار الساسة الإنجليز : إن السياسة متى قررت شيئا وشرعت فيه وجب إمضاؤه وامتنع نقضه والرجوع عنه وإن كان خطأ .

(إن الله يحب المتوكلين) عليه الواثقين به ، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم ، كما تقتضيه المحبة .
وفي الآية إرشاد للمكلفين ، وترغيب لهم في التوكل على الله ، والرجوع إليه ، والإعراض عن كل ما سواه .

قال الرازي : دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقول بعض الجهال ، وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل عليه أن يراعى الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها ، بل يعول على عصمة الحكمة اه .

فالتوكل الصحيح إنما يكون مع الأخذ بالأسباب ، وبدونها يكون دعوى التوكل جهلا بالشرع وفسادا في العقل ، قال تعالى : « فَاْمُشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » وقال : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » وقال : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وقال لنبيه لوط : « فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » وقال لموسى عليه السلام : « فَاسْرِبْ بِعِبَادِي لَيْلًا » وقال حكاية عن نبيه يعقوب لابنه يوسف : « لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » وقال أيضا حاكيا عنه : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » ففي هذا أمر بالحذر مع التنبيه إلى أنه متوكل على الله ولا تنافى بينهما ، ولا غنى للمؤمن عنهما .

روى أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عباس مرفوعا « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ، الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتبون وعلى ربهم يتوكلون » وقد قرن التوكل بترك الأعمال الوهمية دون غيرها ، إذ لم ينف من

الأعمال إلا الاستشفاء بالرؤية وهي إنما يطلبها الجاهلون بالأسباب الحقيقية ، وإلا التطير وهو التيمن والتشاؤم بحركات الطير ، وإلا السكى بالنار وكانوا يتداوون به في الجاهلية ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرهه لأمته ، ويعده من الأسباب المؤلمة التي تنافي التوكل ، وقد روى أحمد « لم يتوكل من استرقى أو اكتوى » .
وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خصا وتروح بطانا » وهو ظاهر في أن التوكل يكون مع السعي ، لأنه ذكر للطير عملا وهو الذهاب صباحا في طلب الرزق وهي فارغة البطن والرجوع وهي ممتلئتها .

وأخرج ابن حبان في صحيحه : « حديث الرجل الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يترك ناقته وقال : أاعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل » .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : قلت لأبي هؤلاء المتوكلون يقولون : تقعد وأرزاقنا على الله عز وجل ، قال : ذا قول ردىء خبيث ، يقول الله عز وجل : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » وقال أيضا : سألت أبي عن قوم يقولون : نتكل على الله ولا نكتسب ، قال : ينبغى للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون أنفسهم الكسب ، هذا قول إنسان أحمق .

وسر هذا أن الإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له الأهبة على حسب ماسنه الله من الأسباب ، أسف وندم وتحسر على ما فات ، وعدّ ملوما عقلا وشرعا ، كما أنه إذا أخذ الأهبة واعتمد عليها وغفل قلبه عن الله كان عرضة للهلع والجزع إذا خاب سعيه ولم ينل بغيته ، وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع معه في فلاح ولا نجاح .

(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) أى إن أراد الله نصركم كما حدث يوم بدر حين علمت بسنته ، وثبتتم في مواقفكم ، واتكلتم على توفيقه ومعونته ، فلا غالب لكم

من الناس الذين جعلهم حرمانهم من التوكل عليه عرضة لليأس والقنوط .
وفي هذا ترغيب في التوكل على الله بعد المشورة والعزيمة الصادقة المترتبة على
أخذ الاستعداد بما أوتيه من الحول والقوة .

(وإن يخذلكم فبن ذا الذي ينصركم من بعده؟) أى وإن يرد خذلانكم
ويمنعكم معونته بما كسبت أيديكم من الفشل والتنازع وعصيان القائد فيما أمركم به
كما جرى يوم أحد ، فلا أحد يملك لكم نصرا ولا يدفع عنكم الخذلان .
(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليخصه المؤمنون بالتوكل ، لأنه لا ناصر
لهم سواه .

وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ ، وَمَنْ يَعْلَمُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ
عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرِهِ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ
فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

شرح المفردات

الغل الأخذ خفية كالسرقة ، ثم غلب استعماله في السرقة من الغنم قبل التسمية ،
ويسمى الغلول أيضا ، وتوفى كل نفس ما كسبت ، أى تعطى جزاء ما عملت تاما
وافيا ، وباء رجوع ، والسخط (بفتح السين وبضم فسكون) الغضب العظيم ، والمأوى
المصير ، هم درجات أى ذوو درجات ومنازل ، والبصير هو الذى يشاهد ويرى حتى

لا يعزب عنه ما تحت الثرى ، من أي أنعم وتفضل ، من أنفسهم أي من جنسهم من العرب ليفقهوا كلامه ، ويزكيهم أي يطهرهم من أدران الوثنية والعقائد الفاسدة ، من قبل أي من قبل بعثة الرسول ، ضلال مبين أي ضلال بين لا ريب فيه .

المعنى الجملى

بعد أن حث عز اسمه فيما سلف على الجهاد ، وبين مصير المجاهد في سبيله — أتبعه هنا بذكر أحكام الجهاد ، ومن جملتها الكف عن الغلول .

روى الكلبي ومقاتل : أن هذه الآية نزلت حين ترك الرماة المركز الذى وضعهم فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد طلبا للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئا من مغنم فهو له ، وألا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر ، فقال لهم عليه السلام : ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ؟ فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا ، فقال لهم : بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم .

الإيضاح

(وما كان لنبي أن يغفل) أى ما كان من شأن أى نبي ولا من سيرته أن يغفل ، لأن الله عصم أنبياءه منه ، فهو لا يليق بمقامهم ولا يقع منهم ، لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية ، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءة وخسة .

(ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة) أى وكل من يقع منه غلول يأتى بما غل به يوم القيامة حاملا له ، ليفتضح أمره ويزيد به في عذابه .

أخرج البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ، فذكر الغلول وعظمه ، وعظم أمره ثم قال :

« ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رعاء فيقول يارسول الله أغثنى ، فأقول له لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء

يوم القيامة على رقبتة فرس لها حممة ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبتة رفاع تخفق ، فيقول يا رسول الله : أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبتة صامت فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك » . وجعل بعض العلماء هذا الحديث من قبيل التمثيل ، فشبهت حال الغال بما يرهقه من أثقال ذنبه وفضيحته به مع فقد الناصر والمغيث — بحال من يحمل ذلك على عاتقه ، ويقصد أرجى من يمكنه أن يعيئه فيخذه ويتصل من إغائته ، وما زال الناس يشبهون الأثقال المعنوية بالأثقال الحسية ، ويعبرون عن ذلك بالحمل كما قال تعالى : « اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ » ، إنهم لكَاذِبُونَ ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : إن الإتيان في الآية معناه : أن الله يعلمه أتم العلم وينكشف له أوضح انكشاف ، فالمراد أن كل غلول وخيانة خفية يعلمه الله مهما خفي ، ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كعرفة من أتى بشئ يوصله إلى غيره ، كما جاء في قوله تعالى حكاية عن لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » . فليس معنى الإتيان هنا أنه يحملها ، بل يعلم بها مهما كانت مستترة ، لأن من يأتي بالشئ لا بد أن يكون علما به .

(ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) أى ثم بعد أن يأتي الغال بما غل ، فيتمثل له كأنه حاضر بين يديه ، ينال جزاء ما كسب مستوفى تاما لا ينقص منه شيء كما قال تعالى : « وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وجاء حكم التوفية في الجزاء عاما لكل كاسب ، وإن كان الكلام في جزاء الغالّ فحسب — ليكون كالدليل على المقصود من استيفائه الجزاء ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيا بعمله لا ينقص منه شيء وإن كان جرمه حقيرا ، فالغال مع عظم جرمه أولى بذلك .

وقد أردف الله توفية ما كسبته كل نفس بالتفصيل الآتي ليمين أن جزاء المطيعين ليس بجزاء المسيئين ، فقال :

(أَمَّنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ؟) أى أَمَّنْ اتَّقَى وَسَعَى فِي تَحْصِيلِ رِضَا اللَّهِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرَكَ الْغُلُولَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ حَتَّى زَكَتْ نَفْسُهُ وَصَفَا رُوحُهُ — يَكُونُ جَزَاؤُهُ كَجَزَاءِ مَنْ انْتَهَى أَمْرُهُ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ ، وَعَظِيمِ غَضَبِهِ ، بِفِعْلِ مَا يَدْسِي نَفْسَهُ مِنَ الْخَطَايَا مِنْ سُرْقَةٍ وَغُلُولٍ وَسَلْبٍ وَقَتْلِ ، وَتَرَكَ مَا يَطْهَرُهَا مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ؟ .

(وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير) أى وَمَأْوَاهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ ، وَلَا مَرْجِعَ لَهُ غَيْرُهُ ، هِيَ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَنَقِبًا وَمَرْجَعًا وَمَأْبًا .

ولاشك أن العاقل يعلم أنهما لا يستويان ، كما لا تستوى الظلمة والنور ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ » .
وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » .

(هم درجات عند الله) أى إن كلام من اتبع رضوان الله ومن باء بغضب من الله طبقات مختلفة ، ومنازل عند الله متفاوتة في حكمه ، وعلى حسب علمه بشؤونهم وبما يستحقون من الجزاء « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ؛ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

وإخلاصة — أن الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون في الفضائل والمعرفة في الدنيا ، وما يترتب على ذلك من الأعمال الحسنة أو السيئة .

وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضاً ابتداء من الرفيق الأعلى الذى طلبه النبي صلى الله عليه وسلم فى مرض موته إلى الدرك الأسفل .
وهذه الدرجات أثر طبيعى لارتقاء الأرواح أو تدليها بالأعمال الصالحة أو السيئة .
(والله بصير بما يعملون) فلا يخفى عليه شئ من أعمالهم التى لها التأثير العظيم فى تزكية نفوسهم وفوزها وفلاحها وارتقائها إلى أرفع الدرجات — أو فى تدسيثها التى يترتب عليها الخيبة والخسران والهبوط إلى أسفل الدرجات كما قال : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) .

ولا يعلم هذه الدرجات إلا من أحاط بكل شئ علماً ، لأنه هو الذى لا يخفى عليه أثر من آثار الأعمال فى الأنفس ، ولا ما يختلج القلوب من الخواطر والهواجس .
وبعد أن نفي الغلول والخيانة عن النبي صلى الله عليه وسلم على أبلغ وجه أكد ذلك بهذه الآية .

(لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى إن هذا الرسول ولد فى بلدهم ، ونشأ بين ظهرانيهم ، ولم يروا منه طوال حياته إلا الصدق والأمانة والدعوة إلى الله والإعراض عن الدنيا ، فكيف يظن بمن هذه حاله خيانة وغلول ؟
وقد وصفه الله بأوصاف كل منها يقتضى عظيم المنة .

(١) أنه من أنفسهم أى أنه عربى من جنسهم ، وبذا يكونون أسرع الناس إلى فهم دعوته والاهتداء بهديه ، وأقرب إلى الثقة به من غيرهم ، إلى أنهم إذا كانوا على كذب منه وقفوا على أحواله من الصدق والأمانة ، إلى ما لهم بذلك من شرف وجليل خطر كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) وقال :

وكم أب علا يابن ذرا شرف كما علت برسول الله عدنان
وقد خطب أبو طالب فى تزويج خديجة رضى الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم
بمحضر من بنى هاشم ورؤساء مضر ، فقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئىء (أصل) معدية ، وجعلنا حَصْنَةَ بيته ، وسُوَّاسَ حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس .

ثم إن هذا ابن أخى محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيمٌ وخطر جليل .

وتخصيص هذه المنة بالعرب مع أنه بعث للناس كافة لمزيد انتفاعهم به ، على أن هذه النعمة الكبرى ذكرت في آيات أخرى كقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

(٢) أنه يتلو عليهم آياته الدالة على قدرة الله ووحدانيته وعلمه ، ويوجه النفوس إلى الاستفادة منها ، والاعتبار بها ، كما جاء في قوله : « إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » وقوله « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » وقوله « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » .

(٣) أنه يزيكهم ويطهرهم من العقائد الزائفة ، ووساوس الوثنية وأدرانها ، إذ أن العرب وغيرهم قبل الإسلام كانوا فوضى في أخلاقهم وعقائدهم وآدابهم ، فكان محمد صلى الله عليه وسلم يقتلع منهم جذور الوثنية ، ويدفع عنهم العقائد الباطلة ، كاعتقادهم أن وراء الأسباب الطبيعية التى ارتبطت بها المسببات منافع ترجى ، ومضار تخشى من بعض الخلوقات ، فيجب تعظيمها والالتجاء إليها ، دفعا لشرها ، وجلبا لخيرها ، وتقربا إلى خالقها .

ولا شك أن من يعتقد مثل هذا يكون أسير الأوهام ، وعبد الخرافات ، يخاف في موضع الأمن ، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف .

(٤) أنه يعلمهم الكتاب والحكمة ، فتعليم الكتاب اضطرهم إلى تعلم الكتابة ،

وأخرجهم من الأمية إلى نور العلم والعرفان ، فقد طلب إليهم كتابة القرآن ، واتخذ كتبه للوحي ، وكتب كتباً دعا بها الملوك والرؤساء إلى الإسلام في سائر الأصقاع المعروفة ، فانتشرت الكتابة بينهم ، وعظمت مدنيّتهم ، وامتدت سلطتهم ، فملكوا الأمم التي كان لها السلطان والصولة والنفوذ في تلك الحقبه .

كذلك علمهم الحكمة وأرشدهم إلى البصر بفهم الأشياء ، ومعرفة أسرارها ، وفقه أحكامها ، وبيان ما فيها من المصالح والحكم ، وهداهم إلى طرق الاستدلال ، ومعرفة الحقائق ، ببراهينها ، فكان ذلك من أكبر البواعث على العمل بها ، والتسك بأهدابها ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

والخلاصة — أن تعليم الكتاب إشارة إلى معرفة ظواهر الشريعة ، وتعليم الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها وعللها وبيان منافعها .

(وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) أي إنهم كانوا قبل هذه البعثة في ضلال بين واضح ، ولا ضلال أظهر من ضلال قوم يشركون بالله ويعبدون الأصنام ويسيرون وراء الأوهام ، وهم على ذلك أميون لا يقرءون ولا يكتبون حتى يعرفوا حقيقة ما هم فيه من الضلال .

وإنما جعلها منة لكونها وردت بعد محنة ، فكان موقعها أعظم ، إذ أن بعثة الرسول جاءت بعد جهل وبعد عن الحق ، فكانت أعم نفعاً وأتم وقعاً .

أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنِّي هَذَا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَبُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَا كُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ

فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا
لَوْ أَطَاعُوا نَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (١٦٨)

شرح المفردات

المراد بالمصيبة ما أصابهم يوم أحد من ظهور المشركين عليهم ، وقتل سبعين منهم ، ومثلها أى ضعفها بقتل سبعين من المشركين ، وأسر سبعين منهم يوم بدر ، أى هذا؟ أى من أين لنا هذا ، وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصاب ، من عند أنفسكم أى بشؤم معصيتكم ، الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين ، فبإذن الله أى بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط المسببات بأسبابها ، فادروا أى فادفعوا ، إن كنتم صادقين أى فى دفع المكاره بالحدز .

المعنى الجملى

بعد أن حكى الله عن المناقنين أنهم نسبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم الغلول والخيانة ، ثم برأه منها ، وبين ما بعث لأجله — عاد هنا إلى كشف الشبهات التى عرضت للغزاة قبل الواقعة وبعدها ، وبين خطأهم وضلالهم فى أقوالهم وأفعالهم .

الإيضاح

(أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أئى هذا؟) أى لا ينبغي لكم أن تعجبوا مما حل بكم فى هذه الواقعة ، فإن خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم فى بدر ، فقد كان نصركم فى تلك الواقعة ضعف انتصار المشركين فى هذه .

فلماذا نسيتم فضل الله عليكم فى بدر فلم تدكروه ، وأخذتم تعجبون مما أصابكم فى أحد وتسالون عن سببه .

وفائدة قوله قد أصبتم مثلها — التنبيه إلى أن أمور الدنيا لا تدوم على نهج واحد ، فأتم هزمتوهم مرتين ، فكيف تستبعدون أن يهزموكم مرة واحدة .

وقد كان سبب تعجبهم أنهم قالوا : كيف تنصر الإسلام الذي هو الدين الحق ومعنا الرسول ؛ وهم ينصرون دين الشرك بالله ، ومع ذلك ينصرون علينا .
وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بجوابين :

(١) قوله قد أصبتم مثلها .

(٢) قوله (قل هو من عند أنفسكم) أى إن هذا الذى وقع إنما وقع بشؤم معصيتكم لأنكم عصيتم الرسول فى أمور كثيرة .

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : المصلحة فى البقاء فى المدينة ، فلا نخرج إلى أحد ، فأيتهم إلا الخروج ، وكان رأى ما رآه الرسول حتى إذا مداخلها المشركون قاتلهم على أفواه الأزقة والشوارع ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من سطوح المنازل .

(ب) أنكم فشلتم وضعفتم فى رأى .

(ح) أنكم تنازعتم وحصلت بينكم مهارة كلامية .

(د) أنكم عصيتم الرسول صلى الله عليه وسلم وفارقتهم المكان الذى أمركم بالوقوف فيه لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل إذا أراد أن يكون من ورائكم .

ولاشك أن العقوبات آثار لازمة للأعمال ، والله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط ترك المعصية كما قال : « **إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** »

(إن الله على كل شئ قدير) فهو القادر على نصركم لو ثبتتم وصبرتم ، وهو القادر على التخلي عنكم لو خالفتم وعصيتم ، وهو سبحانه قد ربط الأسباب بالمسببات ، ولا يشذ عن ذلك مؤمن ولا كافر .

فوجود الرسول بينكم وأنتم قد خالفتم سنن الله في البشر لا يحميكم مما تقتضيه هذه السنن .

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) أى وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أحد ، فهو بإذن الله وإرادته وقضائه السابق يجعل المسببات تتأرجح لأسبابها ، فكل عسكر يخطئ الرأى ، ويعصى قائده ، ويخلى بين العدو وبين ظهره ، يصاب بمثل ما أصبتم به ، أو بما هو أشد وأنكى منه .

وفى ذلك تسليمة للمؤمنين وعبرة تشرح لهم ما تقدم من قوله : « قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » .

(وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا) أى ليظهر علم الله بحال المؤمنین من قوة الإيمان وضعفه ، واستفادتهم من المصائب حتى لا يعودوا إلى أسبابها ، وليعرفوا سنن الله عند ما يظهر فيهم حكمها ، كما يظهر حال المنافقين الذين أظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر ، فيترتب على ذلك العبرة بسوء عاقبة المنافقين حتى فيما ظنوه حرما واتقاء للمسكروه ، واحتياطا في الأمر ، كما تحدث العبرة بحسن عاقبة الصادقين ، حتى فيما ظنوه شرا وكرهوا حصوله .

(وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا) أى إن هؤلاء المنافقين دعوا إلى القتال وقيل لهم : إن كان في قلبكم حب الدين والذود عنه فقاتلوا لأجله ، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهلكم وأموالكم .

وانخلاصة — قاتلوا ابتغاء لمرضاة الله وإقامة دينه ، أو قاتلوا للدنيا ودافعوا عن أنفسكم وأهلكم ووطنكم ، لكنهم راوغوا وقعدوا وتكاسلوا .

(قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أى قالوا : لو نعلم أنكم تلقون قتالا في خروجكم ما أسلمناكم ، بل كنا نتبعكم ، لكننا نرى أن الأمر سينتهى بدون قتال .

روى أن الآية نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه الذين خرجوا من

المدينة في جملة الألف الذين خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجعوا من الطريق وهم ثلثمائة ليخذلوا المسلمين ، ويوقعوا فيهم الفشل .

ولاشك أن هذا الجواب منهم يدل على كمال النفاق ، وأنه ما كان غرضهم منه إلا التليس والاستهزاء ، إذ ذهب المشركين وهم مدججون بسلاحهم إلى أحد من أقوى الإمارات على أنهم يريدون قتالا .

(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) أى هم يوم قالوا هذه المقالة « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » أقرب إلى الكفر منهم للإيمان لظهور أماراته ، بانخذلهم عن نصره المؤمنين ، واعتذارهم لهم على وجه الخديعة والاستهزاء ، فإن الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الأهل والوطن عند هجوم الأعداء مما يجب على المؤمن ، ولا ينبغي تركه بحال .

يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرَوْا تَأْتُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وإنما قال : إنهم أقرب إلى الكفر ، ولم يقل إنهم كفار — منعاً للنبز بالكفر بالعلامات والقرائن ، دون أن يكون هناك كفر صريح ، ومن ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاملهم معاملة المؤمنين ، حتى إنه صلى على رئيسهم عبد الله بن أبي صلالة الجنادة بعد بضع سنين من وقعة أحد ، إلى أن فضحهم الله بقوله : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

والتلصص — أنه تعالى كان يعلم أنهم يبطنون الكفر لعملهم عمل الكفار بتركهم الجهاد ، لكنه لم يصرح به ، بل أوماً إليه ، تأديباً لهم عسى الله أن يتوب على من لم يتمكن الكفر في قلوبهم ، ومنعاً للناس من الهجوم على التكفير بالظننة ووجود الإمارات فقط .

(يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) أى إن ما تقوله ألسنتهم مخالف لما تضرره

قلوبهم ، فهم يظهرون الإيمان باللسان ويبطنون الكفر ، فالكذب دأبهم ليستروا به ما يضمرون ، ويؤيدوا ما يظهرون .

وفي ذكر الأفواه والقلوب تصوير لنفاقهم ، وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم .

والخلاصة — أنهم يتفوهون بقول لا وجود لمنشئه في قلوبهم كقولهم : لو نعلم قتالا ، وقولهم : لاتبعناكم ، وهم كاذبون في كل من الأمرين ، فإنهم كانوا عالمين به وقد أصروا على الانخدال وعزموا على الارتداد .

(والله أعلم بما يكتُمون) من الكفر والكيده للمسلمين ، وتربص الدوائر بهم ، فهو في كل حين يبين مخبآت أسرارهم ، ويكشف أستارهم ، ثم يعاقبهم على ذلك في الدنيا والآخرة .

وجاءت هذه الجملة لتأكيد كفرهم ونفاقهم ، ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد .

والخلاصة — أنه لا ينفعمهم النفاق ، فألله أعلم بما تكنه سرائرهم وقلوبهم .
و بعد أن ذكر قولاً قالوه قبل القتال وبين بطلانه — أردفه بقوله قالوه بعده وبين فساده ، قال :

(الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) أى هم الذين قالوا لأجل إخوانهم الذين قتلوا في هذه الواقعة ، والحال أنهم قعدوا عن القتال : لو أطاعونا في القعود ولم يخرجوا للقتال كما لم نخرج — لما قتلوا كما أنا لم نقتل .

وفي هذا إيحاء إلى أنهم أمروهم بالانخدال حين انخدلوا .

أخرج ابن جرير عن السدي قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن صبروا ، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلثمائة ، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم ، فقالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، واثن أظمتنا لترجعن معنا ، فنعى الله عليهم ذلك بقوله — الذين قالوا لإخوانهم — الآية .

وقد دحض الله تعالى حجبتهم ، وأبان لهم كذبهم ، ووبخهم على ما قالوا ، فقال لنبيه :

(قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أى قل لهم : إن صدور هذا القول الجازم منكم يدل على أنكم قد أحطتم علما بأسباب الموت فى هذه الواقعة وإذا جاز فيها جازى فى غيرها ، وحينئذ يمكنكم درء الموت ودفعه عن أنفسكم .
والخلاصة — إنكم إن كنتم صادقين فى أن الحذر يفتى عن القدر ، وأن سلامتكم كانت بسبب قعودكم عن القتال لا بغيره من أسباب النجاة ، فادفعوا سائر صنوف الموت عن أنفسكم .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَاتَّقِبُوا نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ وَفَضْلًا لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

شرح المفردات

الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة ، والذين لم يلحقوا بهم هم الذين بقوا فى الدنيا ، استجابوا أى أجابوا وأطاعوا ، والقرح الجراح فى يوم أحد ، والإحسان

أن يعمل الإنسان العمل على أكمل وجوهه الممكنة ، والتقوى أن يخاف الإساءة والتقصير فيه ، حسبنا الله ، أى الله كافيها ، والوكيل الكافي الذى توكل إليه الأمور ، فاقبلوا أى فرجعوا ، والمراد بالنعمة السلامة والثبات على الإيمان وطاعة الرسول ، والفضل هو الربح فى التجارة ، والشيطان هنا شيطان الإنس الذى غش المساهمين ليخذلهم ، وهو نعيم بن مسعود ، يخوف أوليائه أى يخوفكم أنصاره من المشركين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تثبيط المشركين للراغبين فى الجهاد بتحذيرهم عواقبه ، وأنه مفض إلى القتل كما حدث يوم أحد ، والقتل بغيض إلى النفوس مكروه لها ، ثم أردفه ببيان أن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره كما يحدث الموت ، فن كتب له أن يقتل لا يمكنه أن يتعد من القتل ، ومن لم يقدر له لاخوف عليه من الجهاد .

ذكر هنا ما يجب الجهاد فى سبيل الله ، فأبان أن المقتولين شهداء أحياء عند ربهم قد خصهم الله بالقرب منه ، والكرامة لديه ، وأعطاهم أفضل أنواع الرزق وأوصلهم إلى مراتب الفرح والسرور .

أخرج الإمام أحمد فى جماعه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشرهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، فقال الله تعالى : - أنا أبلغهم عنكم - فأنزل الله هؤلاء الآيات . »

الإيضاح

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) أى لا تحسبن أيها السامع لقول المنافقين الذين يتكرون البعث أو يرتابون فيه ، فيؤثرون الدنيا على الآخرة - أن من قتلوا فى سبيل الله أمواتاً قد فقدوا الحياة وصاروا عدماً .

(بل أحياء عند ربهم يرزقون) أى بل هم أحياء فى عالم آخر غير هذا العالم ، هو خير للشهداء لما فيه من الكرامة والشرف عند الله ، فليس القتل فى سبيله بضائرم ، إذ ما صاروا إليه خير مما كانوا فيه ، فلو سلم أن الخروج للقتال سبب للقتل لما كان مشبها للمؤمنين عن الجهاد عند وجوبه ، كما إذا هاجم المشركون المؤمنين فى مثل وقعة أحد ، أو إذا فتن المسلمون عن دينهم ومنعوا من الدعوة إليه وإقامة شعائره ، كما فعل مشركو العرب مع المسلمين زمن البعثة .

كيف والخروج إلى القتال كثيرا ما يكون سببا للسلامة ، فإن الأمة التى لاتدافع عن نفسها يطمع فيها غيرها ، وإذا هاجمها ظفر بها ونال منها ما يريد .
وهذه الحياة التى أثبتها القرآن الكريم حياة غيبية لاندرك حقيقتها ، ولا تزيد على ما جاء به الوحي .

وقوله يرزقون تأكيد لكونهم أحياء ، وتحقيق لهذه الحياة .
(فرحين بما آتاهم الله من فضله) أى مسرورين بشرف الشهادة ، والمتع بالنعيم العاجل ، والزلفى عند ربهم ، والفوز بالحياة الأبدية .

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) أى ويسرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله ، فيلحقوا بهم من خلفهم ، إى إنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم .

وقوله: من خلفهم إشارة إلى أنهم وراءهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم قدما بقدم، وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم حث للباقيين بعدهم على زيادة الطاعة والجد فى الجهاد والرغبة فى نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم ، كما فيه إخماد لخال من يرى نفسه فى خير فيتمنى مثله لإخوانه فى الدين ، وفيه بشرى للمؤمنين بالفوز بالمآب .

(أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى هم يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء ، وهى أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية

لا يكدرها خوف من وقوع مكروه من أهوالها ، ولا حزن من فوات محبوب من نعيمها (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) النعمة هي الثواب الذي يلقاه العامل جزاء عمله ، والفضل هو التفضل الذي يمن الله به على عباده الطائعين المحبتين له ، والمراد بالمؤمنين الشهداء الذين وصفوا بالأوصاف الآتية بعد . وعبر عنهم بوصف الإيمان للإشارة إلى سمو مكانته ، ورفعة منزلته وكونه مناط السعادة .

وفي ذلك تحريض على الجهاد ، وترغيب في الشهادة ، وحث على ازدياد الطاعة والبشرى للمؤمنين بالفوز العظيم .

وقد جاءت هذه الجملة كالبيان والتفسير لقوله - لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - لأن من كان في نعمة الله وفضله لا يحزن أبداً ، ومن كانت أعماله مشكورة غير مضية لا يخاف العاقبة .

ثم وصفهم بحسن أفعالهم الموجب لزيادة أجرهم فقال :

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) أي هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته ، ولبوا نداءه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجوهه ، واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام أصابته يوم أحد ، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال .

وفي قوله : منهم إشارة إلى أن من دعوا لبوا واستجابوا له ظاهراً وباطناً ، ولكن عرض لبعضهم موانع في أنفسهم أو أهلهم فلم يخرجوا وخرج الباقون .

روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد ، فبلغوا الرِّوْحَاء (موضع بين مكة والمدينة) ندموا وهما بالرجوع حتى يستأصلوا ما بقي من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهبهم ويريبهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج في إثر أبي سفيان وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومئذ بالأمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جماعة من أصحابه حتى بلغوا حمراء

الأسد (موضع على ثمانية أميال من المدينة) وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا إلى مكة مسرعين فنزلت الآية .

وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد ، وهي متصلة بغزوة أحد .

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) أى وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعي ومن وافقه وأذاع قوله وهم أربعة : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقاءهم .

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى .

ذاك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزلت (مَجَنَّة) من ناحية (مر الظهران) فألقى الله الرعب في قلبه ، فبداه الرجوع فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان : إني واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر ، وإن هذا عام جذب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدألى أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة ، فالحق بالمدينة فثبطهم ، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها في يدي سهيل بن عمرو ، فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال لهم : ما هذا بالرأى ، أتوكم في دياركم وقراركم ولم يقلت منكم إلا شريد ، فتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم ، فوالله لا يفلت منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى» فخرج ومعه سبعون راكبا يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى وافى بدرأ الصغرى (بدر الموعد) فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحدا ،

لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة وكان معه ألفا رجل فسماه أهل مكة جيش السوق ، وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السوق .

ووافى المسلمون سوق بدر ، وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدما وزيبا فربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين .

(فزادهم إيماناً) أى زادهم هذا القول إيماناً بالله وثقة به ، ولم يلتفتوا إلى تخويفهم بل حدث في قلوبهم عزم وتصميم على محاربة هؤلاء الكافرين ، وطاعة الرسول فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، وإن أضناهم ذلك وثقل عليهم لما بهم من جراحات عظيمة وقد كانوا فى حاجة إلى قسط من الراحة ، وشيء من التداوى ، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم أنساهم كل هذه المصاعب فلبوا الدعوة سراعا .

والخلاصة — إن هذا القول الذى سمعوه زاد شعورهم بعزة الله وعظمته وسلطانه و يقينهم بوعد الله ووعيدة ، وتبع ذلك زيادة فى العمل ، ودأباً على إنفاذ ما طلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا » .

(وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) أى قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله : الله يكفيننا ما يهمنى من أمر الذين جمعوا الجموع لنا ، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم ، أو يلقى فى قلوبهم الرعب ، فيكفيننا شر بغيهم وكيدهم ، وقد كان الأمر كما ظنوا ، فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان وجيشه على كثرة عددهم وتوافر عددهم ، فولوا مدبرين ، وكان فى ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقعت فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » وأخرج ابن الدنيا

عن عائشة رضى الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم تنفيس الصعداء وقال : حسبي الله ونعم الوكيل » وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبي الله ونعم الوكيل أمان كل خائف » .

(فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) أى فخرجوا للقاء عدوهم ولم يلقوا منه كيذا ولا هما ، ولم يلبثوا أن انقلبوا إلى أهلهم وقد تظاهرت عليهم نعم الله فسلموا من تدبير عدوهم ، وأطاعوا رسولهم ، وربحوا في تجارتهم ، ولم يمسسهم قتل ولا أذى .

روى البيهقي عن ابن عباس أن عيرا مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح ما لا يقسمه بين أصحابه فذلك الفضل ، وأخرج ابن جرير عن السدي قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج في بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها في الموسم فأصابوا ربحاً كثيراً .

(واتبعوا رضوان الله) أى واتبعوا في كل ما أتوا من قول أو فعل رضا الله الذى هو وسيلة النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة ، فأطاعوا رسوله فى كل ما به أمر وعنه نهى .

(والله ذو فضل عظيم) إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد ، والجرأة على العدو ، وحفظهم من كل ما يسوءهم .
وفى هذا إلقاء للحسرة فى قلوب المتخلفين منهم ، وإظهار لخطأ رأيهم ، إذ حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء .

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى ليس ذلك الذى قال لكم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم إلا الشيطان يخوفكم أولياءه وأنصاره المشركين ، ويوهمكم أنهم عدد كثير وأولو قوة وبأس شديد ، وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقاءهم ، وتجنبوا عن مدافعتهم .

(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أى فلا تخافوا أولئك الأولياء ، ولا تخفلوا بقولهم (فإخشوهم) فتخافوهم ، بل خافوني فى مخالفة أمرى ، لأنكم أوليائى وأنا وليكم وناصركم إن كنتم راسخى الإيمان قائمين بحقوقه ، فإن من حقه إثارة خوف الله تعالى على خوف غيره ، والأمن من شر الشيطان وأوليائه .

وخلاصة ذلك — إنه إذا عرضت لكم أسباب الخوف ، فاستحضروا فى نفوسكم قدرة الله الذى بيده كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وتذكروا وعده بنصركم ، وإظهار دينكم على الدين كله ، وأن الحق يدمغ الباطل فإذا هوزاهق ، واذكروا قوله : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » ثم خذوا أهبتمكم ، وتوكلوا على ربكم فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً فى قلوبكم .
وفى هذه الآية من العبرة :

(١) إن صادق الإيمان لا يكون جباناً ، فالشجاعة وصف للمؤمن ، لا يبلغ غيره فيها مداه ، إذ أن العلة الحقيقية للجبين هى الخوف من الموت والحرص على الحياة ، وقلب المؤمن لا يتسع لهما .

ولا يزال العالم إلى اليوم يشهد شجاعة الجيوش الإسلامية مع ما منى به المسلمون من ضعف فى إيمانهم ، وجهل بكثير من شئون دينهم .

(٢) إن فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف ، ويعود نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية وتعود الإقدام إذا عرضت له تلك الأسباب .

(٣) إذا عرضت له أسباب الخوف فعليه ألا يسترسل لها حتى لا يتمكن أثرها فى نفسه ، وتتجسم صورتها فى خياله ، بل يغالبها بصرفها عن ذهنه ، وشغله بما يضادها ويذهب بآثارها ، أو يتبدلها بآثار مناقضة لها ، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى نيط به التكليف .

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلَّا يُجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)
 إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)
 وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا تُمْنِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا تُمْنِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَسِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

شرح المفردات

يسارعون في الكفر أى يسارعون في نصرته والاهتمام بشئونه والإيجاف في مقاومة المؤمنين ، حطاً في الآخرة أى نصيباً من الثواب فيها ، اشتروا الكفر أى أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً منه ، والإملاء الإمهال والتخلية بين العامل وعمله ليلبغ أقصى مداه من قولهم : أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، ومنه الملا للأرض الواسعة ، والملاوان الليل والنهار ، ليزدادوا إثماً أى لتكون عاقبتهم زيادة الإثم ، يميز الخبيث من قولهم مرز الشيء بعضه من بعض أى أفرزته وأزلته ، ومنه الحديث « من ماز أذى عن طريق فهو له صدقة » ، على ما أتم عليه أى من اختلاط المؤمن بالمنافق وأشباهه ، والخبيث والطيب أى المنافق والمؤمن ، ويحتجى أى يصطفى ويختار .

المعنى الجملى

لما كان من فوز المشركين في أحد ما كان ، وأصاب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين شيء كثير من الأذى - أظهر بعض المنافقين كفرهم وصاروا يخوفون

المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم، ويقولون لهم : إن محمدا طالب ملك ، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب ، إلى نحو هذه المقالة مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ، ويسرف في الحزن ، فنزلت هذه الآيات تسليية له ، كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان ، أو طعنهم في القرآن ، أو في شخصه عليه السلام كقوله تعالى : « وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » وقوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

الإيضاح

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) أى ولا يحزنك أيها الرسول مسارعة المنافقين وطائفة من اليهود إلى نصره الكافرين واهتمامهم بشأنهم ، والإيجاف في مقاومة المؤمنين بكل ما أوتوا من الوسائل ، ومن التثبيط للعزائم ، والنيل من نبيهم ودعوته ، وتأليب المشركين عليهم ، إلى نحو ذلك مما يدور في خلد العدو لا يذء عدوه .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا » .

وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تسليية له وإيدان بأنه الرئيس المعنى بشئونه .

ثم علل هذا النهى وكل التسليية بتحقيق نفي ضررهم أبداً بقوله :

(إنهم لن يضروا الله شيئاً) أى إنهم لن يضروا أولياء الله وهم النبي وصحبه ، شيئاً من الضر ، فعاقبة هذه المسارعة في الكفر وبال عليهم لاعليك ولا على المؤمنين فإنهم لا يحاربونك فيضروك ، وإنما هم يحاربون الله تعالى ، ولا شك أنهم أعجز من

أن يفعلوا ذلك ، فهم إذا لا يضررون إلا أنفسهم ، وفي جعل مضرتهم مضرة لله تعالى تشریف لهم ، ومزيد مبالغة في تسليته صلى الله عليه وسلم .

ثم بين أنهم لا يضررون إلا أنفسهم فقال :

(يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة) أى إن سر ابتلائهم ما هم فيه من الانهماك في الكفر وقد قضى ذلك بحرمانهم من نعم الآخرة وفق ما تقتضيه سنة الله وإرادته .

(ولهم عذاب عظيم) أى إنهم على حرمانهم من الثواب لهم عذاب عظيم لا يقدر قدره .

وبعد أن بين حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصرته الكفر والدفاع دونه ومقاومة المؤمنين لأجله ، وأرشد إلى أنه لا يؤبه بهم ، ولا يهتم بشأنهم ، فهم إنما يحاربون الله والله غالب على أمره — أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به فقال :

(إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم)
أى إن الذين أخذوا الكفر بدلا من الإيمان رغبة فيما أخذوا وإعراضا عما تركوا ، فلن يضرروا الله شيئاً ، وإنما يضررون أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم الذى لا يقدر وفى هذا إيحاء إلى شيئين :

(١) تأكيد عدم إضرارهم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) بيان سخف عقولهم وخطل آرائهم ، إذ هم كفروا أولاً ثم آمنوا ثم كفروا

بعد ذلك ، وهذا دليل على شدة اضطرابهم ، وعدم ثباتهم ، ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شيء مما يحتاج إلى أصالة الرأى وقوة التدبير .

(ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا

إثماً ولهم عذاب مبين) أى لا يحسبن هؤلاء الكافرون أن إهبالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم ، فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملاً صالحاً ينتفعون به .

فى أنفسهم بتزكيتها وتطهيرها من شوائب الأدران وسىء الأخلاق ، وينتفع به الناس فى تهذيبهم وتحسين معاشهم ، ولكن هؤلاء لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلا إنما يضرهم فى أنفسهم ، بالتمادى فى مكابرة الحق ، وتأييد سلطان الشر فى الخلق .
فحياة هؤلاء المتخلفين عن الجهاد ليست خيرا من قتل أولئك الذين قتلوا يوم أحد إذ بقاؤهم صار وسيلة للخزى فى الدنيا والعقاب الدائم فى الآخرة ، وقتل هؤلاء صار سبيلا للثناء الجميل فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

فترغب أولئك المثبطين عن الجهاد فى مثل هذه الحياة ، وتزينها لهم مما لا ينبغي أن يروج إلا عند الجهال الذين لا يفهمون قيمة الحياة الحقة التى يجب أن تكون نُصب عين العاقل .

والخلاصة — إن هذا الإهمال والتأخير ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو قد جرى على سنن الله فى الخلق ، بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فإنما هو ثمرة عمله ، ومن مقتضى هذه السنة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسببا لاسترساله فى فجوره ، ونتيجة ذلك الإثم الذى يكسبه العذاب المهيمن .
وفى الآية من العبرة .

(١) إن من شأن الكافر أن يزداد كفرا بطول عمره ، ويتمكن من العمل على حسب استعدادده .

(٢) إن من شأن المؤمن إذا أنسا الله أجله أن تكثر حسناته ، وتزداد خيراته ، فليجعل المؤمن هذا دستورا فيما بينه وبين ربه ، ويحاسب نفسه على مقتضاه ، فإذا فقهه وعمل به خرج من الظلمات إلى النور ، وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

ثم بين أن الشدائد هى محك صدق الإيمان فقال :

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)
أى ما كان من سنن الله فى عباده أن يذر المؤمنين على مثل الحال التى كانوا عليها

حين غزوة أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما ، لأن الشدائد هي التي تميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين .
أما تكليف مالا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة وغيرهما فيقبلها المنافق ، كما يقبلها صادق الإيمان ، لما فيها من حسن الأحدثوة ، والتمتع بمزايا الإسلام .
وفي الشدائد من الفوائد الشيء الكثير منها .

(١) انتقاء المنافق إذا علم نفاقه ، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن به ، حين يراه يؤدي الواجبات الظاهرة ، ويشترك الصادقين في سائر الأعمال ، فإذا هو أفشاها عرف حاله وحذره المسلمون الصادقون .

(٢) أن تروى الجماعة حالها ، إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لالها ، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربهم الشدائد .

(٣) إنها تدفع الغرور عن النفس ، إذ يغتر المؤمن الصادق فلا يدرك ما في نفسه من ضعف في الاعتقاد والأخلاق حتى تمحصه الشدائد وتبين له حقيقة أمره .
وقد يدور بخلد بعض الناس أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق ، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، فيعرفوا أن فلانا من أهل الجنة ، وفلانا من أهل النار ، فأجاب الله عن هذا فقال :

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب ، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته ، فإنه تعالى خلقه يحصل رغائبه ، ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبي الذي تهدي إليه الفطرة وترشد إليه النبوة .

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد ، والتضحية بالنفس وبذل المال في سبيل الحق والخير ، كما ابتلى المؤمنون

في وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم ، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة ، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، وابتلوا بظهور العدو عليهم ، جزاء ما فعلوا من المخالفة ، فظهر نفاق المنافقين ، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالاً شديداً ، وثبت كلمة المؤمنين ، وصاروا كالجبال الرواسى التى لا ترزعزعا الرياح والأعاصير .

(ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) أى ولكن الله يختار من رسله من يشاء ، فيطعمه على ما فى قلوب المنافقين من كفر ونفاق ، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال ، كما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم .

ونحو الآية قوله : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» .

وفى التعبير بالاجتباء إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل تتقاصر عنه الهمم ، ولا يؤتیه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم .

وبعد أن رد على ما طعن به المنافقون فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من وقوع الكوارث التى حصلت فى أحد ، بين أن فيه كثيراً من الفوائد كتمييز الخبيث من الطيب ، أمرهم بالإيمان به فقال :

(فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى آمنوا بالله ورسوله الذين ذكرهم الله فى كتابه وقص علينا قصصهم .

وعم الأمر بالإيمان بالرسول جميعاً مع أن سوق الكلام فى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته .

(وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم) أى وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب ، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به ، فلکم أجر عظیم لا يستطيع الوصول إلى معرفة كنهه .

وقل أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن به التقوى ، كما قل أن ذكر الصلاة
إلا قرن بها الزكاة حثا على عمل البر والرفقة بالفقراء والبائسين ، وإشارة إلى أن
الإيمان لا يكمل إلا بهما .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ،
بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَتَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ الْيَنَاءِ لَا نُؤْمِنُ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقْرَةٌ بَأْنِ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي
بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ
كَذَّبْتُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكُمْ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

شرح المفردات

ما آتاهم أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه، سيطوقون ما بخلوا به أى سيلزمون
إثمهم فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة ، وقد جاء فى أمثالهم: تقلدها طوق الحميمة، إذا جاء
بما يسب به ويذم ، ميراث السموات والأرض أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره ،
سنكتب ما قالوا أى سنعاقب عليه ولا نهمله ، وتقول ذوقوا عذاب الحريق ، أصل
الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك سائر المحسوسات والحريق المحرق

المؤلم ، وعذاب الحريق أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم ، عهد إلينا أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ، القربان ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرها ، والمراد من النار النار التى تنزل من السماء ، والبينات هى المعجزات الواضحة ، والزبر واحدها زبور وهو الكتاب ، والمنير الواضح .

المعنى الجملى

كان الكلام فيما مضى فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى سبيل الله بذكر ما يلاقه المجاهدون من الكرامة عند ربهم فى جنات النعيم .
وهنا شرع يحث على بذل المال فى الجهاد - والمال شقيق الروح - فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله فى هذه السبيل ، وأرشد إلى أن المال ظل زائل ، وأن مدى الحياة قصير ، وأن الوارثين والموروثين سيموتون ويبقى الملك لله وحده .

الإيضاح

(ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) أى ولا يظن أحد أن بخل الباخلين بما أعطاهم الله من فضله ونعمه هو خيرا لهم ، لأنهم مطالبون بشكران النعم ، والبخل بها كفران لا ينبغى أن يصدر من عاقل .
والمراد من البخل بالفضل البخل به فى أداء الزكاة المفروضة ، وفى الأحوال التى يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصدّ عدو يحتاج البلاد ويهدد استقلالها ، ويصبح أهلها أذلة بعد أن كانوا أحرار ، أو إنقاذ شخص من مخالب الموت جوعا .
ففى كل هذه الأحوال يجب بذل المال ، لأنه يجرى مجرى دفع الضرر عن النفس .
وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه ، إذ أن الله أباح لنا الطيبات لنستمتع بها ، ولأن العقل قاض بأن الله لا يكلف الناس بذل كل ما يكسبون ، ويبقون عراة جائعين ، ومن ثم قال فى حق المؤمنين المهتدين « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً في بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ،
ووكّل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذي يتبع عاطفة الإيمان التي في قلبه ، وما تحدّثه
في النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه ، إذا هو تذكّر أن في ماله حقاً
للسائل والمحروم .

(بل هو شر لهم) أي هو شرّ عظيم لهم ، وقد نفى أولاً أن يكون خيراً ثم أثبت
كونه شراً ، لأن المانع للحق إنما يمنع لأنه يحسب أن في منعه خيراً له ، لما في بقاء
المال في يده من الانتفاع به في التمتع بالذات ، وقضاء الحاجات ، ودفع
الغوائل والآفات .

(سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً
في أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه ، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً ، كما يقال : طوقني
الأمر أي ألزمني إياه .

وخلاصة هذا — أن العقاب على البخل لازم لا بد منه .

وقال مجاهد: إن المعنى سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة .
عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى : هلا فاعلم ذلك
حين كان ممكناً ميسوراً ، ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » .

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي ، وأنهم يطوقون بطوق يكون سبباً لعذابهم
فتصير تلك الأموال حيات تلتوى في أعناقهم ، فقد روى البخاري والنسائي عن
أبي هريرة قال : « من آناه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع (ثعبان) أقرع
له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بِلِئِزِمَتَيْهِ (شذقيه) يقول أنا مالك ،
أنا كنزك ثم تلا الآية » .

(ولله ميراث السموات والأرض) أي والله وحده لا لأحد سواه ، ما في
السموات والأرض ما يتوارث من مال وغيره ، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر

في يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد ، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون ، ويبقى مالك الملك ، وهو الله رب العالمين .

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه في سبيله ، وابتغاء مرضاته . وفي الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل ، وصاحبه فان غير باق ، فلا ينبغي أن يستبقي القاني ما هو مثله في الفناء ، بل عليه أن يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها ، وبذا يكون خليفة الله في أرضه محسناً للتصرف فيما استخلف .

(والله بما تعملون خبير) أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ماتنطوى عليه جوانحك ، فيجازى كل عامل بما عمل على حسب تأثير عمله في تزكية نفسه أو تدهويتها ، ونيته في فعله كما جاء في الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة ، ولم يخف عليه ، وسيجزئهم عليه أشد الجزاء . وهذا أسلوب يتضمن التهديد والوعيد ، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء في نحو - سمع الله لمن حمده - ويتضمن مزيد العناية وإرادة الإغانة وإزالة الشكوى في نحو « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ سَخَوْرًا كَمَا » إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم في أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعاني التي ذكرناها آنفاً .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا » فقالوا يا محمد : أفتيرر بك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء؟ فأنزل الله (لقد سمع الله) الآية .

(سكنتب ما قالوا) أى سنعاقيهم على ذلك عقابا لاشك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه ، وهذا استعمال شائع في اللغة .

(وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نسيه إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه .

وهذا يدل على أن الأمم متكافئة في الأمور العامة ، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه ، لئلا يفشو فيها ، فيصير خلقا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فنستحق العقوبة في الدنيا بالضيق والفقر ، والعقوبة في الآخرة بتدنيس نفوسها ، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة ، فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستهجى ما تستهجىه — عدّ شريكاً له في إثمه ، ومستحقاً لمثل عقوبته .

(ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه المقالة .

ذاك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا ، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألواناً من العذاب ، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والسكر ، فجوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، كما أذقتهم أولياء الله في الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة — ذوقوا ما أتم فيه ، فلستم بمتخلصين منه ، وهذا قول يلقي للتشفي الدالّ على كمال الغيظ والغضب .

(ذلك بما قدمت أيديكم) أى إن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته ، بسبب أعمالكم فى الدنيا كقتل الأنبياء ، ووصف الله بالفقر ، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدى ، من قبيل أن أكثر أعمال الإنسان تراول باليد ، وليفيد أن ما عذبوا عليه هو من عملهم على الحقيقة ، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه . (وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، وبكونه تعالى عادلاً فى حكمه وفعله ، لا يجور ولا يظلم ، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب ، ولا يجعل الجرمين كالمثقفين ، والكافرين كالمؤمنين كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» وقال: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟» وقال: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟» .

وانخلاصة — أن ترك عقاب أمثالك مساواة بين الحسن والمسيء ووضع الشيء في غير موضعه ، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا من كان كثير الظلم مبالغاً فيه .

(الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وفتحاص ابن عازوراء في جماعة آخرين ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد تزعم أنك رسول الله ، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا ، وقد عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، ويكون لها دوى خفيف تنزل من السماء ، فإن جئتنا بهذا صدقناك ، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة ، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به .

لكن دعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، لأن أكل النار للقربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات سواء ، وما مقصدهم من تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا فرد الله عليهم بقوله :

(قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ، فلم تقتلوهم إن كنتم صادقين؟) أي قل موبخاً لهم ومكذبا : قد جاءكم رسل كثيرون من قبلي كزكريا ويحيى وغيرهما بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم ، وبما كنتم تقترحون وتطلبون ، وأتوا بالقربان الذي تأكله النار ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم ، بل اجترأتم على قتلهم؟

وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ القلوب ، وبذلك وصفوا في التوراة قساة القلوب
لانفتحون الحق ولا تدعون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشاداً ،
بل تعنتاً وعناداً .

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم ، لأنهم
راضون عما فعلوه ، معتقدون أنهم على حق في ذلك ، والأمة في أخلاقها العامة وعاداتها
كالشخص الواحد ، وقد كان هذا معروفاً عند العرب وغيرهم ، فتراهم يلصقون جريمة
الشخص بقبيلته ، ويؤاخذونها بها .

والخلاصة — أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أتم إلا كأسلافكم ، فلم يكن
من سنة الله إجابتهم إلى ملتسمكم بالإتيان بالقرآن ، إذ لا فائدة منه .

(فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير)
أى فإن كذبوك بعد أن جئهم بالبينات الساطعة ، والمعجزات الواضحة ، والكتاب
الهادى إلى سواء السبيل ، مع استنارة الحجة والدليل — فلا تأس عليهم ، ولا تحزن
لعنادهم وكفرهم ، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تعنتهم ، فتلك سنة الله
في خلقته ، فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات
وهزوا العطف بالزواجر والعظاات ، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة ، فلم يغن ذلك
عنهم شيئاً ، فصبروا على ما نالهم من أذى ، وما نالهم من سخرية واستهزاء .

وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طباع البشر في كل الأزمنة
سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدر رحيب ونفس مطمئنة ، ومنهم من
يقاوم الحق والدواعى إليه ، ويسفه أحلام معتنقيه .

فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك ، ولا أن يفتدوا حججتك ، فإن نفوسهم
منصرفة عن طلب الحق ، وتحرى سبل الخير .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
الْعُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

شرح المفردات

توفون أجوركم أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة ، زحرح عن النار نحي عنها ، فاز سعد ونجا ، والمتاع ما يتمتع وينتفع به مما يباع ويشترى ، والغرور إصابة الغرّة والغفلة من تحذعه وتغشه ، لتبلون أى لتختبرن أى لتعاملن معاملة المختبرين تظهر حالكم على حقيقتها ، فى أموالكم أى بالبذل فى سبيل الله وبالجوائح والآفات ، وفى أنفسكم أى بالقتل والأسرى فى سبيل الله ، والأمراض وفقد الأقارب ، الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، والذين أشركوا هم كفار العرب ، أذى كثيرا كالظعن فى الدين والافتراء على الله ورسوله ، والصبر: تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع دفعه بروية ، ومقاومة ما يحدث من الجزع ، والتقوى الابتعاد عن المعاصى ، من عزم الأمور أى من صواب التدبير ، وما ينبغى لكل عاقل أن يعزم عليه ويأخذ نفسه به ، من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أى ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه .

المعنى الجملى

بعد أن سلى نبيه فيما سلف عن تكذيب قومه له بأن كثيرا من الرسل قبلك قد كذبوا كما كذبت ، ولاقوا من أقوامهم من الشدائد مثل مالايت ، بل أشد

مما لاقيت ، فقد قتلوا كثيراً منهم كيحيى وزكريا عليهما السلام زاده هنا تسليية وتعزية أخرى ، فأبان أن كل ما تراه من عنادهم فهو مُنتهٍ إلى غاية ، وكل آت قريب ، فلا تضجر ولا تحزن على ما ترى منهم ، وأنهم سيجازون على أعمالهم في دار الجزاء كما تجازى ، وحسبك ما تصيب من حسن الجزاء ، وحسبهم ما أصيبوا به وما يصابون به من الجزاء في الدنيا ، وسيوفون الجزاء كاملاً يوم القيامة .

الإيضاح

(كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس تذوق طعم مفارقة البدن وتحس به ، وفى هذا إيماء إلى أن النفس لا تموت بموت البدن ، لأن الذى يذوق هو الموجود والميت لا يذوق ، فالذوق شعور لا يحس به إلا الحي .

(وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) أى وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملاً وافية يوم القيامة ، وفى ذكر التوفية إشارة إلى أن بعض الأجور من خير أو شر قد تصل إليهم فى الدنيا جزاء أعمالهم ، ويؤيده ما أخرجه الترمذى والطبرانى مرفوعاً « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران » .

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أى من خلاص من العذاب ووصل إلى الثواب فقد فاز بالمقصد الأسمى والغاية التى لا مطلب بعدها ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدرکه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليؤت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه » .

والخلاصة أن هناك جنة وناراً وأن من الناس من يُلقى فى هذه ومنهم من يلقى فى تلك وأن هول النار عظيم ، وعبر عن النجاة عنها بالزحزحة كأن كل شخص كان مشرفاً على السقوط فيها لأن أعمالهم سائقة لهم إلى النار لأنها أعمال حيوانية تسوق إليها ولا يدخل الجنة أحد إلا إذا زحزح ، فالزحزحة عنها فوز عظيم ، وأولئك

المزحزون هم الذين غلبت صفاتهم الروحية على الصفات الحيوانية فأخلصوا في إيمانهم وجاهدوا في الله حق جهاده ، ولم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله معه في عمل من أعمالهم .

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما حياتنا القربى التى نحن فيها وتمتع بلذاتها الحسية من مأكل ومشرب ، أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة إلا متاع الغرور ، لأن صاحبها دائماً مغرور مخدوع لها ، تشغله كل حين بجلب لذاتها ودفع آلامها فهو يتعب لما لا يستحق التعب ويشقى لتوهم السعادة .

والخلاصة أن الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغر الإنسان ويشغله عن تكميل نفسه بالمعارف والأخلاق التى ترقى بروحه إلى سعادة الآخرة .

فينبغى له أن يحذر من الإسراف فى الاشتغال بمتاعها عن نفسه وإنفاق الوقت فيما لا يفيد إذ ليس للذاتها غاية تنتهى إليها فلا يبلغ حاجة منها إلا طلب أخرى .
فما قضى أحد منها لبائته ولا انتهى أرب منها إلا إلى أرب

وعليه أن يسعى لكسب علم يرقى به عقله وعمل صالح ينتفع به وينفع عباده مع إصلاح السريرة وخلوص النية وقد قال بعض الصوفية : « عليك بنفسك إن لم تشعلها شعلتك » .

(لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) بعد أن سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بما سبق آنفاً زاد فى تسليته بهذه الآية وأبان له أنه كما لقي هو ومن معه من الكفار أذى يوم أحد فسيلقون منهم أذى كثيراً بقدر ما يستطيعون من الإيذاء فى النفس أو فى المال، والمقصود من هذا الإخبار أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع حتى لا يشق عليهم البلاء عند نزوله بهم .

والابتلاء فى الأموال يكون بالبذل فى جميع وجوه البر التى ترفع شأن الأمة الإسلامية وتدفع عنها أعداءها وترد عنها المكاره وتدفع عنها غوائل الأمراض والأوبئة .

والابتلاء في الأنفس ببذلها في الجهاد في سبيل الله وبموت من يجب من الأهل لأصدقاء أو بالمداغة عن الحق ، وفائدة الابتلاء تمييز الخبيث من الطيب ، وفائدة الإخبار به أن نعرف السنن الإلهية ونهبي أنفسنا لمقاومتها فإن من تقع به المصيبة فحاة على غير انتظار يعظم عليه الأمر ويحيط به الغم حتى ليقته في بعض الأحيان ، لكنه إذا استعد لها اضطلع بها وقوى على حملها .

وكذلك من تحدث له النعمة على غير توقع لها فإنها تحدث له دهشة وتهيجا في الأعصاب ، وربما أصيب بشلل أو اضطراب عقلي أو موت فجائي ، والحوادث المشاهدة في هذا الباب كثيرة .

(ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) هذا سبيل آخر من الابتلاء في الأنفس وخصه بالذكر لأهميته أي أنكم ستسمعون إيذاء كثيراً من اليهود والنصارى والمشركين ، ومن ذلك حديث الإفك (قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها) وتآلب اليهود عليهم ونقض عهودهم ومحاولتهم قتل النبي صلى الله عليه وسلم حتى أجلاهم عن المدينة فأمن شرهم ، وانفاق اليهود مع أحزاب المشركين وزحفهم على المدينة لاستئصال المسلمين ، وقد حاصروهم وأوقعوا بهم شديد البلاء وضيقوا عليهم وفي ذلك يقول الله تعالى : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا » .

(وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) أي إن تصبروا على ما سيحل بكم من البلاء في أموالكم وأنفسكم ، وعلى ما تسمعون من أهل الكتاب والمشركين من الأذى وتتقوا ما يجب اتقاؤه ، فإن ذلك الصبر والتقوى من معزومات الأمور أي الأمور التي ينبغي أن يعزمها كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف .

روى الزهري أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قريش في شعره وكان النبي صلى الله عليه وسلم

قدم المدينة وأهلها أخلاط من المسلمين والمشركون واليهود ، فأراد النبي أن يستصلحهم كلهم فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشد الأذى فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله تعالى : (ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب) الآية .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

شرح المفردات

الميثاق العهد المؤكد ، والذين أتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، لتبينه للناس أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا تكتُمونه أى لا تؤولونه ولا تلقون الشبه الفاسدة والتأويلات المزيفة ، فنبدوه وراء ظهورهم أى طرحوه ولم يعتدوا به ، ويقال للأمر المعتنى به جعله نُصَبَ عينيه وألقاه بين عينيه ، واشتروا به ثمنًا قليلًا أى شيئًا من حطام الدنيا الفانية ، بما أتوا أى بما فعلوا أن يحمدا أى يحمدهم الناس ، بمفازة من العذاب أى بمنجاة منه ، من قولهم : فاز فلان إذا نجا .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه عن اليهود شبهًا ومطاعن فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها بما علمت فيما سلف ، أردفه بهذه الآية لبيان عجيب حالهم وغريب

أمرهم وأنه لا يليق بهم أن يطعنوا في نبوته ولا أن يوجهوا شبها لدينه ، ذاك أن اليهود والنصارى أمروا بشرح ما في التوراة والإنجيل وبيان ما فيهما من الدلائل الناطقة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته ، فكيف يليق بهم بعد هذا إيراد تلك المطاعن والشبه وكانوا أجدر الناس بدفعها وأحقهم بتأييده والنود عن دينه لما في كتابيهما من البشارة به وتوكيد دعوته ، فالعقل قاض بأن يظاهروه ، ودينهم حاكم بأن يؤيدوه ، ومن العجب العاجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهريا ، وهل مثل هؤلاء يجدى معهم الحجاج والجدل أو تقنعهم قوة الدليل والحجة .

الإيضاح

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)
 أى واذكروا حين أخذ الله العهد والميثاق على الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى بلسان أنبيائهم ، ليبين كتابهم للناس غير كاتمين له ، بأن يوضحوا معانيه كما هي ولا يؤولوه ولا يحرفوه عن مواضعه التى وضع لتقريرها ويذكروا مقاصده التى أنزل لأجلها حتى لا يقع اضطراب ولا لبس فى فهمه .

فإن لم يفعلوا ذلك فإما أن يبينوه على غير وجهه ولا يكون هذا بيانا ولا كشافا لأغراضه ومقاصده ، وإما لا يبينوه بتاتا ويكون هذا كتماناً له .

وهذه الآية وإن كانت لليهود والنصارى ، فإن العبرة فيها تنطبق على المسلمين أيضا فإنهم مع حفظهم لكتابهم وتلاوتهم إياه فى كل مكان فهم يتلون فى الشوارع والأسواق ومجتمعات الأفرح والأحزان ، تركوا تبينه للناس ففقدوا هدايته وعميت عليهم عظاته وزواجره وحكمه وأسراره ، واعترفوا بأنهم انحرفوا عنه وصار القابض على دينه كالقابض على الحجر وتبين الكتاب على ضربين :

- (١) تبينه لغير المؤمنين به لدعوتهم إليه .
- (٢) وتبينه للمؤمنين به لهدايتهم وإرشادهم بما أنزل إليهم من ربهم .

وكل منهما واجب على العلماء لاهوادة فيه ، وكفى بهذه الآية حجة عليهم وهي آكد من قوله : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(فنبذوه وراء ظهورهم) أى لم يبالوا به ولم يهتموا بشأنه ، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلوهم نصب أعينهم لا شيئاً مهملاً ملقى وراء الظهر لا ينظر إليه ، ولا يفكر فى أمره ، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئاً — ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار ، ومنهم الذين يحرفونه عن مواضعه ، ومنهم الذين لا يعلمون منه إلا أمانى يتمنونها وقراءات يقرءونها .

وإن هذا لينطبق على حال المسلمين اليوم أتم الانطباق ، فهم قد اتبعوا سنن من قبلهم ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة ، فما بالهم عن التذكرة معرضين وكتاب الله بين أيديهم شاهد عليهم وهو يتلى بين ظهرانيتهم .

(واشتروا به ثمناً قليلاً) أى أخذوا عوضاً منه فائدة دنيوية حقيرة فغبناوا فى هذا البيع والشراء ، وهذا الثمن هو ما كان يستفيدة الرؤساء من المرءوسين من حطام الدنيا ليمتعتوا بلذاتها الفانية ، وشهواتها الفاسدة ، وكانوا يؤولون الكتاب ويحرفونه لأغراض كثيرة كالخوف من الحكام والرجاء فيهم فيصرفون نصوصه إلى معان توافق هوى الحاكم ليأمنوا شره ، وكإرضاء العامة أو الأغنياء بموافقة أهوائهم لاستفادة جاههم ومالهم ، وكالجدل والمرء بين رجال الدين ولا سيما الرؤساء وطلاب الرياسة ، وكالجهل الذى يفسد قواعد الدين فإذا تصدى جاهل للفتيا والتعليم حرّف وخرّف وكان وبالاً على الدين وأهله .

(فبئس ما يشترون) أى أن ما يشترونه ذميم قبيح لأنهم جعلوا الفانى بدلاً من النعيم الدائم الذى يحصل للأمة من اتباعها لكتابها وهداياها بارشاده وتهذيب أخلاقها بأدابه وجمع كلمتها حول تعاليمه ، وبذا تحول بينها وبين المستبدين فيها وتصبح عزيزة الجانب متكافلة متضامنة ، أمر أهلها بينها شورى .

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ، وعن أبي هريرة أنه قال : لولا ما أخذ الله تعالى على أهل الكتاب ما حدثتكم وتلا هذه الآية ، وعن الحسن أنه قال لولا الميثاق الذي أخذته الله تعالى على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه .

(لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) كان الكلام قبل هذا مع أهل الكتاب وأنه قد أخذ عليهم الميثاق بتبيين كتابهم للناس فقصروا في ذلك وتركوا العمل به واشتروا به ثمنا قليلا فاستحقوا العقاب من ربهم .

وهنا ذكر حالا أخرى من أحوالهم ليحذر المؤمنون منها وهو أنهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ويرون لأنفسهم شرفا فيه وفضلا بأنهم أمة تقتدى بهم ، وكانوا يحبون أن يحمدا بما أنهم حفاظ الكتاب ومفسروه وهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وإنما فعلوا نقيضه إذ حولوه من الهداية إلى ما يوافق أهواء الحكام وأهواء العامة .

ومن عجيب حالهم أنه قد اشتبه أمرهم على الناس فهم يحسبون أنهم أولياء الله وأنصار دينه وعلماء كتابه وأنهم أبعد الناس عن عذابه وأقربهم من رضوانه ، فبين الله كذب هذا الحسبان ونهى عنه وسجل عليهم العذاب .

الخلاصة : لا تظن أيها المخاطب أن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ، ناجون من العذاب الدينوي وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت أخلاقها وساءت أعمالها ، وألفت الفساد والظلم ؛ وهو ضربان :

(١) عذاب هو أثر طبيعي للحال التي يكون عليها المبطلون على حسب سنة الله في الاجتماع البشرية بخذلان أهل الباطل والافساد ، وذهاب استقلالهم ونصرة أهل الحق عليهم وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأموالهم ليحل الإصلاح محل الافساد

والعدل مكان الظلم « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

(٢) عذاب يكون سخطا سماويا كالزلزال والخسف والظوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بربهم وكذبوهم وآذوهم عند اشتداد عتوهم وإيذاهم لرسولهم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم .

(ولهم عذاب أليم) أى عذاب عظيم فى الآخرة كفاء فساد أخلاقهم وسوء طويتهم وحبهم للحمد الكاذب، وقوله بما أتوا أى بما فعلوا. قال صاحب الكشاف: أنى وجاء يستعملان بمعنى فعل قال تعالى: « إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا » وقال: « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا » وقوله: فلا تحسبنهم تأكيد لقوله: ولا تحسبن الذين ، وقد عهد هذا فى الأساليب العربية من إعادة الفعل إذا طال الفصل بينه وبين معموله . قال الزجاج: العرب إذا أطالت القصة تعيد حسبت وما أشبهها إعلاما بأن الذى جرى متصل بالأول فتقول لا تظنن زيدا إذا جاءك وكلك بكذا وكذا ، فلا تظنه صادقا ، فيفيد لا تظنن توكيذا وتوضيحا، والفاء زائدة كما فى قوله * فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى *

(ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير) أى لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا ، وبنوا الحق ولا تكتموا منه شيئا ، ولا تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ولا تفرحوا بما عملتم ، فإن الله يكفكم ما أهمكم ويغنيكم عن هذه المنكرات التى نهيتم عنها ، فإن لله ملك السموات والأرض يعطى من يشاء ، وهو على كل شيء قدير لا يعز عليه نصركم على من يؤذونكم بأيديهم وأستهم من أهل الكتاب والمشركين .

وفي هذا إيماء إلى أن الخير في اتباع ما أرشد إليه ، وفيه تسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ووعد له بالنصر ، وفيه تعريض بدم أولئك المخالفين ووصفهم بأنهم لا يؤمنون إيمانا صحيحا يظهر أثره في أخلاقهم وأعمالهم ، إذ لو كانوا كذلك ما تركوا العمل بكتابه وآثروا عليه ما يستفيدونه من حطام الدنيا .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ
 لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ،
 وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
 سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ
 وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ
 آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا
 مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ
 عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
 وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
 وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

شرح المفردات

الخلق التقدير والترتيب الدال على النظام والاتقان ، والسموات ما علاك مما تراها
 فوقك ، والأرض ما تعيش عليه ، اختلاف الليل والنهار تعاقبهما ومجيء كل منهما خلف

الآخر ، لآيات لأدلة على وجود الله وقدرته ، الألباب واحدها اب وهو العقل ، قياما وعودا واحدها قائم وقاعد ، باطلا أى عبثا لافائدة منه ، سبحانه أى تنزيها لك عما لا يليق بك ، قنا عذاب النار أى اجعل العمل الصالح وقاية لنا من عذاب النار ، يقال أخزاه أذله وأهانته ، الذنب هو التقصير فى المعاملة بين العبد وربّه ، والسيئة هى التقصير فى حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضا ، وتوفنا أى أمتنا ، والأبرار واحدهم بارّ وهو المحسن فى العمل ، على رسلك أى على تصديق رسلك ، الميعاد الوعد ، استجاب أى أجاب ، لا أضيع عمل عامل أى لا أترك ثوابه ، بعضكم من بعض أى مختلطون متعاونون ، فى سبيلى أى بسبب طاعتى وعبادتى ودينى .

المعنى الجملى

قال الرازى : اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق ، فلما طال الكلام فى تقرير الكلام والجواب عن شبهات المبطلين ، عاد إلى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والألوهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية .

الايضاح

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) أى إن فى نظام السموات والأرض وبديع تقديرها وعجيب صنعهما ، وفى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق طوال العام ، ترى آثاره فى أجسامنا وعقولنا بتأثير حرارة الشمس وبرد الليل ، وفى الحيوان والنبات وغير ذلك - لآيات ودلائل على وحدانية الله وكمال علمه وقدرته ، عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هل لك يا عائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى ، فقلت يا رسول الله إنى لأحب قربك وأحب هوائك (ماتهورى وتريد) قد أذنت لك فقام إلى قربة

من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغت الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له : يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً ثم قال : ومالي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة : إن في خلق السموات والأرض الخ ، ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها « وروى » ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتأملها » .

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أى أولو الأبواب هم الذين ينظرون ويستفيدون ويهتدون ويستحضرون عظمة الله ويتذكرون حكمته وفضله وجليل نعمه في جميع أحوالهم من قيام وقعود واضطجاع .

والخلاصة أنهم هم الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم بمراقبته .

وذكر لله وحده لا يكفى في الاهتداء ، بل لا بد معه من التفكير في بديع صنعه وأسرار خليقته ومن ثم قال :

(ويتفكرون في خلق السموات والأرض) أى يتفكرون في خلق السموات والأرض ، وما فيهما من الأسرار والمنافع الدالة على العلم الكامل والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والخلاصة أن الفوز والنجاة إنما يكون بتذكر عظمة الله والتفكر في مخلوقاته من جهة دلائلها على وجود خالق واحد له العلم والقدرة ، ويتبع ذلك صدق الرسل وأن الكتب التي أنزلت عليهم مفصلة لأحكام التشريع وحاوية لكامل الآداب وجميل الأخلاق ولما يلزم نظم المجتمع في هذه الحياة وللحساب والجزاء على الأعمال بدخول الجنة والنار .

وإنما ذكر التفكير في خلق الله ، لورود النهى عن التفكير في الخالق ؛ لعدم

الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته ، فقد أخرج الأصبهاني عن عبد الله بن سلام قال :
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتفكرون فقال : « تفكروا
في الخلق ولا تفكروا في الخالق » وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله تعالى » .

(ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه) أى يقول الذاكرون المتفكرون : ربنا
ما خلقت هذا الذى نشاهده من العوالم العلوية والأرضية باطلا ، ولا أبدعته عبثا ،
سبحانك ربنا تنزهت عن الباطل والعبث ، بل كل خلقك حق مشتمل على حكم
جليلة ، ومصالح عظيمة .

والإنسان بعض خلقك لم يخلق عبثا ، فإن لحقه الفناء وتفرقت منه الأجزاء بعد
مفارقة الأرواح للأبدان ، فإنما يهلك منه كونه الفاسد أى الجسم ، ثم يعود بقدرتك
في نشأة أخرى كما بدأت في النشأة الأولى ، فريق أطاعك واهتدى ، وفريق حققت
عليه الضلالة ، فالأول يدخل الجنة بصالح أعماله والآخريكب في النار بما اجترح من
السيئات ، وما عمل من الموبقات ، جزاء وفاقا .

والخلاصة أن المؤمن المتفكر يتوجه إلى الله بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال
بعد أن رأى الدلائل على بديع الحكمة ، وواسع العلم بدقائق الأكوان التى تربط
الإنسان بربه ، وفي هذا تعليم للمؤمنين كيف يخاطبون ربهم عند ما يهتدون إلى شيء
من معاني إحسانه وكرمه في بدائع خلقه .

(فقننا عذاب النار) أى فوققنا بعنايتك لصالح العمل بما فهمنا من الدلائل حتى
يكون ذلك وقاية لنا من عذاب النار .

(ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أى إنهم بعد أن يدعوا ربهم أن
يقيمهم دخول النار يتوجهون إليه قائلين هذا القول ، دلالة على عظم هذا العقاب
وشدته وهو الخزي والفضيحة ليكون موقع السؤال أعظم ، لأن من طلب من ربه

شيئا وشرح عظم المطلوب وقوته ، كانت الداعية إلى الدعاء أ كمل والإخلاص في الطلب أشد .

(وما للظالمين من أنصار) الظالم هو الذى يتنكب الطريق المستقيم ، وقد وصف من يدخل النار بالظلم للدلالة على أن سبب دخوله إياها هو جوره وظلمه ، وللتشجيع عليه بهذا العمل القبيح .

أى إن هؤلاء المتفكرين الناكرين ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلى الذى خلق تلك الأكوام المملوءة بالأسرار والحكم فيعلمون أنه لا يمكن أحدا أن ينتصر عليه ، وأن من عاداه فلا ملجأ له إلا إليه .

(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا) المنادى هو الرسول ، وذكره بوصف المنادى تعظيما لشأن هذا النداء ، أى إنهم بعد أن عرفوا الله تعالى حق معرفته بالذكر والفكر عبروا عن وصول دعوة الرسول إليهم واستجابتهم دعوته سراعا بدون تلبث بهذا القول ، لأنه دعاهم إلى ما اهتدوا إليه من قبل ، وزادهم معرفة وبصيرة في عالم الغيب والحياة الآخرة وفى مقدمة الدعاء بالنداء إشارة إلى كمال توجههم إلى مولاهم وعدم غفلتهم عنه مع إظهار كمال الضراعة والابتهاج إلى من عودنا بالإحسان والإفضال .

(ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) الغفران الستر والتغطية، يقال: رجل مكفر بالسلاح أى مغطى به، قال لبيد: «فى ليلة كفر النجوم ظلامها». أى إنهم طلبوا من الله تعالى فى هذا الدعاء ثلاثة أشياء غفران الذنوب المتقدمة ، وتكفير السيئات المستقبلية ، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا فى درجاتهم يوم القيامة كما يقال فلان فى العطاء مع أصحاب الألوף أى هو مشارك لهم فى أنه يعطى ألقا قال تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ » وفى هذا رمز إلى أنهم كانوا يحبون لقاء الله « ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » .

(ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك) أى ربنا أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر فى الدنيا والنعم فى الآخرة جزاء على تصديق رسلك واتباعهم .
 وخلاصة ذلك أنهم قالوا أعطنا ذلك بتوفيقنا للثبات على ما نستحق ذلك به إلى أن تتوفانا مع الأبرار ، وفى هذا استشعار بتقصيرهم وعدم الثقة بثباتهم إلا بتوفيق الله ومزيد عنايته .

(ولا تخزنا يوم القيامة) أى لا تفضحنا ولا تهتك سترنا يوم القيامة بإدخالنا النار التى يخزى من دخلها .

(إنك لا تخلف الميعاد) أى لا تخلف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل ، فقد وعدت بسيادة الدنيا فى قولك « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » وقلت « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » ووعدت بسعادة الآخرة فقلت « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .
 (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) أى استجاب لهم ربهم دعاءهم لصدقهم فى إيمانهم وذكرهم وتفكيرهم وتنزيههم لربهم وتصديقهم للرسول وشعورهم بالضعف والتقصير فى الشكر واحتياجهم إلى المغفرة .

وإنا نستخلص من هذه الآية أموراً :

(١) أن الاستجابة يصح أن تكون بغير ما طلب ، فقد سأله غفران الذنوب وتكفير السيئات والوفاء مع الأبرار ، فأجابهم بأن كل عامل سيوفى جزاء عمله ، وفى ذلك تنبيهه إلى أن العبرة فى النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب ، إنما تكون بإحسان العمل والإخلاص فيه .

(٢) أن الذكر والأثى متساويان عند الله فى الجزاء متى تساويا فى العمل حتى لا يعتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها .

(٣) أن الله قد بين علة هذه المساواة بقوله: بعضكم من بعض ، فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل إلا بالأعمال .
 (٤) أنها رفعت قدر النساء المسلمات في أنفسهن وعند الرجال المسلمين .
 (٥) أن هذا التشريع قد أصلح معاملة الرجل للمرأة واعترف لها بالكرامة ، وأنكر تلك المعاملة القاسية التي كانت تعاملها بها بعض الأمم فقد كان بعضها يعدها كالبهيمة المستخرة لمصلحة الرجل وبعضها يعدها غير أهل للتكاليف الدينية إذ زعموا أنه ليس لها روح خالد ، فما زعمه الإفرنج من أنهم السباقون إلى الاعتراف بكرامة المرأة ومساواتها للرجل ليس مبنياً على أساس صحيح ، فالإسلام هو الذي سبق كل الشرائع في هذا ولا تزال شرائعهم الدينية والمدنية تميز الرجل على المرأة ، نعم إن المسلمين قصرُوا في تعليم النساء وتربيتهن ، لكن هذا لا يصلح حجة على الدين نفسه .

(٦) أن ما يفضل به الرجال النساء من العلم والعقل وما يقومون به من الأعمال الدنيوية التي جرى عرف المجتمع على إسنادها إلى الرجال ، وجعل حظ الرجل في الإرث مثل حظ الأنثيين لأنه يتحمل نفقة امرأته فلا دخل لشيء منه في التفاضل عند الله بثواب ولا عقاب .

(فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأ كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) بعد أن ربط الله الجزاء بالعمل ، بين أن العمل الذي يستحقون به ما طلبوا من تكفير السيئات ودخول الجنة ، هو الهجرة من الوطن في خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإخراج من الديار بإجاء الكافرين إليهم إلى الخروج والإيذاء في سبيل الله والقتال والقتل وبذل المهجة لله عز وجل ، كل أولئك يكفر الله به عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وهذه الآية نظائر في الكتاب الكريم كقوله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وقوله: « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » وقوله: « وَالْعَصْرَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » .

وقد ذكر الله صفات المؤمنين هكذا لينبهنا إلى أن نرؤز أنفسنا ونختبرها ، فإن رأيناها تحتمل الأذى فى سبيل الله حتى القتل فلها الرضوان من ربها ، وإلا فلنروضها حتى تصل إلى هذه المنزلة ، والسرف فى هذا التكليف الشاق أن الحق لا يقوى إلا إذا وجد من ينصره ويؤيده ويقاوم الباطل وأعوانه حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الباطل هى السفلى فيجب على أنصار الحق ألا يفشلوا ولا يهزموا ، بل يثبتوا مهما لاقوا من الحزن والأرزاء فقد كتب الله النصر لعباده المؤمنين .

(ثوابا من عند الله) الثواب والمثوبة الجزاء ، وقد جعله الدين أترأ طبيعيا للعمل فللأعمال تأثير فى نفس العامل بتزكيتها فتكون منعمة فى الآخرة ، أو تدسيته فتكون معذبة فيها .

وقد وعد الله تعالى من فعل ذلك بأمر ثلاثة :

- (١) محو السيئات وغفران الذنوب ودل على ذلك بقوله : (لا كفرن عنهم سيئاتهم) وذلك ما طلبوه بقولهم (فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) .
 - (٢) إعطاء الثواب العظيم وهو قوله : (ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) وهذا ما طلبوه بقولهم : (وآتنا ما وعدتنا على رسلك) .
 - (٣) أن يكون هذا الثواب عظيما مقرونا بالتعظيم والإجلال ، وهو قوله : (من عند الله) وهذا ما طلبوه بقولهم (ولا تخزنا يوم القيامة) والمعنى لأ كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم الجنات ولأثيبنهم بذلك ثوابا من الله لا يقدر عليه غيره .
- (والله عنده حسن الثواب) أى هو ثواب من عنده مختص به بحيث لا يقدر عليه غيره ، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب ، لأنه تعالى قادر على كل شىء غنى عن كل أحد فهو لا محالة فى غاية الجود والكرم والإحسان .

لَا يَغْرُبُ نَفْسُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ
 مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
 خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

شرح المفردات

تقول: غرني ظاهره أى قبلته على غفلة عن امتحانه ، ويقال فى الثوب إذا نشر
 ثم أعيد إلى طيه : رددته على غرّه ، تقلب الذين كفروا : تصرفهم فى التجارات
 والمكاسب ، متاع قليل أى ذلك الكسب والربح متاع قليل ، وإنما وصفه بالقلّة لأنه
 قصير الأمد ، مأواهم : مصيرهم ، جهنم : الدار التى يجازى فيها الكافرون فى الآخرة ،
 والمهاد: المكان الموطأ كالفراس ، والنزل : ما يهبها للضيف النازل ، والأبرار : واحدهم
 بار وهو المتصف بالبر ، خاشعين أى خاضعين ، اصبروا أى احبسوا نفوسكم عن الجزع
 مما ينالها ، وصابروا أى اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله ، ورابطوا أى أقيموا
 فى الثغور رابطين خيولكم حاسبين لها مترصدين للغزو ، والتقوى : أن تقى نفسك من
 غضب الله وسخطه ، والفلاح : هو الفوز والظفر بالغبية المقصودة من العمل .

المعنى الجملى

بعد أن وعد الله المؤمنين بالثواب العظيم وكانوا فى الدنيا فى غاية الفقر والشدة ،
 والكفار كانوا فى رخاء ولين عيش ذكر فى هذه الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك

الشدّة ، فبين لهم حقارة ما أوتى هؤلاء من حظوظ الدنيا وذكر أنها متاع قليل زائل ، فلا ينبغي للعاقل أن يوازن بينه وبين النعيم الخالد المقيم .

الإيضاح

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) أى لا يغرنك يا محمد والمراد أمته ، فكثيراً ما يخاطب سيد القوم بشيء ويراد أتباعه ، وهذا معنى ما روى عن قتادة أنه قال : والله ما غروا نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله .

وخلاصة المعنى — لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم في البلاد كيف شاءوا وأنتم معاشر المؤمنين خائفون محصورون ، فإن ذلك لا يبقى إلا مدة قليلة ثم ينتقلون إلى أشد العذاب ، فعلى المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب الذى وعده الله فهو النعيم الحقيقي الباقى .

(متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) أى ذلك التقلب في البلاد الذى يتمتعون به متاع قليل عاقبته هذا المأوى الذى ينتهون إليه في الآخرة فيكونون خالدين فيه أبداً ، بما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم .

نزلت الآية في مشركى مكة إذ كانوا يضربون في الأرض يتجرون ويكتسبون حين لا يستطيع المسلمون ذلك لوقوف المشركين لهم بالمرصاد والإيقاع بهم أينما تقفون وعجز هؤلاء عن مقاومتهم إذا خرجوا من ديارهم للتجارة أو غيرها .

وقد روى من وجه آخر أن بعض المؤمنين قال: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت الآية ، وبعد أن بين الله حال الكافرين وبين مآل أمرهم ، ذكر في مقابلة ذلك عاقبة المؤمنين ليعلموا أنهم في القسمة غير مغبونين ، فقال :

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله) أى لكن الذين اتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المنهيات ، لهم جنات

النعم خالدین فیہا أبداً ، ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وفي الآية إيماء إلى أن النازلين فيها ضيوف عند ربهم يحفهم بلطفه ويخصهم بكرمه وجوده ، وهذه الجنات نعم جسماني لهم ، وهناك نعم روحاني أعطاه الله بمحض الفضل والإحسان وإليه الإشارة بقوله :

(وما عند الله خير للأبرار) أي وما عنده من الكرامة فوق ما تقدم خير وأفضل مما يتقلب فيه الذين كفروا من المتاع القليل القاني .

(وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً) بعد أن بين حال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب وحال الكافرين وما هيأ لهم من العقاب ، ذكر هنا فريقاً من أهل الكتاب يهتدون بهذا القرآن وكانوا من قبله مهتدين بما عندهم من هدى الأنبياء وقد وصفهم الله بصفات كلها تستحق المزية والشرف :

الأولى : الإيمان بالله إيماناً لا تشوبه نزعات الشرك ولا يفارقه الإذعان الباعث على العمل ، لا كمن قال الله فيهم « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .
الثانية : الإيمان بما أنزل إلى المسلمين ، وهو ما أوحاه الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثة : الإيمان بما أنزل إليهم وهو ما أوحاه الله إلى أنبيائهم ، والمراد به الإيمان إجمالاً وما أرشد إليه القرآن تفصيلاً فلا يضير في ذلك ضياع بعضه ونسيان بعضه الآخر .
الرابعة : الخشوع وهو الثمرة للإيمان الصحيح فإن الخشوع أثر خشية الله في القلب ومنه تفيض على الجوارح والمشاعر ، فيخشع البصر بالانكسار ويخشع الصوت بالخفوت والتهديج .

الخامسة : عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات الله وهذا أثر لما قبله .

روى النسائي من حديث أنس قال : « لما جاء نبي النجاشي قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : صلوا عليه ، قالوا يا رسول الله نصلى على عبد حبشى ، فأنزل الله هذه الآية » :

(أولئك لهم أجرهم عند ربهم) أى هؤلاء المتصفون بحميد الصفات وجليل الأعمال لهم ثواب أعمالهم وأجر طاعتهم عند ربهم الذى رباهم بنعمه وهداهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

(إن الله سريع الحساب) فهو يحاسب الناس جميعهم فى وقت قصير فيتمثل لهم ما كسبته أيديهم وانطوت عليه جوانحهم وهو مكتوب فى صحائف أعمالهم ، فما أحرانا أن نشبهها بالصورة المتحركة (الأفلام) التى تعرض فيها الحوادث والوقائع فى عصرنا الحاضر .

وقد ختم الله هذه السورة بوصية للمؤمنين إذا عملوا بها كانوا أهلا لاستجابة الدعاء وأحق بالنصر فى الدنيا وحسن الثوبة فى الآخرة فقال :

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اصبروا على شدائد الدنيا وآلامها من مرض وفقر وخوف ، وصابروا : وتحملوا المكاره التى تلحقكم من سواكم ، ويدخل فى ذلك احتمال الأذى من الأهل والجيران وترك الانتقام ممن يسيء إليكم كما قال : « وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » وإيثار غيركم على أنفسكم كما قال : « وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » والعفو عن ظلمكم كما قال : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » ودفع شبه المبطلين وحل شكوكهم والإجابة عن شبههم ، وقوله ورابطوا أى ارتبطوا خيلكم فى الثغور كما يرتبط العدو خيله استعداداً للقتال كما قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » ويدخل فى هذا كل ما ولده العلم فى هذا العصر من وسائل الدفاع من طائرات وقاذفات للقنابل ودبابات ومدافع رشاشة وبنادق وأساطيل بحرية ونحو ذلك مما صار ضروريا من آلات الحروب الحديثة ، وصار من فقدتها يشبه أن يكون أعزل من السلاح وإن كان مدججا به ، ويلزم هذا أن يكونوا عالمين بفنون الحرب

وانلخطط العسكرية بارعين في العلوم الطبيعية والرياضية ، فكل ذلك واجب على المسلمين في هذا العصر لأن الاستعداد لا يتم إلا به ، ولقد أكرّم الله في كتابه من ذكر التقوى ويراد بها الوقاية من سخط الله وعُظُمِهِ ، ولا يكون هذا إلا بعد معرفته ومعرفته ما يرضيه وما يسخطه ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله وعرف سنة نبيه وسيرة السلف الصالح من الأمة الإسلامية . ومن فعل كل ما تقدم فصر وصابر ورابط لحماية الحق وأهله ونشر دعوته واتقى ربه في سائر شؤونه فقد أفلح وفاز بالسعادة عند ربه . وهذا الفوز والفلاح بالبغية قد يكون في شئون الدنيا كما جاء حكاية عن فرعون « وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى » وقد يكون في شئون الآخرة كقوله تعالى حكاية عن أهل الكهف « وَلَنْ نَفْلُحُوا إِذَا أَبَدًا » .

وقد يكون فيهما معا ، وأكثر ما جاء في القرآن من هذا كالذي نحن فيه فإن مصابرة الأعداء والمرابطة والتقوى كلها من وسائل الظفر على الأعداء في الدنيا كما أنها من أسباب السعادة في الآخرة بعد توافر حسن النية ، وقصد إقامة الحق والعدل . وفقنا الله للعمل إلى ما يرضيه حتى نصل إلى سعادة الدارين ، بفضلته وإحسانه ، ومنه وكرمه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

سورة النساء

آيها مائة وسبعون وست ، نزلت بعد الممتحنة .

وهي مدنية كلها ، فقد روى البخارى عن عائشة أنها قالت : « ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقد بنى النبي بعائشة في المدينة في شوال من السنة الأولى من الهجرة .

ووجه المناسبة بينها وبين آل عمران :

(١) أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة بذلك ، وهذا من آكد المناسبات في ترتيب السور .

(٢) أن في السابقة ذكر قصة أحد مستوفاة ، وفي هذه ذيل لها وهو قوله : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئْتَيْنِ » فإنه نزل في هذه الغزوة على ما استعرفه بعد .

(٣) أنه ذكر في السابقة الغزوة التي بعد أحد وهي (غزوة حمراء الأسد) بقوله « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » وأشير إليها هنا في قوله : « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ » الآية .

ما حوته السورة من الموضوعات

- (١) الأمر بتقوى الله في السر والعلن .
- (٢) تذكير المخاطبين بأنهم من نفس واحدة .
- (٣) أحكام القرابة والمصاهرة .
- (٤) أحكام الأنكحة والموارث .
- (٥) أحكام القتال .
- (٦) الحجاج مع أهل الكتاب .

(٧) بعض أخبار المناقين .

(٨) الكلام مع أهل الكتاب إلى ثلاث آيات في آخرها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

شرح المفردات

الناس اسم للجنس البشرى ، وهو الحيوان الناطق المنتصب القامة الذى يطلق عليه اسم (إنسان) تساءلون به أى يسأل بعضكم بعضاً بأن يقول سألتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، والأرحام أى خافوا حق إضاعة الأرحام ، والرقيب المراقب وهو المشرف من مكان عال ، والمراقب المكان الذى يشرف منه الإنسان على ما دونه ، والمراد هنا بالرقيب الحافظ لأن ذلك من لوازمه .

المعنى الجملى

يأيتها الناس اتقوا ربكم الذى أنشأكم من العدم ، ورباكم وشملكم بالجوود والكرم ، واذكروا أنه خلقكم من نفس واحدة وجعلكم جنساً تقوم مصالحه على التعاون والتآزر ، وحفظ بعضكم حقوق بعض .

أى اتقوا الله الذى تعظمونه وتتساءلون فيما بينكم باسمه الكريم ، وبحقه على عباده وبماله من السلطان والجبروت ، وتذكروا حقوق الرحم عليكم فلا تفرطوا فيها ، فإنكم إن فعلتم ذلك أفسدتم الأسر والعشائر ، فعليكم أن تحافظوا على هاتين الرابطين

رابطة الإيمان ورابطة الرحم الوشيحة ، والله رقيب عليكم يعلم ما تأتون وما تدرن ،
ويحاسبكم على التقير والقَطْمِير « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

الإيضاح

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) أى أيها الناس
احذروا عصيان من ربكم بإحسانه ، وتفضل عليكم بجوده وإنعامه ، وجعلكم
أقرباء يجمعكم نسب واحد وأصل واحد .

وجهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم ، وهم لم يأخذوا هذا من
نص الآية ، بل أخذوه تسليماً وهو أن آدم أبو البشر .

وقال القفال : إن المراد أنه خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من
جنسها زوجها هو إنسان يساويه فى الإنسانية ، أو أن الخطاب لقريش الذين كانوا
فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وهم آل قُصَيِّ ، وأن المراد بالنفس الواحدة قصى اه .
وقال بعض العلماء أبهم الله تعالى أمر النفس التى خلق الناس منها ، فلندعها
على إبهامها ، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر
أبا كان ذلك غير مخالف لكتابتنا ، كما هو مخالف للتوراة التى نصت صراحة على
أن آدم أبو البشر ، فحمل ذلك بعض الناس على الطعن فى كونها من عند الله ووحيه .
وقال الأستاذ الإمام : إن ظاهر الآية يأتى أن يكون المراد بالنفس الواحدة
آدم لوجهين :

(١) البحث العلمى والتاريخى، المعارض لذلك .

(٢) أنه قال رجالاً كثيراً ونساء ، ولم يقل الرجال والنساء ، ولكن ليس
فى القرآن ما ينفى هذا الاعتقاد ولا ما يثبتته إثباتاً قاطعاً لا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ اه .

وما جاء من مخاطبة الناس بقوله : « يَا بَنِي آدَمَ » لا يعد نصاً فى كون جميع
البشر من أبنائه إذ يكفى فى صحة هذا الخطاب أن يكون من وُجَّهٍ إليهم فى زمن
التنزيل من أولاد آدم .

بحث في حقيقة النفس أو الروح

اختلف المسلمون في حقيقة النفس أو الروح الذي يحيا به الإنسان وتتحقق وحدة جنسه على اختلاف أصنافه ، وأشهر آرائهم في ذلك :

(١) أنها جسم نوراني علوى خفيف حى متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء في الورد والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء سالحة لقبول الآثار التي تفيض عليها من هذا الجسم اللطيف ، وجد الحس والحركة الإرادية والفكر وغيرها ، وإذا فسدت هذه الأعضاء ، وعجزت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

ومما يثبت ذلك أن العقل والحفظ والتذكر وهي أمور ثابتة قطعاً - ليست من صفات هذا الجسد ، فلا بد لها من منشأ وجودى عبر عنه الأقدمون بالنفس والروح . وما مثلها إلا مثل الكهرباء ، فالماديون الذين يقولون لاروح إلا هذه الحياة ، يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائى ، فهو بوضعه الخاص ، وبما يودع فيه من المواد تتولد فيه الكهرباء ، فإذا زال شئ مما أودع فيه ، أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء ، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة ، وبزوالها تزول الحياة، والذين يقولون إن للأرواح استقلالاً عن الجسد، يكون مثل الجسد مثل الآلة التي تدار بكهرباء تأتي إليها من المولد الكهربائى فإذا كانت الآلة على وضع خاص في أجزائها وأدواتها كانت مستعدة لقبول الكهرباء التي توجه إليها حتى تؤدي وظيفتها ، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية ، أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء ، ومن ثم لا تؤدي وظيفتها الخاصة بها .

(وخلق منها زوجها) أى وخلق لتلك النفس التي هي آدم زوجا منها وهي حواء ، قالوا إنه خلقها من ضلعه الأيسر وهو نائم ، وقد صرح بهذا في الفصل الثانى من سفر التكوين وورد في بعض الأحاديث ، فقد روى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم

« إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمتمت بها . »

وخلاصة هذا — أنه شعبكم من نفس واحدة أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء .

ويرى أبو مسلم الأصفهاني : أن معنى (منها) أى من جنسها كما جاء مثل هذا فى قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » وقوله : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » فلا فرق بين أسلوب هذه الآية وأساليب الآيات الأخرى والمعنى فى الجميع واحد .

ومن ثبت عنده أن حواء خلقت من ضلع آدم فلا يكون مصدر الإثبات عنده هذه الآية ، وإلا كان إخراجها عما جاء فى أمثالها اه .

(وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) أى ونشر وفرق من آدم وحواء نوعى جنس الإنس وهما الذكور والإناث — وهذا تفصيل لما أجمله فى قوله : خلقكم من نفس واحدة ، أى نخلق من جنس تلك النفس زوجها ، وجعل النسل من الزوجين كليهما ، فجميع سلائل البشر متوالدة من زوجين ذكر وأنى .

(واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) أى واتقوا الله الذى يسأل به بعضكم بعضاً ، بأن يقول سألتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، وهو يرجو بذلك إجابة سؤله ، والمراد من سؤاله بالله سؤاله بإيمانه به وتعظيمه إياه ، أى أسألك بسبب ذلك أن تفعل كذا .

واتقوا إضاعة حق الأرحام ، فصلوها بالبر والإحسان ولا تقطعوها .

وكرر الأمر بالتقوى للحث عليها ، وعبر أولاً بلفظ (الرب) الذى يدل على الترتيب والإحسان ، ثم بلفظ (الله) الذى يدل على الهيبة والقهر للترغيب أولاً ،

والتهيب ثانيا كما قال تعالى: «يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا» كأنه قيل إنه ربك وأحسن إليك فاتق مخالفته لأنه شديد العقاب عظيم السطوة .

(إن الله كان عليكم رقيبا) أى إنه مشرف على أعمالكم ومناشئها من نفوسكم وتأثيرها فى أحوالكم لا يخفى عليه شئ من ذلك ، فلا يشرع لكم من الأحكام إلا ما فيه صلاحكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة ، وفى ذلك تنبيه لنا إلى الإخلاص فى أعمالنا ، إذ من كان متذكرا أن الله مراقب لأعماله كان جديرا أن يتقيه ويلتزم حدوده .

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ، وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٣)

شرح المفردات

اليتيم لغة : من مات أبوه مطلقاً ، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال ، ولا تبدلوا أى لا تستبدلوا ، والخبيث : هو الحرام ، والطيب : هو الحلال ، حوبا كبيرا : أى إثما عظيما ، القسط : النصيب ، وقسط : جار ، قال تعالى : «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» وأقسط : عدل ، قال تعالى : «وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» ما طاب لكم : أى ما مال إليه القلب ممنه ، مثنى وثلاث ورباع : أى ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا ، ذلك أدنى ألا تعولوا : أى ذلك أقرب إلى عدم العول

والجور ، صدقاتهن : مهورهن ، نحلة : أى عطية وهبة ، هنيئاً مريئاً : الهنىء ما يستلذ به الآكل ، والمرىء : ما تجمل عاقبته كأن يسهل هضمه وتحسن تغذيته .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر ما يجب على العبد أن يتقاده من التكاليف ليلبتعد عن سخطه وغضبه فى الدنيا والآخرة — شرع فى ذكر أنواعها ، وأولها إيتاء اليتامى أموالهم ، وثانيها حكم ما يحل عدده من الزوجات ومتى يجب الاقتصار على واحدة ثم وجوب إيتاء الصداق لهن .

الإيضاح

(وآتوا اليتامى أموالهم) المراد بإيتاء الأموال إياهم : جعلها لهم خاصة وعدم أكل شىء منها بالباطل ، والمعنى أيها الأولياء والأوصياء احفظوا أموال اليتامى ولا تتعرضوا لها بسوء وسلموها لهم متى آتستم منهم الرشد ، فاليتيم ضعيف لا يقدر على حفظ ماله والدفاع عنه .

(ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) أى لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم الذى اكتسبتموه من فضل الله .

وخلاصة ذلك — لا تتمتعوا بمال اليتيم فى المواضع والحالات التى من شأنكم أن تتمتعوا فيها بأموالكم ، فإذا فعلتم ذلك فقد جعلتم مال اليتيم بدلا من مالكم .

(ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) المراد من الأكل سائر التصرفات المهلكة للأموال ، وإنما ذكر الأكل لأن معظم ما يقع من التصرفات فهو لأجله ، و (إلى) بمعنى مع أى لا تأكلوا أموالهم مخلوطة ومضمومة إلى أموالكم حتى لا تفرقوا بينهما ، لأن فى ذلك قارة مبالاة بما لا يحل وتسوية بين الحرام والحلال .

(إنه كان حوبا كبيرا) أى إن هذا الأكل ذنب عظيم وإثم كبير .

(وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أى وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تزوجوا بها فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من الزوج بغيرهن واحدة أو ثنتين أو ثلاثا أو أربعا ، وتقول العرب فى كلامها اقتسموا ألف الدرهم هذا درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة على معنى أن كل واحد يأخذ درهمين فقط أو ثلاثة أو أربعة ، ولو أفردت وقلت اقتسموه درهمين وثلاثة وأربعة لم يسغ استعمالا .

(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) أى ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجين أو الزوجات فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط ، والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فى ذلك ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو من يثق من نفسه بالعدل ثقة لاشك فيها .

(أو ما ملكت أيمانكم) أى اقتصروا على واحدة من الحرائر وتمتعوا بمن تشاءون من السرارى لعدم وجوب العدل بينهما ، ولكن لمن حق الكفاية فى نفقات المعيشة بما يتعارفه الناس .
(ذلك أدنى ألا تعولوا) أى اختيار الواحدة أو التسرى أقرب من عدم الجور والظلم .

والخلاصة — أن البعد من الجور سبب فى تشريع الحكم ، وفى هذا إيماء إلى اشتراط العدل ووجوب تحريره ، وإلى أنه عزيز المبال كما قال تعالى : « وَأَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

والعدل إنما يكون فيما يدخل تحت طاقة الإنسان كالتسوية فى المسكن والملبس ونحو ذلك ، أما ما لا يدخل فى وسعه من ميل القلب إلى واحدة دون أخرى فلا يكلف الإنسان بالعدل فيه ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم فى آخر عهده يميل إلى عائشة أكثر من سائر نسائه لكنه لا يخصصها بشيء دونهن إلا برضاهن وإذنهن، وكان يقول

« اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » يريد ميل القلب ، وقد استبان لك مما سلف أن إباحة تعدد الزوجات مضيق فيها أشد التضيق ، فهي ضرورة تباح لمن يحتاج إليها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور .

وإن من يرى الفساد الذى يدب فى الأسر التى تتعدد فيها الزوجات ليحكم حكماً قاطعاً بأن البيت الذى فيه زوجتان أو أكثر لرجل واحد لا تستقيم له حال ولا يستتب فيه نظام .

فإنك ترى إحدى الضرتين تغرى ولدها بعداوة إخوته وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وكثيراً ما يطيع أحب نساءه إليه فيدب الفساد فى الأسرة كلها .

إلى أن ذلك ربما جر إلى السرقة والزنا والكذب والقتل فيقتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والعكس بالعكس كما دونت ذلك سجلات المحاكم .

فيجب على رجال القضاء والفتيا الذين يعلمون أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وأن من أصول الدين منع الضرر والضرار أن ينظروا إلى علاج لهذه الحال ويضعوا من التشريع ما يكفل منع هذه المفسد على قدر المستطاع .

مزاياء تعدد الزوجات عند الحاجة إليه

الأصل فى السعادة الزوجية أن يكون للرجل زوج واحدة ، وذلك منتهى الكمال الذى ينبغي أن يربى عليه الناس ويقنعوا به ، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين أو حاجة الأمة فيكون التعدد ضربة لازب لاغنى عنه ؛ ومن ذلك :

(١) أن يتزوج الرجل امرأة عاقراً وهو يود أن يكون له ولد ، فمن مصلحتها أو مصلحتها معاً أن تبقى زوجاً له ويتزوج بغيرها ، ولا سيما إذا كان ذا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً .

(٢) أن تكبر المرأة وتبلغ سن اليأس ويرى الرجل حاجته إلى العقب وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة وكفاية الأولاد الكثيرين وتعليمهم .

(٣) أن يرى الرجل أن امرأة واحدة لا تكفيه لإحصانه لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء ومزاجها بعكس هذا ، أو يكون زمن حيضها طويلاً يأخذ جزءاً كبيراً من الشهر فهو حينئذ أمام أحد أمرين إما التزوج بثانية وإما الزنا الذي يضيع الدين والمال والصحة ويكون هذا شراً على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما كما هو شرط الإباحة في الإسلام .

(٤) أن تكثر النساء في الأمة كثرة فاحشة كما يحدث عقب الحروب التي تحتاج البلاد فتذهب بالألوف المؤلفة من الرجال ، فلا وسيلة للمرأة في التكسب في هذه الحال إلا ببيع عفانها ، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التي تقوم بالإفناق على نفسها وعلى ولد ليس له والد يكفله ، ولا سيما عقب الولادة ومدّة الرضاعة ، والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال في المعامل ومحالّ التجارة وغيرها من الأماكن العامة قد جر إلى كثير من هتك الأعراض والوقوع في الشقاء والبلاء حتى كتبت غير واحدة من الكاتبات الإنجليزيات وأبانت أن هذا التدهور الخلقى لا علاج له إلا تعدد الزوجات ، مع أن هذا ضد مصلحة المرأة وهي تنفر منه بتمتضى شعورها ووجدانها ، وهالك ما قالت إحداهن في بعض جرائدهن بانهماز وتلخيص :

لقد كثرت الشاردات من بناتنا وقل الباحثون عن أسباب هذا البلاء ، وإني لأنظر إليهن وقلبي ينظر أسمى وحرزنا عليهن ، وماذا يفيد ثي وحزني وإن شاركني فيه الناس جميعاً ، لا فائدة إلا العمل على ما يمنع هذه الحال وهو كما رأى (تومس) إباحة التزوج بأكثر من واحدة وبهذه الوسيلة تصبح بناتنا ربات بيوت .

إذ لم يجرّ إلى هذا البلاء إلا إجبار الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهو الذي جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى أعمال الرجال ولا بد أن يتفاقم الشر إذا لم يبيح للرجل التزوج بأكثر من واحدة ، فأى ظن وحسد يحيط بعدد الرجال

المتزوجين الذين لهم أولاد من السفاح وقد أصبحوا عائلة وعارا على المجتمع ولو أبيع التعدد لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من عذاب ولسم عرضهن وعرض أولادهن من فداحة الحال التي نراها الآن .

ونشرت كاتبة أخرى (مس إني رود) في جريدة أخرى تقول :

لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو شبه خوادم خير لهن والمجتمع من اشتغالهن في المعامل حيث تلوث البنت بأدران الرذيلة التي تبقى لا صقة بها مدى حياتها .

ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة ، والخادم والرقيق ينعان بأرغد عيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ولا تمس الأعراض بسوء ، وإنه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلا للردائل بكثرة مخالطتهن للرجال .

فما لنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها وتقوم بأعمال البيت وتترك أعمال الرجال للرجال فذلك أضمن لعافيا وهو السكفيل بسعادتها اه .

وصفوة القول أن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة وهي أركان سعادة الحياة الزوجية ، فلا ينبغي لمسلم أن يقدم عليه إلا لضرورة مع الثقة بما أوجبه الله من العدل وليس وراء ذلك إلا ظلم المرء لنفسه وامرأته وولده وأمته .

حكمة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

راعى النبي صلى الله عليه وسلم المصلحة في اختيار كل زوجة من زوجاته ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم وعلم أتباعه احترام النساء وإكرام كرائمهن والعدل بينهن وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم الأحكام الخاصة بالنساء مما ينبغي أن يعلمنه منهن لامن الرجال ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء كما لو ترك التسع .

وقصارى القول أنه عليه السلام ما أراد بتعدد الزوجات ما يريد الملوك والأمراء
والمترفون من التمتع بالنساء إذ لو كان قد أراد ذلك لاختارهن من حسان الأبيكار
لا من الكهلات الثيبات كما قال لمن اختار ثيبا «هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها
وتضاحكك» رواه الشيخان .

(وأتوا النساء صدقاتهن نحلة) الخطاب للأزواج أى وأعطوا النساء اللواتي
تعقدون عليهن المهور عطاء هبة يكون رمزا للعودة التي ينبغي أن تكون بينكما وآية
من آيات المحبة ودليلا على وثيق الصلة والرابطة التي يجب أن تكنفكما وتحيط بسماء
المنزل الذي تحلان فيه ، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء فتراهم
يردفونه بأصناف الهدايا والتحف من ما كل وملابس ومصوغات إلى نحو ذلك ،
مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التي يريد أن يجعلها شريكته في الحياة .

(فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) أى إن طابت نفوسهن
بإعطائكم شيئا من الصداق من غير ضرار ولا خديعة فكلوه هنيئا مريئا لا ذنب
عليكم ولا إثم في أخذه .

ومن ثم لا يجوز للرجل أن يأكل شيئا من مال امرأته إلا إذا علم أن نفسها
طيبة به ، فإذا طلب منها شيئا وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب فلا يحل له ،
ألا ترى أن الله تعالى نهى عن أخذ شيء من المرأة في طور المفارقة فقال : « وَإِنْ
أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَأَتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنطَارًا ، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
شَيْئًا » فالتحذير من أخذه في طور الرغبة والتعجب وإظهار القدرة على ما يجب عليه
من أعباء الزوجية من كفالة المرأة والإنفاق عليها يكون أشد وأكد ، ولكن
حب المال جعل الرجال يماكسون في المهر كما يماكسون في سلع التجارة ، وصار
حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٤) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٥)

شرح المفردات

السفهاء واحدهم سفية : وهو المبدر للمال المنفق له فيما لا ينبغي ، وأصل السفه الخفة والاضطراب ، ومنه قيل زمان سفية : إذا كان كثير الاضطراب ، وثوب سفية : ردىء النسج ، ثم استعمل في نقصان العقل في تدير المال وهو المراد هنا ، قيما أى تقوم بها أمور معاشكم وتمنع عنكم الفقر ، قال الراغب : القيام والقوام ما يقوم به الشئ ويثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به ، وارضقوهم أى أعطوهم ، والقول المعروف : ما تطيب به النفوس وتألفه كإفهام السفية أن المال ماله لا فضل لأحد عليه ، آنستم منهم رشدا أى أبصرتم منهم حسن التصرف فى الأموال ، الإسراف : مجاوزة الحد فى التصرف فى المال ، والبدار : المبادرة والمسارة إلى الشئ ، يقال بادرت إلى الشئ وبدرت إليه ، فليستعفف أى فليعف ، والعفة : ترك ما لا ينبغي من الشهوات ، الحسيب : الرقيب .

المعنى الجملى

بعد أن أمرنا الله تعالى فى الآيات السالفة بإيتاء اليتامى أموالهم ، وإيتاء النساء مهورهن أى فى هذه الآية بشرط يشمل الأمرين معا .

الإيضاح

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) هذا خطاب لمجموع الأمة ، والنهي شامل لكل مال يعطى لأى سفيه ، أى أعطوا كل يتيم ماله إذا بلغ وكل امرأة صدقتها إلا إذا كان أحدهما سفيها لا يحسن التصرف فى ماله فامنعوه منه لئلا يضيعه واحفظوه له حتى يرشد ، وإنما قال أموالكم ولم يقل أموالهم مع أن الخطاب للأولياء والمال مال السفهاء الذين فى ولايتهم لينبهننا إلى أنه إذا أضع هذا المال وجب على الولي أن ينفق عليه من مال نفسه ، فإضاعته مفضية إلى إضاعة شئ من مال الولي فكأن ماله عين ماله ، وإلى أن الأمة متكافلة فى المصالح فصاحة كل فرد فيها كأنها مصلحة للآخرين .

ومعنى جعل الأموال قياما للناس ، أن بها تقوم وتثبت منافعهم ومراقبتهم ، فمنافعهم الخاصة ومصالحهم العامة لا تزال قائمة ثابتة مادامت أموالهم فى أيدي الراشدين المتقنين منهم الذين يحسنون تسميرها وتوفرها ولا يتجاوزون حدود المصلحة فى الإنفاق ، وفى هذا حث عظيم على الاقتصاد بذكر فوائده وتغيير من الإسراف والتبذير ببيان مغبته ، فإن الأموال إذا وقعت فى أيدي السفهاء المفسرين فات ما كان من تلك المنافع قائما ، ومن ثم وصف الله المؤمنين بقوله : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقد ورد فى السنة النبوية حث كثير على الاقتصاد ، من ذلك ما رواه أحمد عن ابن مسعود .

« ما عال من اقتصد » وما رواه الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتوود إلى الناس نصف العقل ، وحسن العقل نصف العلم » .

وإن من أشد العجب أن يكون حال المسلمين اليوم ما نرى من الإسراف والتبذير وكتابتهم يهديهم إلى ما للاقتصاد من فوائد وما للتبذير من مضار ، إلى ما للمال فى هذا الزمن من المنزلة التى لا يقدر قدرها حتى صارت جميع المرافق موقوفة

على المال، وأصبحت الأم الجاهلة بطرق الاقتصاد وليس في أيديها المال مستندة مستعبدة للأُم الغنية ذات البراعة في الكسب والإحسان في الاقتصاد وجمع المال .

ولا سبب لهذا إلا أنا نبذنا هدى القرآن وراء ظهورنا وأخذنا بآراء الجاهلين الذين لبسوا على الناس ونفثوا سمومهم وبالغوا في التزهيد والحث على إنفاق ما تصل إليه الأيدي ، مع أن السلف الصالح كانوا من أشد الناس محافظة على ما في أيديهم وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الكسب الحلال ، وليت هذا التزهيد أتى بالفرض المسوق لأجله من الترغيب في الآخرة والعمل لها ، لكنهم زهدوهم في الدنيا وقطعوهم عن الآخرة فحسروها معا ، وما ذلك إلا لجهلهم بهدى الإسلام وهو السعي للدنيا والعمل للآخرة كما ورد في الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

(وارزقوهم فيها واكسوهم) الرزق يعم وجوه الإنفاق جميعها كالأكل والمبيت والزواج والكسوة ، وإنما خصها بالذكر لأن الناس يتساهلون فيها أحياناً ، وقال (فيها) ولم يقل منها إشارة إلى أن الأموال تتخذ مكانا للرزق بالتجارة فيها فتكون النفقات من الأرباح لا من صلب المال حتى لا يأكفها الإنفاق ، أى أيها الأولياء الذين عهد إليكم حفظ أموال السفهاء وثمرتها حتى كأنها أموالكم عليكم أن تنفقوا عليهم فتقدموا لهم كفايتهم من الطعام والثياب ونحو ذلك .

(وقولوا لهم قولاً معروفاً) أى فليقل كل ولى للمولى عليه إذا كان صغيراً : المال مالك وما أنا إلا خازن له وإذا كبرت رد إليك ، وإذا كان سفيهاً وعظه ونصحه ورغبه في ترك التبذير والإسراف وعرفه أن عاقبة ذلك الفقر والاحتياج إلى الخلق إني نحو ذلك ، كما يعلمه كل ما يوصله إلى الرشد ، وبذا قد تحسن حاله ، فربما كان السفه عارضاً لا فطرياً ، فبالنصح والإرشاد والتأديب يزول ذلك العارض ويصبح رشيداً .

وأين هذا مما يفعله الأولياء والأوصياء من أكل أموال السفهاء ومدحهم في غيبتهم وسفهمهم حتى يحولوا بينهم وبين أسباب الرشد؟ وما مقصدهم من ذلك إلبقاء الأموال تحت أيديهم يتمتعون بها ، ويتصرفون على حسب أهوائهم وشهواتهم .
وبعد أن أمر سبحانه بإيتاء اليتامى أموالهم وكان هذا مجملا ذكر كيفية ذلك الإيتاء ووقته فقال :

(وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) ابتلاء اليتيم واختباره يكون بإعطائه شيئا من المال يتصرف فيه ، فإن أحسن كان راشدا ، إذ لا معنى للرشد هنا إلا حسن التصرف وإصابة الخير فيه ، وهو نتيجة صحة العقل وجودة الرأي .

وبلوغ النكاح هو الوصول إلى السن التي يستعد فيها المرء للزواج وهو بلوغ الحلم وهو في هذه الحال تتوجه نفسه إلى أن يكون زوجا وأبا ورب أسرة ، ولا يتم له ذلك إلا بالمال ، ومن ثم وجب إيتاؤه إياه إلا إذا بلغ سفيها وخيف أن يضيعه .
والعنى — أيها الأولياء ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ وهو الحد الذي يبلغون فيه سن النكاح ، فإن آنستم منهم بعد البلوغ رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، وإلا فاستمروا على الابتلاء حتى تأنسوه منهم ، ويرى أبو حنيفة دفع مال اليتيم إليه إذا بلغ خمسا وعشرين سنة وإن لم يرشد .

(ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) أى ولا تأكلوا أموال اليتامى مسرفين فى الإنفاق منها ولو على اليتيم نفسه ، ولا مبادرين كبرهم إليها أى ولا مسابقين الكبر فى السن التى بها يأخذونها منكم ، فأنتم تطلبون أكل هذا المال كما يطلب كبر السن صاحبه ، فالسابق منكما هو الذى يظفر به ، فبعض الأولياء الخربى الزمة يستعجلون ببعض التصرفات التى لهم فيها منفعة وليس لليتيم فيها ذلك حتى لا تفوتهم إذا كبر اليتيم وأخذ ماله ، ولما كانت هاتان الحالان — الإسراف ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف — من مواطن الضعف التى تعرض للانسان ، نهى الله عنهما ونبه

الأولياء إلى خطرهما حتى يراقبوا ربهم إذا عرضتا لهم ، فقد تخادع الإنسان نفسه في حد الإسراف وخفاء وجه منفعة الولي في المسابقة إلى بعض الأعمال في مال اليتيم ويعشها إذا لم يمكن أن يمارى في ذلك وراء ظاهرا تتضح فيه خيانتة .

أما الأكل من مال اليتيم بلا إسراف ولا مبادرة خوف أخذها عند البلوغ فقد ذكر الله حكمه بقوله : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » أى فمن كان منكم غنيا غير محتاج إلى شيء من مال اليتيم الذى تحت ولايته فليعف عن الأكل من ماله ، ومن كان فقيرا لا يستغنى عن الانتفاع بشيء من مال اليتيم الذى يشتغل بعض وقته في تمييزه وحفظه فليأكل منه بالمعروف وهو ما يبيحه الشرع ولا يستنكره أرباب المروءة ولا يعدونه خيانة وطمعا .

قال ابن جرير : إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالا للولي فليس له أن يأكل منه شيئا ، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له ، وله أن يؤاجر نفسه لليقيم بأجرة معلومة إذا كان اليتيم محتاجا إلى ذلك كما يستأجر له غيره من الأجراء غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر ، وهكذا الحكم في أموال المجانين والمعانين .

وقد روى أحمد عن ابن عمر رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال ليس لى مال وإني ولي يقيم فقال « كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متائل مالا ومن غير أن تقي مالك بماله » .

والحكمة في هذا أن اليتيم يكون في بيت الولي كولد ، والخير له في تربيته أن يخاطب الولي وأهله في المؤاكلة والمعاشرة ، فإذا كان الولي غنيا ولا طمع له في ماله كانت المخالطة مصلحة لليقيم ، وإن كان ينفق فيها شيء من ماله فبقدر حاجته ، وإن كان فقيرا فهو لا يستغنى عن إصابة بعض ما يحتاج إليه من مال اليتيم الغنى الذى في حجره ، فإذا أكل من طعامه ما جرى به العرف بين الخلطاء غير مصيب من صلب

المال شيئاً ولا متأثلاً لنفسه منه عقاراً ولا مالا آخر ولا منفق ماله في مصالحه ومرافقه كان بعمله هذا آكلاً بالمعروف .

(فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى فإذا دفعتم أيها الأولياء والأوصياء إلى اليتامى أموالهم فأشهدوا عليهم بقبضها وبراءة ذممكم منها كي لا يكون بينكم نزاع .

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعية والمالكية إذ أن تركه يؤدى إلى التخاصم والتقاضى كما هو مشاهد ، وجعله الحنفية مندوباً لا واجباً .

(وكفى بالله حسيباً) أى وكفى الله رقيباً عليكم يحاسبكم على ما تسرون وما تعلنون ، وقد جاء هذا بعد الأمر بالإشهاد ليرشدنا إلى أن الأشهاد وإن أسقط الدعوى بالمال عند القاضى فهو لا يسقط الحق عند الله إذا كان الولى خائناً ، فإن الله لا يخفى عليه ما يخفى على الشهود والحكام ، وعلى الجملة فإنك ترى أن الله تعالى حاط أموال اليتامى بضروب من الصيانة والحفظ ، فأمر باختبار اليتيم قبل دفع ماله إليه ، ونهى عن أكل شىء منه بطرق الإسراف ومبادرة كبره ، وأمر بالإشهاد عليه عند الدفع ، ونبه إلى مراقبة الله تعالى فى جميع التصرفات الخاصة به .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٦) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٧) وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٨) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (٩)

شرح المفردات

مفروضا أى محتوما لا بد لهم أن يأخذوه ، الخشية الخوف فى محل الأمن ،
والسديد : العدل والصواب ، والسداد (بالكسر) ما يسد به الشيء كالثغر (موضع
الخوف من العدو) والقارورة ، وورد قولهم : فيها سداد من عوز بكسر السين :
أى فيها الغناء والكفاية ، وصلى اللحم صليا شواه ، فإذا أراد إحراقه يقال أصلاه
إصلاء وصلاه تصلية ، وصلى يده بالنار : أدفأها، واصطلى : استدفأ ، والسعير : النار
المستعرة المشتعلة ، يقال سعرت النار وسعرتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة حرمة أكل أموال اليتامى وأمر بإعطائهم
أموالهم إذا رشدوا ومنع أكل مهور النساء أو تزويجهن بغير مهر .
ذكر هنا أن المال الموروث الذى يحفظه الأولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء ،
وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء والأولاد الصغار ويقولون لا يرث إلا من
طاعن بالرمح وحاز الغنيمة ، ثم أمر بإحسان القول إلى اليتامى لأن اليتيم مرهف
الحس يألم للكلمة تهيئه ولا سيما ذكر أبيه وأمه بسوء ، وقلمما يوجد يقيم لا يمتحن
ولا يقهر بالسوء من القول ، ثم طلب الإشفاق عليهم ومعاملتهم بالحسنى ، فربما
يترك المرء ذرية ضعافا يود أن غيره يعاملهم بمثل هذه المعاملة ، وبعده شدد فى الوعيد
ونفر من أكل أموال اليتامى ظلما وجعل أكله كأكل النار .

وقد روى فى سبب نزول الآية « أن أوس بن الصامت الأنصارى توفى وترك
امراته أم كحلثة وثلاث بنات له منها فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على
سنة الجاهلية ، نجأت امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفضيح
(مسجد بالمدينة كان يسكنه أهل الصفة) فشكت إليه أن زوجها أوسا قد مات
وخلف ثلاث بنات وليس عندها ما تنفق عليهن منه ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا .

عند ابني عمه لم يعطياها منه شيئا ، وهن في حجرى لا يطعمن ولا يسقين ، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا ينكى عدوا نكسب عليها ولا تكسب ، فنزلت الآية فأثبتت لمن الميراث فقال رسول الله : لا تفرقا من مال أوس شيئا فإن الله جعل لبناته نصيباً مما ترك ولم يبين ، فنزلت (يوصيكم الله الخ .) فأعطى زوجه الثمن والبنت الثلثين والباقي لبني العم .

الإيضاح

(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) أى إذا كان لليتامى مال مما تركه لهم الوالدان والأقربون فهم فيه سواء لا فرق بين الرجال والنساء ولا فرق بين كونه كثيراً أو قليلاً ، وأتى بقوله نصيباً مفروضاً لبيان أنه حق معين مقطوع به ليس لأحد أن ينقص منه شيئا ولا أن يجابى فيه .

(وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) المراد بذوى القربى من لا يرث منهم كالأخ لأب مع الأخ الشقيق والعم مع الأب .

أى إذا حضر قسمة التركة أحد من ذوى القربى للوارثين فانفجهم بشئ من الرزق الذى جاءكم من غير كد ولا نصب فلا ينبغي أن تبخلوا به على المحتاجين من ذوى القربى واليتامى والمساكين وتتركوهم يذهبون منكسرى القلب مضطربى النفس وقولوا لهم قولاً تطيب به نفوسهم عند ما يعطون حتى لا يثقل على أبى النفس منهم ما يأخذ ، ويرضى الطامع فى أكثر مما أخذ بما أخذ بالتودد والتناطف فى القول وعدم التغليظ فيه .

والسرفى إعطائهم شيئا من التركة أنه ربما يسرى الحسد إلى نفوسهم فينبغى التودد إليهم واستأنتهم بإعطائهم قدرا من هذا المال هبة أو هدية أو إعداد طعام لهم يوم القسمة ليكون فى هذا صلة للرحم وشكر للنعمة .

قال سعيد بن جبير : هذا الأمر (أمر الإعطاء) للوجوب وقد هجره الناس كما هجروا العمل بالاستئذان عند دخول البيوت .

وقال الحسن والنخعي : إن ما أمرنا أن نرزقهم منه عند القسمة هو الأعيان المنقولة ، وأما الأرضون والرقيق وما أشبه ذلك فلا يجب أن يعطوا منها شيئاً بل يكتفى حينئذ بقول المعروف أو بإطعام الطعام .

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) الكلام مع الأوصياء والأولياء الذين يقومون على التيامي ، والقول السديد منهم أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بنيّ ويأولدى ونحو ذلك ، وقوله تركوا أى قاربوا أن يتركوا ، وقوله من خلفهم أى من بعد موتهم ، وقوله خافوا عليهم أى الإهمال والضياع .

(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) ظلماً أى على سبيل الظلم وهضم الحقوق لا أكلاً بالمعروف عند الحاجة أو تقديراً لأجرة العمل ، وقوله في بطونهم أى ملء بطونهم ، وقوله ناراً أى ما هو سبب لعذاب النار .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَرِثَ فَرِثَهُنَّ مِثْلَ مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَإِلَىٰ آبَائِكُمْ وَلِأَبَوَاتِكُمْ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدُ وَالْوَالِدَةُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا (١٠) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ،
 فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ
 لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ،
 وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١١)

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه حكم الميراث مجملا في قوله : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، ذكر هنا تفصيل ذلك المجمال فبين أحكام الموارث وفرائضها لإبطال ما كان عليه العرب من نظام التوارث في الجاهلية من منع الأثني وصغار الأولاد ، وتوريث بعض من حرمة الإسلام من الميراث .
 وقد كانت أسباب الإرث في الجاهلية ثلاثة :

- (١) النسب ، وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون العدو ويأخذون الغنائم وليس للضعيفين المرأة والطفل من ذلك شئ .
- (٢) التبني - فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره فيكون له أحكام الولد في الميراث وغيره ، وقد أبطل الإسلام ذلك .
- (٣) الحلف والعهد - فقد كان الرجل يقول لآخر دمي دمك وهدمي هدمك (أى إذا أهدر دمي أهدر دمك) وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك ، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما قبل الآخر كان للحي ما اشترط من مال الميت .

فلما جاء الإسلام أقرهم على ذلك فقال : « وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ
 الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » والمراد التوارث بالنسب ، وقال :
 (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ) والمراد به التوارث بالعهد .
 وزاد فيه شيئين آخرين :

(١) الهجرة فكان المهاجر يرث من المهاجر وإن كان أجنبيا عنه إذا كان
 بينهما مخالطة وود لا يرثه غير المهاجر وإن كان من أقاربه .

(٢) المؤاخاة - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواخي بين كل اثنين من
 الرجال وكان ذلك سبباً للتوارث ثم نسخ الإسلام كل هذا بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ
 بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على
 أن أسباب الإرث ثلاثة : النسب والنكاح والولاء .

وسبب نزول الآية ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث جابر قال :
 جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله
 هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما
 فلم يدع لهما مالا ولا تُنكحان إلا ولهما، مال فقال يقضى الله في ذلك فنزلت آية الميراث
 (يوصيكم الله في أولادكم) الآية ، فأرسل رسول الله إلى عمهما فقال : أعط بنتي سعد
 الثلثين وأما الثمن وما بقي فهو لك ، قالوا وهذه أول تركة قسمت في الإسلام .

الإيضاح

(يوصيكم الله) الوصية : ما تعهد به إلى غيرك من العمل كما تقول أوصيت المعلم
 أن يراقب آداب الصبي ويؤدبه على ما يسىء فيه ، وهي في الحقيقة أمر له بعمل
 ما عهد إليه ، فالمراد يأمركم الله ويفرض عليكم .

(في أولادكم) أى في شأن أولادكم من بعدكم ، أو في ميراثهم ما يستحقونه
 مما تتركونه من أموالكم سواء كانوا ذكورا أو إناثا كبارا أو صغارا، ولا خلاف في أن
 ولد الولد يقوم مقامه عند فقده أو عدم إرثه لمانع كقتل مورثه ، قال :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد

(لذكر مثل حظ الأنثيين) أى للذكر منهم مثل نصيب اثنتين من إناثهم إذا كانوا ذكوراً وإناثاً ، واختير هذا التعبير ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر إيماء إلى أن إرث الأنثى كأنه مقرر معروف وللمذكر مثله مرتين، وإشارة إلى إبطال ما كانت عليه العرب فى الجاهلية من منع توريث النساء .

والحكمة فى جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين ، أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجته فجعل له سهمان ، وأما الأنثى فهى تنفق على نفسها فقط ، فإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها .
ويدخل فى عموم الأولاد :

(١) الكافر لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانع من الإرث ، قال عليه الصلاة والسلام « لا يتوارث أهل ملتين » .

(٢) القاتل عمداً لأحد أبويه ويخرج بالسنة بالإجماع .

(٣) الرقيق وقد ثبت منعه بالإجماع لأن المملوك لا يملك ، بل كل ما يصل إلى يده من المال فهو ملك لسيده ومالكه ، فلو أعطيناه من التركة شيئاً كنا معطين ذلك للسيد فىكون هو الوارث بالفعل .

(٤) الميراث من النبى صلى الله عليه وسلم فقد استثنى بحديث « نحن معاشر الأنبياء لانورث » .

(فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك) أى فإن كان المولودات نساء ليس معهن ذكر زائدات على اثنتين مهما بلغ عددهن فلهن ثلثا ما ترك والدهن المتوفى أو والدتهن .

(وإن كانت واحدة فلها النصف) أى وإن كانت المولودة واحدة ليس معها أخ ولا أخت فلها النصف مما ترك والباقى لسائر الورثة على حسب الاستحقاق كما يعلم من أحكام الموارث .

وخلاصة ذلك أنه إذا كان الأولاد ذكوراً وإناثاً كان للذكر مثل حظ الأنثيين

وإن كان المولود أنثى واحدة كان لها النصف، وإن كن ثلاثاً فصاعداً كان لهن الثلثان ولم يذكر حكم الثلثين ، ومن ثم اختلفوا فيهما ، فروى عن ابن عباس أن لها النصف كالأواحدة ، والجمهور على أن لها الثلثين كالعديد الكثير .

وقد علم من ذلك أن البنات لا يستغرق فرضهن التركة ، والولد الذكر إذا انفرد يأخذ التركة ، وإذا كان معه أخ له فأكثر كانت قسمة التركة بينهما أو بينهما بالمساواة . (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) أى ولكل من أبوى الميت السدس مما ترك الولد على السواء في هذه الفريضة إن كان لهذا الميت ولد فأكثر والباقي بعد هذا الثلث يقسمه الأولاد على حسب التفصيل المتقدم .

(فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلاأمة الثلث) أى فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد وورثه أبواه فلاأمة الثلث مما ترك والباقي للأب كما هو معلوم من انحصار الإرث فيهما .

والسر في تساوى الوالدين في الميراث مع وجود الأولاد ، الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء ، وفي أن حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد ، أنهما يكونان في الغالب أقل حاجة إلى المال من الأولاد ، إما لكبرها وإما لتموها ، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من أولادها الأحياء ؛ وأما الأولاد ، فإما أن يكونوا صغاراً لا يقدرّون على الكسب ، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقات كثيرة في الحياة كالزواج وتربية الأطفال ونحو ذلك (فإن كان له إخوة فلاأمة السدس) أى فإن كان للميت مع إرث أبويه له إخوة فلاأمة السدس مما ترك ، سواء كان الإخوة ذكوراً أو إناثاً من الأبوين أو أحدهما ، فكل جمع منهم يحجب الأم من الثلث إلى السدس ، وحكم الأخوين أو الأختين حكم الإخوة عند أكثر الصحابة ، وخالف في ذلك ابن عباس فقد أثر عنه أنه قال لعثمان : بم صار الأخوان يرذآن الأم من الثلث إلى السدس ، وإنما قال الله تعالى : (فإن كان له إخوة) والأخوان في لسان قومك ليسا بإخوة ؟ فقال عثمان لا أستطيع

أن أرد قضاء قضى به من قبلي ومضى في الأمصار (يريد عثمان أن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أقاموا الاثنين مقام الجماعة في اعتبار الشرع لافي اعتبار اللغة) والخلاصة أن الآية ذكرت حكم الأبوين مع الولد وحكهما منفردين ليس معهما وارث آخر وحكهما مع الإخوة ، ولم يبق إلا حكمهما مع أحد الزوجين ، وجمهور الصحابة على أن الزوج يأخذ نصيبه وهو النصف إن كان رجلاً ، والرابع إن كان أُنثى ، والباقي للأبوين ، ثلثه للأم وباقيه للأب ، وقال ابن عباس يأخذ الزوج نصيبه ، وتأخذ الأم ثلث التركة كلها ، ويأخذ الأب ما بقي ، وقال لا أجد في كتاب الله ثلث الباقي .

ومن هذا تعلم أن حقوق الزوجية في الإرث مقدمة على حقوق الوالدين ، إذ أنهما يتقاسمان ما يبقى بعد أخذ الزوج حصته ، وسرّ هذا أن صلة الزوجية أشد وأقوى من صلة البنوة ، ذلك أنهما يعيشان مجتمعين وجود كل منهما متمم لوجود الآخر حتى كأنه نصف شخصه ، وهما حينئذ منفصلان عن الوالدين أشد الانفصال ، فبهذا كانت حقوق المعيشة بينهما آكد ، ومن ثم جعل الشارع حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الأول ، فإذا لم يجد الرجل إلا رغيفين سد رمقه بأحدهما ووجب عليه أن يعطى الثاني لامرأته لأحد أبويه ولا لغيرهما من أقاربه .

(من بعد وصية يوصى بها أو دين) أى يوصيكم بأن لأولاد من يموت منكم كذا من التركة ولأبويه كذا منها من بعد وصية يقع الإيضاء بها من الميت ، ويتحقق نسبتها إليه ، ومن بعد قضاء دين يتركه عليه .

وقدمت الوصية على الدين في الذكر مع أن الدين مقدم عليها وفاء كما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عليّ كرم الله وجهه وأخرجه عنه جماعة ، لأنها تؤخذ كالميراث بلا عوض فتشقى على الورثة ، وجاء عطف الدين على الوصية بأودون الواو إشارة إلى أنهما متساويان في الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين أو منفردين .

ثم أتى بجملة معترضة للتنبيه إلى جهل المرء بعواقب الأمور فقال :
 (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً) أى إنكم لا تدرون أى
 الفريقين أقرب لكم نفعاً آباؤكم أو أبناؤكم ؟ فلا تتبعوا فى قسمة التركات ما كان
 يتعارفه أهل الجاهلية من إعطائها للأقوياء الذين يحاربون الأعداء ، وحرمان الأطفال
 والنساء لأنهم من الضعفاء ، بل اتبعوا ما أمركم الله به ، فهو أعلم منكم بما هو أقرب
 نفعاً لكم مما تقوم به فى الدنيا مصالحكم وتعظم به فى الآخرة أجوركم .
 (فريضة من الله) أى فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هوادة فى
 وجوب العمل بها .

(إن الله كان عليماً حكيماً) أى إنه تعالى لعلمه بشئونكم ولحكيمته العظيمة
 لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم ، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع
 — إلى أنه منزه عن الغرض والهوى اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشئ فى
 غير موضعه ومن إعطاء الحق لمن يستحقه .

وبعد أن بين سبحانه فرائض الأولاد والوالدين ، وقدم الأهم منهما من حيث
 حاجته إلى المال المتروك وهم الأولاد — ذكر هنا فرائض الزوجين فقال :
 (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد) أى ولكم نصف ما تركته
 الزوجات من المال إن لم يكن لهن ولد ، سواء أكان منكم أم من غيركم ، وسواء
 أكان ذكراً أم أنثى ، وسواء أكان واحداً أم أكثر ، وسواء أكان من بطنها
 مباشرة ، أو صلب بنيتها أو بنى بنيتها ، وباقي التركة لأولادها ووالديها على ما بينه
 الله فى الآية السالفة ، ولا يشترط فى الزوجة أن يكون مدخولاً بها ، بل يكفي
 مجرد العقد .

(فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن) والباقي من التركة للأقرب إليها من
 ذوى الفروض والعصبات أو ذوى الأرحام أو لبيت المال إن لم يكن وارث آخر .
 (من بعد وصية يوصين بها أو دين) أى لكم ذلك فى تركتهن فى الحالين

السابتين بعد نفاذ الوصية ووفاء الديون ، إذ لا يأخذ الوارث شيئا إلا ما يفضل عنهما إذا وجدا أو وجد أحدهما .

(ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد) على حسب التفصيل السابق في أولادهن ، فإن كانت واحدة فلها هذا الربع وحدها ، وإن كان له زوجان فأكثر اشتركتا أو اشتركن فيه على طريق التساوى والباقي يكون لمن يستحقه من ذوى القربى وأولى الأرحام .

(فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) والباقي لأولادكم ووالديكم كما تقدم . (من بعد وصية يوصى بها أو دين) بالطريق التي علمتها فيما سلف ، وبهذا تعلم أن فرض الرجل بحق الزواج ضعف فرض المرأة كما في النسب ، ولم يعط الله تعالى للزوجات في الميراث إلا مثل ما أعطى للزوج الواحدة لارشادنا إلى أن الأصل الذي ينبغي أن نسير عليه في الزوجية أن تكون للرجل امرأة واحدة ، وإنما يباح الأكثر بشروط مضيقّة ، وأن التعدد من الأمور النادرة التي تدعو إليها الضرورة ، فلم يراعها الشارع في الأحكام ، إذ الأحكام إنما توضع للأصل الذي عليه العمل والنادر لاحكم له .

وبعد أن بين سبحانه حكم ميراث الأولاد والوالدين والأزواج ممن يتصل بالميت مباشرة شرع في بيان من يتصل به بالواسطة وهو الكلالة . فقال :

(وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة) الكلالة لغة الإحاطة ، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ، وسمى من عدا الوالد والولد بالكلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان وكالإكليل المحيط برأسه ، أما قرابة الولادة ففيها يتفرع بعض من بعض كالشئ الذي يتزايد على نسق واحد .

أي إن كان الميت رجلا أو امرأة موروثا كلاله أي ذا كلاله ليس له ولد ولا والد وله أخ أو أخت من أم ، لأن الأخوين من العصبه سيأتي حكمهما في آخر السورة (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) الخ .

(فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) أى إن الأخ لأم يأخذ في الكلاله السدس ، وكذلك الأخت ، لا فارق بين الذكر والأنثى لأن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها ، فإذا تعددوا أخذوا الثلث وكانوا أيضا فيه سواء لا تفاضل بين ذكورهم وإناثهم .

(من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار) أى من بعد وصية يوصى بها أو دين يقربه وهو غير مضار للورثة .

قال النخعي : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يوص وقبض أبو بكر وقد وصى ، فإن أوصى الإنسان فحسن وإن لم يوص فحسن أيضا ، ومن الحسن أن ينظر الإنسان فى قدر ما يخلف ومن يخلف ثم يجعل وصيته على حسب ذلك ، فإن كان ماله قليلا وفى الورثة كثرة لم يوص ، وإن كان فى المال كثرة أوصى على حسب ماله وعلى حسب حاجتهم بعده كثرة وقلة ، وقد روى عن على أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث . والضرار فى الوصية والدين يقع على وجوه :

(١) أن يوصى بأكثر من الثلث ، وهو لا يصح ولا ينفذ ، وعن ابن عباس أن الضرار فيها من الكبائر .

(٢) أن يوصى بالثلث فما دونه لا لغرض من القرابة والتصدق لوجه الله بل لغرض تنقيص حقوق الورثة .

(٣) أن يقرب بدين لأجنبي يستغرق المال كله أو بعضه ولا يريد بذلك إلا مضاررة الورثة ، وكثيراً ما يفعل المبعوضون للوارثين ولا سيما إذا كانوا كلاله ، ومن ثم جاء ذكر هذا القيد (غير مضار) فى وصية ميراث الكلاله لأن القصد إلى مضارة الوالدين أو الأولاد وكذا الأزواج نادر .

(٤) أن يقرب بأن الدين الذى كان له على فلان قد استوفاه ووصل إليه .

(وصية من الله) أى يوصيكم بذلك وصية منه عز وجل ، فهي جديرة أن يعتنى بها ويدعن للعمل بموجبها .

(والله عليم حلیم) أى والله عليم بما ينفعكم وبنيات الموصين منكم ، حلیم لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه ، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا ، كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه فتضاروه فى الوصية كما لا يرضى لكم بجرمان النساء والأطفال من الإرث .

وفى هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها وهو يعلم ما فيها من الخير والمصلحة لنا ، فمن الواجب أن ندعن لوصاياه وفرائضه ونعمل بما ينزل علينا من هدايته كما لا ينبغى أن يغرر الطامع فى الاعتداء وأكل الحقوق تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل فيظن أنهم بمنجاة من العذاب فيتجرأ على مثل ما تجرأوا عليه من الاعتداء فإنه إهمال يقتضيه الحلم لإهمال من العجز وعدم العلم .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٣)

الإيضاح

(تلك حدود الله) حدود الشيء : أطرافه التى يمتاز بها من غيره ومنه حدود الدار ، سميت بها الشرائع التى أمر الله باتباعها ونهى عن تركها ، فمدار الطاعة على البقاء فى دائرة هذه الحدود ومدار العصيان على اعتدائها والمشار إليه كل ما ذكر من أول السورة إلى هنا من بيان أموال اليتامى وأحكام الأزواج وأحوال الموارث .
(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) طاعة الله : هى ما شرعه من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ،

وطاعة الرسول: هي اتباع ما جاء به من الدين عن ربه ، فطاعته هي بعينها طاعة الله كما قال في هذه السورة (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله بما فيه منافع لنا في الدنيا والآخرة ، وإنما ذكرها مع طاعة الله للإشارة إلى أن الإنسان لا يستغنى بعقله وعلمه عن الوحي وأنه لا بد له من هداية الدين إذ لم يكن العقل وحده في عصر من العصور كافيا لهداية أمة ولا مرقيا لها بدون معونة الدين فاتباع الرسل والعمل بهديهم هو أساس كل مدنية ، والارتقاء المعنوي هو الذى يبعث على الارتقاء المادى ، فالآداب والفضائل التى هى أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين ولا يكفى فيها بناؤها على العلم والعقل ، والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار تقدم تفسيرها ونحن نؤمن ونعتقد أنها أرفع مما نرى فى هذه الدنيا وليس لنا أن نبحت عن كیفيتها لأنها من عالم الغيب ، والفوز العظيم : الظفر والفلاح الذى لا يذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة المنغصة بالأكدار .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعدى حدوده يدخله نارا خالدا فيها) وقال فى ذكر أهل الجنة خالدين ، وفى ذكر أهل النار خالدا ، إشارة إلى تمتع أهل الجنة بالاجتماع وأنس بعضهم ببعض ، والمتفرون يسرون بمثل هذا التمتع ، وأما الذى فى النار فإن له من العذاب ما يمنع من الأنىس فكأنه وحيد لا يجد لذة فى الاجتماع بغيره ولا أنسابه يرشد إلى ذلك قوله تعالى « وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » وتعدى الحدود الموجب للخلود فى النار: هو الإصرار على الذنب وعدم التوبة عنه ، فلمذنب حالان :

(١) غلبة الباعث النفسى من الشهوة أو الغضب على الإنسان حتى يغيب عن ذهنه الأمر الألهى فهو يقع فى الذنب وقلبه غائب عن الوعيد فهو لا يتذكره أو يتذكره ضعيفا كأنه نور ضئيل يلوح فى ظلمة ذلك الباعث المتغلب ثم لا يلبث أن يزول أو يختفى ، حتى إذا سكنت الشهوة أو سكت الغضب وتذكر النهى والوعيد ندم وتاب ولام نفسه أشد اللوم ومثل هذا جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى فى أوصافهم « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(٢) أن يقدم المرء على الذنب جريئاً عليه متعمداً فعليه عالماً بتحريمه مؤثراً له على الطاعة لا يصرفه عنه تذكّر النهى والوعيد عليه ، ومثل هذا قد أحاطت به خطيئته فأثر شهوته على طاعة الله ورسوله فدخل في عموم قوله تعالى « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

إذ من يصر على المعصية عامداً عالماً بالنهى والوعيد لا يكون مؤمناً بصدق الرسول ولا مدعناً لشريعته الذى تنال الرحمة والرضا بالتزامه ، والعذاب والنكال بتعدى حدوده ، فالإصرار على العصيان وعدم استشعار الخوف والندم لا يجتمعان فى قلب المؤمن الإيمان الصحيح المصدق بوعد الله ووعيدة .

(وله عذاب مهين) المهين المذل له وهو عذاب الروح فللعصاة عذابان : عذاب جسمانى للبدن العاصى باعتباره حيواناً يتألم ، وعذاب روحانى باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة والشرف ويتألم بالإهانة والخزى .

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً
مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ
أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٤) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أوصى سبحانه بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالمعروف والمحافظة على أموالهن وعدم أخذ شيء منها إلا إذا طابت نفسهن بذلك - ذكر هنا التشديد عليهن فيما يأتينه من الفاحشة ، وهو فى الحقيقة إحسان اليهن ، إذ الإحسان فى الدنيا تارة يكون بالثواب وأخرى بالزجر والعقاب لكف العاصى عن العصيان الذى يوقعه

في الدمار والبوار ، ومبنى الشرائع على العدل والإنصاف والابتعاد عن طرفى الإفراط والتفريط .

ومن أقبح العصيان الزنا ولا سيما من النساء لأن الفتنة بهن أكثر والضرر منهن أخطر لما يفضى إليه من توريث أولاد الزنا وانتسابهم إلى غير آبائهم .

الإيضاح

(واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم) يقال أتى الفاحشة وجاءها وغشيها إذا فعلها قال تعالى « لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا » وفى التعبير عن الإقدام على الفواحش بهذه العبارات معنى دقيق وهو أن الفاعل لها ذهب إليها بنفسه واختارها بطبعه ، والفاحشة الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا لزيادتها فى القبح على كثير من القبائح ، وقوله من نسائكم أى من المؤمنات .

(فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) أى اطلبوا شهادة أربعة رجال أحرار منكم . قال الزهرى (مضت السنة من رسول الله واخليفتين بعده ألا تقبل شهادة النساء فى الحدود) والحكمة فى هذا إبعاد النساء عن مواقع الفواحش والجرائم والعقاب والتعذيب رغبة فى أن يكنّ دائما غافلات عن القبائح لا يفكرن فيها ولا يخضن مع آربابها . والخطاب للمسلمين جميعا لأنهم متكافلون فى أمورهم العامة كما تقدم مرارا فهم الذين يختارون لأنفسهم الحكام الذين ينفذون الأحكام وقيمون الحدود . (فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) . التوفى الاستيفاء وهو القبض تقول توفيت مالى على فلان واستوفيته إذا قبضته ، والسبيل الطريق للخروج من الحبس بما يشرعه الله من العقوبة لهن .

والمعنى فإن شهد الأربعة بفعلها فاحبسوهن فى بيوتهن وامنعوهن الخروج منها عقوبة لهن حتى لا يعدن إلى ارتكابها مرة أخرى إلى أن يمتن ويقبض أرواحهن الموت أو يجعل الله لهن طريقا بما يشرعه من حد الزنا .

وفي الآية إشارة إلى أن منع النساء عن الخروج عند الحاجة إليه في غير هذه الحالة لمجرد الغيرة أو لمجرد الهوى والتحكم من الرجال لا يجوز ، وكذلك فيها إيماء إلى أن هذه العقوبة مقرونة بما يدل على التوقيت ، وقد روى عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا ، الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » ومن هذا تعلم أن السبيل كان مجملا فينبه الحديث وخصص عموم آية الجلد الآتية في سورة النور (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ).

(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) أى والزانى والزانية اللذان يرتكبان جريمة الزنا ، آذوهما بالتأنيب والتوبيخ بعد ثبوت ذلك بشهادة أربعة من الرجال .

وهذا العقاب كان أول الاسلام من قبيل التعزير وأمره مفوض إلى الأمة في كفيته ومقداره فلما نزلت آية النور التي تقدم ذكرها وجاء الحديث الشريف السابق بينا مقدار هذا الإيذاء وحدداه ، وبهما استبان أن عقاب الثيب والرجل المتزوج الرجم بالحجارة حتى يموتا ، وعقاب البكر والرجل الذى لم يتزوج جلد مائة ونفيه سنة .

(فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها) أى فإن رجعا عن فعل الفاحشة وندما على مافات وأصلحا عملهما وغيرا أحوالهما كما هو شأن المؤمن يظهر نفسه بالإقبال على الطاعة ويزكيها من أدران المعاصى التي فرطت منه ويقوى داعية الخير حتى تغلب داعية الشر فكفوا عن أذاهما بالقول والفعل .

(إن الله كان توابا رحيمًا) التواب الذى يعود على عبده بفضله ومغفرته إذا تاب إليه من ذنبه ، والرحيم واسع الرحمة ، والجملة جاءت تعليلا للأمر بالإعراض ، والخطاب هنا لأولى الأمر والحكام .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٦) وَلَيْسَتْ

التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي
تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا (١٧) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أن من تاب وأصلح تركت عقوبته وأزيل الأذى عنه ، وأنه هو التواب الذى يقبل التوبة عن عباده - ذكر هنا وقت التوبة وشرط قبولها ورغبته في تعجيلها حتى لا يأتى الموت وهو مصرًّا على الذنب فلا تنفعه التوبة وأرشد أولياء الأمر إلى الطريق الذى يسلكونه مع العصاة في معاقبتهم وتأديبهم فأمر هنا بالاعراض عن أذى من تاب وأصلح العمل بعد أن فرض عقوبة مرتكبي الفواحش في الآية السالفة ، فهذه شرح لذلك الاصلاح فى العمل .

الإيضاح

(إنما التوبة على الله للذين يعملون سوءاً بجهالة ثم يتوبون من قريب) السوء : هو العمل القبيح الذى يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة ، وهذا شامل للصغار والكبار ، والجهالة : الجهل وتغلب السفه على النفس عند ثورة الشهوة أو سورة الغضب حتى يذهب عنها الحلم وتنسى الحق ، وكل من عصى الله سمي جاهلاً وسمى فعله جهالة كما قال تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) وقال تعالى لنوح : (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

× وسر هذا أن العاصى لربه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب لما أقدم على المعصية ، إذ هو لا يرتكبها إلا جاهلاً بحقيقة الوعيد ، ومنتظراً لاحتمال العفو والمغفرة ، أو شفاعاة الشفعاء التى تصد عنه العقاب .

والزمن القريب : هو الوقت الذي تسكن به ثورة الشهوة أو تنكسر به حدة الغضب ويثوب فاعل السيئة إلى حمله ويرجع إليه دينه وعقله ، إذ من كان قوى الإيمان لاتقع منه المعصية إلا عن بادرة غضب أو شهوة هفوة بعد هفوة ثم لا يلبث أن يبادر إلى التوبة ، ومن ثم ذكر الله السوء بلفظ الإفراد هنا ، وقال فيمن لا تقبل توبتهم (يعملون السيئات) إشعاراً بأن التوبة إنما تقبل ممن تقع منهم الذنوب آحاداً ويلمون بها إماماً ولكنهم لا يصرون عليها بل يبادرون إلى التوبة منها فلا تتمكن من أنفسهم ظلمة المعصية ولا تحيط بهم الخطيئة .

وما رواه أحمد عن ابن عمر من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» فالمراد منه أنه لا ينبغي لأحد أن يقنط من رحمة الله ويأس من قبول التوبة مادام حياً ، وليس معناه أنه لاخوف على العبد من التمادى في الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة فإن هذا مخالف لهدى الدين في مثل قوله : «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا مِّمَّ اهْتَدَىٰ) ومثل قوله : « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » .

وقد قسموا التوايب طبقات :

(١) من هو سليم الفطرة عظيم الاستعداد للخير فهو إذا وقع في خطيئة مرة كان له منها أكبر عبرة ، فيندم بعدها ويحمل نفسه على الفضيلة ويصرفها عن كل رذيلة .

(٢) من تكون داعية الشهوة أقوى في نفسه وأرسح في قلبه ، فإذا أطاع نفسه وارتكب معصية قامت الخواطر الالهية تحاربه وتوبخه حتى تنتصر عليه وتقهره قهراً تاماً فلا يعود بعدها إلى اجتراح إثم ولا وقوع في ذنب .

(٣) من تقوى نفسه بالمجاهدة على اجتناب كبار الأثم والنواحش ، لا على صغار الذنوب والآثام وهناك تكون الحرب في نفوسهم سجالات بين ما يلمون به من الصغائر وبين الخواطر الالهية التي هي جند الإيمان .

(٤) من يقع في الذنب فيتوب ويستغفر ثم يعرض له مرة أخرى فيعود إليه ثم يلوم نفسه ويندم ويستغفر وهم جراً ، وهؤلاء أدنى طبقات التوابين ، والنفس الباقية أرخص عندهم من النفس الفانية ، وهم مع ذلك محل للرجاء لأن لهم زاجراً من أنفسهم يذكرهم دائماً بالرجوع الى الله عقب كل خطيئة ، وهكذا تكون الحرب سجالات بينهم وبين أنفسهم ، فإما أن تنتصر دواعي الخير فتصح توبتهم ، وإما أن تنكسر أمام جند الشهوة فتحيط بهم خطيئتهم ويكونوا من المصيرين الهالكين .

وخلاصة المعنى أن التوبة التي أوجب الله على نفسه قبولها بوعده الذي هو أثر كرمه وفضله ليست إلا لمن يجترح السيئة بجهالة تلبس نفسه من سورة غضب أو تغلب شهوة ثم لا يلبث أن يندم على ما فرط منه وينيب الى ربه ويتوب ويقلع عن ذنبه .

(فأولئك يتوب الله عليهم) أى أولئك الذين فعلوا الذنوب بجهالة وتابوا بعد قريب من الزمن يتوب الله عليهم ، لأن الذنوب لم ترسخ في نفوسهم ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون .

(وكان الله عليماً حكيماً) وبهذا العلم بشئون عباده ومعرفة مصالحهم جعل التوبة مقبولة حتماً ، لأنه يعلم ضعف عباده وأنهم لا يسهون من عمل السوء فلو لم يشرع لهم التوبة لهلكوا باسترسالهم في العاصي والسيئات وتعمد اتباع الهوى وخطوات الشيطان لعلمهم أنهم هالكون لا محالة ؛ فلا فائدة من جهاد النفس وتركيها .

أما وقد شرع الله بحكمته قبول التوبة فقد فتح لهم باب الفضيلة وهداهم الى محو السيئة بالحسنة ، لكنه لا يقبل إلا التوبة النصوح دون حركات اللسان بالاستغفار والإتيان ببعض المكفرات من الصدقات أو الأذكار مع الإصرار على الذنوب والأوزار ومن ثم جمع الله في الآية السابقة بين التوبة وإصلاح العمل .

وقد فعلت الأمم السالفة مثل هذا فاستثقلت التكاليف وفسقت عن أمر ربها واتبعت هواها وجعلت حظها من الدين مجموع حركات لسانية وبدنية لا تهذب خلقا ولا تصلح عملا ولا تمنع النفس من التمتع بشهواتها ، وقد اتبع كثير من المسلمين سنن من قبلهم وحذوا حذوهم شبرا بشبر وذراعا بذراع .

وبعد أن بين حال من تقبل توبتهم ذكر حال أصدادهم الذين لا تقبل منهم

التوبة فقال :

✓ (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) أى إن سنة الله قد مضت بأن التوبة لا تكون للذين يعملون السيئات منهمكين فيها إلى حضور الموت ، وصدور ذلك القول منهم ، لأن هؤلاء قد أحاطت بهم خطيئاتهم ولم تدع للأعمال الصالحة مكانا في نفوسهم ، فهم أصروا عليها إلى أن حضرهم الموت ويأسوا من الحياة التي يتمتعون بها ، وحينئذ يقول أحدهم إني تبت الآن وما هو من التائبين بل من المدّعين الكاذبين .

والخلاصة أن التوبة لمثل هؤلاء ليست مقبولة حتما فأمرهم مفوض إلى الله تعالى وهو العليم بحالمهم ، وحديث قبول توبة العبد ما لم يغرغر أو تبلغ روحه الخلقوم - المراد منه حصول التوبة النصوح بأن يدرك المذنب قبح ما كان قد عمله من السيئات ويندم على مزاولتها ويحول جبه لها بحيث لو عاش لما عاد إليها ، وقلمما يحصل مثل هذا الإدراك للمصّر على السيئات المستأنس بها في عامة أيام الحياة ، وإنما الذى يحصل له إدراك العجز عنها واليأس منها وكرهه ما يتوقعه من قرب العقاب عليها عند الموت . (ولا الذين يموتون وهم كفار) أى لا تقبل توبة هؤلاء ولا هؤلاء ، وقد سوى

الله بين الذين سوفوا توبتهم إلى أن حضر الموت وبين الذين ماتوا على الكفر في أن توبتهم لا تقبل ، فكأن المئات على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين ، كذلك سوف إلى حضرة الموت ، فكل منهما جاوز الحد المضروب للتوبة إذ هي لا تكون إلا عند التكليف والاختيار .

(أولئك أعددنا لهم عذابا أليما) أعددنا هيأنا وأعددنا ، والأليم المؤلم المومج أى هذان الفريقان اللذان استعبدهما سلطان الشهوة وخرجا على سنة الفطرة وهداية الشريعة أعددنا لهم العذاب المومج فى الدار الآخرة جزاء وفاقا لما اكتسبت أيديهم من السيئات ، مع إصرارهم عليها حتى الممات ، إذ أنهم أفسدوا قلوبهم ودمسوا نفوسهم فصارت تهبط بهم خطاياهم إلى الدرك الأسفل من الهوان ، وتعجز عن الصعود إلى معاهد الكرامة والرضوان .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ
خَيْرًا كَثِيرًا (١٨) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ
إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (١٩)
وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
غَلِيظًا؟ (٢٠)

شرح المفردات

العضل: التضيق والشدة ، ومنه الداء العضال الشديد الذى لانجاة منه ، والفاحشة
الفعلة الشنيعة الشديدة القبح ، والمبينة: الظاهرة الفاضحة ، والمعروف: ما تألفه الطباع
ولا يستنكره الشرع ولا العرف ولا المروءة ، والبهتان: الكذب الذى يبهت المكذوب
عليه ويسكته متحيرا ، والإثم: الحرام ، أفضى أى وصل إليها الوصول الخاص الذى
يكون بين الزوجين فيلابس كل منهما الآخر حتى كأنهما شىء واحد ، والميثاق
الغليظ: العهد المؤكد الذى يربطكم بهن أقوى رباط وأحكمه .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما تقدم عن عادات الجاهلية فى أمر اليتامى وأموالهم عقبه بالنهى عن الاستئنان بسنتهم فى النساء وأموالهن، وقد كانوا يحتقرون النساء ويعدونهن من قبيل المتاع حتى كان الأقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله فحرم الله عليهم هذا العمل، روى البخارى وأبو داود أنه كان إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بأمراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية فى ذلك، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: جاءت كُبَيْشَةَ بنته معن بن عاصم من الأوس إلى النبى صلى الله عليه وسلم وكانت تحت أبى قيس بن الأسلت فتوفى عنها فجئح عليها (ضيق) ابنه وقالت له لا أنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فأُنكحُ فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) أى لا يحل لكم أيها الذين آمنوا بالله ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية فى هضم حقوق النساء فتجعلوهن ميراثا لكم كالأموال والعبيد وتتصرفوا فيهن كما تشاءون وهن كارهات لذلك، فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج .

(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أى لا يحل لكم إرث النساء ولا التضييق عليهن ومضارتهن ليكرهنكم ويضطررن إلى الاقتداء منكم بالمال من ميراث وصداق ونحو ذلك، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسننها ويتزوجون من لاتعجبهم أو يسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث أو ما كانت أخذت من صديق ونحوه أو كل هذا وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها .

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كانت قريش بمكة ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة فلعلها ماتواقفه فيفارقتها على ألا تزوج إلا باذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ، فإذا خطبها خاطب فان أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها وكثيرا ما كانوا يضيقون عليهن ليفتدين منهم بالمال .

(إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) أى لا تعضوهن فى أى حال إلا فى الحال التى يأتين فيها بالفاحشة المبينة دون الظنة والشبهة ، فاذا نشزن عن طاعتكم وساءت عشرتهن ولم ينفع معهن التأديب أو تبين ارتكابهن للزنا أو السرقة أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس فلستم حينئذ أن تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال ، لأن الفحش قد أتى من جانبها وإنما اشترط فى الفاحشة أن تكون مبينة أى ظاهرة فاضحة لصاحبها ، لأنه ربما ظلم الرجل المرأة باصابتها الهفوة الصغيرة أو بمجرد سوء الظن والتهمة ، فن الرجال الفيور السيء الظن الذى يؤاخذ بأتفه الأمور ويعده عظيما ، وإنما أبيض للرجل أن يضييق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة ، لأنها ربما كرهته ومالت إلى غيره فتؤذيه بفاحش القول أو الفعل ليلها ويسأم معاشرتها فيطلقها فتأخذ ما كان أعطاها وتزوج غيره وتمتع بمال الأول وربما فعلت مع الثانى ما فعلت مع الأول ، فاذا علم النساء أن العضل والتضييق بيد الرجال ومما أبيض لهم إذا هن أنهم فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها والاحتيال بها على أرذل أنواع الكسب .

(وعاشروهن بالمعروف) أى عليكم أن تحسنوا معاشرة نساتكم فتخالطوهن بما تألفه طباعهن ولا يستنكره الشرع ولا العرف ، ولا تضيقوا عليهن فى النفقة ولا تؤذوهن بقول ولا فعل ولا تقابلوهن بعبوس الوجه ولا تقطيب الجبين .

وفى كلمة (المعاشرة) معنى المشاركة والمساواة أى عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك ، فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر وسبب هناءته

وسعادته في معيشته ومنزله « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(فإن كرهتموهن فمسي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)
 أي فإن كرهتموهن لعيب في أخلاقهن أو دمامة في خلقهن مما ليس لهن فيه كسب ،
 أو لتقصير في العمل الواجب عليهن كخدمة البيت والقيام بشئونهن مما لا يخلو عن مثله
 النساء في أعمالهن ، أو لميل منكم إلى غيرهن ، فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن
 ولا بمفارقتهن فر بما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأوفى إلى الخير ، ومن ذلك :
 (١) الأولاد النجباء فرب امرأة يملها زوجها ويود فراقها ثم يجيئه منها من تقر به
 عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك .

(٢) أن يصلح حالها بصبره وحسن معاشرته ، فتكون من أعظم أسباب سعادته
 وسروره في انتظام معيشته وحسن خدمته ، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض أو بالفقر
 والعوز فتكون خير سلوى وعون في هذه الأحوال ، فيجب على الرجل أن يتذكر
 مثل ذلك ، كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته في الحال والاستقبال .

× وقد جاء قوله « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » في سياق حديث
 النساء دستورا إذا نحن اتبعناه كان له الأثر الصالح في جميع أعمالنا وهدانا إلى الرشد
 في جميع شئوننا ، فكثير مما يكرهه الإنسان يكون له فيه الخير ، ومتى جاء ذلك الخير
 ظهرت فائدة ذلك الشيء المكروه ، والتجارب أصدق شاهد على ذلك ، فالقتال
 لأجل حماية الحق والدفاع عنه يكرهه الطبع لما فيه من المشقة ، لكن فيه إظهار الحق
 ونصره ورفع أهله وخذلان الباطل وحزبه ، إلى أن الصبر على احتمال المكروه
 يبرن النفس على احتمال الأذى ويعودها تحمل المشاق في جسيم الأمور .

والخلاصة أن الإسلام وصى أهله بحسن معاشرته النساء والصبر عليهن إذا كرههن
 الأزواج رجاء أن يكون فيهن خير ، ولا يبيح عضلهن وافتداهن أنفسهن بالمال

إلا إذا أتت بفاحشة مبينة بحيث يكون إمساكهن سببا في مهانة الرجل واحتقاره ،
أو إذا خافا ألا يقيا حدود الله ، وفيما عدا ذلك يجب عليه إذا أراد فراقها أن يعطيها
جميع حقوقها وهذا ما أشار إليه بقوله :

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا
منه شيئا) أى إذا رغبتم أيها الأزواج فى استبدال زوج جديدة مكان زوج سابقة
كرهتموها لعدم طاقتكم الصبر على معاشرتها وهى لم تأت بفاحشة مبينة وقد كنتم
آتيتموها المال الكثير مقبوضا أو ملتزما دفعه إليها فصار ديننا فى ذمتكم فلا تأخذوا
منه شيئا ، بل عليكم أن تدفعوه لها ، لأنكم إنما استبدلتم غيرها بها لأغراضكم
ومصالحكم بدون ذنب ولا جريرة تبيح أخذ شيء منها ، فبأى حق تستحلون ذلك
وهى لم تطلب فراقكم ولم تسيء إليكم لتحملكم على طلاقها ؟ وإرادة الاستبدال
ليست شرطا فى عدم حل أخذ شيء من مالها إذا هو كره عشرتها وأراد الطلاق ،
لكنه ذكر لأنه هو الغالب فى مثل هذا الحال ، ألا ترى أنه لو طلقها وهو لا يريد
تزوج غيرها لأنه اختار الوحدة وعدم التقيد بالنساء وحاجتهن الكثيرة فإنه لا يحل
له أخذ شيء من مالها .

ثم أنكر عليهم هذا الفعل ووبخهم عليه أشد التوبيخ فقال :

(أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟) أى تأخذونه باهتين آثمين ، وقد كان من
دأبهم أنهم إذا أرادوا تطليق الزوجة رموها بفاحشة حتى تخاف وتشتري نفسها منه
بالمهر الذى دفعه إليها .

وزاده إنكاراً آخر مبالغة فى التنفير من ذلك فقال :

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) أى إن حال هؤلاء الذين
يستحلون أخذ مهور النساء إذا أرادوا مفارقتهم بالطلاق لا لذنب جنينه ولا لإثم
اجترحه من الإتيان بفاحشة مبينة أو عدم إقامة حدود الله ، وإنما هو الرأى والهوى

وكرامة معاشرتهن — عجيب أيما عجب فكيف يستسيغون أخذ ذلك منهن بعد أن تأكدت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوى بين البشر ولا بس كل منهما الآخر حتى صار أحدهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده ، فبعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر إفشاء ولا بسه ملابسه يتكون منها الولد يقطع تلك الصلة العظيمة ويطمع في مالها وهى المظلومة الضعيفة وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل التى هدى الله إليها البشر .

(وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال قتادة : هذا الميثاق هو ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقال الأستاذ الإمام : إن هذا الميثاق لا بد أن يكون مناسبا للإفشاء فى أن كلا منهما شأن من شئون الفطرة السليمة وهو الذى أشارت إليه الآية الكريمة « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هى أقوى ما تعتمد عليها المرأة فى ترك أوبئها وإخوتها وسائر أهلها والاتصال برجل غريب عنها تساهمه السراء والضراء وتسكن إليه ويسكن إليها ويكون بينهما من المودة أقوى مما يكون بين ذوى القربى ثقة منها بأن صلتها به أقوى من كل صلة وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة .

هذه الثقة وذلك الشعور الفطرى الذى أودع فى المرأة وجعلها تحس بصلة لم تعهد من قبل لا تجد مثلها لدى أحد من الأهل ، وبها تعتقد أنها بالزواج مقبلة على سعادة ليس وراءها سعادة فى الحياة ، هذا هو المركز فى أعماق النفوس ، وهذا هو الميثاق الغليظ ، فما قيمة من لا يفي بهذا الميثاق وما هى مكانته من الإنسانية ؟ اه بتصرف .

وقد استدلوا بذكر القنطار على جواز التغالى فى المهور، وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزداد فى الصداق على أربعمائة درهم ثم نزل فاعترضته

امرأة من قريش فقالت أما سمعت الله يقول (وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا) فقال : اللهم عفو كل الناس أقمه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله فله ما أحب .

هذا وإن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق بل تركت ذلك للناس لتفاوتهم في الغنى والفقير فكل يعطى على حسب حاله ، ولكن جاء في السنة الإرشاد إلى اليسر في ذلك وعدم التعالى فيه ، فمن ذلك ما رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن عائشة « إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها » .

وإن التعالى في المهور الآن قد صار من أسباب قلة الزواج ، وقلة الزواج تفضى إلى كثرة الزنا والفساد ، والغبن أخيرا على النساء أكثر ، وإنك لترى هذه العادة متمكنة لدى بعض الناس ، حتى إن ولى المرأة ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذى لا يرجى من هو خير منه إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقا بكرامته ، ويزوجها لمن هو دونه دينيا وخلقا ومن لا يرجو لها سعادة عنده إذا هو أعطاه الكثير الذى يراه محققا لأغراضه . وهكذا تتحكم التقاليد والعادات حتى تفسد على الناس سعادتهم وتقوض نظم بيوتهم وهم لها منقادون بلا تفكير في العواقب .

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢١) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ
الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٢) .

شرح المفردات

سلف أى مضى ، فاحشة أى شديد القبح ، مقتا أى ممقوتا مبعوضا عند ذوى
الطباع السليمة ، ومن ثم كانوا يسمونه نكاح المقت ، ويسمى الولد منه مقتيا ، ومقتيا
أى مبعوضا محتمرا ، وساء سيلا أى بئس طريقا ذلك الطريق الذى اعتادوا سلوكه
فى الجاهلية و بئس من يسلكه ، لم يزد السير فيه إلا قبحا ، والجناح الإثم والتضييق .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى أوائل السورة حكم نكاح اليتامى وعدد من يحل من النساء
والشرط فى ذلك ، وبين حكم استبدال زوج مكان زوج وما يجب من المعروف
فى معاشرتهم — وصل هذا ببيان ما يحرم نكاحه منهن .

الإيضاح

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) ذكر الله هذا النكاح أولا ولم يذكره
مع سائر المحرمات فى الآية التالية لأنه كان فاشيا فى الجاهلية ، وقد ذمه الله أقبح ذم
فسماه فاحشة وجعله مبعوضا أشد البغض ، أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال :
كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن
أمه أو ينكحها من شاء ، فلما مات أبو قيس بن الأسلت قام ابنه محصن فورث نكاح
امراته ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئا ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم
فذكرت ذلك له فقال ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئا فنزلت (ولا تنكحوا)
الآية ، ونزلت أيضا (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) الخ . والمراد بالنكاح العقد

كما قال ابن عباس ، فقد روى ابن جرير والبيهقي عنه أنه قال : كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل بها فهي حرام ، والمراد من الآباء ما يشمل الأجداد إجماعاً .
(إلا ما قد سلف) أى لكن ما سلف من ذلك لا مؤاخذه عليه .
والخلاصة — أنكم تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف
ومضى فإنه معفو عنه .

(إنه كان فاحشة ومقتنا وساء سيلاً) أى إن نكاح أزواج الآباء تمجه الأذواق
السليمة وتؤيد ذلك الشريعة التى هدى الله الناس بها فهو قبيح محتقر والسالك فى
طريقه مزدري عند ذوى العقول الراجحة .

قال الإمام الرازى — القبح ثلاثة أصناف : عقلى وشرعى وعادى ، وقد وصف الله
النكاح بكل ذلك فقوله سبحانه (فاحشة) إشارة إلى الأول ، وقوله (مقتا) إشارة
إلى الثانى ، وقوله (وساء سيلاً) إشارة إلى الثالث .

بعد هذا بين الله أنواع المحرمات لأسباب وعلل تنافى ما فى النكاح من الصلة
بين بعض البشر وبعض ، وهى عدة أقسام : القسم الأول منها ما يحرم من جهة
النسب ، وهو أنواع :

(١) نكاح الأصول واليه الإشارة بقوله :

(حرمت عليكم أمهاتكم) والمراد بالأم ما يشمل الجدات أى إن الله قد حرم
عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم والمراد أنه حكم الآن بهذا التحريم والمنع .

(٢) نكاح الفروع وذلك قوله :

(وبناتكم) والمراد بهن ما يشمل بنات أصلابنا أو بنات أولادنا ممن كنا سبباً
فى ولادتهن وأصولاً لهن .

(٣) نكاح الحواشى القريبة وذلك ما عناه سبحانه بقوله :

(وأخواتكم) سواء أكن شقيقات لكم أم كن لأم أو لأب .

(٤ و ٥) نكاح الحواشى البعيدة من جهة الأب والأم وإليهما الإشارة بقوله :

(وعماتكم وخالاتكم) والمراد بهما الإناث من جهة العمومة ومن جهة الخوالة فيشمل أولاد الأجداد وإن علوا وأولاد الجدات وإن علون .

٦) نكاح الحواشي البعيدة من جهة الإخوة وذلك قوله :

(وبنات الأخ وبنات الأخت) من جهة أحد الأبوين أو كليهما .

القسم الثاني ما حرم من جهة الرضاعة وإليه الإشارة بقوله :

(وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) وقد نزل الله سبحانه الرضاعة منزلة النسب فسمى المرضعة أما للرضيع وبناتها أختاله فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاع كجهة النسب، وقد وضحت السنة ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة « إنها لا تحل لي ، إنها ابنة أخي من الرضاعة ، ويحرم من الرضاعة ما يحرم بالنسب » رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وعلى ذلك جرى المسلمون جيلا بعد جيل فجعلوا زوج المرضعة أبا للرضيع تحرم عليه أصوله وفروعه ولو من غير المرضعة لأنه صاحب اللقاح الذى كان سبب اللبن الذى تغذى منه الرضيع ، وقد روى البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما بنتا والأخرى غلاما ، أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ (قال لا ، اللقاح واحد) .

وقد غلب على الناس التساهل فى أمر الرضاعة فيرضعون الولد من امرأة أو من عدة نسوة ولا يهتمون بمعرفة أولاد المرضعة وإخوتها ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ليعرفوا ما يترتب عليهم فى ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب فكثيرا ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدري .

وظاهر الآية أن قليل الرضاعة ككثيرها ويروى ذلك عن على وابن عباس والحسن والزهرى وقتادة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك ، وذهب جماعة إلى أن التحريم إنما يثبت بثلاث رضعات فأكثر لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال

«لا تحرم المصّة والمصتان» وقد روى العمل به عن الإمام أحمد، وذهب جماعة آخرون إلى أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات ويروى هذا عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن الزبير وهو مذهب الشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه . ولا يحرم الرضاع إلا فى سنه ومدته المحدودة بقوله تعالى « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِخَ الرِّضَاعَةَ » وهو مذهب عمر وابن مسعود وابن عباس، وبه أخذ الشافعى وأحمد وصاحبى أبي حنيفة: أبو يوسف ومحمد، وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم « لا رضاع إلا ما كان فى الحولين » وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى والزهرى والحسن وقتادة أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطم، فإن فطم الرضيع ولو قبل السنتين امتنع تأثير رضاعه فى التحريم، وإن استمر رضاعه إلى ما بعد السنتين ولم يفطم كان رضاعه محرما .

القسم الثالث محرمات المصاهرة التى تعرض بسبب الزواج وتحتها الأنواع الآتية :

(١) (وأمهات نسائكم) ويدخل فى الأمهات الجدات، ولا يشترط فى تحريم أم المرأة دخوله بالبنت بل يكفى مجرد العمد، وبهذا قال جمهور الصحابة ومن بعدهم وعليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة .

(٢) (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم) الربائب جمع ربيبة، وربيب الرجل ولد امرأته من غيره سمي ربيبا لأن الرجل يربيه ويسوسه ويؤدبه كما يؤدب ولده، وقوله: اللاتى فى حجوركم وصف لبيان الحال الغالب فى الربيبة وهى أن تكون فى حجر زوج أمها وللشعار بالمعنى الذى يوضح علة التحريم ويحرك عاطفة الأبوة فى الرجل وهى كونها فى حجره يحنو عليها حنوّه على بنته، ويدخل فى التحريم كل بنات امرأة الرجل إذا كان قد دخل بها وبنات بناتها وبنات أبنائها، لأنهن من بناتها فى عرف اللغة .

(فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) أى إن الرجل إذا عقد نكاحه على امرأة ولم يدخل بها لا يحرم عليه بناتها ، وقال الحنفية : إن من زنى بامرأة يحرم عليه أصولها وفروعها وكذلك إذا لمسها بشهوة أو قبلها أو نظر إلى ما هنالك منها بشهوة ، وكذلك أيضا إذا لمس يد أم امرأته بشهوة فإن امرأته تحرم عليه تحريما مؤبدا ولم يوافقهم على ذلك كثير من الأئمة لأنه لم يؤثر فيه خبر ولا أثر عن الصحابة فيه شيء وقد كانوا قريبي العهد بالجاهلية التي كان الزنا فاشيا فيها بينهم ، فلو كانوا فهموا لذلك مدركا من الشرع وعلمه لسألوا عنه وتوافرت الدواعى على نقل ما أفتوا به .

(٣) (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) الحلائل واحدها حليلة وهى الزوجة ، ويقال أيضا للرجل حليل إذا أن الزوجين يحلان معا فى مكان واحد وفراش واحد . ويدخل فى الأبناء أبناء الصلب مباشرة أو بواسطة كابن الابن وابن البنت ، فحلائلها تحرم على الجد ، كما يدخل الابن من الرضاعة فتحرم حليلته لما تقدم من قوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

القسم الرابع محرم بسبب عارض إذا زال يزول التحريم وهو ما ذكره سبحانه بقوله :

(وأن تجمعوا بين الأختين) أى وحرّم عليكم الجمع بين الأختين فى الاستمتاع الذى يراد به الولد ، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين بملك اليمين أو بالنكاح أو بالنكاح والملك كأن يكون مالكا لإحدهما ومتزوجا للأخرى فيحرم عليه أن يستمتع بهما ويجب عليه أن يحرم إحدهما على نفسه كأن يعتقد الملوكة أو يهبها ويسلمها للموهوبة له .

ومثل هذا الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، لأن العلة موجودة فيه أيضا وهى إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصله ، كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

والضابط لذلك أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة لو كانت إحداهما ذكرا
لحرم عليه بها نكاح الأخرى .

(إلا ما قد سلف) أى لكن ما قد سلف قبل التحريم لا تؤاخذون عليه ،
وقد كانوا يجمعون بين الأختين ، أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن فيروز الديلمي
أنه أدركه الإسلام وتحته أختان فقال له النبي صلى الله عليه وسلم طلق أيتهما شئت .
وعن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب
والجمع بين الأختين .

(إن الله كان عفورا رحيا) فلا يؤاخذكم بما سلف منكم في زمن الجاهلية
إذا أتم عملتم بشريعة الإسلام ، ومن مغفرته أن يمحو من نفوسكم آثار الأعمال السيئة
ويغفر لكم ذنوبكم إذا أنبتم إليه ، ومن رحمته أن شرع لكم من أحكام النكاح
ما فيه المصلحة لكم وتوثيق الروابط بينكم لتتعاونوا على البر والتقوى ، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بحلول من أرباض القاهرة في شهر رمضان
سنة إحدى وستين وثلثمائة وألف من الهجرة ، وله الحمد أولا وآخرا .

فهرس

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	دفع شبهتين من شبهات اليهود .
٥	الإجابة عن أولى الشبهتين .
٧	الإجابة عن الشبهة الثانية .
٨	اتفاق العرب في الجاهلية والإسلام على تعظيم البيت الحرام وأمن من دخله
٩	آراء العلماء في المراد من الاستطاعة لوجوب الحج .
١١	إيقاد اليهود نار الفتنة بين الأوس والخزرج .
١٧	الدين نهى عن العصبية الجنسية وأمر بالتمسك بالرابطة الدينية .
١٨	الاختلاف الذى بين البشر ضربان :
٢٢	ما يجب توافره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٣٢	ضرب الذلة والمسكنة على اليهود .
٣٥	صفات المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب .
٤٠	ما يفعله الكافر من وجوه البر في الدنيا لا أثر له في الآخرة فلا يفيد شئنا
٤٤	شروط النهي عن اتخاذ بطانة من الكافرين .
٥١	وقعة بدر .
٥١	وقعة أحد، وذكر السبب في انخزال المؤمنين .
٥٨	الحكمة في الإمداد بالملائكة .
٥٩	حكمة ما حصل من خذلان المؤمنين في أحد .
٦٥	ربا الجاهلية ما يسمى في عصرنا بالربا الفاحش .

الصفحة	المبحث	الرقم
٦٥	الربا نوعان .	١٧١
٦٧	الحرمات في الإسلام ضربان .	١٧١
٦٩	أوصاف المتقين	٥٧١
٨٣	الجمادات أقسام .	١٧١
٨٧	لئن مات محمد لقد مات قبله سائر الأنبياء .	٧١١
٩٠	من يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها .	٨٧١
٩١	للإنسان طوران عاجل وآجل .	١٣١
٩٦	طاعة الكافرين توجب الخسران في الدنيا والآخرة .	٢٣١
٩٧	أثر الشرك في النفوس .	٥٣١
٩٩	سبب ما أصاب المسلمين في وقعة أحد .	١٥١
١٠٣	انقسام المسلمين بعد وقعة أحد إلى فريقين .	٣٥١
١٠٦	انخدال المؤمنين أثر طبيعي لما اجترحوه من المخالفات .	١٧١
١١٣	الشورى في الإسلام وفوائدها .	٥٥١
١١٥	التردد خور وضعف في العزائم .	٢٥١
١١٥	وجوب التوكل على الله بعد أخذ الأهبة .	١٥١
١١٦	التوكل الصحيح إنما يتم مع الأخذ بالأسباب ، وبدون ذلك يكون جهلا .	
١٢١	الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله على حسب تفاوتهم في الفضائل والمعرفة	
	في الدنيا والأعمال الصالحة .	٥٢١
١٢٢	صفات الرسول صلى الله عليه وسلم التي تقتضى طاعته .	٢٢١
١٢٦	العقوبات آثار لازمة للأعمال .	٧٢١
١٢٧	معاذير المنافقين حين تخلفهم عن القتال .	١٧١

الصفحة	المبحث
١٣١	الشهداء أحياء عند ربهم في دار الكرامة .
١٣٣	غزوة حمراء الأسد .
١٣٥	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قال « حسبي الله ونعم الوكيل » .
١٣٧	صادق الإيمان لا يكون جباناً ، وإذا عرض له أسباب الخوف قاوم ذلك
١٣٨	تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم عن مسارعة قومه إلى الكفر .
١٤١	من شأن المؤمن إذا أنسا الله أجله أن تكثر حسناته وتزداد خيراته .
١٤٢	في الشدائد كثير من القوائد .
١٤٥	الحث على بذل المال في الجهاد .
١٥٠	ليس قومك بيدع من الأمم ، ولا أنت بيدع من الرسل .
١٥٣	الابتلاء في الأموال يكون بالبذل في وجوه البر ، وفي الأنفس ببذلها في الجهاد في سبيل الله .
١٥٥	كيف يطعن اليهود في النبي صلى الله عليه وسلم وهو مذكور في كتابهم
١٥٦	تبيين الكتاب على ضربين .
١٥٨	العذاب أثر طبيعي للذنوب وهو ضربان .
١٦١	استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم من عائشة في عبادة ربه .
١٦٣	ما يقول الذاكرون المتفكرون في إبتهالم إلى ربهم .
١٦٥	استجابة الدعاء قد تكون بغير ما يطلب المرء .
١٦٦	الإسلام أصلح معاملة الرجل للمرأة واعترف لها بالكرامة .
١٦٧	صفات المؤمن وجزاؤه على إحسانه .
١٧٠	فضائل مؤمنى أهل الكتاب .

الصفحة	المبحث
١٧٣	تفسير سورة النساء .
١٧٥	البحث العلمى والتاريخى لا يؤيد أن آدم أبو البشر .
١٧٦	حقيقة النفس أو الروح .
١٨٠	العدل بين الزوجات إنما يكون فيما يدخل تحت طاقة الإنسان .
١٨١	قد تدعو الحاجة إلى تعدد الزوجات .
١٨٣	الحكمة فى تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم .
١٨٤	مال المرأة ليس بمالك للرجل فلا يحل له إلا بإذنها .
١٨٦	الدين حث على الاقتصاد ومنع الإسراف والتبذير .
١٨٩	مال اليتيم ليس بمال للولى فليس له أن يأكل منه شيئاً بلا حق .
١٩١	كانوا فى الجاهلية لا يرثون النساء والأولاد الصغار .
١٩٤	أسباب الإرث فى الجاهلية .
١٩٦	الحكمة فى جعل حظ الولد كحظ الأثنين .
١٩٦	الموانع التى تمنع ميراث الولد .
١٩٧	السرف فى تساوى الوالدين فى الميراث مع وجود الأولاد .
١٩٨	حقوق الزوجية فى الميراث مقدمة على حقوق الوالدين .
٢٠٠	حكمة جعل الزوجات الكثيرات فى الميراث كزوجة واحدة .
٢٠٠	ميراث الكلاله .
٢٠١	الضرار فى الوصية على وجوه .
٢٠٣	السرف فى التعبير بخالدين فى أهل الجنة ، وبخالدا فى أهل النار .
٢٠٣	للمذنب حالان .

الصفحة	المبحث
٢٠٦	كان عقاب الزاني والزانية في بدء الإسلام الإيذاء والتأنيب .
٢٠٧	العاصي يسمى جاهلا
٢٠٨	التوايون طبقات .
٢١٠	من لا تقبل توبته .
٢١٢	نهى المؤمنين أن يسيروا على سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء .
٢١٣	الأمر بمعاشرة النساء بالمعروف .
٢١٤	ربما يكره الإنسان شيئا وفيه الخير الكثير .
٢١٥	نهى الزوج عن أخذ شيء من صداق المرأة إذا أراد أن يستبدل بها زوجا غيرها .
٢١٨	من يحرم الزوج بهن .

A 5.

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الخامس



مركز تكملة ونظرة مصطفى المراغي في الجليل وأزلامه بر مصر

كتاب في التاريخ

مجلد

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة



الجزء الخامس

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ،
وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ،
فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)
وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ ، فَانْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ
غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أَحْصِنْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ
مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

المحصنات واحدتهن محصنة (بفتح الصاد) يقال حصنت المرأة (بضم الصاد) حصناً وحصانة إذا كانت عفيفة فهي حاصن وحصانة وحصان (بفتح الصاد) ويقال أحصنت المرأة إذا تزوجت لأنها تكون في حصن الرجل وحمائته ، وأحصنها أهلها زوجها ، ما ملكت أيمانكم أى بالسبي في حروب دينية وأزواجهن كفار في دار الحرب ، فينفسخ عند ذلك نكاحهن ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها وحيض غيرها ثم طهرها ، والإحصان العفة ، والمسافح الزاني ، والاستمتاع بالشئ هو التمتع به ، والأجور واحدها أجر وهو في الأصل الجزاء الذى يعطى في مقابلة شئ ما من عمل أو منفعة والمراد به هنا المهر ، فريضة أى حصة مفروضة محدودة مقدرة ، ولا جناح : أى لا حرج ولا تضيق ، الاستطاعة كون الشئ في طوعك لا يتعاصى عليك ، والطول الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب ، والمحصنات هنا الحرائر ، والفتيات الإماء ، محصنات أى عفيفات ، مسافحات مستأجرات للبقاء ، والأخذان واحداهم خدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى ، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد ، والفاحشة الفعلة القبيحة وهى الزنا ، والمحصنات هنا الحرائر ، والعذاب هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة ، فنصفها خمسون ، ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف ، العنت الجهد والمشقة .

المعنى الجملى

هاتان الآيتان من تمة ما قبلهما من جهة المعنى فقد ذكر في أولهما بقية ما يحرم من النساء وحل من عدا من تقدم ووجوب إعطاء المهور ، وذكر في الآية الثانية

حكم نكاح الإماء وحكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة ، لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءاً جعلوها أول الجزء الخامس مراعاة للفظ دون المعنى إذ لوراعوه لجعلوا أول الخامس « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » .

الإيضاح

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح) أى وحرم عليكم نكاح المتزوجات إلا ما ملكت الأيمان بالسبي في حروب دينية تدافعون بها عن دينكم وأزواجهن كفار في دار الكفر وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن فحينئذ ينحل عقد زوجيتهن ويكون حلالاً لكم بالشروط المعروفة في كتب الفقه .
وحكمة هذا أنه لما كان الغالب في الحروب أن يقتل بعض أزواجهن ويفر بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين ، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ومنعهن من الفسق - كان من المصلحة لهن والمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر كافل يكفيها البحث عن الرزق أو بذل العرض ، وفي هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء .

والإسلام لم يفرض السبي ولم يحرمه ، لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسهن في بعض الأحوال كما إذا استأصلت الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد .
فإن رأى المسلمون أن من الخير أن ترد السبايا إلى قومهم جاز لهم ذلك عملاً بقاعدة (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحفظ الملوك فلا يباح فيها السبي .

وقوله من النساء قيد جيء به لإفادة التعميم وأن المراد كل متزوجة لا العفيفات ولا المسلمات ، وقد جاء الإحصان في القرآن لأربعة معان :

(١) التزوج كما في هذه الآية .

(٢) العفة كما في قوله : (مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) .

(٣) الحرية كما في قوله : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ) .

(٤) الإسلام كما في قوله : (فَإِذَا أَحْصِنَ) أى : أسلمن .

أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أنه قال أصبنا سبياً يوم (أوطاس) ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن فسالنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فاستحللناهن وقال الحنفية إن من سبي معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لا بد من اختلاف الدار بين الزوجين دار الإسلام ودار الحرب .

(كتاب الله عليكم) أى كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتاباً مؤكداً وفرضه فرضاً ثابتاً محكماً لا هوادة فيه ، لأن مصلحتكم فيه ثابتة لا يدخلها شك ولا تغيير .
(وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم مما هو خارج من مدلول اللفظ وإفادته ولا يتناول به نص أو دلالة ، فيدخل بطريق الدلالة فى الأمهات الجدات وفى البنات بنات الأولاد وفى الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها كما يؤخذ بعض المحرمات من آيات أخرى كتحرير المشركات والمطلقة ثلاثاً على مطلقها فى سورة البقرة .

(أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) أى أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوه وتطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهراً للزوجة أو ثمناً للأمة ، محصنين أنفسكم وما نعين لها من الاستمتاع بالحرم باستغناء كل منكم بالآخر ، إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأثني والأثني إلى الاتصال بالرجل ليزدوجا ويُنتجاً .

فالإحصان هو هذا الاختصاص الذى يمنع النفس أن تذهب أى مذهب فيتصل كل ذكر بأى امرأة وكل امرأة بأى رجل إذ لو فعلاً ذلك لما كان القصد من هذا إلا المشاركة فى سفح الماء الذى تفرزه الفطرة إيثاراً للذة على المصلحة ، إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل شئى بذكر معين لتتكون بذلك الأسرة ويتعاون الزوجان على تربية أولادها .

فإذا اتفق هذا المقصد انحصرت الداعية الفطرية في سفح الماء وصبه ، وذلك هو البلاء العام الذى تصطلى بناه الأمة كلها ، فإن بعض الدول الأوربية التى كثر فيها السفاح وقل النكاح بضعف الدين وقف نموها وقل نسلها وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتراف بمخالفة بعض الدول الأخرى .

والاسترقاق المعروف فى هذا العصر فى بلاد السودان وبلاد الحجاز وبلاد الجراكسة غير شرعى ، وهو محرم لأن أولئك اللواتى تسترققن حرائر من بنات المسلمين الأحرار فلا يجوز الاستمتاع بهن بغير عقد النكاح ، والإسلام برىء من كل هذا .
(فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة) أى وأى امرأة من النساء اللواتى أحلن لكم ، تزوجتموها فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه فى مقابلة ذلك الاستمتاع .

وسر هذا أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام وحق رياسة المنزل الذى يعيشان فيه وحق الاستمتاع بها - فرض لها فى مقابلة ذلك جزاء وأجرًا تطيب به نفسها ويتم به العدل بينها وبين زوجها .

والخلاصة - أن أى امرأة طلبتم أن تتمتعوا وتنتفعوا بتزوجها فأعطوها المهر الذى تنتفون عليه عند العقد ، فريضة فرضها الله عليكم ، وذلك أن المهر يفرض ويعين فى عقد النكاح ويسمى ذلك إتياء وإعطاء ، ويقال عقد فلان على فلانة وأمهرها ألفاً كما يقال فرض لها ألفاً ومن هذا قوله تعالى : « وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهَا كَهُنَّ فَرِيضَةً » وقوله : « مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهَا كَهُنَّ فَرِيضَةٌ » فالمهر يتعين بفرضه فى العقد ويصير فى حكم المعطى وقد جرت العادة بأن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول ، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول ، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله ، ومن لم يعط شيئاً قبل الدخول وجب عليه كله بعده .

(ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة) أى ولا تضيق عليكم إذا تراضيتن على النقص فى المهر بعد تقديره أو تركه كله أو الزيادة فيه ، إذ ليس الغرض

من الزوجية إلا أن يكونا في عيشة راضية يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة والهدوء والطمأنينة ، والشارع الحكيم لم يضع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة ، ورفق الشؤون الخاصة والعامه .

(إن الله كان عليا حكيما) وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسكوا به ، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهرا يكافئها به على قبولها قيامه ورياسته عليها ثم أذن للزوجين أن يعملوا ما فيه الخير لهما بالرضا فيحفظا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه .

ونكاح المتعة (وهو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر) كان مرخصا فيه في بدء الإسلام وأباحه النبي لأصحابه في بعض الغزوات لبعدهم عن نسائهم فرخص فيه مرة أو مرتين خوفا من الزنا فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، ثم نهى عنه نهيا مؤبدا ، لأن التمتع به لا يكون مقصده الإحصان ، وإنما يكون مقصده المسافحة ، وللأحاديث المصرحة بتحريمه تحريما مؤبدا إلى يوم القيامة ولنهي عمر في خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر وإقرار الصحابة له على ذلك .

ومنع نكاح المتعة يقتضى منع النكاح بنية الطلاق ، ولكن الفقهاء أجازوه إذا نواه الرجل ولم يشترطه في العقد ، وإن كان كتمانها يعد خداعا وغشا وعبثا بهذه الرابطة العظيمة التي هي أعظم الروابط البشرية وإيثارا للتنقل في مراتع الشهوات ، إلى ما يترتب على ذلك من العداوة والبغضاء وذهاب الثقة بين الزوجين حتى بالصادقين الذين يريدون بالزواج الإحصان والتعاون على تأسيس البيت الصالح والعيشة السعيدة . (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيما نكح من فتياتكم المؤمنات) المحصنات هنا الحرائر خاصة بدليل مقابلتها بالإماء ، والحرية كانت عندهم داعية الإحصان ، كما كان البغاء من شأن الإماء ، ومن ثم قالت هند للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعجب أو تزني الحرة ؟ وعبر عن الإماء بالفتيات

تكريما لمن وإرشادا لنا إلى ألا ننادى بالعبد والأمة بل بلفظ الفتى والفتاة ، وقد روى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم عبدى أمتى ، ولا يقل المملوك ربى ليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى ، فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل » .

والمعنى — ومن لم يستطع منكم طولا فى المآل أو الحال نكاح المحصنات اللواتى أحل لكم أن تبتغوا نكاحهن بأموالكم وتقصدوا بنكاحهن الإحصان لمن ولأنفسكم فلينكح أمة من الإماء المؤمنات ، والطول (هو السعة المعنوية أو المادية) يختلف باختلاف الأشخاص فقد يعجز الرجل عن الزواج بحرة وهو ذو مال يقدر به على المهر لنفور النساء منه لعييب فى خلقه أو خلقه ، وقد يعجز عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة فإن لها حقوقا كثيرة من النفقة والمساواة وغير ذلك وليس للأمة مثل هذه الحقوق .

وقد قدر الحنفية المهر بدرام معدودة ، فقال بعضهم : ربع دينار ، وقال بعضهم : عشرة دراهم .

وليس فى الكتاب ولا فى السنة ما يؤيد هذا التحديد ، فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن يريد الزواج « التمس ولو خاتما من حديد » وروى أن بعض المسلمين تزوج امرأة وجعل المهر تعليمها شيئا من القرآن .

(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) أى فأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمان بعضكم من بعض كما قال :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فلا ينبغى أن تعدوا نكاح الأمة عارا عند الحاجة إليه ، وفى هذا إشارة إلى أن الله قد رفع شأن الفتيات المؤمنات وسأوى بينهن وبين الحرائر ، وهو العلم بحقيقة هذا الإيمان ودرجة قوته وكاله ، فرب أمة أكل إيمانا من حرة فتكون أفضل منها عند الله « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ » .

(فانكحوهن بإذن أهلهن) الأهل هنا الموالى المالكون لمن أى فإذا أحببتم نكاحهن وورغبتن فيه ، لأن الإيمان قد رفع من قدرهن فانكحوهن بإذن مواليهن . وقال بعض الفقهاء المراد من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج ولو غير المالكين كالأب أو الجد أو القاضى أو الوصى إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم .

(وآتوهن أجورهن) أى وأدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ، إذ أن المهر هو حق المولى لأنه بدل عن حقه فى إباحة الاستمتاع بها ، وقال مالك : المهر حق للزوجة على الزوج وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاهها ، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه لأن المهر حق للزوجة تصلح به شأنها ويكون تطيبها لنفسها فى مقابلة رياسة الزوج عليها ، وسيد الأمة مخير بين أن يأخذها منها بحق الملك ، أو يتركها لها لتصلح به شأنها وهو الأفضل والأكمل .

ومعنى قوله: (بالمعروف) أى بالمعروف بينكم فى حسن التعامل ومهر المثل وإذن الأهل . (محضات غير مسالخات ولا متخذات أخذان) أى أعطوهن أجورهن حال كونهن متزوجات منكم لامستأجرات للبغاء جهراً وهن المسالخات ، ولا سراً وهن متخذات الأخدان والأصحاب .

وقد كان الزنا فى الجاهلية قسمين سرى وعلنى : فالسرى يكون خاصاً فيكون للمرأة خدن يزنى بها سراً ولا تبدل نفسها لكل أحد ، والعلنى يكون عاماً وهو المراد بالسفاح قاله ابن عباس .

وكان البغايا من الإماء ينصبهن الرايات الحجر لتعرف منازلهن ولا تزال هذه العادة متبعة إلى الآن فى بلاد السودان ، فتوجد بيوت خاصة لشراب الذرة (المريسة) وفيها البغاء العلنى .

وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يجرمون ما ظهر من الزنا ويقولون إنه لؤم ويستحلون ما خفى ويقولون إنه لا بأس به ، وقد نزل فى تحريم هذين النوعين قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ » .

وهذان النوعان فاشيان الآن فى بلاد الإفرنج والبلاد التى تقلدهم فى شروهم كصر وآستانة وبعض بلاد الهند .

وقصارى القول أن الله فرض فى نكاح الإمام مثل ما فرض فى نكاح الحرائر من الإحصان والعفة لكل من الزوجين ، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح فى نكاح الحرائر من قبل الرجال أولاً وبالذات فقال (محصنين غير مسالحين) لأن الحرائر ولا سيما الأبقار أبعد من الرجال عن الفاحشة وأقل انقيادا لطاعة الشهوة ، إلى أن الرجال هم الطالبون للنساء والقوامون عليهن .

وجعل قيد الإحصان فى جانب الإمام فاشتراط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة مصونة فى السر والجهر فقال (محصنات غير مسالحات ولا متخذات أخذان) وذلك أن الزنا كان غالباً فى الجاهلية على الإمام وكانوا يشترطونهم للاكتساب ببعائهم حتى إن عبد الله بن أبى كان يكره إماءه على البغاء يعد أن أسلمن فنزل فى ذلك « وَلَا تُكْرَهُهُوَ فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

إلى أنهم لذمّن وضعف نفوسهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى ، فنفسهن لم تمرن على الاختصاص برجل واحد يرى لمن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن فى الحياة الزوجية التى هى من شؤون الفطرة .

(فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) أى إن الإمام إذا زنى بعد إحصانهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات وهن الحرائر إذا زنى ، وهذا العقاب ما بينه الله تعالى بقوله « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة وتجلد الحرة مائة .

والسرفى هذا ما قدمناه فيما سلف وهو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة ، والأمة ضعيفة عن مقاومتها فرحم الله ضعفها وخفف العقاب عنها ، وقد قيدوا المحصنات

هنا بكونهن أباكرا لأن من تزوجت تسمى محصنة بالزواج وإن آمت بطلاق أو بموت زوجها وحينئذ ترحم بالحجارة إذا زنت .

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر رضى الله عنه: أن الرجم فى كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم برجم ما عز الأسمى والغامدية لاعترافهما بالزنا لكنه أرجأ المرأة حتى وضعت وأرضعت وفطمت ولدها رواه مسلم وأبو داود .

(ذلك لمن خشى العنت منكم) أى ذلك الذى ذكر لكم من إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحر أو جائر لمن خشى عليه الضرر من مقاومة دواعى الفطرة والتزام الإحسان والعفة ، ففى كثير من الأحيان تقضى هذه المقاومة إلى أعراض عصبية وغير عصبية إذا طال العهد على مقاومتها كما أثبت ذلك الطب الحديث .

(وأن تصبروا خير لكم) أى وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم من نكاحهن لما فى ذلك من تربية قوة الإرادة وتنمية ملكة العفة وتغليب العقل على عاطفة الهوى ومن عدم تعريض الولد للرقّ وخوف فساد أخلاقه بإرثه منها المهانة والذلة إذهى بمنزلة المتاع والحيوان فر بما ورث شيئا من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه ، وإذا نكح الحر الأمة فقد أرقّ نصفه ، ورحم الله القائل .

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

وسر هذا ما شرحناه من قبل من أن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى كل منهما نصفها فهما شخصان صورة ، واحد اعتبارا بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة ، ومن ثم ساع أن يطلق على كل منهما لفظ (زوج) لا تحاده بالآخر وإن كان فردا فى ذاته ومستقلا فى شخصه .

(والله غفور رحيم) فهو غفار لمن صدرت منه الهفوات كاحتقار الإماء المؤمنات والظعن فيهن عند الحديث فى نكاحهن وعدم الصبر على معاشرتهن بالمعروف وسوء

الظن بهن ، رحيم بعباده إذ رخص لهم فيما رخص فيه ببيان أحكام شريعته ،
فلا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ
عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب ، ذكر هنا
علما وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التي يشرعها
للعباد ببيان العلل والأسباب ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب وسكون للنفوس ، لتعلم
مغبة ما هي مقدمة عليه من الأعمال ، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال ، حتى تقبل
عليها وهي مثلجة الصدور عالمة بأن لها فيها سعادة في دنياها وأخرها ، ولا تكون
في عماية من أمرها فنتيه في أودية الضلالة وتسير قدما لالإلى غاية .

الإيضاح

(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) جاءت هذه الآيات
كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام ، فيطوف بخاطره
أن يسأل - ما الحكمة في هذه الأحكام وما فائدتها للعباد ، وهل من كان قبلنا من
الأمم السالفة كلف بمثلها فلم يبيح لهم أن يتزوجوا كل امرأة ، وهل كان ما أمرنا به
ونہانا عنه تشديدا علينا أو تخفيفا عنا ؟ .

والمعنى يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين لتتقنوا آثارهم وتسيروا سيرتهم ، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان كما قال « **وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** » فهي متفقة في مراعاة المصالح العامة للبشر ، فروح الديانات جميعا توحيد الله وعبادته والخضوع له على صور مختلفة ، ومآل ذلك تركية النفس بالأعمال التي تقوم بها وتهذيب الأخلاق لتبعد عن سيء الأفعال والأقوال .

(ويتوب عليكم) أى ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين راجعين عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة التي كان فيها انحراف عن سنن الفطرة إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم وتقطعون أرحامكم ولا تلتفتون إلى المعاني السامية التي في الزوجية من تقوية روابط النسب وتجديد قرابة الصهر والسعادة التي تتلج قلوب الزوجين والمودة والرحمة التي تعمر نفوسهما .

(والله عليم حكيم) فيعلمه المحيط بما في الأكوان شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم وبما فيه الأذى والضرر لكم وبها يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

(والله يريد أن يتوب عليكم) أى إنه تعالى بما كلفكم به من تلك الشرائع يريد أن يطهركم ويركي نفوسكم فيتوب عليكم .

(ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم وينهمكون فيها ، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها ، فلا يبألون بما قطعوا من وشائج الأرحام ، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة ، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة ، أما الذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره لا اتباع شهواتهم ولا الجري وراء لذاتهم .

(يريد الله أن يخفف عنكم) فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء قاله مجاهد وطاوس ، وقيل بل خفف عنكم التكاليف كلها ولم يجعل في الدين من حرج فشريعتكم هي الحنيفية السمحة كما ورد في الحديث .

(وخلق الانسان ضعيفا) يستميله الهوى والشهوات ويستشيطه الخوف والحزن ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء ولا يقوى على الضيق عليه في الاستمتاع بهن . وقد رحم الله عباده فلم يحرم عليهم منهن إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة وضرر كبير ، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء ويغروهن بالأموال ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها ، وإنه لفرّ جاهل أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواه ؟ قلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته في الفسق والفجور ، وفي الحديث « عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » رواه الطبراني من حديث جابر .

وقد بلغ الفسق في هذا الزمن حدا صار الناس يظنونونه من الكياسة ، وزالت غيرتهم ، وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقياداتهم ، فوهت الروابط الزوجية ، ونخر السوس في سعادة البيوت ، ووجدت الرذيلة لها مرتعا خصيبا في أجواء الأسر ، حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله ، وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، وعد هذه الآيات الثلاث : يريد الله ليبين لكم إلى قوله وخلق الانسان ضعيفا ، والرابعة : إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، والخامسة : إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، والسادسة : ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحاما ، والسابعة : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والثامنة : والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم الآية .

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد
وعدم دفع الأموال إلى السفهاء ثم بين وجوب دفع المهور للنساء وأنكر عليهم أخذها
بوجه من الوجوه ، ثم ذكر وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقرابهم إذا
حضرُوا القسمة ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل في الأموال تطهيراً للأنفس في جمع المال
لمحبوب لها فقال :

الإيضاح

(يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) الباطل من البطل
والبطلان وهو الضياع والخسار ، وفي الشرع أخذ المال بدون عوض حقيقى يعتد به
ولا رضا ممن يؤخذ منه ، أو إنفاقه في غير وجه حقيقى نافع ، فيدخل في ذلك
النصب والغش والخداع والربا والغبن وإنفاق المال في الوجوه المحرمة والإسراف
بوضع المال فيما لا يرضى به العقلاء .

وقوله يبينكم رمز إلى أن المال المحرم يكون عادة موضع التنازع في التعامل بين
الآكل والماكول منه كل منهما يريد جذب به إليه ، والمراد بالأكل الأخذ على
أى وجه ، وعبر عنه بالأكل لأنه أكثر أوجه استعمال المال وأقواها ، وأضاف
الأموال إلى الجميع ولم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض ، تنبيهاً إلى تكافل الأمة
في الحقوق والمصالح كأن مال كل واحد منها هو مال الأمة جميعها ، فإذا استباح أحدهم

أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أن يأكل ماله فالحياة قصاص ،
وتنبيهها إلى أن صاحب المال يجب عليه بذل شيء منه للمحتاج وعدم البخل عليه به ،
إذ هو كأنما أعطاه شيئا من ماله .

وبهذا قد وضع الإسلام قواعد عادلة للأموال لدى من يعتنق مبادئه وهى :

(١) أن مال الفرد مال الأمة مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها ،
فهو يوجب على ذى المال الكثير حقوقا معينة للمصالح العامة ، وعلى ذى المال القليل
حقوقا أخرى للبائسين وذوى الحاجات من سائر أصناف البشر ، ويحث على البر
والإحسان والصدقات فى جميع الأوقات .

وبهذا لا يوجد فى بلاد الإسلام مضطر إلى القوت أو عريان سواء أ كان مسلما
أم غير مسلم ، لأن الإسلام فرض على المسلمين إزالة ضرورة المضطر ، كما فرض
فى أموالهم حقوقا للفقراء والمساكين .

وكل فرد يقيم فى بلادهم يرى أن مال الأمة هو ماله ، فإذا اضطر إليه يجده
مذخوراً له ، كما جعل المال المفروض فى أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة
من الأمة حتى لا يمتعه من فى قلبه مرض ، وحثهم على البذل ورغبتهم فيه ، وذمهم
على البخل ووكل ذلك إلى أنفسهم ، لتقوى لديهم ملكة السخاء والمروءة والرحمة .
(٢) أنه لم يبيح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدي أربابه إلا بإذنتهم ،
حتى لا تنتشر البطالة والكسل بين أفراد الأمة ، وتوجد الفوضى فى الأموال ،
والضعف والتواني فى الأعمال ، ويدب الفساد فى الأخلاق والآداب .

ولو أقام المسلمون معالم دينهم ، وعملوا بشرائعهم ، لضربوا للناس الأمثال واستبان
لهم أنه خير شريعة أخرجت للناس ، ولأقاموا مدنية صحيحة فى هذا العصر يتأسى بها
كل من يريد سعادة الجماعات ، ولا يجعلها تنن تحت أثقال العوز والحاجة ، كما هو
حادث الآن من التنافر العام والنظر الشزر من العمال إلى أصحاب رؤوس الأموال
(إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) أى لا تكونوا من ذوى الأطماع الذين

يأكلون أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة ، ولكن كلوها بالتجارة التي قوام الحل فيها التراضي ، وذلك هو اللائق بأهل المروءة والدين إذا أرادوا أن يكونوا من أرباب الثراء .

وفي الآية إيماء إلى وجوه شتى من الفوائد :

(١) أن مدار حل التجارة على تراضي المتبايعين ، فالغش والكذب والتدليس فيها من المحرمات .

(٢) أن جميع ما في الدنيا من التجارة وما في معناها من قبيل الباطل الذي لابقاء له ولا ثبات ، فلا ينبغي أن يشغل العاقل عن الاستعداد للآخرة التي هي خير وأبقى .

(٣) الإشارة إلى أن معظم أنواع التجارة يدخل فيها الأكل بالباطل ، فإن تحديد قيمة الشيء وجعل ثمنه على قدره بالتسطاس المستقيم يكاد يكون مستحيلاً ، ومن ثم يجري التسامح فيها إذا كان أحد العوضين أكبر من الآخر ، أو إذا كان سبب الزيادة براءة التاجر في تزيين سلعته ، وترويحها بزخرف القول من غير غش ولا خداع ، فكثيراً ما يشتري الإنسان الشيء وهو يعلم أنه يمكنه شراؤه من موضع آخر بثمان أقل ، وما نشأ هذا إلا من خلافة التاجر وكياسته في تجارته ، فيكون هذا من باطل التجارة الحاصلة بالتراضي فيكون حلالاً .

والحكمة في إباحة ذلك ، الترغيب في التجارة ، لشدة حاجة الناس إليها ، والتنبيه إلى استعمال ما أوتوا من الذكاء والفتنة في اختيار الأشياء ، والتدقيق في المعاملة ، حفظاً للأموال حتى لا يذهب شيء منها بالباطل أي بدون منفعة تقابلها .

فإذا ما وجد في التجارة الربح الكثير بلا غش ولا تفرير ، بل بتراض من الطرفين لم يكن في هذا حرج ، ولولا ذلك ما رغب أحد في التجارة ، ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين ، على شدة حاجة العمران إليها ، وعدم الاستغناء عنها .

ولما كان المال عدل الروح وقد نهينا عن إتلافه بالباطل - نهينا عن إتلاف النفس ، لكون أكثر إتلافهم لها بالمغامرات لنهب الأموال وما كان متصلاً بها ، وربما أدى ذلك إلى الفتن التي ربما كان آخرها القتل ومن ثم قال :

(ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم بعضاً ، وعبر بذلك للمبالغة في الزجر ، وللإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها ، وقد جاء في الحديث « المؤمنون كالنفس الواحدة » ولأن قتل الإنسان لغيره يفضى إلى قتله قصاصاً أو ثأراً ، فكأنه قتل نفسه .

وبهذا علمنا القرآن أن جناية الإنسان على غيره جناية على نفسه ، وجناية على البشر جميعاً ، لا على المتصلين به برابطة الدين أو الجنس أو السياسة كما قال تعالى :

« مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا »

كما أنه أرشدنا باحترام نفوس الناس بعدها كنفوسنا - إلى أن نحترم نفوسنا بالأولى فلا يباح بحال أن يقتل أحد نفسه ، ليستريح من الغم وشقاء الحياة ، فهما اشتدت المصائب بالمؤمن ، فعليه أن يصبر ويحتسب ولا ييأس من الفرج الإلهي ، ومن ثم لا يكثر بجمع النفس (الانتحار) إلا حيث يقل الإيمان وينشو الكفر والإلحاد .

(إن الله كان بكم رحيماً) أى إنه بنهيبكم عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتلكم أنفسكم كان رحيماً بكم ، إذ حفظ دماءكم كما حفظ أموالكم التي عليها قوام المصالح واستمرار المنافع ، وعلمكم أن تتراحموا وتتوادوا ويكون كل منكم عوناً للآخر ، يحافظ على ماله ويدافع عن نفسه ، إذا جد الجد ، ودعت الحاجة إلى الدفاع عنه .

(ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً) العدوان هو التعدي على الحق ، وهو يتعلق بالقصد بأن يتعمد الفاعل الفعل وهو عالم أنه قد تعدى الحق وجاوزه إلى الباطل ، والظلم يتعلق بالفعل نفسه ، بالأى يتجرى الفاعل عمل ما يحل ، فيفعل ما لا يحل ، والوعيد مقرون بالأمرين معا ، فلا بد من قصد الفاعل العدوان ، وأن يكون فعله ظلماً حقاً ، فإذا وجد أحدهما دون الآخر لم يستحق الفاعل هذا التهديد الشديد ، فإذا قتل الإنسان رجلاً كان قد قتل أباه أو ابنه ، فهنا قد وجد العدوان

ولم يوجد الظلم، وإذا سلب امرؤ مال آخر ظانا أنه ماله الذي كان قد سرقه أو اغتصبه ثم تبين له أن المال ليس ماله ، وأن هذا الرجل لم يكن هو الذي أخذ ماله ، فها هنا قد وجد الظلم دون العدوان .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الإصلاء فى النار يسيرا على الله ، هينا لا يمنعه منه مانع ، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع ، فلا يفترون الظالمون المعتدون بحمله عليهم فى الدنيا، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فيظنوا أنهم بمنجاة من عقابه فى الآخرة، ولا يكونون كأولئك المشركين الذين قالوا «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» .

إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَهَوَّنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

شرح المفردات

الاجتناب ترك الشئ جانبا ، والكبائر واحدها كبيرة وهى المعصية العظيمة ، والسيئات واحدها سيئة وهى الفعلة التى تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا ، والمراد بها هنا الصغيرة ، ونكفر نغفر ونمحو ، ومدخلا كريما أى مكانا كريما وهو الجنة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن قتل النفس ، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد ، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات — نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها ، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ، ووعد من تركها بالمدخل الكريم .

الإيضاح

(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) أى إن تتركوا جانباً كبائر ما ينهاناكم الله عن ارتكابه من الذنوب والآثام نمنح عنكم صفاتها فلا نؤاخذكم بها .

وقد اختلف في عدد الكبائر ف قيل هي سبع لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربوا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » وفي رواية لهما عن أبي بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس وقال — ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » .

وفيها أيضاً من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

والأحاديث الصحيحة مختلفة في عددها ، ومجموعها يزيد على سبع ، ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع ، قال هي إلى سبعين أقرب ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ، ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطه غضب أو ثورة شهوة ، وصاحبه متمكن من دينه ، يخاف الله ولا يستحل محارمه ، فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى ، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجتريه تهاونا بالدين ، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله ، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه ، ويكفر عنه .

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه ، ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيراً في صورته ، أو في ضرره ، يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده ، والهمز واللمز (عيب الناس والظعن في أعراضهم) لمن تعودته - كل ذلك كبيرة ولا شك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر في كل مقام ما تمس إليه الحاجة ، ولم يرد الحصر والتحديد .

وقال بعض العلماء : الكبيرة كل ذنب رتب عليه الشارع حداً أو صرح فيه بوعيد .

(وندخلكم مدخلا كريماً) أى وندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تقول أرض كريمة ، وأرض مكرومة أى طيبة جيدة النبات قال تعالى : « فَأَخْرَجْنَا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢)

شرح المفردات

التمنى تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون ، من فضله أى إحسانه ونعمه المتكررة :

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن القتل ، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور ، وهما من أفعال الجوارح ، ليصير الظاهر ظاهرا عن المعاصى الوخيمة العاقبة - نهى عن التمنى وهو التعرض لها بالقلب حسدا ، لتطهر أعمالهم الباطنة ، فيكون الباطن موافقا للظاهر ، ولأن التمنى قد يجر إلى الأكل ، والأكل قد يقود إلى القتل ، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

الإيضاح

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى إن الله كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا ، فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركون فيه النساء ، وما كان خاصا بالنساء لمن نصيب من أجره لا يشاركون فيه الرجال ، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر ، وقد أراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت ، والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها ليتقن كل منهما عمله ، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص . وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة والقوة على ما نيظ به من عمل ، ولا يجوز أن يتمنى ما نيظ بالآخر ، ويدخل فى هذا النهى تمنى كل ما هو من الأمور الخلقية كالعقل والجمال ، إذ لا فائدة فى تمنى لمن لم يعطها ، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية ، إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون ، ويتمنوا لأنفسهم مثله وخيرا منه بالسعى والجد .

والخلاصة - أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار إلى ما يقع تحت كسبنا ، ولا نوجهها إلى ما ليس فى استطاعتنا ، فإما الفضل بالأعمال الكسبية ، فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم ، قاله الأستاذ الإمام بتصرف .

فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه ، وقواه فى كل مطالبه ، بالجد والاجتهاد ، مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه ، إما للجهل به ، وإما للعجز عنه ، فالزارع يجتهد فى زراعته ، ويتبع السنن والأسباب التى سنها الله لعمله ، ويسأل الله أن يمنع الآفات والجوائح عنه ، ويرفع أثمان غلاته إلى نحو أولئك مما هو بيد الله .
روى عكرمة أن النساء سألن الجهاد فقلن : وددنا أن الله جعل لنا الغزو ، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال فنزلت .

(واسألوا الله من فضله) أى لا تتمنوا نصيب غيركم ، ولا تحسدوا من فضل عليكم ، واسألوا الله من إحسانه وإنعامه ، فإن خزائنه مملوءة لا تنفد ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سلوا الله من فضله ، فالله يحب أن يسأل ، وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج » .

(إن الله كان بكل شىء علما) وبذا فضل بعض الناس على بعض على حسب مراتب استعدادهم ، وتفاوت اجتهادهم فى معترك الحياة ، ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى حتى بلغ التفاوت بين الناس فى الفضل حدا بعيدا ، وكاد التفاوت بين الشعوب يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان .

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ
أَيْمَانَكُمْ ، فَأَتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

شرح المفردات

الموالى من يحق لهم الاستيلاء على التركة ، مما ترك أى وارثين مما ترك ، والذين عقدت أيمانكم هم الأزواج ، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد ، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين قاله أبو مسلم الاصفهاني .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره من المال ، حتى لا يسوقه التمنى إلى التعدى ، وهو وإن كان نهيا عاما فالسياق يعين المراد منه وهو المال ، لأن أكثر التمنى يتعلق به ، ثم ذكر القاعدة العامة فى حيازة الثروة وهى الكسب - انتقل إلى نوع آخر أتى به الحيازة وهو الإرث .

الإيضاح

(ولكل جعلنا موالى مما ترك) أى إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا ، ومن النساء اللواتى هن نصيب مما اكتسبن ، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم .

ثم بين هؤلاء الموالى فقال :

(الولدان والأقربون والذين عقدت إيمانكم) أى إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج .

(فآبؤهم نصيبهم) أى فأعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ولا تنقصوه

منه شيئا .

(إن الله كان على كل شىء شهيدا) أى إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها ، فلا يطمعن من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئا ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، كبيرا أم صغيرا .

وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين فى بعض .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّاحِبَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ

اللَّهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
وَأَضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا
مِنْ أَهْلَيْهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرًا (٣٥)

شرح المفردات

يقال هذا قيم المرأة وقوامها إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها ، وما به الفضل
قسمان : فطرى وهو قوة مزاج الرجل وكاله في الخلقة ، ويتبع ذلك قوة العقل وصحة
النظر في مبادئ الأمور وغاياتها ، وكسبي وهو قدرته على الكسب والتصرف في
الأمور ، ومن ثم كلف الرجال بالإففاق على النساء والقيام برياسة المنزل ، والقنوت
السكون والطاعة لله وللأزواج ، والحافظات للغيب أى اللاتى يحفظن ما يغيب عن
الناس ، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة ، وتخافون أى تظنون ، ونشرت الأرض
ارتفعت عما حوالها ، ويراد بها هنا معصية الزوج والترفع عليه ، والبغى الظلم وتجاوز
الحد ، والشقاق الخلاف الذى يجعل كلاما من المختلفين فى شق أى جانب ، وخوفه
توقع حصوله بظهور أسبابه ، والحكم من له حق الحكم والفصل بين الخصمين
وبعث الحكامين إرسالهما إلى الزوجين لينظرا فى شكوى كل منهما ويتعرفا ما يرجى
أن يصلح بينهما .

المعنى الجملى

لما نهى الله تعالى كلاما من الرجال والنساء عن تمتى ما فضل الله به بعضهم على
بعض وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم ، وأمرهم أن يؤتوا الوارثين

أنصبتهم ، وفي هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء - ذكر هنا أسباب التفضيل .

الإيضاح

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) أى إن من شأن الرجال أن يقوموا على النساء بالحماية والرعاية ، وتبع هذا فرض الجهاد عليهم دونهن ، لأن ذلك من أخص شؤون الحماية ، وجعل حظهم من الميراث أكثر من حظهن ، لأن عليهم من النفقة ما ليس عليهن .

وسبب هذا أن الله فضل الرجال على النساء فى الخلقة ، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة ، كما فضلهم بالقدرة على الإنفاق على النساء من أموالهم ، فإن فى المهور تعويضا للنساء ومكافأة لهن على الدخول تحت رياسة الرجال وقبول القيامة عليهن ، نظير عوض مالى يأخذونه كما قال تعالى : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

والمراد بالقيام الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادة الرئيس واختياره ، إذ لا معنى للقيام إلا الإرشاد والمراقبة فى تنفيذ ما يرشد إليه ، وملاحظة أعماله ، ومن ذلك حفظ المنزل وعدم مفارقتها إلا بإذنه ولو لزيارة القربى ، وتقدير النفقة فيه ، فهو الذى يقدرها على حسب ميسرته ، والمرأة هى التى تنفذ على الوجه الذى يرضيه ، ويناسب حاله سعة وضيقا .

ولقيام الرجل بحماية المرأة وكفائها مختلف شؤونها ، يمكنها أن تقوم بوظيفتها الفطرية وهى الحمل والولادة وتربية الأطفال وهى آمنة فى سربها ، مكفية ما يهملها من أمور أرزاقها .

ثم فصل حال النساء فى الحياة المنزلية التى تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل فذكر أنها قسيان ، وأشار إلى معاملتها فى كل حال منهما فقال :

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) أى فالنساء الصالحات مطيعات للأزواج حافظات لما يجرى بينهن وبينهم فى الخلوة من الرفث والشئون الخاصة بالزوجية ، لا يطلعن أحدا عليها ولو قريبا ، وبالأولى يحفظن العرض من يد تلمس ، أو عين تبصر ، أو أذن تسمع .

وقوله : بما حفظ الله ، أى بسبب أمر الله بحفظه ، فهن يعطنه ويعصين الهوى . وفى الآية أكبر عظة وزجر لمن تتفكك من النساء بإفشاء الأسرار الزوجية ولا تحفظ الغيب فيها .

وكذلك عليهن أن يحفظن أموال الرجال وما يتصل بها من الضياع ، روى ابن جرير والبيهقي عن أبى هريرة قال « خير النساء التى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها ، وقرأ الآية » وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان التأديب ، إذ لا يوجد ما يدعو إليه ، وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى ذكره الله وذكر حكمه بقوله :

(واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واحجروهن فى المضاجع واضربوهن) أى واللاتى تأنسون منهن الترفع وتخافون الأيقن بمقوق الزوجية على الوجه الذى ترضونه ، فعليكم أن تعاملوهن على النهج الآتى :

(١) أن تبدءوا بالوعظ الذى ترون أنه يؤثر فى نفوسهن ، فن النساء من يكفيها التذكير بعقاب الله وغضبه ، ومنهن من يؤثر فى أنفسهن التهديد والتحذير من سوء العاقبة فى الدنيا كشماتة الأعداء ، ومنعها بعض رغباتها كالثياب والحلى ونحو ذلك ، وعلى الجملة فاللييب لا تخفى عليه العظاى التى لها الحل الأرفع فى قلب امرأته .
فإن لم يُجد ذلك فله أن يحرب :

(٢) الهجر والإعراض فى المضجع ، ويتحقق ذلك بهجرها فى الفراش مع الإعراض والصد (وقد جرت العادة بأن الاجتماع فى المضجع يهيج شعور الزوجية ،

فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول ما كان في نفوسهما من اضطراب
أثارته الحوادث قبل ذلك) .

فإذا هو فعل ذلك دعاها هذا إلى السؤال عن أسباب الهجر والهبوط بها من
نشر المخالفة إلى مستوى الموافقة ، فإن لم يفد ذلك فله أن يجرب :

(٣) الضرب غير المبرح أى غير المؤذى إيذاء شديدا كالضرب باليد

أو بعصا صغيرة .

وقد روى عن مقاتل فى سبب نزول الآية — أن سعد بن الربيع وكان من
النقباء نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فطمها فانطلق أبوها معها
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفرشته كريمتى فطمها ، فقال النبي صلى الله عليه
وسلم « لتقتص من زوجها ، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : ارجعوا ، هذا جبرائيل أتانى وأنزل الله هذه الآية فتلاها صلى الله عليه وسلم
وقال : أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذي أراده الله خير » .

وقد يستعظم بعض من قلد الإفرنج من المسلمين مشروعية ضرب المرأة الناشز
ولا يستعظمون أن تنشر وتترفع هى عليه فتجعله وهو الرئيس مرءوسا محتقرا وتصر
على نشوزها فلا تلين لوعظله ونصحه ولا تبالى بإعراضه وهجره ، فإن كان قد ثقل ذلك
عليهم فليعلموا أن الإفرنج أنفسهم يضربون نساءهم العالمات المهذبات ، بل فعل هذا
حكماؤهم وعلماءهم وملوكهم وأمراؤهم ، فهو ضرورة لا يستغنى عنها ولا سيما فى دين عام
للبدو والحضر من جميع أصناف البشر ، وكيف يستنكر هذا والعقل والفطرة يدعوان
إليه إذا فسدت البيئة وغلبت الأخلاق الفاسدة ، ولم ير الرجل مناصا منه ولا ترجع
المرأة عن نشوزها إلا به .

لكن إذا صلحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة ، أو يزدجرن بالهجر
وجب الاستغناء عنه ، إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن ، وإمساكهن
بمعروف أو تسريحهن بمعروف .

والأخبار التي وردت في الوصية بالنساء كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن زَمْعَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَيْضْرِبُ أَحَدَكُمْ أَمْرَاتِهِ كَمَا يُضْرِبُ الْعَبْدُ ثُمَّ يَضَاجِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ » يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِدَلِّ الرَّجُلِ مِنْ هَذَا الْإِتِّصَالِ الْخَاصِّ بِأَمْرَاتِهِ ، وَهُوَ أَقْوَى وَأَحْكَمُ اجْتِمَاعٍ يَكُونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ وَقَدْ قَضَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِهِ بَعْدَئِذٍ أَنْ يُجْعَلَ أَمْرَاتُهُ وَهِيَ كِنْفِيسِهِ مَبِينَةٌ كَمَهَانَةِ عَبْدِهِ يُضْرِبُهَا بِسُوطِهِ أَوْ بِيَدِهِ ، فَالرَّجُلُ الْكَرِيمُ يَأْبَى عَلَيْهِ طَبْعُهُ مِثْلَ هَذَا الْجَفَاءِ .

وَالْخُلَاصَةُ — أَنْ الضَّرْبَ عِلَاجٌ مَرَّةً قَدْ يَسْتَفْنِي عَنْهُ الْخَيْرُ الْكَرِيمُ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَزُولُ مِنَ الْبُيُوتِ إِلَّا إِذَا عَمَّ التَّهْذِيبُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَعَرَفَ كُلُّ مَالِهِ مِنَ الْحَقُوقِ وَكَانَ لِلدِّينِ سُلْطَانٌ عَلَى النُّفُوسِ يُجْعَلُهَا تَرَاقِبَ اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ وَتُخَشَى أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ (فَإِنْ أَطْعَمَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) أَيْ إِنْ أَطْعَمَكُمْ بِوَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخُلُصَالِ التَّأْدِيبِيَّةِ فَلَا تَبْغُوا وَلَا تَتَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهَا ، فَابْدِءُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ مِنَ الْوَعْظِ ، فَإِنْ لَمْ يُجِدْ فَبِالْهَجْرِ ، فَإِنْ لَمْ يَفِدْ فَبِالضَّرْبِ ، فَإِذَا لَمْ يَفِغْ فَلْيَلْجَأْ إِلَى التَّحْكِيمِ ، وَمَتَى اسْتَقَامَ لَكُمْ الظَّاهِرُ فَلَا تَبْحَثُوا عَمَّا فِي السَّرَائِرِ .

(إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ يَظْلِمُ النِّسَاءَ وَيَبْغِي عَلَيْهِنَّ ، فَاللَّهُ يَذْكَرُ عِبَادَهُ بِقُدْرَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ عَلَيْهِمْ لِيَتَعَطَّلُوا وَيُخْشَوْهُ فِي مَعَامَلَتِهِمْ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ إِنْ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ فَوْقَ سُلْطَانِكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَإِذَا بَغَيْتُمْ عَلَيْهِنَّ عَاقِبَتِكُمْ وَإِنْ تَجَاوَزْتُمْ عَنْ هَفْوَاتِهِنَّ كَرَّمَا تَجَاوَزَ عَنْكُمْ وَكَفَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ .

وَلَيْسَ بِخَافٍ أَنْ الرِّجَالَ الَّذِينَ يَسْتَذِلُّونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّمَا يَلِدُونَ عِبِيدًا لغيرهم ، إِذْ هُمْ يَتْرَبُونَ عَلَى الظُّلْمِ وَيَسْتَسِيغُونَهُ وَلَا يَكُونُ فِي نَفْسِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْكِرَامَةِ وَلَا مِنَ الشَّمِّ وَالْإِبَاءِ ، وَأُمَّةٌ تَخْرُجُ أَبْنَاءَ كَهَوْلَاءَ إِنَّمَا تَرَبَّى عِبِيدًا أَذْلَاءَ لَا يَقُومُونَ بِنُصْرَةِ أُمَّةٍ وَلَا يَغَارُونَ لِكِرَامَةِ ، فَمَا أَحْرَاهُمْ أَنْ يَكُونُوا قِطْعَانًا مِنَ الْغَنَمِ تَزْدَجِرُ مِنْ كُلِّ رَاعٍ وَتَسْتَجِيبُ لِكُلِّ نَاعِقٍ ! .

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما) هذا الخطاب عام يدخل فيه الزوجان وأقاربهما ، فإن قاموا بذلك ، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات بينهما ، والخلاف بينهما قد يكون بنشوز المرأة ، وقد يكون بظلم الرجل ، فإن كان بالأول فعلى الرجل أن يعالجه بأقرب أنواع التأديب التي ذكرت في الآية التي سلفت ، وإن كان بالثاني وخيف من تهادى الرجل في ظلمه أو عجز عن إنزالها عن نشوزها وخيف أن يحول الشقاق بينهما دون إقامتها لأركان الزوجية الثلاث : من السكون والمودة والرحمة ، وجب على الزوجين وذوى القربى أن يبعثوا الحكيم ، وعليهم أن يوجهوا إرادتهم إلى إصلاح ذات البين ، ومتى صدقت الإرادة وصحت العزيمة فالله كفيل بالتوفيق بفضله وجوده .

وبهذا تعلم شدة عناية الله بأحكام نظام الأسر والبيوت وكيف لم يذكر مقابل التوفيق وهو التفريق لأنه يبغضه ولأنه يود أن يشعر المسلمين بأنه لا ينبغي أن يقع . ولكن وأسف لم يعمل المسلمون بهذه الوصية الجليلة إلا قليلا حتى دب الفساد في البيوت ونخر فيها سوس العداوة والبغضاء ففتك بالأخلاق والآداب وسرى من الوالدين إلى الأولاد .

(إن الله كان عليما خبيرا) أى إن هذه الأحكام التي شرعت لكم كانت من لدن عليم بأحوال العباد وأخلاقهم ، خبير بما يقع بينهم وأسبابه ما ظهر منها وما بطن ولا يخفى عليه شيء من وسائل الإصلاح بينهما .

وفي الآية إرشاد إلى أن ما يقع بين الزوجين من خلاف وإن ظن أنه مستعص يتعذر علاجه فقد يكون في الواقع على غير ذلك من أسباب عارضة يسهل على الحكيم الخبيرين بدخائل الزوجين لقربهما منهما أن يحصا ما علق من أسبابه بقلوبهما فيزيلها متى حسنت النية وصحت العزيمة ، ولتعلم أيها المؤمن أن رابطة الزوجية أقوى الروابط التي تربط بين اثنين من البشر ، فيها يشعر كل من الزوجين

بشركة مادية ومعنوية ، بها يؤاخذ كل منهما شريكه على أدق الأمور وأصغرها ، فيحاسبه على فلتات اللسان ، وبالظنة والوهم ، وخفايا خلجات القلب ، فيغير بهما ذلك بالتنازع في كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما ، وما أكثرها وأعسر التوفى منها ، وكثيرا ما يفضى التنازع إلى التقاطع ، والعتاب إلى الكره والبغضاء ، فعليك أن تكون حكيما في معاملة الزوجة ، خبيرا بطباعها ، وبذا تحسن العشرة بينكما .

وقد صرح علماء الاجتماع بأن السعادة الزوجية قلما تمتع بها زوجان ، وإن كانت أمنية كل الأزواج ، ومن ثم اكتفوا بالمودة العملية ، واجتهدوا في تربية رجالهم ونسائهم على الاحترام المتبادل جهد المستطاع .

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
مُخْتَلًا فُخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ
يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلِمْتُمْ لَوِ اتَّعَمُوا بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

شرح المفردات

عبادة الله الخضوع له والاستشعار بتعظيمه في السر والعلن بالقلب والجوارح ، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته إذ لا يقبل عملا بدونها ، والإحسان إلى الوالدين

قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما والسعى في تحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر
الاستطاعة وعدم الخشونة في الكلام معهما ، وذى القربى صاحب القرابة من أخ
وعمّ وخال وأولاد هؤلاء ، والجار ذى القربى هو الجار القريب الجوار ، والجار الجنب
هو البعيد القرابة ، والصاحب بالجنب الرفيق في السفر أو المنقطع إليك الراجى نفعك
ورفدك ، وابن السبيل هو المسافر أو الضيف ، ما ملكت أيماكم عبيدكم وإماؤكم ،
والختال ذو الخيلاء والكبر ، والفخور الذى يعدد محاسنه تعالما وتكبيرا ، أعتدنا :
هيأنا وأعددنا ، والمهين ذو الإهانة والذلة ، رثاء الناس أى للعراة والفخر بما فعل ،
والقرين الصاحب والخليل ، وماذا عليهم أى أى ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة في وصايا ونصائح كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم
أموالهم ، والنهى عن إيتاء الأموال للسفهاء ، وعن قتل النفس ، والإرشاد إلى كيفية
معاملة النساء ، وطرق تأديبهن تارة بالموعظة الحسنة وأخرى بالقسوة والشدة مع
مراقبة الله عز وجل في كل ذلك .

فناسب بعدئذ التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له في الطاعة ، وحسن
معاملة الطوائف المختلفة من الناس وعدم الظن عليهم بالمال في أوقات الشدة ، مع
قصد التقرب إلى الله لا لقصد الفخر والخيلاء ، لأن ذلك عمل من لا يرجو ثواب الله
ولا يخشى عقابه .

الإيضاح

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) عبادة الله هى الخضوع له وتمكين هيئته
وعظمته من النفس والخنوع لسلطانه في السر والجهر ، وأمارة ذلك العمل بما به أمر ،
وترك ما عنه نهى وبذا تصالح جميع الأعمال من أقوال وأفعال .

والعبادة هي الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب المعروفة يرجى خيرها ويخشى شرها ، وهذه السلطة لا تكون لغير الله فلا يرجى غيره ولا يخشى سواه ، فمن اعتقد أن غيره يَشْرَكُ كه فيها كان مشركا ، وإذا نهى الله عن إشراك غيره معه ، فلأن ينهى عن إنكار وجوده وجحد ألوهيته أولى .

والإشراك ضروب مختلفة :

منها ما ذكره الله عن مشركى العرب من عبادة الأصنام باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله يقربون المتوسل بهم إليه ويقضون الحاجات عنده ، وقد جاء ذكر هذا فى آيات كثيرة كقوله : « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ومنها ما ذكره عن النصارى من أنهم عبدوا المسيح عليه السلام ، قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

وأقوى أنواعه ما سماه الله دعاء واستشفاعا وهو التوسل بغيره له وتوسيطه بينه وبين الله ، ولا ينفع مع هذا صلاة ولا صوم ولا أى عبادة أخرى ، وقد فشا هذا النوع بين المسلمين فتراهم يستشفعون ويقولون (يا شيخ العرب — يا سيد يا بدوى يا سيدى إبراهيم الدسوقي) إلى غير ذلك .

ويعتذر بعض الناس لمثل هؤلاء وغاية ما تصل إليه المذرة أن يحولهم من شرك جلىّ واضح إلى شرك أقل منه وضوحا ولكنه شرك على كل حال .

وبعد أن أمر الله بعبادته وحده لا شريك له عقبه بالوصية بالوالدين فقال :

(وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا بهما ولا تنصروا فى شىء مما يطلبانه لأنهما

السبب الظاهر فى وجودكم وتربيتكم بالرحمة والإخلاص ، وقد فصلت هذه الوصية

في سورة الإسراء بقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْنِيَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَآئِينَ غَفُورًا »

والخلاصة — أن العبرة بما في نفس الولد من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه ، بشرط ألا يحدّ الوالدان من حرية الولد واستقلاله في شئونه الشخصية والمنزلية ولا في الأعمال الخاصة بدينه ووطنه فإذا أراد أحدهما الاستبداد في شيء من ذلك ، فليس من البر العمل برأيهما اتباعا لهوهما .

(وبذى القربى) أى أحسنوا معاملة أقرب الناس إليكم بعد الوالدين ، وإذا أدى المرء حقوق الله فصحت عقيدته وصلحت أعماله ، وقام بحقوق الوالدين ، صلح البيت وحسن حال الأسرة ، وإذا صلح البيت كان قوة كبيرة ، فإذا عاون أهله ذوى القربى الذين ينسبون إليهم كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة ، وبذا تتعاون الأمة جمعاء ، وتمتد يد المعونة لمن هو في حاجة إليها من ذكروا بعد في قوله : (واليتامى والمساكين) لأن اليتيم قد فقد الناصر والمعين وهو الأب ، وقلم استطيع الأم مهما اتسعت معارفها أن تقوم بتربيته تربية كاملة ، فعلى القادرين أن يعاونوا في تربيته ، وإلا كان وجوده جناية على الأمة لجهله وفساد أخلاقه ، وكان خطرا على من يعاشرون من لداته ، وجرثومة فساد بينهم .

وكذلك للمساكين لا ينتظم حال المجتمع إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم ، وإلا كانوا بالا عليه .

وهم ضربان مسكين معذور تجب مواساته ، وهو من كان سبب عدمه الضعف والعجز أو نزول آفات سماوية ذهبت بماله ، ومثل هذا يجب عونه بمساعدته بالمال الذى يسد عوزه ويستعين به على الكسب .

ومسكين غير معذور في تقصيره ، وهو من عدم المال بإسرافه وتبذيره ، ومثل هذا يبذل له النصح ويدل على طرق الكسب فإن اتعظ وقبل النصح فيها، وإلا ترك أمره إلى أولى الأمر فهم أولى بتقويم معوجّه وإصلاح ما فسد من أخلاقه .

(والجار ذى القربى والجار الجنب) الجوار ضرب من ضروب القرابة فهو قرب بالمكان والسكن ، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب ، فيحسن أن يتعاون الجاران ويكون بينهما الرحمة والإحسان ، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس ، وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار ولو غير مسلم فقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم ابن جاره اليهودى ، وذبح ابن عمر شاة فجعل يقول لغلامه : أهديت لجاننا اليهودى ، أهديت لجاننا اليهودى ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » .

وحدد الحسن البصرى الجوار بأربعين جارا من كل جانب من الجوانب الأربعة ، والأولى عدم التحديد بالدور وجعل الجار من تجاوره ويتراءى وجهك ووجهه في غدوك أو رواحك إلى دارك .

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام وزاده الإسلام توكيدا بما جاء في الكتاب والسنة ، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ودعوته إلى الطعام وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك .

(والصاحب بالجنب) روى عن ابن عباس أنه الرفيق في السفر والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك ، وقيل من صاحبتة وعرفته ولو وقتا قصيرا ، فيشمل صاحب الحاجة الذى يمشى بجانبك يستشيرك أو يستعين بك .

(وابن السبيل) هو السائح الرحالة في غرض صحيح غير محرم ، والأمر بالإحسان إليه يتضمن الترغيب في السياحة والإعانة عليها ، ويشمل التقيط أيضا وهو أجدر

بالعناية من اليتيم وأحق بالإحسان إليه ، وقد عنى الأور بيون بجمع اللقطاء وتربيتهم وتعليمهم ، ولولا ذلك لاستطار شرهم وعم ضرهم ، وقد كنا أحق بهذا الإحسان منهم لأن الله قد جعل في أموالنا حقا معلوما للسائل والمحروم .

(وما ملكت أيمانكم) أى أحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم ، ويشمل هذا تحريرهم وعتقهم وهو أتم الإحسان وأكمله ، ومساعدتهم على شراء أنفسهم دفعة واحدة أو نجوما وأقساطا ، وحسن معاملتهم فى الخدمة بألا يكلفوا ما لا يطيقون ولا يؤذون بقول ولا بفعل ، وقد روى الشيخان قوله صلى الله عليه وسلم « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم الوصية بهم فى مرض موته وكان ذلك من آخر وصاياه ، فقد روى أحمد والبيهقى من حديث أنس قال : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة وما ملكت أيمانكم » . وقد أوصانا سبحانه بهؤلاء حتى لا يظن أن استرقاقهم يميز امتيائهم ويجعلهم كالحيوانات المسخرة .

(إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) المختال هو المتكبر الذى تظهر آثار الكبر فى حركاته وأعماله ، والفخور هو المتكبر الذى تظهر آثار الكبر فى أقواله ، فتجده يذكر ما يرى أنه ممتاز به عن الناس زهوا بنفسه ، واحتقارا لغيره . والمختال الفخور مبغوض عند الله ، لأنه احتقر جميع الحقوق التى أوجبها للناس وأوجبها لنفسه من الشعور بعظمته وكبريائه ، فهو كالجاحد الصفات الألوهية التى لا تليق إلا لها .

فالمختال لا يقوم بعبادة ربه حق القيام ، لأن العبادة لا تكون إلا عن خشوع للقلب ، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا يقوم بحق الوالدين ولا ذوى القربى

لأنه لا يشعر بحق لغيره عليه ، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أو المسكين أو لجار قريب أو بعيد ، فهو لا يرجي منه برًّا ولا إحسان ، وإنما يتوقع منه إساءة وكفران ، ومن الكبر والخيلاء إطالة الثوب وجر الذيل بطرا ومرحا قال تعالى : « وَلَا تَمَسِّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

وليس من الكبر والخيلاء أن يكون المرء وقورا في غير غلظة ، عزيز النفس مع الأدب والرقّة .

روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس » بطر الحق رده استخفافا وترفعاً ، وغمص الناس احتقارهم والازدراء بهم .

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله)
روى ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس - كان جماعة من اليهود يأتون رجالا من الأنصار يتنصحوهم لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة ، فإنكم لا تدرون ما يكون ، فأنزل الله تعالى : (الذين يبخلون - إلى قوله وكان الله بهم عليما) .

والمراد بالبخل في الآية البخل بالإحسان الذي أمر به فيما تقدم فيشمل البخل بدين الكلام وإلقاء السلام والنصح في التعليم وإيقاظ المشرف على التهلكة ، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال وكتمان العلم .

(وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وهيانا لهؤلاء بكبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذابا يهينهم ويذلهم ، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة جزاء لهم على ما اقترفوا ، وسامهم الله كفارا للإيدان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور ، لا من المؤمن الشكور .

(والذين ينفقون أموالهم رياء الناس) الرئاء والرياء والمرءاة سواء ، أى إن مانعى الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان : فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم ، وفريق يبذل المال لا شكرا لله على نعمه ولا اعترافا لعباده بحق ، بل ينفقونها مرئين الناس أى يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم .

والكبرياء كما تكون من شىء فى نفس الشخص ، تكون أيضا بما يكون له من المال والنسب ، والمرأى أقل شرا من البخيل ، إذ هو يحمل الناس على قبول خزفه واختياله فى مقابلة ما يبذله لهم من مال ، فكأنه رأى لهم عليه حقا عوضا من التعظيم والثناء الذى يطلبه بريائه ، وأما البخيل فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئا من الحقوق ، فهو يكلفهم تعظيمه ، وأمواله مدخرة فى الصناديق .

والمرأى بخيل فى الحقيقة إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربى كالوالدين ، ولا يتحرى فى إنفاقه النفع العام ولا الخاص ، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح ، وإن كان الإنفاق ضارا كالمساعدة على فسق أو فتنه فهو تاجر يشتري تعظيم الناس له وتسخيرهم للقيام بخدمته .

(ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أى إن المؤمنين المرئين فى إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه ، فالله فى نظرهم أهون من الناس ، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر ، بل إيمانهم ضرب من التخيل ليس له ما يؤيده من أثر فى القلب ولا إذعان للنفس ، فهم لا يعرفون الله وإنما يسمعون الناس يقولون قولاً فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات النافذة علمه وقدرته فيما فى الأرض والسموات ، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة .

ومن أمارات التفرقة بين الخاص والمرأى ، أن الأول قلما يتذكر عمله أو يذكره إلا لمصلحة كترغيب بعض الناس فى البذل كأن يقول إني على ما بى من فقر

قد أعطيت كذا درهما في مصلحة كذا فاللائق بمثلك أن يبذل كذا وكذا درهما .
 أما الثاني فهو يلتمس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل ،
 كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة ، إذ ليس له وراء
 حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب .

(ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) أى إن هؤلاء المتكبرين ما حملهم
 على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بئس صاحب والخليل - والمقصد من هذا
 أن حالهم في الشر كحال الشيطان .

وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح
 على قرين السوء، وتعريض بتنغير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا يهونهم عن
 الإنفاق في سبيل الله وبيان أنهم شياطين يعدون الفقر ويهونون عن العرف .

أما القرين الصالح فهو عون على الخير مرغب فيه ، منفر بسيرته ونصحته عن
 الشر مبعده عنه ، مذكر بالتقصير مبصر بالعيوب ، ومصلح القرين الصالح فاسدا ،
 ومك أفسد قرين السوء صالحا .

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله؟) أى ما الذى
 كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره في العمل؟ وفي هذا
 الأسلوب إثارة عجب الناس من حالهم ، إذ هم لو أخلصوا لما فاتتهم منفعة الدنيا ولما زوا
 مع ذلك بسعادة العقبى .

فكثيرا ما يفوت المرأتى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم ،
 ويظفر بذلك الخالص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل ، فيكون الأول
 قد رجع بخفى حنين ، بينما الثانى فاز بسعادة الدارين .

فجهله جدير بأن يتمعجبه منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ، ولو آمن
 وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده لكان في هذا سعاده ، فالإيمان سلوى من كل

فانت ، وفقدته عرضة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقدى الايمان .
وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه فى المصائب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره
رحمة الله التى بها تتحول النعمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكال
العبرة والتهديب .

وقد يبتهل الله المؤمن ويمتحن صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته
مرارة المصيبة حتى تغلبها ، وقد يأنس أحيانا بها لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان
نادرا فهو واقع حاصل .

(وكان الله بهم عليما) فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى إنفاقه ولا يبالي
بعلم الناس ، فهو الذى لا ينسى عمل العاملين ولا يظلمهم من أجرهم شيئا .
وفى هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية فى معاملة الناس لربهم ول بعضهم
بعضا ، ولكن المسلمين قصروا فى اتباع هذه الأوامر وأعرضوا عن مساعدة ذوى
القرى والجيران واليتامى والمساكين ، والشواهد على هذا كثيرة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ
لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

شرح المفردات

المتقال أصله المقدار الذى له ثقل مهما قل ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب
وغيره ، والذرة أصغر ما يدرك من الأجسام ومن ثم قالوا إنها النملة أو رأسها أو الخردلة
أو الهباء (ما يظهر فى نور الشمس الداخلى من الكوة) ولذلك روى عن ابن عباس

رضى الله عنهما أنه أدخل يده في التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة ،
والظلم النقص كما قال تعالى : « كَلَّمْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا »
ومن لدنه من عنده ، والحديث الكلام .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه صفات المتكبرين وسوء أحوالهم وتوعدهم على ذلك بأشد
أنواع الوعيد - زاد الأمر توكيدا وتشديدا فذكر أنه لا يظلم أحدا من العاملين
بوصاياه لا قليلا ولا كثيرا ، بل يوفيه حقه بالتسطاس المستقيم ، وفي هذا أعظم
الترغيب لفاعلى البر والإحسان وحفز لهممهم على العمل ، وفي معنى الآية قوله :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » .

الإيضاح

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة) أى إنه تعالى لا ينقص أحدا من أجر عمله ، والجزاء
عليه شيئا ما وإن صغر كذرة الهباء بل يوفيه أجره ، كما لا يعاقبه بغير استحقاق
للعقوبة ، إذ أن الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال فى النفس بتزكيتها أو تدهيها ،
فالعمل يرفعها إلى أعلى عليين أو يهبط بها إلى أسفل سافلين ، ولذلك درجات
ومثاقيل مقدره فى نفسها لا يحيط بدقاتتها إلا من أحاط بكل شىء علما .

والخلاصة - أن الظلم لا يقع من الله تعالى لأنه من النقص الذى يتنزه عنه وهو
ذو السكال المطلق والفضل العظيم ، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها ما لا يدركه
الحس ، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله فى
هدايتهم وحفظ مصالحهم ، وهى تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر وأيدها بالوعد
والوعيد ، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه كان هو الظالم لنفسه لأن الله
لا يظلم أحدا .

(وإن تك حسنة يضاعفها) أى إنه تعالى مع كونه لا ينقص أحدا من أجر عمله مثقال ذرة يزيد للمحسن فى حسناته ، فالسيئات جزاؤها بقدرها ، والحسنات يضاعف الله تعالى جزاءها عشرة أضعاف أو أضعافا كثيرة كما قال فى آية أخرى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » وقال « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » .

(ويؤت من لدنه أجرا عظيما) أى إنه تعالى لواسع فضله لا يكتفى بجزء المحسنين على إحسانهم فحسب بل يزيدهم من فضله ويعطيهم من لدنه عطاء كبيرا ، وسمى هذا العطاء أجرا ولا مقابل له من الأعمال لأنه لما كان تابعا للأجر على العمل سمي باسمه لجوارته له . وفى ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغير المحسنين إذ هو علاوة على أجور أعمالهم ، فلا مطعم للمسيئين فيه .

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) أى إذا كان الله لا يضيع من عمل العاملين مثقال ذرة ، فكيف يكون الناس إذا جمعهم الله وجاء بالشهداء عليهم وهم أنبياؤهم ؟ فما من أمة إلا لها بشير ونذير .

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم (لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين) ومقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم ، فمن شهد لهم نبينهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به فهم ناجون ، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به فأولئك هم الخاسرون وإن ادعوا اتباعهم والاتباء إليهم .

وقوله : وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يراد به شهادة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين على أمته كما قال تعالى :

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » أى إن هذه الأمة بحسن سيرتها تكون شهيدة على الأمم السالفة ووحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين ، والرسول صلى الله عليه وسلم بسيرته

وأخلاقه الغالية وسننه المرضية يكون حجة على من تركها وتساهل في اتباعها ، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع المحدثه من بعده .

روى البخارى والترمذى والنسائى وغيرهم من حديث ابن مسعود أنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على . قلت : يارسول الله اقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال نعم أحب أن أسمع من غيرى فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) الخ فقال (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان » .

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم صلى الله عليه وسلم فبكى لتذكر هذا اليوم ، وهل نعتبر كما اعتبر واستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده ، وبذا نكون أمة وسطا لا تفریط عندها في الدين ولا إفراط لا في الشؤون الجسمية ولا في الشؤون الروحية ، أو نضل في غوايتنا تقليدا للآباء فنكون كما قال الكافرون « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

(يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) أى إذا جاء ذلك اليوم الذى نأتى فيه بشهيد على كل أمة ، يمتنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء ، أن يصيروا ترابا تسوى بهم الأرض فيكونوا وإياها سواء كما قال في سورة النبأ « ويقول الكافريا ليتنى كنت ترابا » .

(ولا يكتُمون الله حديثا) أى إنهم يودون لو يكونون ترابا فتسوى بهم الأرض ولا يكونون قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم كما قال تعالى « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » أى فهم حينئذ يكذبون وينكرون شركهم إما اعتقادا منهم أن ما كانوا عليه ليس بشرك وإنما هو استشفاع وتوسل ،

وإما مكابرة وظنا أن ذلك يجديهم ويدفع عنهم العذاب ، فيشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم ، بل كانوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم ، فقد قاسوا ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرتهم المستبدين الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعة المقربين فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا قد سويت بهم الأرض وما افتروا ذلك الكذب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا
مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ
أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا
مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

شرح المفردات

الغائط المنخفض من الأرض كالوادي ، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة للستر والاستخفاء عن الناس ، وملامسة النساء الإفضاء إليهن ، تيمموا اقصدا ، والصعيد وجه الأرض ، والطيب الطاهر ، العفو ذو العفو ، والعفوع عن الذنب محوه وجعله كأن لم يكن ، والغفور ذو المغفرة ، والمغفرة ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأحوال التي تؤدي إلى تمنى الكافر العدم فيقول: ياليتنى كنت ترابا ، والتي تجعله لا يستطيع أن يكتم

الله حديثا ، وذكر أنه لا ينجو في ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله - وصف في هذه الآية الوقوف بين يديه في مقام الأنس وحضرة القدس ، المنجى من هول الوقوف في ذلك اليوم ، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلى الأعلى بألا تكون مشغولة بذكرى غيره ، طاهرة عن الأنجاس والأخبث ، لتكون على أتم العدة للوقوف في ذلك الموقف الرهيب مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء . فقال :

الإيضاح

(يأيتها الذين آمنوا لا تقر بوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) أى لاتصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ما ستقرءونه وما ستعملونه ، ذاك أن حال السكر لا يتأتى معها الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه . وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يجتنبوه إذا ضلوا أنهم سيصلون ليحتاطوا فيجتنبوه في أكثر الأوقات ، وقد كان هذا تمهيدا لتحريم السكر تحريما باتا لاهوادة فيه إذ من يتقى أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرق الصلوات الخمس في هذه المدة ، فلم يبق للسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر فيقل الشرب بازاحة النوم له ، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل .

وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر وصاروا يعلمون ما يقولون .

روى أبو داود والترمذى عن علي كرم الله وجهه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فنزلت الآية » .

وروى ابن جرير عن عليّ أن الإمام كان يومئذ عبس الرحمن وأن الصلاة صلاة المغرب - وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر .

ويفترق المعنى بين الأسلوبين (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ولا تقربوا الصلاة سكارى إذ الأول يتضمن النهى عن السكر الذى يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة فيفضى إلى أدائها فى أثناءه ؛ وخلاصة المعنى عليه احذروا أن يكون السكر وصفا لكم عند حضور الصلاة فتصلوا وأنتم سكارى ، فامثال هذا النهى إنما يكون بترك السكر فى وقت الصلاة وفيما يقرب منها ، وأن الثانى يتضمن النهى عن الصلاة حال السكر فحسب .

وأما نهيمهم عن الصلاة جنبا فلا يتضمن نهيمهم عن الجنابة قبل الصلاة ، لأنها من سنن الفطرة وإنما ينههم عن الصلاة فى أثناءها حتى يغتسلوا ولهذا قال جنبا ولم يقل وأنتم جنب .

(ولا جنبا إلا عابرى سبيل) أى لا تقربوا الصلاة جنبا فى أى حال إلا حال كونكم عابرى سبيل أى مجتازين الطريق ، وقد روى أن رجلا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا فيه فرخص لهم فى ذلك ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسد تلك الأبواب والسكوى إلا فى آخر عمره الشريف ولم يستثن إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه (الخوخة السكوة والباب الصغير) .

(حتى تغتسلوا) أى لا تقربوا الصلاة جنبا إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل فى المسجد .

وحكمة الاغتسال من الجنابة أن الجنابة تحدث تهيجا فى الأعصاب فيتأثر البدن كله ويحدث فتور وضعف فيه يزيله الاغتسال بالماء ، ومن ثم ورد فى الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم .

والخلاصة - أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر ، كما طلب أن يكون الجسم نظيفا نشيطا وذلك

لا يكون إلا بإزالة الجنابة ، ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لا هواده فيها ، لأنها تذكر المرء ربه وتعدده للتقوى وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر في بعض الحالات ويتعذر في بعضها الآخر ، رخص الله لنا في ترك استعمال الماء والاستعاضة عنه بالتيمم ، فقال :

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) المراد بالمرض المرض الذي يخاف زيادته باستعمال الماء كبعض الأمراض الجلدية والقروح كالخصبة والجدري وأنحو ذلك ، والسفر يشمل الطويل والتقصير ، والمراد بالجمي من الغائط الحدث الأصغر بخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء غشيانهن .

ففي هذه الحالات (المرض . السفر . فقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل) اقتصدوا وتحروا صعيدا طيبا أى وجها ظاهرا من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ثم صلوا .
والخلاصة — أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة تحكم الحدث حدثا أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط قاله الأستاذ الإمام .
لكن المعروف في المذاهب الأربعة أن شرط التيمم في السفر فقد الماء فلا يجوز مع وجوده وهذا بخلاف ظاهر الآية .

ومن تأمل في رخص السفر التي منها قصر الصلاة وإباحة الفطر في رمضان لا يستنكر أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين ، فالشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواحد للماء في هذا الزمان الذي سهلت فيه وسائل السفر في السكك الحديدية والبواخر فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل في مفاوز الحجاز وجبالها ، فأشق ما يشق في السفر الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضرا مستغنى عنه ، ففي البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ولكنها خاصة بالأغنياء الذين

يركبون في الدرجة الأولى والثانية ، وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر معه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فإذا كانت هذه السفن التي يوجد فيها الماء على هذه الحال يتعسر فيها الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال في قطر السكك الحديدية أو في قوافل الجمال والبغال .

روى أن هذه الآية نزلت في بعض أسفار النبي صلى الله عليه وسلم وقد انقطع عقد لعائشة ، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فلما نزلت وصلوا بالتيمم جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول : ما أكثر بركتكم يا آل أبي بكر ، وفي رواية : يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجا .

(إن الله كان عفواً غفورا) العفو هنا التيسير والسهولة ، ومنه قوله تعالى « خذِ الْعَفْوَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « قد عفوت عن صدقة الخليل والرييق » أى أسقطتها تيسيرا عليكم ، ومن عفوه وتسهيله أن أسقط في حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل .

وقد جاءت هذه الجملة مبينة لمنشأ الرخصة واليسر الذي فيها - وهو عفو الله تعالى ، وفي ذلك إيحاء إلى أن ما كان من الخطأ في صلاة السكارى كقولهم قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون - مغفور لهم لا يؤخذون عليه .

قال السيد حسن صديق خان في شرحه [للمروضة الندية] : قد كثر الاختباط في تفسير هذه الآية : وإن كنتم مرضى أو على سفر الخ والحق أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) فتكون الأعذار ثلاثة : السفر والمرض وعدم وجود الماء في الحضر ، وهذا ظاهر على قول من يقول إن القيد إذا وقع بعد جمل متصلة كان قيذا لآخرها ، وأما على قول من يقول إنه يكون قيذا للجميع إلا أن يمنع مانع فكذلك أيضا لأنه قد وجد المانع هنا من تقييد السفر

والمرض بعدم وجود الماء - وهو أن كل واحد منهما عذر مستقل في غير هذا الباب كالصوم ، ويؤيد هذا أحاديث التيمم التي وردت مطلقة وغير مقيدة بالحضر اه .
ومنه تعلم أن رأيه كراى الأستاذ الإمام من أن السفر وحده عذر كاف في التيمم وجد الماء أو لم يوجد .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَإِنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

شرح المفردات

ألم ترى ألم تنظر ، نصيباً حظاً ، السبيل الطريق القويم ، ولياً أى يتولى شؤونكم ، نصيراً معيناً يدفع شرهم عنكم ، من الذين هادوا هم اليهود ، غير مسمع ، يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، وأن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه ، وراعنا إما بمعنى ارقبنا وانظرنا نكلمك ، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهى (راعينا) ولياً بالسنتهم أى فتلا بها وتحريفها ، طعنا فى الدين قدحاً فيه ، أقوم أعدل وأسد ، إلا قليلاً أى إلا قليلاً من الإيمان لا يعبأ به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيراً من الأحكام الشرعية ووعده فاعلمها بجزيل الثواب وأوعده تاركها بشديد العقاب انتقل هنا إلى ذكر حال بعض

الأمم الذين تركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم واشتروا الضلالة بالهدى لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصرُوا أخذهم بالعقاب الذي رتبهُ على ترك أحكام دينه في الدنيا والآخرة ، والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس وذلك هو الأثر المطلوب منها ، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب .

ولكن قد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط كـبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرايين وأحكام الدين الظاهرة وهذا لا يكفي في اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أرادهُ الله .

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة في الدين كالغسل والتيمم لا يغني عنهم شيئاً إذا لم يطهروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلاً لكرامته ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) أى ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهي ، كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلوا أيها المؤمنون طريق الحق القويم كما ضلوا هم ، فهم دائبون على الكيد لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا .

والتعبير بالشراء دون الاختيار للايماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا ، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ القرآن ولم يكتبوا منه نسخاً متعددة في العصر الأول كما فعلنا حتى إذا ما فقد بعضها قام مقامه بعض آخر ، بل كان عند اليهود نسخة

من التوراة هي التي كتبها موسى عليه السلام ففقدت ، ويؤيد هذا قوله تعالى « قَسَّوْا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

والخلاصة — إنهم لم يأخذوا الكتاب كله بل تركوا كثيرا من أحكامه لم يعملوا بها وزادوا عليها ، والزيادة فيه كالنقص منه ، فالتوراة تنهائم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا وكانوا يفعلون ذلك ، وزاد لهم علماءهم ورؤسائهم كثيرا من الأحكام والرسوم الدينية فتمسكوا بها وهي ليست من التوراة ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام .

فالذي لم يعملوا به من التوراة قسيان : أحدهما ما أضعوه ونسوه ، وثانيهما ما حفظوا حكمه وتركوا العمل به وهو كثير أيضا .

(والله أعلم بأعدائكم) أي والله أعلم منكم بمن هم أعداؤكم فأنتم تظنون في المناققين أنهم منكم وماهم منكم فهم يكيدون لكم في الخفاء ويغشونكم في الجهر فيبرزون الخديعة في معرض النصيحة ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة والله أعلم بما في قلوبهم من العداوة والبغضاء .

(وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) فهو الذي يرشدكم إلى ما فيه خيركم وفلاحكم ، وهو الذي ينصركم على أعدائكم بتوفيقكم لصالح العمل والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون وسائر الوسائل التي تؤدي إلى القوة ، فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصره من سواه ، وعليكم باتباع السنن التي وضعها في هذه الحياة ، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم .

(من الذين هادوا) هذا بيان المراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى ، وقوله (والله أعلم) وقوله (وكفى بالله) جملتان معترضتان بين البيان والمبين . (يحرفون الكلم عن مواضعه) جاءت هذه الجملة لتبيين المراد من اشتراهم الضلالة بالهدى ، والتحريف يطلق على معنيين : أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذي وضع له ، كما يؤولون البشارات التي وردت في النبي صلى الله عليه وسلم

ويؤولون ما ورد فى المسيح ويحملونه على شخص آخر ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم .
وثانيهما أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها فى موضع
آخر ، وقد حصل هذا فى كتب اليهود ، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده
بزمن طويل ، وكذلك ما وقع فى كلام غيره من أنبيائهم ، واعترف بهذا بعض
العلماء من أهل الكتاب ، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الاصلاح فى زعمهم ،
وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة بعد
فقد النسخة التى كتبها موسى عليه السلام وأرادوا أن يؤلفوا بينها فجاء فيها ذلك
الخلط بالزيادة والتكرار ، كما أثبت ذلك بعض الباحثين من المسلمين كالشيخ رحمة
الله الهندى فى كتابه [إظهار الحق] وأورد له من الشواهد ما لا يحصى .

(ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع وراعنا) أى ويقول هؤلاء اليهود
للنبي صلى الله عليه وسلم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وقد روى عن مجاهد أنهم قالوا
للنبي صلى الله عليه وسلم ، سمعنا قولك ولكن لا نطيعك ، وكذلك هم كانوا يقولون
له (اسمع غير مسمع) يدعون عليه ، على معنى لا أسمعك الله ، فى الموضع الذى
يقول فيه المتأدبون للمخاطبين « لا سمعت أذى أو لا سمعت مكروها » .

وكذلك كانوا يقولون له راعنا ، وقد روى أن اليهود كانوا يتسابون بكلمة
(راعينا) العبرانية فسمعوا بعض المؤمنين يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا من
المراعاة فافتروها وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر .

(ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) أى هم يلوون ألسنتهم فيجعلونها فى الظاهر راعنا
وبلى اللسان وإمانته (راعينا) قصدا منهم للسباب والشم والسخرية ، أو جعله راعيا
من رعاة الغنم أو من الرعونة ، ومن تحريف اللسان وليه خطابهم للنبي صلى الله عليه
وسلم وتحيته بقولهم (السام - الموت - عليكم) يوهمون بقتل اللسان وجمجمته أنهم
يقولون له (السلام عليكم) وقد ثبت هذا فى صحيح الأحاديث ، كما ثبت أن النبي صلى
الله عليه وسلم بعد أن علم عنهم ذلك كان يحيمهم بقوله (عليكم) أى كل أحد يموت .

(ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) أى
ولو أنهم قالوا سمعنا قولك وأطعنا أمرك لعلمهم بصدقك ولوجود الأدلة والبيّنات
المتظاهرة على ذلك ، وكذلك لو قالوا اسمع منا ما نقول وانظرنا أى أمهلنا وانتظرنا
ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول ، لكان ذلك خيرا لهم وأصوب مما قالوه
لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة .

(ولكن لعنهم الله بكفرهم) أى ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الطاعة بسبب
كفرهم ، إذ قد مضت سنة الله فى البشر بأن الكفر والعناد يمنع صاحبه من التفكير
والترؤى والأدب فى الخطاب ويجعله بعيدا من الخير والرحمة فلا يمت إليهما بسبب
ولا يصل إليهما برحم ولا نسب .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى هم لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا لا يعتدّ به ، فهو
لا يصلح عملا ولا يظهر نفسا ولا يرق عقلا ، ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيمانا
كاملا لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقا لما معهم من الكتاب ، وبين لهم
مانسوا منه وما حرفوا فيه ، كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة فى الاجتماع
والتشريع ، وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد وعلى الحق والسداد .

يَأْيُهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ
السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)

شرح المفردات

الكتاب التوراة ، الطمس إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار
وأعلام الطرق إما بنقل حجارتها، وإما أن تسفوها الرياح ، ومنه الطمس على الأموال
فى قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ» أى أزلهما وأهلكهما، والطمس على العينين فى قوله

« وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ » إما إزالة نورها وإما محو حدقتها ، والوجه تارة يراد به الوجه المعروف ، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد كما قال تعالى « أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » وقال « وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ » وقال « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » والأدبار واحدها دبر وهو الخلف والقفأ ، والارتداد هو الرجوع إلى الوراة إما فى الحسيات وإما فى المعانى ، ومن الأول الارتداد والفرار فى القتال ، ومن الثانى قوله « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » ونلغنهم نهلكهم ، كما لغنا أصحاب السبت ، أى كما أهلكتنا أصحاب السبت ، وقيل مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن .

المعنى الجملى

بعد أن نعى على أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحرى فهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر - ألزمهم هنا بالعمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن ، ذلك أن إيمانهم بالتوراة يستدعى الإيمان بما يصدقها ، وحذرهم من مخالفة ذلك وتوعدم بالويل والثبور وعظائم الأمور .

الايضاح

(يأيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) أى آمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معكم من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك ، وما يقوى ذلك الإيمان من ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتلك هى أصول الدين وأركانها والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل ، ولا خلاف بينهم فى ذلك وإنما الخلاف فى التفاصيل وطرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها وترقيتهم فى معارج الفلاح على حسب السنن التى وضعها الله فى ارتقاء البشر ، بتعاقب الأجيال واختلاف الأزمان ،

انظر إلى الحكومات المختلفة المتعاقبة تجد أن رائدها العدل ، ولكن الوسائل الموصلة إليه تختلف باختلاف الأمم والبيئة والزمان والمكان ، فتغيير الحاكم الجديد لبعض ما كان عليه من قبله ليس ببدع ولا مستنكر إذا كان مقصده إقامة ميزان العدل فيما بين الناس ، وحينئذ يسمى مصدقا لما قبله لا مكذبا ولا مخالفا .

والقرآن قرر نبوة داود وسليمان وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به ، ووبخ المدعين اتباعهم على إضاعتهم بعض ما جاءوا به وتحريف بعضه الآخر ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى إن أكثرهم هدموا الأسس التي جاءت بها الأنبياء ومن أعظمها التوحيد فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً .

(من قبل أن نظمس وجوها فتردها على أدبارها) أى آمنوا قبل أن يحل بكم العقاب من طمس الوجوه والرد على الأدبار أى من قبل أن نظمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها من كيد الإسلام وتردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم ، وقد كان لهم عند نزول الآية شيء من المسكينة والقوة والعلم والمعرفة .
وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسيا فقال زدتم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام وهي بلادهم التي جاءوا منها .

وخلاصة المعنى — آمنوا قبل أن نعمى عليكم السبيل بما نبصر المؤمنين بشؤونكم ونغريهم بكم فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى غير الخير لكم .
(أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أى آمنوا قبل أن تقعوا في الخيبة والخذلان وذهاب العزة باستيلاء المؤمنين عليكم وإجلائكم من دياركم كما حدث لطائفة منكم ، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها .

(وكان أمر الله مفعولا) المراد من الأمر الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى إنما أمره بإيقاع شيء ما نافذ لا محالة ، ومن هذا ما أوعدتم به ، قال ابن عباس يريد لاراد لحكمه ولا ناقض

لأمره فلا يتعذر عليه شيء يريد أن يفعله كما تقول فى الشيء الذى لاشك فى حصوله :
هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد .

والمخالصة — أنه يقول لهم أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا
محالة فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ
بَلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)

شرح المفردات

يقال افترى فلان الكذب إذا اعتمله واختلقه ، وأصله من الفرى بمعنى القطع ،
وتزكية النفس مدحها قال تعالى « فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » والظلم
النقص ، والفتيل ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط ، وبه يضرب المثل فى الشيء
الخطير كما يضرب بمثال الذرة ، قال الراغب : الإثم والآثم اسم للأفعال المبطئة عن
الثواب أى عن الخيرات التى يثاب المرء عليها ، وقد يطلق الإثم على ما كان ضارًّا .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه اليهود على الكفر وتوعدهم عليه بأشد الوعيد كطمس الوجوه
والرد على الأدبار ، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع للمحالة بقوله : وكان أمر الله مفعولاً .
ذكر أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجرمة الكفر ، فأما سائر الذنوب
سواء فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها .

أخرج ابن المنذر عن أبي مجلز قال : لما نزل قوله تعالى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » قام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فتلاها على الناس ، فقام إليه رجل فقال والشرك بالله ، فسكت ، ثم قام إليه فقال يا رسول الله والشرك بالله تعالى فسكت مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(إن الله لا يغفر أن يشرك به) الشرك بالله ضربان :

(١) شرك في الألوهية ، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى .

(٢) شرك في الربوبية ، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحریم عن بعض البشر دون الوحي ، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بَنَ مَرْيَمَ » وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم اتخاذهم أرباباً بطاعتهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام . وقد سرى الشرك في الألوهية والربوبية إلى بعض المساميين منذ قرون كثيرة . وفي الآية إيماء إلى تسمية أهل الكتاب بالمشركين ، وكأنه يقول لهم : لا يغرنكم اتماؤكم إلى الكتب والأنبياء ، وقد هدمتم أساس الدين بالشرك الذي لا يغفره الله بحال .

والحكمة في عدم مغفرة الشرك أن الدين إنما شرع لتزكية النفوس وتطوير الأرواح وترقية العقول ، والشرك يناقض كل هذا ، لأنه منتهى ما تهبط إليه العقول ، ومنه تتولد سائر الرذائل التي تفسد الأفراد والجماعات ، فبه يرفعون من دونهم أو من هم مثلهم إلى مرتبة التقديس والخضوع لهم باعتبار أن السلطة العليا بأيديهم ، وأن إرضاءهم وطاعتهم هو إرضاء الله وطاعة له .

وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر أو لشيء من الأشياء الساوية أو الأرضية ، ويكون حرا كريما لا يخضع إلا لمن خضعت لسننه الكائنات بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات .

والمخالصة — أن أرواح الموحدين تكون راقية لا تهبط بها الذنوب إلى لحيض الذى تهوى إليه أرواح المشركين ، إذ هما عمل المشرك من الطيبات ، فإن روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله ، ومهما أذنب الموحدون ، فإن ذنوبهم لا تحيط بأرواحهم ، إذ خيرهم يغلب شرهم ، ولا يبعد بهم الأمد وهم فى غفلة عن ربهم كما قال تعالى « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ » فهم يسرعون إلى التوبة ويتبعون السيئة بالحسنة حتى يذهب أثرها من النفس ، وذلك هو غفرانها .

(ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده الذين أذنبوا ، ومشية الله تعالى تكون وفق حكمته ، وعلى مقتضى سنته فى خليقته وقد جرت سنته بالألا يغفر الذنوب التى لا يتوب صاحبها ، ولا يتبعها بالحسنات التى تزيل آثارها من نفس أصحابها .

وقصارى ذلك — أن الشرك لإفساده للنفوس يترتب عليه العقاب حتما فى الدنيا والآخرة ، وما عداه لا يصل إلى درجته فى إفساد النفوس ، فغفرته ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية ، فنه ما يكون تأثيره السىء فى النفوس قويا ، ومنه ما يكون ضعيفا يغفر بالتأثير بصالح العمل .

(ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) أى ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض — سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحرير — فقد اخترع ذنبا عظيم الضرر ، تستصغر فى جنب عظمتها جميع الذنوب والآثام ، فهو جدير بالألا يغفر ، وما دونه قد يحى بالغفران .

(ألم تر إلى الذين يزكون) أى انظر واعجب من الذين يدعون أنهم أذكىاء

بررة عند الله ، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب ، زعما منهم أن الله يكفر لهم ذنوبهم التي عملوها ، والله لا يغفر لكافر شيئا من كفره ومعاصيه .

وتزكية النفس تارة تكون بالعمل الذي يجعلها زكية طاهرة كثيرة الخير والبركة بتتمية فضائلها وكالاتها ، ولا يكون ذلك إلا بابتعادها عن الشرور والآثام التي تعوقها عن الخير ، وهذه التزكية محمودة وهي التي عناها الله سبحانه بقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاهَا » .

وتارة تكون بالقول بادعاء السكال والزكاة ، وقد انفق العقلاء على استهجان تزكية المرء نفسه بالقول ولو حقا ، ومصدر هذه التزكية الجهل والغرور ، ومن آثاره السيئة الاستكبار عن قبول الحق ، والانتفاع بالنصح .

روى ابن جرير عن الحسن أن الآية نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » وقالوا « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » وقالت اليهود « لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً » وروى عن السدى أنه قال : نزلت في اليهود حيث قالوا : إنا نعلم أبناءنا التوراة صغارا فلا تكون لهم ذنوب ، وذنوبنا مثل ذنوب أبناءنا ، ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل .

وقد رد الله عليهم دعواهم الزكاة والطهارة فقال :

(بل الله يزكى من يشاء) أى لا عبرة بتزكيتكم أنفسكم بأن تقولوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، وبأنكم لا تعذبون في النار ، لأنكم شعب الله المختار ، وتتفاخروا بنسبكم ودينكم ، بل الله يزكى من يشاء من عباده ، من أى شعب كان ، ومن أى قبيلة كانت ، فيهديهم إلى صحيح العقائد ، وفاضل الآداب ، وصالح الأعمال .

(ولا يظلمون فتىلا) أى ولا ينقص الله هؤلاء الذين يزكون أنفسهم شيئا من

الجزاء على أعمالهم ،

نخذلانهم في الدنيا بالعبودية لغيرهم ، وفي الآخرة بالعذاب والحerman من النعم والثواب ، ما كان بظلم من الله عز اسمه ، بل كان بنقصان درجات أعمالهم ، وعجزها

عن الصعود بأرواحهم إلى مستوى الرفعة والكرامة ، لتزكيتهم إياها بالقول الباطل دون الفعل ، فلم تصل بهم نفوسهم إلى مراتب الفوز والفلاح .
وفي الآية موضعان من العبرة :

(١) أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو مشركا ، لأن لعمله أثرا في نفسه يكون مناط الجزاء ، فيخفف عذابه عن عذاب غيره كما ورد في الأحاديث ، أن بعض المشركين يخفف عنهم العذاب بعمل لهم ، فخاتم الطائى بكرمه ، وأبو طالب بكفالاته النبي صلى الله عليه وسلم ونصره إياه ، وأبو لهب لعتقه جاريته ثوبة حين بشرته بمولد النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أن يحذر المسلمون الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب في عصر التنزيل وما قبله ، وأن يتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول ، واحتقار من عداهم من المشركين ، وأن يعلموا أن الله لا يحب في نظم الخليقة أحدا لا مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا ، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه ، وكسرت سننه ، ورُدَى في حفرة من جرأه تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد وعدم مخالفته ، وأن يهتدوا بكتاب الله وبسننه في الأمم ، وأن يتركوا وساوس الدجالين الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدى كتابهم ، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطانا ، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزمهم إلا بتركهم لهدى دينهم ، واتباعهم لأوثك الدجالين والمشعوذين .
ثم أكد التعجيب من حالهم الذى فهم من الآية السابقة فقال :

(انظر كيف يفترون على الله الكذب) أى انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم ، لا كما يعامل سائر عباده .
(وكفى به إثما مبينا) أى إن تزكية النفس والغرور بالدين والجنس مما يبطل عن نافع العمل الذى يثاب عليه الناس ، وكفى بهذا إثما ظاهرا ، لأنه لا أثر له من حق ، ولا سمة عليه من صواب ، فالله لا يعامل شعبا معاملة خاصة تغاير سننه التى وضعها في الخليقة وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل ، وكفى بذلك شرا مستظيرا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
 وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
 سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ تَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ
 النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَفِيهِمْ مَن آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَن
 صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

شرح المفردات

الجبث أصله الجبس وهو الردى الذى لا خير فيه ، ويراد به هنا الأوهام
 والخرافات والدجل ، والطاغوت ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطفيان والخروج
 من الحق من مخلوق يعبد ، ورئيس يقلد ، وهوى يتبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه
 الشيطان ، والنقير النقرة التى فى ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة يضرب بها المثل
 فى الشئ الحقير التافه ، كما يضرب المثل بالقطمير وهو القشرة الرقيقة التى على النواة
 بينها وبين التمرة ، والحسد تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، والناس هنا
 محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه ، والفضل النبوة والكرامة فى الدين والدنيا ،
 والكتاب العلم بظاهر الشريعة ، والحكمة العلم بالأسرار المودعة فيها ، والملك العظيم
 ما كان لأنبياء بنى إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام ، وصد عن الشئ أعرض
 عنه ، ونار مسعرة موقدة ، ويقال أوقدت النار وأسعرتها .

المعنى الجملى

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، هم حُيِّ بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وأبو عمارة ، وهوذة بن قيس ، وباقيهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب — إلى قوله ملكا عظيما) قاله السيوطى فى لباب النقول .

وقد تكون هذه الآيات نزلت بعد غزوة الأحزاب أو فى أثناءها ، إذ تقضى اليهود عهد النبى صلى الله عليه وسلم واتفقوا مع المشركين على استئصال شأفة المسلمين حتى لا يظهروا عليهم ، ومن ثم فضلوهم على المؤمنين ، كما أن هذا التفضيل ربما كان عند النداء بالنفير للحرب .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ؟)

أى ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أتوا نصيبا من الكتاب كيف حرموا هدايته وهداية العقل والفطرة ، وآمنوا بالدجل والخرافات ، وصدقوا بالأصنام والأوثان ، ونصروا أهلها من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم والمعترفين بحقية كتبهم ؟ (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أى ويقولون إن المشركين أرشد طريقة فى الدين من المؤمنين الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم .

قال ابن جرير : إن الله وصف الذين أتوا نصيبا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة ، والإذعان له بالطاعة فى الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما ، وأنهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به ، وأن دين أهل التكذيب لله ورسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ورسوله اه .

وروى عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يغزوه ، وقال إنا معكم نقاتله ، فقالوا إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرامكم ، فإن أردت أن تخرج معنا فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قالوا نحن أهدي أم محمد ؟ فنحن ننحر الكوماء (الناقة الضخمة السنام) ونسقى اللبن على الماء ونصل الرحم ونقري الضيف ، ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده ، فقال بل أتم خير وأهدى .

(أولئك الذين لعنهم الله) أى أولئك الذين اقتضت سنن الله فى خلقه أن يكونوا بعيدين عن رحمته مطرودين من فضله وجوده .

(ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) أى ومن يبعده الله من رحمته فلن ينصره أحد من دونه ، إذ لا سبيل لأحد إلى تغيير سننه تعالى فى خليقته ، وهو قد جعل الخذلان نصيب من يؤمنون بالجبت والطاغوت ، إذ هم قد تجاوزوا سنن الفطرة واتبعوا الخرافات والأوهام ، لأنه إنما ينصر المؤمنين باجتناهم ذلك « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ثم انتقل من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت ، وتفضيلهم المشركين على المؤمنين ، إلى توبيخهم على البخل والأثرة ، وطمعهم فى أن يعود إليهم الملك فى آخر الزمان وأنه سيخرج منهم من يجدد ملكهم ودولتهم ويدعو إلى دينهم فقال : (أم لهم نصيب من الملك) أى إنهم لاحظ لهم من الملك إذ هم فقدوه بظلمهم وطغيانهم ، وإيمانهم بالجبت والطاغوت .

(فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) أى إنه لو كان لهم نصيب من الملك لاتبعوا طريق البخل والأثرة وحصروا منافعه فى أنفسهم فلا يعطون الناس منه نقيرا .
 وإخلاصة — أن اليهود ذوو أثرة وشح يشق عليهم أن ينتفع منهم غير اليهودى .
 فإذا صار لهم ملك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره ، ومن كانت هذه حاله

حرص أشد الحرص على ألا يظهر نبي من العرب يكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل ، ولا تزال هذه حالهم إلى اليوم ، فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة ولا يعطونهم منها تقيرا . .

ولكن هل يعود الملك كما يريدون ؟ ليس في الآية ما يثبت ذلك ولا ما ينفيه ، وإنما الذى فيها بيان طباعهم فيه لو حصل .

ثم انتقل من توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد فقال : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أى إن هؤلاء يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ، ولا يحبون أن يكون لأمة فضل أكثر مما لهم أو مثله لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم وتقاليدهم مع سوء حالهم .

وهم قد رأوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعد أن أعطى النبوة جعله الله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أعوانا وأنصارا من أجل هذا حسدوه حسدا عظيما .
وبعد أن ذكر أن كثرة نعمه عليه صارت سببا لحسد هؤلاء اليهود بين ما يدفع ذلك الحسد فقال :

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) أى إن يحسدوا محمدا على ما أوتي فقد أخطئوا إذ ليس هذا ببدع منا لأننا قد آتينا مثل هذا من قبل لآل إبراهيم والعرب منهم فإنهم من ذرية ولده إسماعيل ، فلم لم تعجبوا مما آتى آل إبراهيم وتعجبون مما آتى محمدا صلى الله عليه وسلم ؟ ولم لا يكون مستبعدة في حق هؤلاء ومستبعدة في حق محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وفى الآية رمز إلى أنه سيكون للمسلمين ملك عظيم يتبع النبوة والحكمة ، وقد ظهرت تباشيره عند نزول الآيات بالمدينة فقد قويت شوكتهم وأخذ أمرهم يعظم رويدا رويدا .

والخلاصة — أن اليهود إما مغرورون مخدوعون يظنون أن فضل الله لا يعدهم ورحمته تضيق بغيرهم ، وإما حاسبون أن ملك السكون فى أيديهم فهم لا يعطون

أحدا منه ولو حقيرا كالنقير ، وإما حاسدون للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذي ظهرت مبادئه ومقدماته .

(فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) قوله به أى بمن تقدم من الأنبياء كإبراهيم وآله ، أى إن أولئك الأنبياء مع ما اختصوا به من النبوة والملك لم تؤمن أجمعهم جميعا بهم بل منهم من آمن بهم ومنهم من بقى على كفره ، فلا تعجب أيها الرسول مما عليه قومك ، فإن هذه حال جميع الأمم مع أنبيائهم .

وفى هذا تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون أشد صبورا على ما يناله من قبلهم من الأذى والجحود والإنكار « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(وكفى بجهنم سعيرا) أى إن انصرف عنهم بعض العذاب فى الدنيا فكفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم فى العقبى ، لأنهم آثروا اتباع الباطل والعمل بما يزينه لهم على اتباع الحق ، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يرد بهم فى دار الشقاء والنكال وهى جهنم وبئس القرار .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَوَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)

تفسير المفردات

نصليهم نشويهم بالنار ، يقال شاة مصلية ، أى مشوية ونضجت احترقت وتهرأت وتلاشت من قولهم نضج الثمر واللحم نضجا إذا أدرك ، ليذوقوا العذاب أى ليدوم لهم

ذوقه ولا ينقطع كما تقول للعزير: أعزك الله أى أدام لك العز وزادك فيه ، العزير القادر الغالب على أمره ، والحكيم هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب ، ومطهرة أى من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية ، وقوله ظلاً ظليلاً كقولهم ليل أليل وصف للمبالغة والتأكيد فى المعنى أى ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم ودائم لا تنسخه الشمس ، وقد يعبر بالظل عن العزة والمتعة والرفاهية فيقال «السلطان ظل الله فى أرضه» ، ولما كانت بلاد العرب غاية فى الحرارة كان الظل عندهم أعظم أسباب الراحة ، وكان ذلك عندهم رمزاً للنعيم المقيم ، والآيات الأدلة التى ترشد إلى أن هذا الدين حق ، ومن أجلها القرآن لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها ، والكفر بها يعم إنكارها والغفلة عن النظر فيها وإلقاء الشبهات والشكوك مع العلم بصحتها عنادا وحسداً ، والخلود الدوام وقد أكد به بقوله أبداً ، ومطهرة أى بريئات من المعاييب الجسمانية والطباع الردية .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى الآية السالفة أن ممن دعوا إلى التصديق بالأنبياء فريقاً نأى وأعرض عن اتباع الحق ، ثم توعد من أعرض بسعير جهنم .
فصل هنا الوعيد بذكر أحوال الفريقين وما يلاقيه كل منهم من الجزاء يوم القيامة فقال :

الإيضاح

(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) أى إن الله تعالى قد أعد لمن جحد بآياته التى أنزلها على أنبيائه نارا مسعرة تشويهم وتحرق أجسامهم حتى تفقدها الحس والإدراك .

(كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) أى كلما فقدت التماسك الحيوى وبعدت عن الحس والحياة بدلها جلودا أخرى حية تشعر بالألم وتحس بالعذاب .

قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا عليه سحائب الرحمة في كتابه [الإسلام والطب الحديث] والحكمة في تبديل جلود الكفار ، أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث أما شديدا ، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث أما كثيرا ، فالله يقول لنا إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان ، وكان الله عزيزا حكيما ه .

(ليذوقوا العذاب) ليدوم لهم ذوق العذاب ، لأن الإحساس يصل إلى النفس بواسطة الحياة في الجلد ، وفي هذا إزالة لوهم ربما يعرض لبعض الناس قياسا على ما يعهدون في أنفسهم في الدنيا من أن الذي يتعود الألم يقل شعوره به ويصير عاديا عنده ، كما يشاهد في كثير من الآلام والأمراض التي يطول أمدها ، وفي قوله ليذوقوا إيماء إلى أن إحساسهم بذلك العذاب يكون كإحساس الذائق المذوق لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق .

(إن الله كان عزيزا حكيما) أى إنه تعالى عزيز قادر لا يمتنع عليه شئ مما توعد به أو وعد ، حكيم يعاقب من يعاقبه وفق الحكمة ، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسببات فلا يستطيع أحد أن يقلبه على أمره فيبطل اطرادها ، فهو كما جعل الكفر والمعاصي سببا للعذاب كما تقدم في الآية ، جعل الإيمان والعمل الصالح سببا للنعيم وذلك ما بينه تعالى بقوله :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أى إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله سيدخلون جنات يتمتعون بنعيمها العظيم كفاء ما أحببتوا إلى ربهم وقدموا من عمل صالح لأن الإيمان وحده

لا يكفي لتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء ، بل لا بد معه من عمل صالح يشعر به المرء بالتقرب من ربه والشعور بهيبته وجلال سلطانه .

(لهم فيها أزواج مطهرة) أى لهم أزواج مبرآت من العيوب الجسمانية والعيوب الخلقية ، فليس فيهن ما يوحشهن منهن ولا ما يكدر صفوهم ، وبذا تكمل سعادتهم ، ويتم سرورهم فى تلك الحياة التى لا نعرف كنهها ، وإنما نفهمها على طريق التمثيل وقياس الغائب على الشاهد .

(وندخلهم ظلا ظليلا) أى ونجعلهم فى مكان لا حر فيه ولا قر ، وفى ذلك إيماء إلى تمام النعمة والتمتع برغد العيش وكمال الرفاهية .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

شرح المفردات

الأمانة الشئ الذى يحفظ ليؤدى إلى صاحبه ، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظا وأميناً ووفياً ، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائناً ، والعدل إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه ، والتأويل بيان المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآية السابقة الأجر العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات وكان من أجل تلك الأعمال أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس - لا جرم أمر بهما فى هذه الآية .

روى عن ابن عباس قال: «لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا عثمان ابن طلحة ، فلما أتاه قال أرني المفتاح (مفتاح الكعبة) فلما بسط يده إليه قام العباس فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجعله لي مع السقاية ، فكف عثمان يده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هات المفتاح يا عثمان ، فقال هاك أمانة الله ، فقام ففتح الكعبة ثم خرج فطاف بالبيت ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) حتى فرغ من الآية».

الإيضاح

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) الأمانة على أنواع :

(١) أمانة العبد مع ربه ، وهي ما عهد إليه حفظه من الأتجار بما أمره به والانتها عما نهاه عنه ، واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه من ربه ، وقد ورد في الأثر: إن المعاصي كلها خيانة لله عز وجل .

(٢) أمانة العبد مع الناس ، ومن ذلك رد الودائع إلى أربابها وعدم الغش وحفظ السر ونحو ذلك مما يجب للأهل والأقربى وعامة الناس والحكام .

ويدخل في ذلك عدل الأمراء مع الرعية وعدل العلماء مع العوام بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم من أمور التربية الحسنة وكسب الحلال ، ومن المواعظ والأحكام التي تقوى إيمانهم وتنقذهم من الشرور والآثام وترغبهم في الخير والإحسان ، وعدل الرجل مع زوجته بالألأ يفشى أحد الزوجين سرا للآخر ولا سيما السر الذي يختص بهما ولا يطلع عليه عادة سواهما .

(٣) أمانة الإنسان مع نفسه ، بالألأ يختار لنفسه إلا ما هو الأصلح والأفنع له في الدين والدنيا ، والألأ يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه ، ويتوق أسباب الأمراض والأوبئة بقدر معرفته وما يعرف من الأطباء ، وذلك يحتاج إلى معرفة علم الصحة ولا سيما في أوقات انتشار الأمراض والأوبئة .

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر الله بالعدل في آيات كثيرة منها هذه الآية ، ومنها «اغدُّوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» وقوله «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» والحكم بين الناس له طرق: منها الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص في قضية خاصة . والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور :

(١) فهم الدعوى من المدعى والجواب من المدعى عليه ليعرف موضوع النزاع والتخاصم بأدلته من الخصمين .

(٢) خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين .

(٣) معرفة الحاكم الحكم الذي شرعه الله ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة وقد ورد الأمر بالعدل في كثير من الآيات والأحاديث كقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» وقوله «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» .

(٤) تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام .

وقد أمر المسلمون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق، قال تعالى «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى» .

(إن الله نعمًا يعظكم به) أى نعم الشيء الذى يعظكم به : أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين .

(إن الله كان سميعا بصيرا) أى عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات ، فإذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم ، وإن أدبتم الأمانة فهو بصير بذلك .

وفى هذا وعد عظيم للمطيع ، ووعيد شديد للعاصى ، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وفيه أيضا إيحاء إلى الاهتمام بحكم القضاء والولاية لأنه قد فوض إليهم النظر فى مصالح العباد .

وبعد أن أمر سبحانه برد الأمانات إلى أهلها ، وبالحكم بين الناس بالعدل مخاطبا بذلك جمهور الأمة ، أمر بطاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر إذ لا تقوم المصالح العامة إلا بذلك ، فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) أى أطيعوا الله واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول لأنه يبين للناس ما نزل إليهم ، فقد جرت سنة الله بأن يبلغ عنه شرعه رسل منهم تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم .

وأطيعوا أولى الأمر وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة ، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التي عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين في بحمهم في الأمر واتفاقهم عليه .
وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب ، وليس لأحد رأى فيه إلا ما يكون في فهمه .

فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع وكانوا مختارين في ذلك غير مكرهين بقوة أحد ولا نفوذه فطاعتهم واجبة كما فعل عمر حين استشار أهل الرأي من الصحابة في الديوان الذى أنشأه وفي غيره من المصالح التي أحدثها برأى أولى الأمر من الصحابة ولم تكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعترض عليه أحد من علمائهم في ذلك .

(فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) أى فإذا لم يوجد نص على الحكم في الكتاب ولا في السنة ينظر أولو الأمر فيه لأنهم هم الذين يوثق بهم فإذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمل بما أجمعوا عليه ، وإن اختلفوا وتنازعوا وجب عرض ذلك على الكتاب والسنة وما فيهما من القواعد العامة ، فما كان موافقا لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به ، وما كان مخالفا لهما علم أنه غير صالح ووجب تركه ،

وبذا يزول التنازع وتجتمع الكلمة ، وهذا الرد واستنباط الفصل في الخلاف من القواعد هو الذى يعبر عنه بالقياس ، والأول هو الاجماع الذى يعتد به .

ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية ، وهى :

(١) الأصل الأول القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله تعالى .

(٢) الأصل الثانى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل به طاعة الرسول

صلى الله عليه وسلم .

(٣) الأصل الثالث إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم

الأمّة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجار والصناع والزراع ،

ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها - وطاعتهم حينئذ هى

طاعة أولى الأمر .

(٤) الأصل الرابع عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة

المعلومة فى الكتاب والسنة ، وذلك قوله: فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول .

فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة ، ولا بد من وجود جماعة يقومون

بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة ممن يختارهم أولو الأمر من علماء

هذا الشأن .

ويجب على الحكام الحكم بما يقرّونه ، وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة

من جماعتين ، الأولى الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن (الهيئة التشريعية)

والجماعة الثانية جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون (الهيئة التنفيذية) .

وعلى الأمّة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سرا وجهرا ، وهى بذلك لا تكون

خاضعة لأحد من البشر ، لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله صلى الله عليه

وسلم بإذنه ، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من

أفرادها الذين وثقت بإخلاصهم وعدم انقائهم إلا على ما هو الأصح لها .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى ردوا الشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله ، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحفظ الدنيا . وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحفظه فإنه لا يكون مؤمناً حقاً .

(ذلك خير وأحسن تأويلاً) أى ذلك الرد للشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم ، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثم لم يشرع لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق التنازع وسد ذرائع الفتن .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ
قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا كَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ،
وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)
فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

شرح المفردات

الزعم فى أصل اللغة القول حقاً كان أو باطلاً ثم كثر استعماله فى الكذب ، قال
الراغب : الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب ، وقد جاء فى القرآن فى كل موضع

ذم القائلين به كقوله « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لِي وَلِيٌّ لَتُبْعَثَنَّ » وقوله « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا » والطاغوت بمعنى الطغيان الكثير ، ضلالا بعيدا أى بعيدا صاحبه عن الحق إذ هولا يهتدى إلى الطريق الموصلة إليه ، صدودا أى إعراضا متعمدا عن قبول حكمك ، إحسانا أى فى المعاملة بين الخصوم ، وتوفيقا بينهم وبين خصومهم بالصلح ، فأعرض عنهم أى اصرف وجهك عنهم ، وعظهم أى ذكرهم بالخير على الوجه الذى ترق له قلوبهم ، قولاً بليغا أى يبلغ من نفوسهم الأثر الذى تريد أن تحدثه فيها .

المعنى الجملى

بعد أن أوجب الله تعالى فى الآية السالفة على جميع المؤمنين طاعة الله وطاعة الرسول ذكر فى هذه الآية أن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه بل يريدون حكم غيره . أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال « كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله تعالى : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا - إلى قوله - إلا إحسانا وتوفيقا . وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودى أحاكمك إلى أهل دينك أو قال إلى النبى لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة فى الحكم فاختلفا ثم انفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة فنزلت .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) أى انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بك وآمنوا بمن قبلك من الأنبياء ويأتون بما ينافى الإيمان ، إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسوله يقتضى العمل بما شرعه الله على السنة أولئك

الرسول ، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ في نفس مدعيه ، فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله ، فهؤلاء المنافقون إذ هربوا من التحاكم إليك وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال من أولئك الكهنة والمشعوذين - سواء أكان أبا برزة الأسلمي أم كعب بن الأشرف - دليل على أن الإيمان ليس له أثر في نفوسهم بل هي كلمات يقولونها بأفواههم لا تعبر عما تلجج في صدورهم ، وكيف يزعمون الإيمان بك وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجيت والطاغوت في نحو قوله « وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقوله « فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » وهم يتحاكمون إليه ؟ فالسنتهم تدعى الإيمان بالله وبما أنزله على رسوله وتدل أفعالهم على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه .

ويدخل في هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجالين كالعرافين وأصحاب المنديل والرملة ومدعى الكشف والولاية، وفي الآية إيماء إلى أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خارج من الإسلام ، سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد ، ومن أجل هذا حكم الصحابة بردة الذين منعوا الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم .

(ويريد الشيطان أن يضاهم ضاللاً بعيداً) أى يريد الشيطان أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة، فهم لشدة بعدهم عن الحق لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه .
والخلاصة - أن الواجب على المسلمين ألا يقبلوا قول أحد ولا يعملوا برأيه في شئ له حكم في كتاب الله أو سنة رسوله ، وما لا حكم له فيهما فالعمل فيه برأى أولى الأمر ، لأنه أقرب إلى المصلحة .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) أى وإذا قيل لأولئك الزاعمين للإيمان الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت تعالوا إلى ما أنزل الله في القرآن لنعمل به ونحكمه فيما بيننا ، وإلى الرسول ليحكم بيننا

بما أراه الله ، رأيتهم يعرضون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضا متعمدا منهم ، وهذه الآية مؤكدة لما دلت عليه الآية التي قبلها من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الطاغوت من أصحاب الأهواء ، لأن حكم الرسول لا يكون إلا حقا متى بينت الدعوى على وجهها ؛ وأما حكم غيره بشريعته فقد يقع فيه الخطأ بجهل القاضى بالحكم ، أو بجهل تطبيقه على الدعوى .

وهي أيضا دالة على أن من أعرض عن حكم الله متعمدا ، ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به ، فإنه يكون مناققا لا يعتقد ما يزعمه من الإيمان ، ولا ما يدعيه من الإسلام .

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) أى فكيف يفعلون إذا أطلعك الله على شأنهم فى إعراضهم عن حكم الله وعن التحاكم إليك ، وتبين أن عملهم يكذب دعواهم ، وأن تلك الحال التى اختاروا فيها التحاكم إلى غير الرسول لا تدوم لهم ، وأنه يوشك أن يقعوا فى مصاب بسبب ما قدمت أيديهم من هذه الأعمال وأمثالها ثم اضطروا إلى الرجوع إليك لتكشفه عنهم واعتذروا عن صدودهم بأنهم ما كانوا يريدون بالتحاكم إلى غير الرسول إلا إحسانا فى المعاملة وتوفيقا بينهم وبين خصومهم بالصلح أو بالجمع بين منفعة الخصمين ويحلفون بالله على ذلك وهم مخادعون .

وفى الآية وعيد شديد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون حين لا ينفعهم الندم ويعتذرون ولا يغنى عنهم الاعتذار .

(أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) هذا أسلوب يستعمل فيما يعظم من خير أو شر ، مسرة أو حزن ، فيقول الرجل لمن يحبه ويحفظ وده : الله يعلم ما فى نفسى لك ، أى إنه لسكرتة وقوته لا يقدر على معرفته إلا الله تعالى ، ويقول فى العدو الماكر المخادع : الله يعلم ما فى قلبه ، أى إن ما فى قلبه من الخبث والخديعة بلغ حدا كبيرا لا يعلمه إلا علام الغيوب .

أى إن ما فى قلوبهم من الكفر والحقد والكيد وترى الدوائر بالمؤمنين بلغ من الفضاة مقداراً لا يحيط به إلا من يعلم السر وأخفى .
(فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً) طلب إليه سبحانه أن يعاملهم بثلاثة أشياء .

(١) الإعراض عنهم وعدم الإقبال عليهم بالبشاشة والتكريم ، إذ هذا يحدث فى نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة ، وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، وإذا استمر هذا الإعراض عنهم ظنوا الظنون وقالوا لعله عرف ما فى نفوسنا ، لعله يريد أن يؤاخذنا بما فى بواطننا .

(٢) النصيح والتذكير بالخير على وجه ترق له قلوبهم وبيعهم على التأمل فيما يلقى إليهم من العظات والزواجر .

(٣) القول البليغ المؤثر فى النفس الذى يغتمون به ويستشعرون منه الخوف بأن يتوعدهم بالقتل والاستئصال إن نجح منهم النفاق ، ويخبرهم بأن ما فى نفوسهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على العليم بالسر والنجوى ، وأنه لافرق بينهم وبين الكفار ، وإنما رفع الله عنهم السيف لأنهم أظهروا الإيمان وأسروا الكفر وأضمره ، فإن فعلوا ما ينكشف به غطاؤهم لم يبق إلا السيف ، وفى الآية شهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالقدرة على بليغ الكلام وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه ، لأن لكل مقام مقالاً والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين ، كما أن فيها شهادة له بالحكمة ووضع الكلام فى مواضعه ، وهذا نحو ما وصف الله به نبيه داود « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخُطَابِ » .

قال القاضى عياض فى كتابه [الشفاء] فى وصف بلاغته صلى الله عليه وسلم :
وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالحل الأرفع ، والموضع الذى لا يجهل ، قد أوتى جوامع الكلم وخص ببدايع الحكم ، وعلم

السنة العرب ، يخاطب كل أمة بلسانها ، ويجاورها بلغتها ... حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موضع عن شرح كلامه وتفسير قوله ... وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى العشار الهمداني وطهفة النهدي والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال حضرموت وملوك اليمن .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

شرح المفردات

إذن الله إعلامه الذى نطق به وحيه وطرق آذانكم - كقوله: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - استغفروا الله أى طلبوا مغفرته وندموا على ما فعلوا ، واستغفر لهم الرسول أى دعا الله أن يغفر لهم ، يحكموك بمملوك حكما ويفوضوا الأمر إليك ، وشجر اختلف واختلط الأمر فيه ، مأخوذ من التفاف الشجر ، فإن الشجر تتداخل بعض أغصانه فى بعض ، حرجا ضيقا ، قضيت حكمت ، التسليم الانقياد والإذعان .

المعنى الجملى

بعد أن أوجب سبحانه فيما سلف طاعة الله وطاعة الرسول وشنع على من رغب عن التحاكم إلى الرسول وآثر عليه التحاكم إلى الطاغوت - ذكر هنا ما هو كالدليل على استحقاق الرسول للطاعة ، وعلى استحقاق المنافقين الذين لم يقبلوا التحاكم لمقت وانخزلان ، لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) أى إن سنتنا فى هذا الرسول كسنتنا فى الرسل قبله ، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله ، فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم خرج عن حكمتنا وسنتنا وارتكب أكبر الآثام .

وجيء بقوله : بإذن الله ، لبيان أن الطاعة الذاتية لا تكون إلا لله رب العالمين لكنه قد أمر أن تطاع رسله فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه .

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) أى ولو أن أولئك القوم حين ظلموا أنفسهم ورغبوا عن حكمك إلى حكم الطاغوت - جاءوك فاستغفروا الله من ذنبيهم وندموا على ما فرط منهم وتابوا توبة نصوحاً ودعا لهم الرسول بالمغفرة لتقبل الله توبتهم وغمرهم بإحسانه ، فرحمته وسعت كل شيء .

وإنما قرن استغفار الرسول باستغفار الله ، لأن ذنبيهم لم يكن ظلماً لأنفسهم فحسب ، بل تعدى إلى إيذاء الرسول من حيث إنهم أعرضوا عن حكمه وهو صاحب الحق فى الحكم وحده ، فكان لا بد فى توبتهم وندمهم على ما فرط منهم أن يظهرُوا ذلك للرسول ليصفح عنهم لأنهم اعتدوا على حقه ، وليدعوا لهم بالمغفرة إذ أعرضوا عن حكمه .

وفى الآية إيماء إلى أن التوبة الصحيحة تقبل حتماً إذا استكملت شرائطها ، ومنها أن تكون عقب الذنب مباشرة ، وقد سمي الله ترك طاعة الرسول ظلماً للأنفس ، أى إفساداً لها لأن الرسول هو الهادى إلى مصالح الناس فى الدنيا والآخرة ، وهذا الظلم شامل للاعتداء والبنى والتحاكم إلى الطاغوت وغير ذلك .

والاستغفار لا يكون مقبولاً إلا إذا ناجى العبد ربه عازماً على اجتناب الذنب وعدم العودة إليه مع الصدق والإخلاص لله فى ذلك - أما الاستغفار باللسان عقب

الذنب دون أن يوجد هذا التوجه بالقلب فلا يكون استغفارا معتدًا به عند الله ،
إذ لا بد أن يشعر القلب أولاً بألم المعصية وسوء مغبتها ، وبال حاجة إلى التزكى من
دنسها ، مع العزم القوي على اجتناب هذا الدنس ، ومتى أخلص الداعي أجاب الله
دعاه بإعطائه ما طلب أو بغيره من الأجر والثواب .

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) أقسم الله تعالى بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن مثلهم من المناققين ، لا يؤمنون إيماناً حقاً وهو
إيمان الإذعان والالقياد إلا إذا كُتبت لهم ثلاث خصال :

(١) أن يحكموا الرسول في القضايا التي يختصمون فيها ويستجرون ولا يتبين لهم
وجه الحق فيها .

(٢) ألا يجدوا حرجاً وضيماً فيما يحكم به أى أن تدعن نفوسهم لقضائه وحكمه
فيما شجر بينهم بلا امتعاض من قبوله والعمل به ، إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره
لحكم الرسول لأول وهلة لأنه الحق وأن الخير والسعادة في الإذعان له .

(٣) الالقياد والتسليم لذلك الحكم ، فكثيراً ما يعرف الشخص أن الحكم
حق لكنه يتردد عن قبوله عنادا أو يتردد في ذلك .

وفي هذه الآية إشارة إلى شيئين :

(١) عصمة النبي صلى الله عليه وسلم بمعنى أنه لا يحكم إلا بالحق المطابق لصورة
الدعوى وظاهرها لاجتنب الواقع في نفسه ، إذ الحكم في شريعته على الظاهر ، والله
يتولى السرائر، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلفل
بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من
النار فليأخذها أو ليرتكها » رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن ، ومن ثم كانوا يسألونه

إذا أمر بأمر لم يظهر لهم أنه الرأى ، أعن وحى هو أم عن رأى ، فإن كان عن وحى أطاعوا وسلموا ، وإن كان عن رأى ذكروا ما عندهم وربما يرجع إليهم كما حدث يوم بدر .

(٢) أنهم لا يكونون مؤمنين إيمانا صحيحا مستحقا للفوز بالثواب والنجاة من العقاب إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم مدعنين فى بواطنهم بصدق الرسول فى كل ما جاء به الدين .

ومن أمانة ذلك أن يحكموه فيما شجر بينهم من خلاف ، وألا يجدوا ضيقا وحرجا فى حكمه ، إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع ، وأن ينقادوا انقيادا كاملا بلا تمرد ولا عناد فى قبوله .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ
مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
وَإَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

شرح المفردات

كتبنا أى فرضنا ، ما يوعظون به : أى من الأوامر والنواهي المقررة بذكر حكمها وأحكامها والوعد لمن عمل بها والوعيد لمن صد عنها ، والتثبت التقوية وجعل الشيء ثابتا راسخا .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه فى سلف أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول فيما شجر بينهم من خلاف مع التسليم والانقياد لحكمه - ذكر هنا قصور كثير من الناس فى ذلك لو هن إسلامهم وضعف إيمانهم .

الإيضاح

(ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) أن اقتلوا أنفسهم أى اقتلوها ، ببضع النفس (الانتحار) - كما أمر بنو إسرائيل بذلك ليتوبوا من عبادة العجل ، وقوله أو اخرجوا من دياركم بالمهجرة إلى بلاد أخرى ، وقوله ما فعلوه أى المأمور به من القتل والهجرة من الوطن .

بين الله لنا فى هذه الآية أن صادق الإيمان هو الذى يطيع الله فى كل ما يأمر به فى السهل والصعب والمحبوب والمكروه ، ولو كان ذلك بقتل النفس والخروج من الديار (الجسم دار الروح والوطن دار الجسم) أما المتناقض فيعبد الله على ما يوافق هواه وشهوته ، فإن أصابه خير اطمأن به ورضى ، وإن ناله أذى انقلب على وجهه وارتد على عقبه وباء بالخسران فى الدنيا والآخرة .

(ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا) أى ولو أنهم فعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه لكان ذلك خيرا لهم فى مصالحهم وأشد تثبيتا لهم فى إيمانهم إذ الأعمال هى التى تطبع الأخلاق والفضائل فى نفس العامل وتبدد الأوهام والخاوف من نفسه ، فبذل المال مثلا آية من آيات الإيمان وقربة من أعظم القرب ، فمن فعله كان مؤمنا إيمانا صادقا ، ومن آمن بذلك ولم يفعله كان علمه بمنافعه ومزاياه له وللأمة والدين علما ناقصا ، فكلمها دعا الداعى إلى البذل طاف به طائف البخل والإمسك ، وعرض له شبح الفقر والإملاق ، أو نقصان المال عن مال بعض الأقران ، لكنه إذا اعتدل البذل صار السخاء خلقا له وسجية ، وقلم امتنع عن فعله حين تدعو الحاجة إليه ، إذ الطاعة تدعو إلى مثلها ، فالمرء يطلب الخير أولا حتى إذا حصّله طلب أن يكون الحاصل ثابتا قويا .

(وإذا آتيناكم من لدنا أجرا عظيما ، ولهديناكم صراطا مستقيما) أى لو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم وامتثلوا ما أمروا به وأخلصوا العمل لأعطيناهم الثواب العظيم من

عندنا ، وكيف لا يكون عظيماً وقد وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ولهديناهم إلى طريق العمل الصالح على الوجه المرضي الموصل إلى الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)
ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

شرح المفردات

الصدّيق من غلب عليه الصدق ، وقيل من صدق في قوله واعتقاده كما قال (واذا ذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) والشهيد هو الذي يشهد بصحة الدين تارة بالحجة والبرهان ، وأخرى بالسيف والسنان ، والصالح من صلحت نفسه وصلاح عمله وغلبت حسناته سيئاته .

المعنى الجملي

بعد أن أمر سبحانه بطاعته وطاعة الرسول ، ثم شنع على الذين تحاكموا إلى الطاغوت ، وصدوا عن الرسول ثم رغب في تلك الطاعة بقوله : لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتها - حث على الطاعة وشوق إليها بذكر مزاياها وبيان حسن عواقبها وأنها منتهى ما اتصل إليه الهمم ، وأرفع ما تشرّب إليه الأعناق .

الإيضاح

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين) أى إن كل من يطع الله ورسوله على الوجه المبين في الآيات

السالفة ويفعل الأوامر ويترك النواهي يكون يوم القيامة مراققا لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات عنه ، وهم الأصناف الأربعة الذين ذكروا في الآية وهم صفوة الله من عباده وقد وجدوا في كل أمة ، ومن أطاع الله ورسوله من هذه الأمة كان منهم وحشر يوم القيامة معهم .

(وحسن أولئك رفيقا) أى إن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين يكونون كالرفقاء له من شدة محبتهم إياه وسرورهم برؤيته .

روى الطبراني وابن مردويه عن عائشة قالت « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنك لأحب إلى من نفسى ، وإنك لأحب إلى من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتى فانظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإنى إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزل جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول) الآية » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن سبب نزولها قول الصحابة : يا رسول الله ما ينبغى لنا أن نفارقتك فى الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا ولم نرك . وقال الكلبي إن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له قليل الصبر عنه ، وقد نحل جسمه وتغير لونه ، خوف عدم رؤيته صلى الله عليه وسلم بعد الموت فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ويؤيد هذه الروايات ما رواه الطبراني مرفوعا « من أحب قوما حشره الله معهم » وما أخرجه الشيخان عن أنس « المرء مع من أحب » وآية المحبة الطاعة كما قال تعالى « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » .

(ذلك الفضل من الله) أى إن هذا الذى ذكر من الجزاء لمن يطيع الله والرسول - هو الفضل الذى لا يعاوه فضل ، فإن السموات إلى إحدى تلك المنازل

في الدنيا ومراقبة أهلها في الآخرة هو منتهى ما يأمله المرء من السعادة ، وبه يتفاضل الناس فيفضل بعضهم بعضا .

(وكفى بالله عليا) أى كفى به سبحانه عليا بالعصاة والمطيعين والمناقطين والمخلصين ومن يصلح لمراقبة هؤلاء ومن لا يصلح ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وليحذر المنافقون المرءون لعلمهم يتذكرون فيتوبوا ، وليطمئن المؤمنون الصادقون لعلمهم ينشطون ويزدادون في الطاعة وابتعدون عن التقصير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)
 وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ يَنْتَعِمُ وَيِنَّهُ مَوْدَّةٌ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)

شرح المفردات

حذركم ، الحذر والحذر كالمثل والمثل : الاحتراس والاستعداد لانتقاء شر العدو ،
 النفر : الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالنزوع عن الشيء وإلى الشيء ، ومن الأول
 « وَاتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تَكُونُ الْأُمَّمُومَةُ فِي هَذَا الْقَرْعِ أَنْ لِيَدَّ كُرُّوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا » ومن الثانى
 النفر إلى الحرب ، والثبات واحدها ثبة : وهى الجماعة المنفردة ، والتبطؤ : يطلق على
 الإبطاء وعلى الحمل على البطء ، والبطء التأخر عن الانبعاث فى السير ، مصيبة كقتل
 وهزيمة ، شهيدا أى حاضرا معهم ، فضل كفتح وغنيمة .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله لنا في هذه السورة كثيرا من الأمور الدينية من عبادة الله وعدم الشرك ، والمدنية كعامله ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين ، والشخصية كأحكام الزواج والمصاهرة والموارث ، بين لنا في هذه الآيات بعض الأحكام الحربية والسياسية ، ورسم لنا الطريق التى نسير عليها فى حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول من الأعداء .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حذرکم) أى احترسوا واستعدوا لانتقاء شر العدو ، بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداده وقوته ، وإذا كان لكم أعداء كثيرون فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف ، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، واعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل فى ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضه وبلاده وأسلحته واستعمالها وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأتقال ، وعلى الجملة اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيه من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات إلى نحو ذلك حتى لا يهاجمكم على غرة أو يهددكم فى دياركم ، وحتى لا يعارضكم فى إقامة دينكم أو دعوتكم إليه .

وقد كان النبی صلى الله عليه وسلم والصحابة على علم بأرض عدوهم ، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار (قلم مخبرات) ولما أخبروه بنقض قريش للعهد (إخلاهم بشروط المعاهدة فى صالح الحديدية) استعد لفتح مكة ولم يفلح أبوسفیان فى تجديد العهد مرة أخرى ، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له .

وقد قال أبو بكر بن خالد بن الوليد فى حرب اليمامة حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح .

ومارواه الحاكم عن عائشة « لا يفتى حذر من قدر » لا يناقض أخذ الحذر ، لأن الأمر بالحذر داخل في القدر فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء لا لندفع القدر ونبتله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات والحذر من جملة الأسباب فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده .

(فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) أى انفروا جماعة إثر جماعة بأن تكونوا فصائل وفرقا - إذا كان الجيش كبيرا أو موقع العدو يستدعى ذلك - أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك على حسب قوة العدو .

والخلاصة - إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق على حسب حال العدو .

وامثال هذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمرن عليها ، وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه فى هذا النضال ، وتعلم كيفية استعماله فى كل زمان بما يناسبه .

ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها لأن تبقى عالة على غيرها ، وعلى الأمة أن تساعد عليها ، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه ، بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإسلامية وضعفها وتوانيتها فى ذلك ، حتى طمعت فيها كل الدول التى تجاورها واجتاحتها من أطرافها واجتثت كثيرا من كورها وأقاليمها .

وقد شدد الدين أيما تشديد فى هذا الأمر فجاء مثل هذا فى قوله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوا اللَّهَ وَعَدُواكُمْ » وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

(وإن منكم لمن ليبطئن) أى ليطئفن ويتأخرن عن الجهاد ، والخطاب لجماعة المؤمنين على حسب الظاهر ومنهم المناقون وضعفة الإيمان والجنباء ، فالمنافقون يرغبون عن الحرب لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله ولا أن يدافعوا عنه ويحموا بيضته

فهم يبطئون عن القتال و يبطئون غيرهم عن النفر إليه ، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خورا وخوفا من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقابلة العدو وهو شاكي السلاح ، ثم فصل الله أحوال هؤلاء الضعفاء قتال :

(فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا) أى قال ذلك للبطيء فرحا بما فعل حامدا رأيه شاكر ربه ، إذا أصابتكم المصيبة من قتل أو هزيمة - إن الله قد أنعم علىّ بالعمود فلم أكن حاضرا معهم فيصيبني مثل ما أصابهم من البلاء والشدة .

(ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) أى ولئن منّ الله عليكم بالظفر وفتح البلاد فغنتم وأخذتم السبايا والأسرى ليقولن قول من ليس منكم ومن لم تجمه مودة بكم - ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ، فهو قد نسي ما يجب عليه من مد يد المعونة إليكم وبذل كل ما يمكنه من نفس أو مال ليتّم ذلك الظفر .

ولكن ضعف إيمانه أو جنبه منعه عن هذا ، إذ هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل وكونه ممن يشرى الحياة الدنيا بالآخرة وفي قوله كأن لم تكن بينكم وبينه مودة تقريع وتوبيخ بألفظ القول وأرق العبارة ، إذ أن قليلا من المودة كان ينبغي أن يمنع مثل هذا التمنى وأن يعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن صاحبه لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ولا ما يصيبهم من جهد و بلاء كأنه يصيبه هو ، مع أن القرآن يصرح بأن المؤمنين إخوة والحديث يدل على أنهم كأعضاء الجسم الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومن فوائد هذا الأسلوب أنه يؤثر في نفس سامعه تأثيرا لا يدنو من مثله الطعن بهجر القول ، إذ يدعو صاحبه إلى التأمل والتفكير في حقيقة حاله ومعاينة نفسه ، والتوبة إلى ربه والرجوع إلى أوامر دينه .

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ
يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ،
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ،
فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

شرح المفردات

سبيل الله : هي تأييد الحق والانتصار له بإعلاء كلمة الدين ونشر دعوته ودفاع الأعداء
إذا هددوا أمتنا أو أغاروا على أرضنا أو نهبوا أموالنا أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع
الناس ، ويشرون يبيعون كما جاء في قوله « وَشَرَوْهُ بِشَمْنٍ بَخْسٍ » وقوله « وَلَيْسَمَا
شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » وقوله « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ »
والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة حقوق الحق والعدل والخير إلى الباطل والظلم
والشر ، والكييد : السعي في الفساد على وجه الحيلة .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله عز اسمه حال ضعفاء الإيمان الذين يبطلون عن القتال في سبيله -
دلهم بهذه الآية على طريق تطهير نفوسهم من ذلك الذنب العظيم ذنب التعود عن
القتال وأمر به إثارة لما عند الله من الأجر والثواب على ما في الدنيا من نعيم زائل
وعرض يفنى .

الإيضاح

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى فليقاتل في سبيل الله من أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويبيدها ويجعل الآخرة ثمنها وعوضا منها ، لأنه يكون قد أعز دين الله وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى والله عزيز ذو انتقام .

(ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) أى ومن يقاتل في سبيله فيظفر به عدوه أو يظفر هو بعدوه فإن الله سيؤتيه أجراً عظيماً من عنده خالداً أبداً في دار الجزاء ، وفي الآية إيماء إلى شرف الجهاد لأنه إنما كان في سبيل الحق والعدل والخير لا في سبيل الهوى والطمع ، كما أن فيها إيماء إلى أنه ينبغي للمقاتل أن يوطن نفسه على أحد الأمرين إما أن يقتله العدو ويكرم نفسه بالشهادة وإما أن يظفر به فيعز كلمة الحق والدين ولا يحدث نفسه بالهرب بحال ، لأنه إن فعل ذلك فما أسرع ما يقع في ذلك الفخ الذى نصبه لنفسه .

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) أى أى عذر لكم يمنعكم أن تقاتلوا في سبيل الله لتقيموا التوحيد مقام الشرك وتحلوا الخير محل الشر وتضعوا العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة ، وفي هذا حث شديد على القتال لكونه في سبيل الحق .

(والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى وفي سبيل المستضعفين إخوانكم في الدين الذين استذلهم أهل مكة الأقوياء الجبابرة وآذوهم أشد الأذى ليمنعوهم من الهجرة ويفتنوهم عن دينهم ويردوهم في ملتهم .

وقد جعل الله هؤلاء سبيلاً لإثارة النخوة وهز الأريحية وإيقاظ شعور الرحمة والأنفة .

وقد وصفهم الله بما يجعل نفس الحر تستعمل جماسة وغيره على إنقاذهم والسعى في رفع الظلم عنهم فقال :

(الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى إن هؤلاء المستضعفين فقدوا النصير والمعين وتقطعت بهم أسباب الرجاء فاستغاثوا بربهم ودعوه ليفرج كربهم ويخرجهم من تلك القرية (مكة) لظلم أهلها لهم ويسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم وينصرهم على من ظلمهم فيتمكنوا بذلك من الهجرة إليكم ويرتبطوا بكم أقوى الروابط وهى رابطة الإيمان فهى أقوى من رابطة الأنساب والأوطان ، وما كل أحد من المسلمين قدر على الهجرة فقد كانوا يصدونهم عنها ويعذبون مريديها عذابا شديدا ، وما شرع القتال إلا لعدم حرية الدين وظلم المشركين للمسلمين ، فالقتال قبيح ولا يجيزه العقل السليم إلا لإزالة قبيح أشد منه ضررا والأمور بمقاصدها وغاياتها كما قال :

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت)
أى إن المؤمنين إنما يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق والكافرين إنما يقاتلون اتباعا لوسوسة الشيطان وتزينا للكفر ، فلو ترك المؤمنون القتال لغلب الطغيان وعم الفساد « **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ** » .

(فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) أى فقاتلوا أيها المؤمنون أولياء الرحمن - أولياء الشيطان الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه أن فى الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفا لهم أيما شرف .

وقد جرت سنة الله أن الحق يعالو والباطل يسفل ، وأن الذى يبقى هو الأصالح والأمثل ، فالذين يقاتلون فى سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العمران ، والذين يقاتلون فى سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم ، وسنن العمران تأبى ذلك فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء ، إلا لنومة أهل الحق عن حقتهم ، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم تغلب الحق على الباطل وورده خاسئا محسورا .

إلى أن الذين يقاتلون في تأييد الحق تتوجه همهم إلى إتمام الاستعداد ويكونون أجدر بالثبات والصبر ، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعدد .
وهذا في الحروب الدينية التي قد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة ، ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدينة قدوة لهم وإماما في أعمالهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ، لَوْلَا
أُخِّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى
وَلَا تُظَاهَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ
تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَّا لِهَؤُلَاءِ
الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى
بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

شرح المفردات

كفوا أيديكم أي عن القتال ، كتب عليهم أي أمروا به ، يخشون الناس أي يخافون أن يقتلهم المشركون ، خشية الله أي كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه .

وعذابه ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب أى هلا تركتنا حتى نموت حتف أنوفنا بأجالنا القريبة ، متاع الدنيا ما يستمتعون به من لذاتها ، قليل أى سريع الزوال ، أينما تكونوا يدرككم الموت أى فى أى مكان كنتم يلحقكم الموت ، البروج المشيدة القصور العالية المطلية بالشيء وهو الجص ، أو الحصون والقلاع المتينة التى تعتصم فيها حامية الجند حسنة أى شىء يحسن عند صاحبه كالرضاء والخصب والظفر بالغنيمة ، سيئة هى ما تسوء صاحبها كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجرح والقتل ، يفهمون حديثا يفهمون كلاما يوعظون به .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له وذكر حال المبطلين الذين ضعفت قلوبهم وأمرهم بالقتال فى سبيله وفى سبيل إنقاذ المستضعفين . ذكر هنا أن الإسلام كلفهم ترك ما كانوا عليه فى الجاهلية من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ولا سيما بين قبيلتي الأوس والخزرج فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجيء الإسلام ، وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم ، وطلب إليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة حتى خمدت من نفوس كثير منهم حمية الجاهلية وحل محلها شريف العواطف الإنسانية ، إلى أن اشتدت الحاجة الى القتال للذود عن بيضة الإسلام ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين وأحبوا فتنهم فى دينهم ورددتهم إلى ما كانوا عليه ، فقرضه عليهم فكرهه المناقون والضعفاء فعنى الله عليهم ذلك ووبخهم أشد التوبيخ .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) الخطاب لجماعة

المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء ، أى ألم تر إلى أولئك الذين أمرهم الله بحققن الدماء وكف الأيدي من الاعتداء ، وإقامة الصلاة والخشوع والعبودية لله ، وإيتاء الزكاة التى تمكن الإيمان فى القلوب وتشد أواصر التراجم بين الخلق ، وقد كانوا من قبل ذوى إحن وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ، فلما جاء الإسلام أحبوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه ، ولكن حين كتب عليهم كرهه الضعفاء منهم وخافوا أن يقاتلهم الكفار وينزلوا بهم النكال والوبال ، كما خافوا أن ينزل الله بهم بأسه وعقابه ، بل رجح خوفهم من الناس على خوفهم من الله .

(وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) أى وقالوا ربنا لماذا كتبت علينا القتال فى هذا الوقت ، هلا نموت حتف أنوفنا موتا طبيعيا ، وربما لا يكونون قد قصدوا وقتا معيناً بل قصدوا من ذلك الحرب والتفصى عن القتال كما تقول لمن يرهقك عسرا فى أمره أمهلنى قليلا ، أنظرنى إلى أجل ، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم شبهتهم فقال :

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) أى إن طلبكم للانظار إنما هو خشية الموت والرغبة فى متاع الدنيا ولذاتها ، مع أن كل ما يتمتع به فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى متاع الآخرة لأنه محدود فان، ومتاع الآخرة كثير باق ولا يناله إلا من اتقى الله وابتعد عن الأسباب التى تدنس النفس بالشرك وبالأخلاق الذميمة ، فحاسبوا أنفسكم واعلموا أنكم ستجزون بأعمالكم إن خيرا نغير وإن شرا فشر .

(ولا تظلمون فتيلا) أى ولا تنقصون من الجزاء على أعمالكم مقدار فتيل - والفتيل ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط وبه يضرب المثل فى القلة والحقارة - .
(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) أى إن الموت أمر محتم لا مهرب منه ، فهو لا بد أن يدرككم فى أى مكان ولو تحصنتم فى شواهدق القصور التى يسكنها ذوو الثراء والنعمة أو فى القلاع والحصون التى تقطنها حامية الجند ، وإذا كان الموت لا مفر منه وكان المرء قد يقتحم غمار الوغى ولا يصاب بالأذى ،

وقد يموت المعتصم في البروج والحصون وهو في غضارة العيش فلا عذر لكم أيها المثبطون المبطلون ، ولماذا تختارون لأنفسكم الحقير على العظيم ؟ ولماذا لا تدافعون عن الحق وتمنعون الشر أن يفسح حتى تستحقوا مرضاة الله وسعادة الآخرة ؟ ولماذا تكرهون القتال وتجنون وتخافون الناس وتتمنون البقاء ، أليس هذا بضعف في الدين وركعة في العقل وخور في العزيمة تؤاخذون بها وتقوم عليكم بها الحجة ، ثم ذكر سبحانه شأننا آخر من شئونهم أشد دلالة على الحق وضعف العقل ومرض القلب فقال (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله) أى إن أصابهم رخاء ونعمة قالوا إن الله أكرمهم بها عناية بهم وليس لهداية الرسول أثر في ذلك ، وإن أصابهم شدة وجهد قالوا هذا من شؤم محمد علينا ، وهذه مقالة اليهود والمنافقين حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وأصابهم القحط والجذب ، وهذا زعم باطل منهم ، فكل من النعمة والبلية من عند الله خلقا وإيجادا يقع في ملكه على حسب السنن التي وضعها والأسباب والمسببات التي أوجدها .

(فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) أى ماذا أصاب هؤلاء القوم وماذا دهام في عقولهم ، فهم لا يعقلون حقيقة ما يلقونه من الحديث ولا ما يلقى إليهم ، وإنما يأخذون بما يطفو من المعنى بادية الرأي دون تمحيص ولا تحقيق وإذا كانوا قد حرموا هذا الفقه من كل حديث ، فما أحرام أن يحرموه من حديث يبلاغه الرسول عن ربه في الإخبار عن نظم الاجتماع وارتباط الأسباب بالمسببات ، وعمّا أحاط الله به المصطفين الأخيار من وافر الفضل وخصهم به جميل الرعاية ، فتلك الحكم العالية لاتنال إلا بفضل الروية وطول الأناة والتدبير ، ومن وصل إلى هذا القدر من الفهم لا يقول إن السيئة لاتقع بشؤم أحد ، بل ينسب كل شيء إلى سببه .

وفي الآيه إيحاء إلى أن حصيف الرأي يجب أن يطلب فقه القول دون الأخذ بالتحمل والظواهر إذ من قنع بذلك بقي في عماية ويظل طوال دهره غيرا جاهلا بما يحيط به من نظم هذا العالم .

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود منه من أرسل إليهم .

أى إن كل حسنة تصيبك أيها المؤمن فهي من فضل الله وجوده ، فهو الذى سخر لك المنافع التى تتمتع بها وتحسن لديك ، فقد سخر لك الهواء الذى يحفظ الحياة ، والماء العذب الذى يمد كل الأحياء ، وأزواج النبات والحيوان وغيرهما من مواد الغذاء ، وأنعم عليك بوسائل الراحة والهناء ؛ وكل سيئة تصيبك فهي من نفسك فإنك بما أوتيت من قدرة على العمل واختيار فى درء المفاسد وجلب المنافع وترجيح لبعض المقاصد على بعض قد تخطئ فى معرفة ما يسوء وما ينفع ، لأنك لاتضبط إرادتك وهواك ولا تحيط علما بالسنن والأسباب ، فأنت ترجح بعضا على بعض إما بالهوى أو قبل أن تحيط خبرا بمعرفة النافع والضار فتقع فيما يسوء .

والخلاصة — أن هاهنا شيئين لا بد من معرفتهما :

(١) أن كل شيء من عند الله على معنى أنه خالق الأشياء وواضع النظام والسنن للوصول إلى هذه الأشياء بسعى الإنسان وكسبه ، وكل شيء حسن بهذا الاعتبار لأنه مظهر الإبداع والنظام .

(٢) أن الإنسان لا يقع فيما يسوءه إلا بتقصير منه فى معرفة السنن والأسباب ، فالسوء إنما ينسب إلى الأشياء بتصرف الإنسان باعتبار أنها تسوءه وليس بذاتى لها ومن ثم ينسب ذلك إلى الإنسان ، فالمرض مثلا يسوءه ، وهو إنما يكون بتقصيره فى السير على نهج الفطرة فى التغذية ، فقد يكون من تخمة قادته إليها شهوته أو من إفراط فى تعب أو راحة أو من تعرض للبرد القارس أو للحر الشديد أو نحو أولئك من الأسباب التى ترجع كلها إلى بسوء الاختيار ، كما أن الأمراض الموروثة هي من جنابة الإنسان على الإنسان فهي من نفسه أيضا لامن أصل الفطرة والطبيعة التى هي محض خلق الله دون اختيار الإنسان لنفسه ، فالولدان قد يجنبان على

المرء بتعريض أنفسهما للمرض الذى انتقل إلى نسلهما بالوراثة ، كما يجنيان عليه في صغره بعدم وقايته من أسبابه حين يكون اختيارها له تاما قائما مقام اختياره لنفسه . وكذلك أحيانا تسند الأشياء جميعها إلى الله ويقال إنها من عنده بمعنى أنه هو الخالق لها والواضع لسنن الأسباب والمسببات فيها .

ويسند إلى الإنسان منها كل ماله فيه كسب وعمل اختياري سواء كان من الحسنات والسيئات ، وقد مضى بهذا كلام الناس وأيدته نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وبهذا الاعتبار يقال إصابة الحسنة من فضل الله تعالى مطلقا وإصابة السيئة من نفس الإنسان مطلقا ولكل من الاطلاقين مقام يقال فيه ، والمقام الذى سيقت له الآية في بيان نفي الشؤم والتطير وإبطلها ليعلم الناس أن ما يصيبهم من السيئات لا يكون بشؤم أحد وكانوا يتشاءمون ويتطيرون في الجاهلية ، وقد أبطل ذلك الإسلام لكنه لا يزال فاشيا إلى الآن .

وينبغى للإنسان حينما تصيبه سيئة أن يبحث عن سببها من نفسه ، لأنها إنما تصيبه لجهله بالسنن التى وضعها الله من التماس المنافع من أسبابها واتقاء المضار بالبعد عن أسبابها بترجيحه فعل ما ينفع على فعل ما يضر .

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه مما يجلب النقم ، وطاعته إنما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله ، وهذه الآية أصل من أصول الاجتماع وعلم النفس وفيها شفاء للناس من خرافات الوثنية ، وارتفاع وتكريم للنفس الإنسانية .

(وأرسلناك للناس رسولا) والرسول ليس عليه إلا البلاغ وليس له دخل فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات ، لأنه لم يرسل إلا للتبليغ والهداية للتصرف في نظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها ، فما زعمه أولئك الجاهلون من أن السيئة

تصبيهم بشؤمه ، محض خرافة لامستند لها من عقل أو نقل ومخالف لما بينه الله تعالى من وظيفة الرسل .

(وكفى بالله شهيدا) أنك أرسلت للناس كافة بشيرا ونذيرا لا مسيطرا ولا جبارا ولا مغيرا لنظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَكَانَ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

المعنى الجملى

بعد أن أمر فيما تقدم بطاعة الله وطاعة الرسول وبين جزاء المطيع وأحوال الناس في هذه الطاعة على حسب قوة الإيمان وضعفه ، ثم أمر بالقتال وبين مراتب الناس في الامتثال له ، أعاد هنا الأمر بالطاعة وبين أنها أولا وبالذات لله ولغيره بالتبع ، وبين ضروب مراوغة الضعفاء والمنافقين .

الإيضاح

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) أى إن من أطاع الرسول فقد أطاع الله لأنه الأمر والنهى فى الحقيقة ، والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له

بالذات وإنما هي لمن بلغ عنه ، إذ قد جرت سنته سبحانه ألا يأمر الناس ولا ينهاهم إلا بواسطة رسل منهم يفهمون عنهم ما يوحيه إليهم ليلفوه عنه .

أما ما يقوله الرسول من تلقاء نفسه وما يأمر به مما يستحسنه باجتهاده ورأيه من أمور المعيشة كتأبير النخل (تليقحه بطلع الذكر) ونحوه مما يسميه العلماء أمر إرشاد ، فطاعته فيه ليست من الفرائض التي فرضها الله لأنه ليس ديناً ولا شرعاً عنه تعالى فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكيل الطعام كالتمح وغيره من الحبوب عند طحنه وعند عجنه وهو من التدبير والاقتصاد في البيوت ، وأكثر المساهمين أهملوه إلا من تعود منهم التدبير وحسن التقدير في المنازل ، وكذلك أمر بأكل الزيت والأدهان به . وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا شكوا في الأمر أمن عند الله هو أم من رأى الرسول واجتهاده ؟ وكان لهم في ذلك رأى آخر سأله ، فإن أجابهم بأنه من الله أطاعوه بلا تردد ، وإن قال إنه من رأيه ذكروا رأيهم وربما رجع النبي صلى الله عليه وسلم عن رأيه إلى رأيهم كما فعل في بدر وأحد .

روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول « من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله ، فقال المنافقون ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك ، قد نهى أن نعبد غير الله ويريد أن تتخذة ربا كما اتخذت النصراني عيسى ، فأنزل الله هذه الآية » .

فالمؤمن حقاً لا يكون خاضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه ، والخروج عن ذلك شرك ، وهو نوعان :

- (١) أن ترى لبعض المخلوقات ساطة غيبية وراء الأسباب العادية ، ومن ثم ترجو نفعها وتخاف ضررها وتدعوها وتذل لها ، وذلك هو الشرك في الألوهية .
- (٢) أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحرير ، كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون ، وذلك هو الشرك في الربوبية .

ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفساً وأعظهم كرامة ، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم ولا حاكم مستعبد إذ هو يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى يخضعون لأمره وأن ذلك منتهى سعادتهم في الدارين .

(ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) أى ومن أعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس لك أن تكرهه عليها ، لأنك ما أرسلت إلا مبشراً ونذيراً ولم ترسل مسيطراً أورقياً تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم ، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار .

(ويقولون طاعة) أى ويقول ذلك الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، إذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر : أمرك طاعة - أى أمرك مطاع ، إظهاراً لكمال الاتقياد والخضوع .

(فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول) البراز - بفتح الباء - الأرض الفضاء والتبئيت ما يدبر فى الليل من رأى ونية وعزم على عمل ومنه تبئيت العدو للإيقاع به ليلاً أى إذا خرجوا من المكان الذى يكونون معك فيه إلى البراز وهم منصرفون إلى بيوتهم ، دبر جماعة منهم ليلاً غير الذى قالوا لك وأظهروه من الطاعة نهارة .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال هم ناس يقولون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دماءهم وأموالهم ، وإذا برزوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعاتبهم الله على ذلك . (والله يكتب ما يبيتون) أى يبينه لك فى كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآيات ، وفى هذا من التهديد الشئ الكثير .

(فأعرض عنهم) ولا تهمّ بما يبيتون ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا . (وتوكل على الله) أى فوض الأمر إليه وثق به فى جميع أمورك ، فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم .

(وكفى بالله وكيفا) لمن توكل عليه ، فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم ، وعليم بمقدار ما يستحقون منه ، لا يعجزه منه شيء .

(أفلا يتدبرون القرآن) أصل التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها ، ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرا في حقيقة الشيء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعاقبه ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكير في غايته ومقاصده التي يرمى إليها ، وعاقبه من يعمل به ومن يخالفه .

أي أجهل هؤلاء القوم حقيقة الرسالة وكنه هذه الهداية فلا يتدبرون القرآن الذي يدل على حقيقتها ؟ ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم وأن ما وعده المتقين الصادقين وما أئذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة ، فهو إذ صدق في الإخبار عما يبيتون في أنفسهم من القول يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم والوبال والنكال في عاقبتهم .

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أي ولو كان من عندك لامن عند الله الذي أرسله به لوجدوا فيه اختلافا كثيرا لأسباب كثيرة :

(١) أن أي مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت في شيء منها .

(٢) أنه حكى عن الماضي الذي لم يشاهده محمد صلى الله عليه وسلم ولم يقف على تاريخه ، وعن الآتي فوقع كما أنبأ به ، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر كما أخبر عما يبتته هذه الطائفة مخالفا لما تقول للرسول أو ما يقوله لها فتقبله في حضرته وترفضه في غيبته .

(٣) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك .

(٤) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله في سنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع الملل والأقوام مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة

بالعبارات البليغة تنويعا للعبارة وتلوينا للموعظة ، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق ، وبراءته من الاختلاف والتناقض .

(٥) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السموات ، فقد تكلم على الخلق والتكوين ووصف جميع الكائنات كالكوكب ونظامها والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات ، وكان في كل ذلك يؤيد بعضه بعضا لانتفاوت فيه ، ولا اختلاف بين معانيه .

(٦) أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل ، وكان في كل ذلك جاريا على سنة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح ، مع الائتمام بين الآيات الكثيرة وهو غاية الغايات في ذلك عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

هذا إلى أنه نزل منجما على حسب الوقائع والأحوال ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا وهو يحفظه حفظا ، وقد جرت العادة بأن من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق له في السنين الطوال ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقا للأول مع أن بعض الآيات كان ينزل في أيام الحزن والسكران وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام .

إلى أن كر الغداة ومر العشى لا يزيده إلا جدّة ولا يزيده أحكامه إلا ثباتا ورسوخا ، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ونمت أحوال العمران زاد إيمان الناس به إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم وتظاير أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون .

والخلاصة — أن تدبر القرآن وتأمل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم وصراط الحق المستقيم ، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله وإلى وجوب الاهتداء به

وإلى أنه معقول في نفسه موافق للفطرة ملائم للمصلحة وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة .

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم واستبد حكامهم ، ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة في معاشهم على سواهم .

وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة في السياسة والقضاء والإدارة ، وتتبعهم فيها سائر الأمة .

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ ، وَ لَوْ رَدُّهُ إِلَى
الرَّسُولِ ، وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْ لَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

تفسير المفردات

أذاع الشيء وأذاع به : نشره وأشاعه بين الناس ، ورد الشيء : أرجعه وأعاد ، والاستنباط : استخراج ما كان مستترا عن الأبصار ، فضل الله : هو هدايتكم بطاعة الرسول ، إلقاء أي قليلا ممن أتوا صفاء الفطرة وسلامتها .

المعنى الجملي

قال ابن جرير : إن هذه الآية نزلت في الطائفة التي كانت تبيت غير ما يقول لها الرسول أو تقول له اه . ولا يبعد أن تكون في جمهور المسلمين بلا تعيين ، لأن المشاهد في أحوال الناس أن الإذاعة بمثل أخبار الأمن والخوف لا تكون من دأب المنافقين خاصة ، بل هي مما يلهج به الناس في مختلف البيئات على حسب المناسبات وإن كانت

تختلف نياتهم ، فالمنافق قد يذيع ما يذيعه لأجل الضرر ، وضعيف الإيمان قد يذيع استشفاء مما في صدره من الإحن والبغضاء ، وغيرها قد يذيع رغبة في كشف الأسرار وابتلاء الأخبار ، وهذا أمر معتاد بين الناس وهو كثير الضرر إذا شغلوا به عن أعمالهم وضرره أكثر إذا أذاعوه وعلمه جواسيس العدو لما يكون لذلك من العواقب الوخيمة على الأمة ، ومثل ذلك سائر الأمور السياسية والشؤون العامة التي لا ينبغي أن تعدو الخاصة وتصل إلى العامة .

الإيضاح

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) هذا بيان لجناية ضعفاء الإيمان إر بيان جنابة المنافقين .

أى إن هؤلاء قد بلغ من طيشهم وخفة أحلامهم أن كل خير يصل إليهم يستفزهم ويطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس ، سواء أكان من ناحية الجيش الذى يغزو ويقا تل العدو ، أو من ناحية المركز العام للسلطة ، ولا ينبغي أن تشيع العامة أخبار الحرب وأسرارها ، ولا أن تخوض فى السياسة العامة للدولة لأن ذلك مضرة لها ومفسدة لشؤونها ومرافقها العامة وعلاقاتها مع غيرها من الأمم ، إلى أن فى ذلك مشغلة لهم عن شؤونهم الخاصة وضياع زمن كانوا فيه أحوج إلى العمل بما يفيدهم ويفيد الأمة .

(ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى ولو أن أولئك المذيعين فوضوا الكلام فى الأمور العامة إلى الرسول وهو الإمام الأعظم والقائد العام فى الحرب ، وإلى أولى الأمر من أهل الحل والعقد ورجال الشورى لوجدوا علم ذلك عندهم لأنهم هم الذين يستنبطون مثله ويستخرجون خفاياه بدقة نظرهم ، إذ لكل طائفة منهم استعداد للإحاطة ببعض المسائل المتعلقة بسياسة الأمة دون بعض ، فهذا إحصائى فى المسائل المالية ، وذلك فى الأمور القضائية ، وذلك

في بناء القناطر والجسور ، ورابع في شؤون الحرب ، وكل هذه المسائل يدرسها رجال الشورى [مجلس الوزراء بالاصطلاح العصرى] ويستنبطون منها ما يكون فيه المصلحة للدولة وينفذونه ، ولا ينبغي أن تذيبه العامة لما في ذلك من الضرر بها من سائر الوجوه والاعتبارات .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم إذ هذا كم لطاعة الله والرسول ظاهرا وباطنا ، ورد الأمور العامة إلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم ، لاتبعتم وسوسة الشيطان كما اتبعته تلك الطائفة التى تقول للرسول طاعة لك وتبيت غير ذلك والتى تذيب أمر الأمن والخوف وتفسد على الأمة سياستها به وأخذتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذررون ولم تهتدوا إلى الصواب ، إلا قليلا منكم ممن استنارت عقولهم بنور الإيمان وعرفوا الأحكام بالاعتباس من مشكاة النبوة كأبى بكر وعلى ، فهى كقوله تعالى « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَ مِنْكُمْ مِنَ أَحَدٍ أَبَدًا » .

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ،
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَى بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (١٤)

تفسير المفردات

التحريض : الحث على الشئ بتزيينه وتسهيل الأمر فيه ، والبأس : القوة
وكان بأس الكافرين متجها إلى إذلال المؤمنين لإيمانهم ، والتنكيل : معاقبة المجرم
بما يكون فيه عبرة ونكال لغيره بحيث يمنع أن يفعل مثل فعله .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالجهاد ورغب فيه أشد الترغيب ، وذكر قلة رغبة المناقنين فيه وسعيهم فى تثبيط المسلمين عنه ، عاد هنا إلى الأمر به مرة أخرى .

الإيضاح

(فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين) أى وإذا أردت الفوز والظفر على الأعداء فقاتل فى سبيل الله امتثالاً لأمره ، وأنت لا تكلف إلا أفعال نفسك دون أفعال الذين قالوا : لم كتبت علينا القتال ؟ والذين يقولون لك طاعة ويبيتون غير ذلك ، فمن أطاع الله لا يضره عصيان من عصاه ، وعليك أن تحت غيرك على القتال وتحرضه عليه ، لا أن تلزمه ذلك بالقهر والجبروت .

وفى الآية إيماء إلى أنه صلى الله عليه وسلم كلف قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم وإن كان وحده ، كما أنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الشجاعة ما لم يعط أحد من العالمين ، وفى سيرته الشريفة أصدق الأدلة على ذلك فقد تصدى لمقاومة الناس جميعاً بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال ، وحين قاتلوه قاتلهم وقد انهزم عنه أصحابه فى أحد فبقى ثابتاً كالجبل لا يتزلزل .

(عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) عسى هنا للتهيئة والإعداد فهى بمعنى الخبر والوعد ، وخبره تعالى حق فإنه لا يخلف الميعاد .

والمعنى — إن تحريض النبي للمؤمنين على القتال معه هو الذى يحملهم بباعث الإيمان والإذعان النفسى على الاستعداد له وتوطين النفس عليه ، بينما هو يعد الكافرين لترك الاعتداء على المؤمنين وكف بأسهم عنهم ، إذ لاشئ أدعى إلى ترك القتال من الاستعداد للقتال كما قال أبو تمام :

وأخافكم كى تعمدوا أسيافكم إن الدم المغبرّ يحرسه الدم

وعلى هذا النحو جرى عمل الممالك الكبيرة في هذا العصر ، فكل دولة منها تبذل منتهى ما في وسعها من اتخاذ العُدَّة والعتاد في البر والبحر وتنظيم الجيوش لتكون القوى بينها متوازنة ولا تطمع القوية في الضعيفة إذ يفريها ضعفها بالإقدام على حربها (والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً) أى لا تخافوا بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم ولا يصدنكم ذلك عن طاعة الرسول والعمل بتحريضه ، فإن الله الذى وعد الرسول بالنصر أشد منهم بأساً وأشد منهم تنكيلاً ، وقد جرت سنته أن تكون العاقبة للمتقين ما استمسكوا بأوامره وتركوا نواهيه وأعدوا العدة مع الصبر والثبات والتباعد عن أسباب الخذلان والفشل .

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)

تفسير المفردات

قال الراغب : الشفع ضم الشيء إلى مثله ، والشفاعة : الانضمام إلى آخر ناصر له وسائلا عنه ، نصيب : حظ ، كفل : نصيب ، مقميتا أى مقتدرا أو حافظا أو شاهدا . قال الراغب : وحقيقته قائما عليه يحفظه ويعينه فهو مأخوذ من القوت وهو ما يمسك الرمح من الرزق وتحفظ به الحياة ، يقال قاته يقوته إذا أطعمه قوته ، وأقانه يقيته إذا جعل له ما يقوته ، والتحية : مصدر حياه إذا قال له حياك الله ، وهى فى الأصل الدعاء بالحياة ثم صار اسما لكل دعاء وثناء كقولهم : أنعم صباحا وأنعم مساء وعم صباحا

وعم مساء ، وجعل الشارع تحية المسلمين (السلام عليكم) إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان ، الحسيب : المحاسب على العمل كالجليس بمعنى المجالس وقد يراد به المكافئ والسكافي من قولهم حسبك كذا إذا كان يكفيك .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى نبيه أن يحرض المؤمنين على الجهاد وذكر أنه ليس عليه وزر ممن تمرد وعصى — بين في هذه الآية أنهم حين أطاعوك ولبوا دعوتك أصابهم من هذه الطاعة خير كثير ، وأن لك من هذا الخير نصيبا تستحق عليه الأجر لأنك قد بذلت الجهد فى ترغيبهم فيه بجعل نفسك شفيعاً ونصيراً لهم فى الوصول إلى تحصيل هذه الأغراض الشريفة .

الايضاح

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أى من يجعل نفسه شفيعاً لك ويناصرک فى القتال — وقد أمرت به وحدك — يكن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة فى الدنيا عند ما ينتصر الحق على الباطل ، وبما يناله من الثواب فى الآخرة فى جميع الحالات سواء أدرك النصر فى الدنيا أم لم يدركه ، ووصف الشفاعة بالحسنة لأنها تأييد ونصر للحق ، ومثل هذا كل من يعاون فاعل الخير ويساعده .

(ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أى ومن ينضم إلى عدوك فيقاتل معه أو يخذل المؤمنين عن قتاله يكن له نصيب من سوء العاقبة بما يناله من الخذلان فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وهذه هى الشفاعة السيئة لأنها إغانة على السيئات ، وسمى هذا النصيب كفلاً لأنه نصيب مكفول للشافع إذ هو أثر عمله ، أو محدود لأنه على قدره .

وانخلاصة — أن من ينضم إلى غيره معينا له فى فعل حسن يكن له منه نصيب ، ومن ينضم إلى غيره معينا له فى فعل سيئ يناله منه سوء وشدة .

ويدخل في الآية شفاعة الناس بعضهم لبعض ، وهي قسيان : حسنة ، وسيئة ؛
فالحسنة أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظلمة عن مظلوم أو جر منفعة إلى مستحق
ليس في جرّها إليه ضرر ولا ضرار ؛ والسيئة أن يشفع في إسقاط حد أو هضم حق
أو إعطائه لغير مستحق أو محاباة في عمل بما يوصل إلى الخلل والزلل ، ولأجل هذا قال
العلماء : الشفاعة الحسنة ما كانت فيما استحسنته الشرع ، والسيئة فيما كرهه أو حرّمه .
وفي الآية من العبرة لنا أن نتذكر أن الحاكم العادل لا تنفع الشفاعة عنده
إلا بإخباره بما لم يكن يعلم من مظلمة المشفوع له أو استحقاقه لما يطلب له ، ولا يقبل
الشفاعة لإرضاء الشافع فيما يخالف الحق والعدل ويخالف المصلحة العامة .

أما الحاكم الظالم فتروج عنده الشفاعات لأنه يجابى أعوانه المقرين منه ليكونوا
شركاء له في استبداده ليثبتوا على خدمته وإخلاصهم له ، والحكومات التي تروج
فيها الشفاعات وتعتمد عليها الرعية في كل ما تطلب تضيع فيها الحقوق ويحل الظلم محل
العدل ويسرى من الدولة إلى الأمة فيعم فيها الفساد ويختل نظام الأعمال .

(وكان الله على كل شيء مقيتا) أي وكان الله مقتدرا على كل شيء فهو
لا يعجزه أن يعطى الشافع نصيبا وكفلا من شفاعته على قدرها في النفع والضرر ،
ويجازى كلاً بما يستحق ، لأن سننه قد قضت بأن يربط الجزاء بالعمل .

وبعد أن علم الله المؤمنين طريق الشفاعة الحسنة والسيئة وهي من أسباب التواصل
بين الناس ، علمهم سنة التحية بينهم وبين إخوانهم ليؤدّبهم بأدب دينه ويزكّيهم
ويطهر نفوسهم من الغل والحسد فقال :

(وإذا حيّمت بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) أي إذا حياكم أحد بتحية
فردوها بتحية مثلها ، أو بتحية أحسن منها ، فقولوا لمن قال : السلام عليكم - وعليكم
السلام ، أو وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا قال هذا في تحيته فالأحسن أن تقولوا :
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وهكذا يزيد الحبيب على المبتدى كلمة أو أكثر .

وقد يكون حسن الجواب بمعناه أو كيفية أدائه وإن كان يمثل لفظ المبتدئ^٢ بالتحية أو مساويه في الألفاظ أو أخصر منه ، فمن قال لك السلام عليكم بصوت خافت يشعر بقلّة العناية فقلت له وعليكم السلام بصوت أرفع وبقبال يشعر بالعناية وزيادة الإقبال والتكريم كنت قد حينته بتحية أحسن من تحيته في صفتها ، وإن كانت مثلها في لفظها .

والمختلصة — أن الجواب عن التحية له مرتبتان : أدناها ردها بعينها ، وأعلىها الجواب عنها بأحسن منها ، والمجيب مخير بينهما ، وقد روى ابن جرير عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً فإن الله يقول (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) ومن قال لخصمه السلام عليكم فقد آمنه على نفسه وكانت العرب تقصد هذا المعنى والوفاء من شيمتها ، وبعض المسلمين الآن يكره أن يحييهم غيرهم بلفظ السلام ، كما يكرهون رد السلام على غير المسلم ، وكأنهم غفلوا عن أن الآداب الإسلامية إذا ألفت عرفوا فضل الإسلام وجذبهم ذلك إليه .

والسنة أن يسلم القادم على من يقدم عليه ، وإذا تلاق الرجلان يبدأ الكبير في السن أو القدر بالسلام ، وقد جاء في الصحيحين أنه « يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير » وروى « أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بصبيان فسلم عليهم » وروى الترمذي « أنه مر بنسوة فأومأ بيده بالتسليم » وقد ورد في الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم « إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وروى الحاكم قوله صلى الله عليه وسلم « أفسوا السلام تسلموا » .

(إن الله كان على كل شيء حسيباً) أي إنه تعالى رقيب عليكم في مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية ويحاسبكم على ذلك ، وفي هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس ، ووجوب ردّ التحية على من يسلم علينا ويحيينا .

(الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) جمعت هذه الآية التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة وهما الركنان الأساسيان للدين ، وقد أرسل الرسل جميعا لتبليغ الناس ما يجب عليهم من إقامتهما وتأييدهما بصالح الأعمال ، والقرآن قد يصرح بهما تارة معا ، وبالأول منهما تارة أخرى أثناء ذكر الأحكام إذ هما العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل بها ولا سيما أحكام القتال الذي يبذل المرء فيه نفسه ونفيسه للدفاع عن حرية الدين ونشر هدايته وتأمين دعائه وأهله .

والمعنى — لا إله يعبد غيره فلا تقصروا في عبادته وانخضعوا لأمره ونهيه ، فإن في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم وتحزيركم من رق العبودية لأمثالكم من البشر، بل من دونهم من المعبودات التي ذل لها المشركون ، وليس هذا هو كل الجزاء فإنه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة ، وهو يوم لا ريب فيه ولا فيما يكون فيه من الجزاء على الأعمال .

(ومن أصدق من الله حديثا) أى لا أحد أصدق منه عز وجل ، إذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات كما قال تعالى « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » فلا يمكن أن يكون خبره غير صادق بسبب النقص في العلم أو الغرض أو الحاجة لأنه تعالى غنى عن العالمين .

أما كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل ، وقد دل الدليل على أن القرآن كلام الله فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل إذا آثر على قوله أقوال الخلق كما هو دأب الضالين .

فَأَلِّمُوا فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرَّ كَسَمُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ
أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨١)

وَذُوالُو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى
قَوْمٍ يَدِينُكُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ مِيثَاقَ أَوْجَاهِكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ
أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ، فَإِنْ
اعْتَرَزُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ
كَمَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِزْ لَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ
السَّلْمَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ، وَأُولَئِكَ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

شرح المفردات

الفتنة: الجماعة، والرأس بوزن النصر: إرجاع الشيء منكوساً على رأسه إن كان
له رأس أو متحولاً عن حال إلى أبدأ منها كتحويل الطعام والعلف إلى الرجيع والروث؛
والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين،
والسبيل: الطريق، والولى: النصير والمعين، يصلون أى يتصلون بهم، الميثاق: العهد،
حصرت: ضاقت، السلم: الاستسلام والالتقياد، الفتنة الشرك، ثقفتهم وجدتمهم،
السلطان المبين: الحجة الواضحة.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحكام القتال وختمها ببيان أنه لا إله غيره يخشى ضره
أو يرجى خيره فترك هذه الأحكام لأجله - ذكر هنا أنه لا ينبغي التردد في أمر
المنافقين وتقسيمهم فئتين، مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فيجب أن تقطعوا بكفرهم
وتقاتلوهم حيثما وجدوا .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا
يعينون المشركين على المسلمين فاختلف المسلمون في شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية .

الإيضاح

(فما لكم في المنافقين فئتين) أى فما لكم صرتم في المنافقين فئتين واختلفتم
في كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه ، فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم ، بل عليكم أن
تقطعوا بثبوته .

وهؤلاء فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون
فما يظهرون فضيلهم مع أمثالهم من المشركين لكنهم يحتاطون ويظهرون الولاء للمسلمين
إذا رأوا منهم القوة ، فإذا ما ظهر لهم منهم ضعف انقلبوا عليهم وأظهروا لهم العداوة .

وكان المؤمنون في أمرهم على فرقتين ، فرقة ترى أنهم يعدون من الأولياء ويستعان
بهم على سائر المشركين المجاهرين لهم بالعداوة ، وفرقة ترى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم
من المشركين المعلنين العداوة .

(والله أركسهم بما كسبوا) أى كيف تفترقون في شأنهم والله قد صرفهم
عن الحق الذى أتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك واجتروا من المعاصى
حتى إنهم لا ينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء ويتربصون
بكم الدوائر .

وقد جعلهم الله مركسين كأنهم قد نكسوا على رؤوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى « أَمْ مَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ » لأنهم قد فسدت فطرتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم فأوغلوا في الضلال وبعدوا عن الحق حتى لم يعد يجول في أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ما عداه .

وقد نسبة الله تعالى إليه لأنه ما كان سببا إلا بسنته في تأثير الأعمال الاختيارية في نفوس العاملين .

(أتريدون أن تهتدوا من أضل الله؟) أى إنه ليس في استطاعتكم أن تبدلوا سنن الله في نفوس الناس ، فتنالوا منها ضد ما يقتضيه ما ينطبع فيها من الأخلاق والصفات بتأثير ما كسبته طول عمرها من الأعمال .

(ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا) أى ومن تقضى سننه في خلقه أن يكون ضالا عن طريق الحق فلن تجد له سبيلا يصل بسلوكمها إليه، فإن للحق سبيلا واحدة هى صراط الفطرة المستقيم ، وللباطل سبل كثيرة عن يمين سبيل الحق وعن شمالها ، كل من سلك منها سبيلا بعد عن سبيل الحق بقدر إيغاله في السبيل التى سلكها كما قال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم معنى الآية بالخطوط الحسية ، فخط في الأرض خطأ وجعله مثلا لسبيل الله ، وخط على جانبيه خطوطا لسبيل الشيطان ، وهذه الخطوط المستقيمة لالتقى مع الأول بحال .

وسبيل الفطرة تقتضى أن يعرض الإنسان جميع أعماله على سنن العقل ويتبع ما يظهر له أنه الحق الذى فيه منفعتة عاجلا وآجلا ، وفيه كماله الإنسانى .

وأكثر ما يصدده عن هذه السبيل التقليد والغرور وظنه أنه ليس هناك ما هو أكمل مما هو فيه ، وبهذا يقطع على نفسه طريق العقل والنظر والنفع والضرر والحق والباطل . وشبهته في ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل

والخير والشر ، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

(ودوا لوتكفرون كما كفروا فتكونون سواء) أى إن هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم وتحذوا حذوهم حتى يقضى على الإسلام الذى أتم عليه ، وهذا منتهى ما يكون من الغلو والتمادى فى الكفر ، حيث لا يكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم .

(فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) أى وإذا كانت هذه حالهم فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا ويتحدوا بكم فإن الصادقين فى إيمانهم لا يدعون النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه عرضة للخطر ولا يتركون الهجرة إلا إذا عجزوا عنها ، وإذا فتركم لها علامة على نفاقهم الذى اختلفتم فيه .

(فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) أى فإن أعرضوا عن الهجرة فى سبيل الله ولزموا مواضعهم فى خارج المدينة فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم أينما وجدتموهم فى الحل والحرم ، ولا تتخذوا منهم وليا يتولى شيئا من مهام أموركم ولا نصيرا ينصركم على أعدائكم .

وقد استثنى منهم من تؤمن غائلتهم بأحد أمرين :

(١) (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون فى عهدهم ويرضون بحكمهم فيمتنع قتالهم مثلهم . (أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) أى أو جاءوكم قد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم فلا تشرح لأحد الأمرين .

وخلاصة ذلك - أن يحيثوا المسلمين مسلمين لا يقاتلونهم ولا يقاتلون قومهم معهم بل يكونون على الحياد فهم لا يقاتلون المسلمين حفظا للعهد ولا يقاتلون قومهم لأنهم قومهم ، وقبول معذرة الفريقين موافق لما بنى عليه الإسلام من التسامح والسماحة وعدم الاعتداء كما قال « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » .

(ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) أى إن الله تعالى رحيم بأن كف بأس

هاتين الفئتين وصرّفهم عن قتالكم وقذف الرعب في قلوبهم ، ولو شاء لسلطهم عليكم: بأن يلهمهم من الآراء ويسوق إليهم من الأخبار ما به يرجحون ذلك فيقاتلوكم ولكنه بتوفيقه ونظامه في الأسباب والمسببات وسننه في الأفراد والجماعات جعل الناس في ذلك العصر أصنافا ثلاثة :

(١) سليموا الفطرة الذين حصفت آراؤهم فساروا إلى الإيمان واستناروا بنور الإسلام.

(٢) المسلمون الذين رجحوا أن يكونوا على الحياد لا مع المشركين ولا مع المؤمنين

(٣) الموغلون في الضلال والشرك والمحافظون على القديم وهم المحاربون .

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أي فإن اعتزلتكم إحدى هاتين الفئتين ولم تقاتلكم بل ألتقت إليكم السلم وأعطتكم زمام أمرها ، فما جعل الله لكم من سبيل تسلكونها للاعتداء عليها ، إذ من قواعد ديننا ألا نعتدى إلا على من يعتدى علينا ولا نقاتل إلا من قاتلنا .

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سراقه بن مالك المدلجي حدثهم قال - لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأسلم من حولهم قال سراقه بلغني أنه عليه السلام يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي من بني مُدَلِّج فأتيته فقلت أنشدك النعمة ، فقالوا مه ، فقال دعوه ، ما تريد ؟ قلت بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ، وإن لم يسلموا لم تخش بقلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال (اذهب معه فافعل ما يريد) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أسامت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم ، فأنزله الله تعالى (ودوا لوتكفرون - حتى بلغ - إلا الذين يصلون) فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم .

وقال الرازي : إن النبي صلى الله عليه وسلم وادع وقت خروجه إلى مكة هلال ابن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه ، وعلى أن كل من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل ما لهلال .

(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) هؤلاء فريق ممن لم يهتدوا بالإسلام ولم يتصدوا إلى مجادلة أهله وقتلهم فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين ، فهم قد غلت عليهم أرواحهم ورخصت عليهم عقولهم ، يظهرن لكل من الفئتين أنهم منهم أو معهم ؛ وقد روى عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

(كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أى كلما دعوا إلى الشرك (كما روى عن السدى) أركسوا فيه وتحولوا إليه أفبح تحول ، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين إما بإظهار الإسلام وإما بالعهد على السلم وترك القتال ثم يفتنهم المشركون أى يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين فيرتكسون ويتحولون شر التحول معهم ، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة فهم قد مردوا على النفاق .
وقد بين الله حكمهم بقوله :

(فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم) أى فإن لم يعتزلوكم ويتركوكم وشأنكم ويلتمزوا الحياء ويلقوا إليكم السلم أى زمام المسالمة على الطريق التى ترونها نافعة لكم ، ويكفوا أيديهم عن القتال مع مشركين أو عن الدسائس - فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فلا علاج لهم غير ذلك كما ثبت بالتجارب والاختبار .

(وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى جعلنا لكم عليهم حجة واضحة وبرهانا ظاهرا على قتالهم .

قال الرازى : قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجوز لنا قتالهم ولا قتلهم .
ونظيره قوله « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً
 فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ
 مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
 قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ،
 هُنَّ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
 حَكِيمًا (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى أحكام قتال المنافقين الذين يظهرن الإسلام خداعا
 ويسرون الكفر ويساعدون أهله على قتال المؤمنين ، والذين يعاهدون المسلمين على
 السلم ويحالفونهم على الولاء والنصر ، ثم يغدرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم -
 ذكر هنا قتل من لا يحل قتله من المؤمنين والمعاهدين والذميين وما يقع منهم من ذلك
 عمداً أو خطأ .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) أى ليس من شأن المؤمن ولا من
 خلقه أن يقتل أحداً من المؤمنين ، إذ الإيمان وهو صاحب السلطان على النفس
 والحاكم على الإرادة والمصرف لها يمنع أن يجترح هذه الكبيرة عمداً لكنه قد يفعل
 ذلك خطأ (والخطأ مالا يقارنه قصد إلى الفعل أو الشخص أولاً يقصد به زهوق
 الروح غالباً) .

يوم القيامة على رقبته فرس لها حممة ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، لا أفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تحفق ، فيقول يا رسول الله : أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، لا أفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، . وجعل بعض العلماء هذا الحديث من قبيل التمثيل ، فشبهت حال الغال بما يرهقه من أثقال ذنبه وفضيحته به مع فقد الناصر والمغيث — بحال من يحمل ذلك على عاتقه ، ويقصد أرجى من يمكنه أن يغيثه فيخذه ويتصل من إغاثته ، وما زال الناس يشبهون الأثقال المعنوية بالأثقال الحسية ، ويعبرون عن ذلك بالحمل كما قال تعالى : « اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ » .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : إن الإتيان في الآية معناه : أن الله يعلمه أتم العلم وينكشف له أوضح انكشاف ، فالمراد أن كل غلول وخيانة خفية يعلمه الله مهما خفي ، ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كمعرفة من أتى بشئ يوصله إلى غيره ، كما جاء في قوله تعالى حكاية عن لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » . فليس معنى الإتيان هنا أنه يحملها ، بل يعلم بها مهما كانت مستترة ، لأن من يأتي بالشئ لابد أن يكون عالماً به .

(ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) أى ثم بعد أن يأتي الغال بما غل ، فيتمثل له كأنه حاضر بين يديه ، ينال جزاء ما كسب مستوفى تاماً لا ينقص منه شيء كما قال تعالى : « وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِمْ ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ؟ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وجاء حكم التوفية فى الجزاء عاما لكل كاسب ، وإن كان الكلام فى جزاء الغالب فحسب — ليكون كالدليل على المقصود من استيفائه الجزاء ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيا بعمله لا ينقص منه شىء وإن كان جرمه حقيرا ، فالغالب مع عظم جرمه أولى بذلك .

وقد أردف الله توفية ما كسبته كل نفس بالتفصيل الآتى ليبين أن جزاء المطيعين ليس بجزاء المسيئين ، فقال :

(أَمَّنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ؟) أى أَمَّنِ اتَّقَى وَسَعَى فِي تَحْصِيلِ رِضَا اللَّهِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرَكَ الْغُلُوبَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ حَتَّى زَكَتْ نَفْسُهُ وَصَفَا رُوحُهُ — يَكُونُ جَزَاؤُهُ كِجْزَاءِ مَنْ انْتَهَى أَمْرُهُ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ ، وَعَظِيمِ غَضَبِهِ ، بِفِعْلِ مَا يَدْسِي نَفْسَهُ مِنَ الْخَطَايَا مِنْ سُرْقَةٍ وَغُلُولٍ وَسَلْبٍ وَقَتْلِ ، وَتَرَكَ مَا يَطْهَرُهَا مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ؟ .

(وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئس المصير) أى وَمَأْوَاهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ ، وَلَا مَرْجِعَ لَهُ غَيْرُهُ ، هِيَ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَنَقَلُهَا وَمَرْجِعُهَا وَمَأْبَأُ .

ولا شك أن العاقل يعلم أنهما لا يستويان ، كما لا تستوى الظلمة والنور ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ » .
وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » .

(هم درجات عند الله) أى إن كلا من اتبع رضوان الله ومن باء بغضب من الله طبقات مختلفة ، ومنازل عند الله متفاوتة فى حكمه ، وعلى حسب علمه بشؤونهم وبما يستحقون من الجزاء « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

والخلاصة — أن الناس يتفاوتون فى الجزاء عند الله كما يتفاوتون فى الفضائل والمعرفة فى الدنيا ، وما يترتب على ذلك من الأعمال الحسنة أو السيئة .

(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهم الذين عاهدوكم على السلم لا يقاتلونكم ولا تقاتلونهم كما هو حال الدول في العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر ألا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدوا .

(فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أى فالواجب فى قتل المعاهد كالواجب فى قتل المؤمن دية إلى أهله تكون عوضا عن حقهم ، وعتق رقبة مؤمنة تكون كفارة عن حق الله الذى حرم قتل المعاهد كما حرم قتل المؤمن ، ولم يعين هذه الدية للإشارة إلى أن للعرف العام والخاص حكمه ولا سيما إذا ذكر ذلك فى عقد الميثاق الذى بينهما ، لأن هذا النص يكون أقطع لعرق النزاع وأجدر بالتراضى .

وقد اختلف الفقهاء فى دية غير المسلمين لاختلاف الرواية فى ذلك ، روى أحمد والترمذى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «عقل (دية) الكافر نصف دية المسلم» وروى عن أحمد « أن ديته كدية المسلم إن قتل عمدا وإلّا نصف ديته » ، وذهب الزهري وأبو حنيفة إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآية فى أهل الميثاق وهم المعاهدون وأهل الذمة ، وعلى الجملة فالروايات متعارضة ومن ثم اختلف فيها الفقهاء .

وظاهر الآية يدل على أن الدية على القاتل ولكن السنة بينت أن العاقلة (العائلة) وهم عصبته الأقربون هم الذين يدفعون الدية .

وحكمة هذا تقرير التضامن بين الأقربين ، وإذا عجزت العاقلة عن دفعها جعلت فى بيت المال (وزارة المالية) .

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أى فمن لم يجد رقبة يعتقها بأن لم يجد مالا يشتريها به من مالها ليحررها من الرق ، أو لم يجد رقيقا (وهذا مقصد من مقاصد الإسلام) فعليه صيام شهرين متتابعين فربما لا يفصل بين يومين منهما إنطاري النهار ، فإن أفطر يوما بغير عذر شرعى استأنفه وكان ماصامه قبل كأن لم يكن . (توبة من الله) أى قد شرعها لكم ليتوب عليكم ويظهر نفوسكم من التهاون وقلة التحرى التى تفضى إلى القتل الخطأ .

(وكان الله عليا حكيما) أى وكان الله عليا بأحوال النفوس وما يطهرها ،
حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التى بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم
فى الدنيا والآخرة .

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له
عذابا عظيما) خالدا فيها أى ما كثا إلى الأبد أو ما كثا مكثا طويلا ، غضب الله
عليه أى انتقم منه ، لعنه أبعده عن رحمته ، أعد له أى هيا له .
والعلماء فى توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة :

(١) يرى ابن عباس وفريق من السلف أن قاتل المؤمن عمدا لا تقبل له توبة
وهو خالد فى النار أبدا، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائى عن معاوية قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل
يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » ، وأخرج البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم
القيامة آيس من رحمة الله تعالى » ، وروى عن البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه
وسلم قال « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل
أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار » ، وعن ابن عمر أنه عليه السلام
قال « لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم فى النار
وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والأمر به » .

وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلا زانيا تقبل توبته ولا تقبل
توبة المؤمن الذى ارتكب القتل وحده ، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التى تحرم هذه
الأمور فله شبه عذر إذا هو كان متبعا لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهير له صدق
النبوة ، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل
صالحا كان جديرا بالعتق .

وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة وحرمة القتل فلا عذر له ، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير فكيف يعمد بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته ، ومن ثم يهين المسلمون ويضعفون ويكون بأسهم بينهم شديدا ، وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين وانفصمت عروة الوفاق بينهم إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى ، ومن رجح شهوات نفسه الضارة على أمر الله وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة فهو جدير بالخلود في النار والغضب واللعنة ، إذ هؤلاء قد تجرءوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة في قلوبهم .

قال في الكشف — هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب جليل ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة . . . والعجب من قوم يقرءون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث (الأحاديث التي تقدم ذكرها) وقول ابن عباس بمنع التوبة ثم لا تدعهم أشعبتهم وطاعيتهم الفارغة واتباعهم هوام وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ١ هـ .

(٢) يرى فريق آخر أن المراد بالخلود المكث الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم ، وما في الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك ، لا بأنه يجزيه ذلك كما جاء في قوله عز اسمه « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزي كل سيئة بمثلها لعارضه قوله جل شأنه « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ومن ثم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا أنه قال هو جزاؤه إن جازاه ، وبهذا قال جمع من العلماء وقالوا هو كما يقول الإنسان لمن زجره عن أمر : إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب ، وهو إن لم يجازه لم يكن كذابا ، وقد روى عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضا ، وقال في الآية هي جزاؤه ، فإن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له .

(٣) ويرى فريق ثالث أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل ، وحكمه مما لا شك فيه ، وعكرمة وابن جريج فسرا متعمدا مستحلا في الآية
 أى : ومن يقتل مؤمنا متعمدا لقتله مستحلا له ، فجزاؤه جهنم خالدا فيها أبدا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا خَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
 آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ
 مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

شرح المفردات

الضرب في الأرض : السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائمه راحته ، في سبيل الله أى لجهاد أعدائكم ، فتبينوا أى تثبتوا وتأنوا ، ألقى إليكم السلام أى انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم ، عرض الحياة الدنيا أى متاعها الحاضر الذى يأخذ منه البر والفاجر ، مغانم كثيرة أى رزق وفضل كثير .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه ليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمنا إلا على سبيل الخطأ ، وأن من قتل مؤمنا متعمدا فلا جزاء له إلا جهنم خالدا فيها أبدا . أراد هنا أن ينبه المؤمنين إلى ضرب من ضروب قتل الخطأ كان يحصل في ذلك العهد عند السفر إلى أرض المشركين حين انتشر الإسلام ولم يبق مكان في بلاد العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين أو يميل إلى الإسلام ويتحينون الفرص للاتصال

بأهله ، فأعلمهم ألا يحسبوا كل من يجدونه في دار الكفر كافرا ، وأن يتبينوا من تظهر عليهم علامات الإسلام كالشهادة والسلام الذي هو تحية المؤمنين ، وألا يحملوا مثل هذا على الخداع ، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب وألم بها إن لم يكن قد تمكن فيها ، ومن ثم أمر بالتثبيت ونهى عن إنكار إسلام من يدعى الإسلام ولو بإلقاء تحيته ، فما بالك بمن ينطق بالشهادتين ، وأبان أن الذي يدعوه إلى ظن هذا الظن إنما هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، وبهذا أرشد المؤمن إلى أن يتهم نفسه ويفتش عن قلبه ولا يبني الظن على ميله وهواه ، بل عليه أن يتقبل الظاهر حتى يستبين له خلافه .

وفي سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة : منها ما أخرجه البخارى والترمذى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال « مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسوق غنما له فسلم عليهم ، فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية » .

وأخرج أحمد والطبرانى وغيرهما عن عبد الله بن أبي حدرّد الأسلمى قال : « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومُحَلِّم بن جثامة ، فمر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم علينا فحمل عليه محمل فقتله ، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله) الآية » . وأخرج البزار من وجه آخر عن ابن عباس قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد ، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ وأنزل الله هذه الآية » .

ولا مانع من تعدد الوقائع قبل نزول الآية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها على أصحاب كل واقعة فيرون أنهم سبب نزولها .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) أى يأيها الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله واتبعوا الأوامر وتركوا النواهي ، إذا سرتهم للغزو وجهاد الأعداء رفعة لدينه وإعلاء لكلمته تأنوا في قتل من اشتبه عليكم أمره فلم تعلموا أمسلم هو أم كافر؟ ولا تعجلوا في قتل أحد إلا إذا علمتم يقينا أنه حرب لكم والله والرسول .

(ولا تقولوا لمن أتى إليكم السلام لست مؤمنا تبغون عرض الحياة الدنيا) أى ولا تقولوا لمن انقاد لكم واستسلم ولم يقاتلكم وأظهر أنه من أهل ملتكم - إنك لست بمؤمن حقا فقتلوه ابتغاء متاع الدنيا وحطامها الزائل السريع التحول والانتقال فعند الله أرزاق كثيرة ونعم لا تحصى ولا تعد ، يغنمكموها فيغنيكم إذا شاء .

(كذلك كنتم من قبل فنَّ الله عليكم) أى إنكم أول ما دخلتم في الإسلام حققت دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة من غير انتظار لمعرفة أن ما في القلب موافق لما في اللسان ، ومنَّ الله عليكم بذلك ، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين في الإسلام كما عمل معكم وأن تعتبروا بظاهر القول ولا تقولوا إن إقدامهم على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف .

(فتبينوا) أى كونوا على بينة من الأمر الذي تقدمون عليه ولا تأخذوا بالظن ، بل تدبروا ليظهر لكم أن الإيمان العاصم من حقن الدماء يكفي فيه ظاهر الحال كما كفى معكم من قبل ، وفي إعادة التبيين مرة أخرى المبالغة في التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه .

(إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى إنه تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شئ من البواعث التي حفزتكم على الفعل ، فإن كانت ابتغاء حظ الحياة الدنيا فهو يجازيكم على ذلك فلا تفعلوا بل تثبتوا وتبينوا ، وإن كان محض الدفاع عن الحق فهو مثيبكم على ذلك ، وفي هذا وعيد وتحذير شديد من الوقوع في مثل هذا الخطأ .

وكذلك فيه إرشاد إلى ألا نحكم بتكفير من يخالفنا من أهل القبلة والعلم الصحيح والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله بمجرد المخالفة لنا في رأى أو عقيدة ، فإن مثل هذا لا يقدم عليه المسلم جزافا .

وعاينا أن ننظر بعد هذا كله إلى أن الإسلام منع قتل من يلقي السلم ومن بينه وبين المسلمين عهد وميثاق إما على النصر وإما على ترك القتال ، ورغب عن ابتغاء عرض الدنيا بالقتال ، ليكون لمحض رفع العدوان والبغى وتقرير الحق والإصلاح . وأين هذا مما تفعله الدول الآن من القتال للربح وجمع الأموال وهم ينقضون العهد والميثاق مع الضعفاء ولا يلتزمون حفظ المعاهدات إلا مع الأقوياء؟.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

شرح المفردات

الضرر: المرض والعلل التي يعجز صاحبها معها عن الجهاد كالعمى والعرج ، المثوبة لحسنى : هى الجنة .

المعنى الجملى

بعد أن عاتب الله المؤمنين على ما صدر منهم من قتل من تكلم بالشهادة - ذكر فضيلة الجهاد وأن من نصب نفسه له فقد فاز فوزا عظيما فليعلم أن يحتفز من الوقوع في لهفوات التي تخل بهذا المنصب العظيم .

روى أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بنى سلمة ومرارة بن الربيع من بنى عمرو بن عوف والربيع وهلال بن أمية من بنى واقف حين تخلفوا عن رسول الله في غزوة بدر .

الإيضاح

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلافها وحرصا عليها ، وبأنفسهم إيثارا للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار - مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم في الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيال والمثونة ، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل في سبيل الحق ومنع تعدى حزب الطاغوت ، لأن المجاهدين هم الذين يحمون الأمة والبلاد ، والقاعدين لا يأخذون حذرهم ولا يعدون عدتهم للدفاع ويكونون عرضة لتعدى غيرهم عليهم كما قال تعالى « وَوَلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » أى بغلبة أهل الطاغوت عليها ، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة وبخلاف الإلماع القدرة ، أما مع العجز والضرر كالعسى والزمانة والمرض فلا تبعة فيه حينئذ .

ثم بين ما أجمله أولا من التفاضل الذى بين الفريقين وعدم تساويهما فقال : (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) أى إن الله تعالى رفع المجاهدين على القاعدين درجة لا يقدر قدرها ولا يدرك كنهها ، وهى ما خولهم الله عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد (وكلا وعد الله الحسنى) أى ووعد الله كلا ممن جاهد وتعد عن الجهاد عجزا منه مع تمنى القدرة عليه المثوبة الحسنى وهى الجنة ، فكل منهما كامل الإيمان مخلص لله فى العمل .

(قل فادءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أى قل لهم : إن صدور هذا القول الجازم منكم يدل على أنكم قد أحطتم علما بأسباب الموت فى هذه الواقعة وإذا جاز فيها جاز فى غيرها ، وحينئذ يمكنكم درء الموت ودفعه عن أنفسكم .
والخلاصة — إنكم إن كنتم صادقين فى أن الحذر يعنى عن القدر ، وأن سلامتكم كانت بسبب قعودكم عن القتال لا بغيره من أسباب النجاة ، فادفعوا سائر صنوف الموت عن أنفسكم .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ ، وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

شرح المفردات

الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة ، والذين لم يلحقوا بهم هم الذين بقوا فى الدنيا ، استجابوا أى أجابوا وأطاعوا ، والقرح الجراح فى يوم أحد ، والإحسان

أن يعمل الإنسان العمل على أكمل وجوهه الممكنة ، والتقوى أن يخاف الإساءة والتقصير فيه ، حسبنا الله ، أى الله كافينا ، والوكيل الكافي الذى توكل إليه الأمور ، فانقلبوا أى فرجعوا ، والمراد بالنعمة السلامة والثبات على الإيمان وطاعة الرسول ، والفضل هو الربح فى التجارة ، والشيطان هنا شيطان الإنس الذى غش المسلمين ليخذلهم ، وهو نعيم بن مسعود ، يخوف أوليائه أى يخوفكم أنصاره من المشركين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تشبيط المشركين للراغبين فى الجهاد بتحذيرهم عواقبه ، وأنه مفض إلى القتل كما حدث يوم أحد ، والقتل بغيبض إلى النفوس مكروه لها ، ثم أردفه ببيان أن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره كما يحدث الموت ، فمن كتب له أن يقتل لا يمكنه أن يتعد من القتل ، ومن لم يقدر له لا خوف عليه من الجهاد .

ذكر هنا ما يجب الجهاد فى سبيل الله ، فأبان أن المقتولين شهداء أحياء عند ربهم قد خصهم الله بالقرب منه ، والكرامة لديه ، وأعطاهم أفضل أنواع الرزق وأوصلهم إلى مراتب الفرح والسرور .

أخرج الإمام أحمد فى جماعته عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، فقال الله تعالى : - أنا أبلغهم عنكم - فأنزل الله هؤلاء الآيات . »

الإيضاح

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) أى لا تحسبن أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه ، فيؤثرون الدنيا على الآخرة - أن من قتلوا فى سبيل الله أمواتاً قد فقدوا الحياة وصاروا عدماً .

به ، إذ الواجب عليهم إقامة الحق مع احتمال الأذى في سبيل الله، أو الهجرة إلى حيث يتمكنون من إقامة دينهم .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال « إن سبب نزول الآية أن قوما من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنهم فرجعوا فنزلت « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ » فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا فنزلت « ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا فُتِنُوا » الآية فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا فلحقوهم فنجوا من نجا وقتل من قتل » .

الإيضاح

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى إن الذين توفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم برضاهم بالإقامة فى دار النذل والظلم حيث لاحرية لهم فى أعمالهم الدينية ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده .

(قالوا فيم كنتم؟) أى تقول لهم الملائكة بعد توفيقها لهم فى أى شىء كنتم من أمر دينكم؟ أى إنهم لم يكونوا فى شىء منه ، إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا .
(قالوا كنا مستضعفين فى الأرض) هذا اعتذار عن تصيرهم الذى وبخوا عليه .
أى إننا لم نستطع أن نكون فى شىء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة ، وهذه حجة لم تقبلها الملائكة ومن ثم ردوا عليهم المذرة فقالوا لهم :

(ألم تكن أرض الله واسعة فهاجروا فيها؟) وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض

تقدرون فيه على إقامة الدين وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذى لا يليق بالمؤمن ، ولا هو من خصاله .

(فأولئك مأواهم جهنم) أى إن أولئك الذين فصلت حالهم الفضيعة نسكنهم فى الآخرة جهنم لتركهم ما كان مفروضا عليهم ؛ إذ كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام .

(وساءت مصيرا) أى وقبحت جهنم مصيرا لهم لأن كل ما فيها يسوءهم ، وفى هذا إيحاء إلى أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة وجبت عليه الهجرة . أما المقيم فى دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه وأقام أحكامه بلا تكبير فلا يجب عليه أن يهاجر ، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين فى بلاد الإنكليز الآن ، إلى أن الإقامة فيها ربما كانت سببا من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه .

(إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى إن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين فى اعتذارهم . أما الاستضعاف الحقيقي فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة كعياش ابن أبى ربيعة وسامة بن هشام ، والنساء كأم الفضل أم عبد الله بن عباس ، والولدان كعبد الله المذكور وغيره .

(لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) أى إنهم قد ضاقت بهم الحيلة فلم يستطيعوا ركوب واحدة منها ، وعميت عليهم الطرق فلم يهتدوا طريقا منها ، إما للعجز كمرض وزمانة ، وإما للفقر ، وإما للجهل بمسالك الأرض ومضايقتها بحيث لو خرجوا هلكوا كما قالوا فى أمثالهم (قتلت أرض جاهلها) وقد أتر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلا ، والمراد بالولدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ وعقلوا ما يعقل

الرجال والنساء فيلحقون بهم في التكليف بوجوب الهجرة معهم ، أو أن تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر .

(فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) أى إن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر . وفي هذا إيماء إلى أن العفو مضموع فيه غير مجزوم به ، وإلى أن أمر الهجرة مشدد فيه ولو باستعمال الحيل والبحث عن مضايق السبل ، وبذا لا يندفع أحد ممن يحب وطنه نفسه فيعدّ ما ليس بمانع مانعا .

وهذا الرجاء الذى تفيدته (عسى) بالنسبة إلى المخاطب ، أو أنها هنا للتهيئة والإعداد أى إنه تعالى يعدهم ويهيئهم لعفوه ، وفي هذا رمز إلى تعظيم أمر الهجرة ، وإلى أن تركها جرم عظيم ، وإلى أنه ينبغي أن يترصدها الفرصة السانحة ويعلق قلبه بها . (وكان الله عفواً غفورا) أى وكان شأن الله تعالى العفو عن الذنوب التى لها أضرار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ، ومغفرتها بسترها وعدم فضيحة صاحبها فى الآخرة .

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة) جاء هذا للترغيب فى أمر الهجرة وتنشيط المستضعفين ، إذ العادة جرت بأن الإنسان يتهب الأمر المخالف لما اعتاد وأنس ، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا فى خياله ، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له وأن عسرها إلى يسر .

أى إن من يهاجر فى سبيل الله أى لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يجب الله تعالى ، يجد فى الأرض سبيلاً يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له ، وماوى نصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل .

وفى هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره

على الله) بعد أن وعد سبحانه من يهاجر بالظفر بما يحب ، من وجدان السبل ميسورة أمامه ، ومن سعة العيش - وعد من يموت في الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله في حياته وإقامة سننه بعد وفاته وكان مستحقا لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقة ، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له كما في الحديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وفي إبهام هذا الأجر وجعله حقا واجبا عليه تعالى إيدان بعظم قدره وتأكيده بثبوته ووجوبه ، والله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء ، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئا ، إذ لا سلطان فوق سلطانه .

وما أعظم الفارق بين هذا الوعد المؤكد وبين وعد تاركى الهجرة لضعف أو عجز بأنهم محل رجاء وطمع عند الله .

(وكان الله غفورا رحيا) أى وكان شأن الله الغفران أزلا وأبدا لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله ، والرحمة الشاملة لهم بعطفه وإحسانه .

روى ابن جرير عن ابن جبير « أنها نزلت في جندب بن ضمرة وكان بلغه قوله تعالى - إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم - الآية وهو بمكة حين بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسلميها فقال لبيته احمولنى فإنى لست من المستضعفين وإنى لأهتدى إلى الطريق وإنى لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة ، وكان شيخا كبيرا فمات بالتنعيم (موضع قرب المدينة) ولما أدركه الموت أخذ يصفق يمينه على شماله ويقول اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم أباعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضى الله عنهم قالوا لبيته مات بالمدينة فنزلت » وروى غير ذلك .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من سار لأمر فيه ثواب كطاب علم وحب

وكسب حلال ومات قبل الوصول إلى المقصد فله هذا الحكم ، أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة » .

السبب في شرع الهجرة في صدر الإسلام

شرعت الهجرة في صدر الإسلام لأسباب ثلاثة تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة:

(١) البعد عن الاضطهاد في أمور الدين بإقامة شعائره بحيث يكون المسلم حرا في تصرفه كما يعتقد ، فكل شخص يظن أنه ربما يفتن عن دينه أو يكون ممنوعا من إقامته ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى مكان لا خطر فيه على نفسه ولا على دينه ، فإن لم يفعل ذلك فقد ارتكب إثما كبيرا وحمل وزرا عظيما .

(٢) تلقى الدين والتفقه فيه وقد كان ذلك في عصر النبي صلى الله عليه وسلم حين كان إرسال الدعاة والمرشدين من قبله متعذرا للتصدي المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش ، وهكذا الحكم في كل من يقيم ببلد ليس فيه علماء يقيمون أحكام الدين ، عليه أن يهاجر إلى بلد يتلقى فيه أمور دينه وأحكام شريعته .

(٣) أنه يجب على جماعة المسلمين أن تكون لهم دولة قوية تنشر دعوة الإسلام وتقيم أحكامه وحدوده وتحمي دعاته وأهله من عدوان العادين ، فإذا خيف على هذه الدولة من غارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، مهما بعدت دارهم وشط مزارعهم ، وإلا كانوا راضين بضعفها ومعينين لأعداء الإسلام على إبطال الدعوة وتشريد الدعاة .

وقد كانت هذه الأسباب موفورة قبل فتح مكة ، فلما يسر الله فتحها وقوى الإسلام على الشرك في جزيرة العرب كلها ودخل الناس في دين الله أفواجا وأرسل

النبي صلى الله عليه وسلم إلى أطراف الجزيرة وغيرها من يعن الناس شرائع الإسلام زالت هذه الأسباب ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » رواه أحمد والشيخان ؛ وإذا وجد أحد الأسباب الثلاثة المتقدمة في أى عصر وجبت الهجرة ، وأهمها اعتداء الكفار على بلاد المسلمين وخوف استيلائهم عليها .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ
الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا
لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ
وَرَائِكُمْ ، وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا
حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
وَأَمْنِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
بِكُمْ آذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا
حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)

شرح المفردات

ضربتم في الأرض أى سافرتم فيها ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ، والتصر بالفتح من التصير (كعب) ضد الطول ، وقصرت الشئ :-

جعلته قصيرا ، والجناح : التضييق من جُنِحَ البعير إذا انكسرت جوانحه (أضلعه)
لثقل حملة ، يفتنكم : يؤذونكم بقتل أو غيره ، إقامة الصلاة : الذكر الذي يدعى به للدخول
فيها ، والأسلحة : واحدها سلاح وهو كل ما يقاتل به كالسيف والخنجر والمسدس
والبنديقية من أسلحة العصر الحاضر ، قضيت الصلاة أى أدتوها ، فأقيموا الصلاة أى
اثنوا بها مقومة تامة الأركان والشروط ، كتابا موقوتا : فرضا منجبا فى أوقات محدودة
لا بد من أدائها فيها .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سابق الآيات فى الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه
وإيجاب الهجرة لأجل ذلك وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه
فيها ، والجهاد يستلزم السفر ، وذكر هنا أحكام من سافر للجهاد أو هاجر فى سبيل الله
إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن عنها ، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها وأن يصلى
جماعتها بالطريقة التى ذكرت فى الآية الثانية من هذه الآيات .

الإيضاح

(وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم
أن يفتنكم الذين كفروا) أى إذا سافرتم أى سفر فليس عليكم تضييق ولا ميل عن
محبة الدين إذا قصرتم الصلاة أى تركتم شيئا منها فتكون قصيرة ، بشرط أن تخافوا
فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما ، وليس هذا خاصا بزمن الحرب بل إذا
خاف المصلى قطاع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر ، وليس هذا هو قصر الصلاة
الرباعية فى السفر المبين فى كتب الفقه ، إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة بل المراد
هنا القصر فى صلاة الخوف المذكور فى الآية الأولى والمبين فى الآية التى بعدها
وفى سورة البقرة بقوله تعالى « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا » .

فآية التى هنا بصدد القصر من عدد الركعات بأن تصلى طائفة مع الإمام ركعة

واحدة فإذا أتمتها تأتي الطائفة الأخرى وهي التي كانت تحرس الأولى فتصلى معه الركعة الثانية ، وآية البقرة في القصر من هيئة الصلاة بالترخيص في عدم إقامة صورتها ، بأن يكتفى المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود .

صلاة القصر في السفر وشرطها

كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر والعصر والعشاء في السفر ركعتين ركعتين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة ، ففي صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان في السفر لا يزيد على ركعتين ، وأبا بكر وعمر وعثمان - يعنى في صدر خلافته وإلا نعمان قد أتم في آخر خلافته وكان ذلك أحد الأسباب التي أنكرت عليه ، وقد خرّج لفعله تأويلات اه .

قال ابن القيم وأحسن ما اعتذر به عن عثمان أنه قد تزوج بمنى والمسافر إذا أقام في موضع وتزوج فيه أتم صلاته فيه وهو قول الحنفية والمالكية .

وقد روى الشيخان عن عائشة قالت «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر» .

وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افتري ، وكان قد سأل النبي صلى الله عليه وسلم ما بالنا نقصر؟ فقال له رسول صلى الله عليه وسلم « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » .

وقال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن ولا نجد صلاة السفر في القرآن (يعنى صلاة الرباعية ركعتين) فقال له ابن عمر: يا أخى إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا وإنما نفعل كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل .

فالحق ما عليه الحنفية وغيرهم من وجوب القصر في السفر خلافا للشافعية الذين أجازوا الإتمام .

وشرط القصر في الصلاة والإفطار في رمضان أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام بالاعتقاد في البر وجرى السفينة والريح معتدلة في البحر ، لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » رواه أحمد ومسلم وأبو داود ، وقدره الشافعي بمسيرة يومين . وحقق المرحوم أحمد الحسيني بك في كتابه [دليل المسافر] أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ كم عند الحنفية ، وبنحو ٨٩ كم لدى الشافعية والمالكية والحنابلة ، وعلى هذا فالسافر من القاهرة إلى طنطا فافوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ كم وإلى المحطة التي تليها (شبرا الخيمة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ كم .

كيفية صلاة الخوف في القرآن والسنة

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم) هذا بيان لما قبله من النص المجمل الوارد في مشروعية القصر وبيان كيفية عند الضرورة ، وذكر هذا البيان في القرآن واكتفى فيما عداه بالبيان بطريق السنة لمزيد الحاجة إليه لما فيه من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية .

أى وإذا كنت أيها الرسول في جماعتك من المؤمنين وأردت أن تقيم بهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو يحرسون المصلين خوفا من الاعتداء ، وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة لئلا يضطروا إلى المسكافة عقبها مباشرة أو قبل إتمامها فيكونوا مستعدين لها .

(فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) أى فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم ، إذ أحوج ما يكون المصلي للحراسة حين السجود لأنه لا يرى من يهجم به .

ويجب حينئذ أن يكون الباقون مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم كما صلوا ، وهو قوله :

(ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) أي ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا كما صلت الطائفة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم في الصلاة كما فعل الذين من قبلهم .

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أن العدو قلما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها إذ هو إذا رآهم صفا ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فإذا رآهم سجدوا علم أنهم في صلاة ، فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها في الصلاة كما يترصد ذلك بهم عند كل غفلة .

وقد بين الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة بقوله :

(ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) أي تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التي بها بلاغكم في سفركم بأن تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون السلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيبيون منكم غيرة فيقتلون من استطاعوا قتله ويتهبون ما استطاعوا نهبه فلا تغفلوا عنهم .

وقد يعرض لبعض المحاربين أعذار يشق فيها حمل السلاح ومن ثم رخص في تركه لصاحب العذر فقال :

(ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم) أي ولا إثم عليكم في وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه فيشق عليكم حمل السلاح مع ثقله في ثيابكم ، وربما أقسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجراح أو غير الجراح من العلال ، ولكن يجب عليكم في جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولاعن أسلحتكم وأمتعتكم فإن عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم ، والضرورات تقدر بقدرها .

حين غزوة أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما ، لأن الشدائد هي التي تميز قوى الإيمان من ضعفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين . أما تكليف مالا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة وغيرهما فيقبلها المنافق ، كما يقبلها صادق الإيمان ، لما فيها من حسن الأحدثوة ، والتمتع بمزايا الإسلام . وفي الشدائد من الفوائد الشيء الكثير منها .

(١) اتقاء المنافق إذا علم نفاقه ، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن به ، حين يراه يؤدي الواجبات الظاهرة ، ويشارك الصادقين في سائر الأعمال ، فإذا هو أفشاها عرف حاله وحذره المسلمون الصادقون .

(٢) أن تروى الجماعة حالها ، إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لالها ، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربهم الشدائد .

(٣) إنها تدفع الغرور عن النفس ، إذ يغتر المؤمن الصادق فلا يدرك ما في نفسه من ضعف في الاعتقاد والأخلاق حتى تمحصه الشدائد وتبين له حقيقة أمره . وقد يدور بخلد بعض الناس أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق ، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، فيعرفوا أن فلانا من أهل الجنة ، وفلانا من أهل النار ، فأجاب الله عن هذا فقال :

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أي لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب ، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته ، فإنه تعالى خلقه يحصل رغائبه ، ويدفع المكروه عنه بالعمل الكسبي الذي تهدي إليه الفطرة وترشد إليه النبوة .

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد ، والتضحية بالنفس وبذل المال في سبيل الحق والخير ، كما ابتلى المؤمنون

في وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم ، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة ، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، وابتلوا بظهور العدو عليهم ، جزاء ما فعلوا من المخالفة ، فظهر نفاق المنافقين ، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالا شديدا ، وثبت كلمة المؤمنين ، وصاروا كالجبال الرواسي التي لا ترزعزعا الرياح والأعاصير .

(ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) أى ولكن الله يختار من رسله من يشاء ، فيطاعه على ما في قلوب المنافقين من كفر ونفاق ، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال ، كما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم .

ونحو الآية قوله : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» .

وفي التعبير بالاجتباء إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل تتقاصر عنه الهمم ، ولا يؤتية الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم .

وبعد أن رد على ما طعن به المنافقون في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من وقوع الكوارث التي حصلت في أحد ، بين أن فيه كثيراً من الفوائد كتمييز الخبيث من الطيب ، أمرهم بالإيمان به فقال :

(فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى آمنوا بالله ورسوله الذين ذكرهم الله في كتابه وقص علينا قصصهم .

وعم الأمر بالإيمان بالرسول جميعاً مع أن سوق الكلام في الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته .

(وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم) أى وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب ، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به ، فلکم أجر عظیم لا يستطيع الوصول إلى معرفة كنهه .

وهذه جملة جاءت لتعليل وجوب المحافظة على الصلاة حتى في وقت الخوف ولومع القصر منها .

والحكمة في توقيتها في تلك الأوقات المعلومة أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجم الغفير من الناس .

إلى ما في هذا النوع من الذكر المهدب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها في أوقات معينة مع عدم الهوادة فيها ، ومن قصر فيها في تلك الأوقات الخمسة في اليوم واللييلة فهو جدير بأن ينسى ربه ويفرق في بحار الغفلة .

ومن قوى إيمانه وزكت نفسه لا يكتفى بهذا القدر القليل من ذكر الله ومناجاته بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد .

وإخلاصة أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة لتكون مذكرة للمؤمن بربه في الأوقات المختلفة ، لئلا تحمله الغفلة على الشر أو التقصير في الخير ، ولأن يريد الكمال في النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التي يرى أنها أوفق بحاله .

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

شرح المفردات

الوهن : الضعف ، والابتغاء : الطلب .

المعنى الجملى

كان الكلام فيما سلف في شأن الحرب وما يقع فيها وبيان كيفية الصلاة في أثنائها وما يلاحظ فيها إذا كان العدو متأهباً للحرب من اليقظة وأخذ الحذر وحمل

السلاح في أثنائها ، وبين في أثناء السياق شدة عداوة الكفار لهم وتربصهم غفلتهم وإهمالهم ليقعوا بهم .

وهنا نهى عن الضعف في لقاءهم وأقام الحججة على كون المشركين أجدر بالخوف منهم ، لأن ما في القتال من الألم والمشقة يستوى فيه المؤمن والكافر ، ويمتاز المؤمن بأن له من الرجاء في ربه ما ليس عند الكافر ، فهو يرجو منه النصر والمعونة ويعتقد أنه قادر على إنجاز وعده ، كما يرجو منه المثوبة على حسن بلائه في سبيله ، وقوة الرجاء تخفف الآلام وتنسيه التعب والنصب .

الإيضاح

(ولا تهنوا في ابتغاء القوم) أى ولا تضعفوا في طاب القوم الذين ناصبوك العداوة ، بل عليكم أن تستعدوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة مع أخذ الحذر وحمل السلاح عند أدامها ، وذلك في معنى الأمر بالهجوم .

وسرّ هذا أن الذى يوجه همته إلى المهاجمة تشتد عزيمته وتعلو همته ، أما الذى يلتزم الدفاع فإنه يكون خائر العزيمة ضعيف القوة .

(إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) أى إن ما يئالكم من الآلام يئالهم منه مثله فهم بشر مثلكم ، وهم مع هذا يصبرون ، فما لكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر؟ وبين سبب هذا بقوله :

(وترجون من الله ما لا يرجون) من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة ، ومن الثواب الجزيل والنعيم المقيم في الآخرة - إلى أنه تعالى قد وعدكم إحدى الحسينيين النصر أو الجنة بالشهادة إذا نصرتم دينه ودافعتم عن حماه ، وهذا الوعد من الرحمن مع خلوص الإيمان يدعوان إلى الرجاء والأمل ويضاعفان العزيمة ، ويحثان صاحبهما على العمل بصبر وثبات .

أما اليأس من هذا الوعد الكريم فإنه يكون ضعيف العزيمة ميت المهمة ،

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً في بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ،
ووكّل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذي يتبع عاطفة الإيمان التي في قلبه ، وما تحدّثه
في النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه ، إذا هو تذكّر أن في ماله حقاً
للسائل والمحروم .

(بل هو شرّ لهم) أي هو شرّ عظيم لهم ، وقد نفى أولاً أن يكون خيراً ثم أثبت
كونه شراً ، لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن في منعه خيراً له ، لما في بقاء
المال في يده من الانتفاع به في التمتع باللذات ، وقضاء الحاجات ، ودفع
العوائل والآفات .

(سيطوون ما بخلوا به يوم القيامة) أي سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً
في أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه ، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً ، كما يقال : طوقني
الأمر أي ألزمني إياه .

وخلاصة هذا — أن العقاب على البخل لازم لا بد منه .

وقال مجاهد: إن المعنى سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة .
عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توخيخاً لهم على معنى : هلا فعلتم ذلك
حين كان ممكناً ميسوراً ، ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ
فَلَا يَسْتَبِيعُونَ » .

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي ، وأنهم يطوقون بطوق يكون سبباً لعذابهم
فتصير تلك الأموال حيات تلتوى في أعناقهم ، فقد روى البخاري والنسائي عن
أبي هريرة قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع (ثعبان) أقرع
له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بِلَهْزِ مَتَيْهِ (شذقيه) يقول أنا مالك ،
أنا كنزك ثم تلا الآية » .

(ولله ميراث السموات والأرض) أي والله وحده لا لأحد سواه ، ما في
السموات والأرض ما يتوارث من مال وغيره ، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر

فى يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد ، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون ، ويبقى مالك الملك ، وهو الله رب العالمين .

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله ، وابتغاء مرضاته . وفى الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل ، وصاحبه فان غير باق ، فلا ينبغى أن يستبقى القانى ما هو مثله فى الفناء ، بل عليه أن يضع الأشياء فى مواضعها التى تصلح لها ، وبذا يكون خليفة لله فى أرضه محسناً للتصرف فيما استخلف .

(والله بما تعملون خبير) أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ماتطوى عليه جوانحك ، فيجازى كل عامل بما عمل على حسب تأثير عمله فى تزكية نفسه أو تدهيئتها ، ونيته فى فعله كما جاء فى الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة ، ولم يخف عليه ، وسيجزئهم عليه أشد الجزاء . وهذا أسلوب يتضمن التهديد والوعيد ، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء فى نحو - سمع الله لمن حمده - ويتضمن مزيد العناية وإرادة الإغاثة وإزالة الشكوى فى نحو « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ سَخَوْرًا كَمَا » إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم فى أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعانى التى ذكرناها آنفاً .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قرَضًا حسنًا » فقالوا يا محمد : أفقتير ربك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء ؟ فأنزل الله (لقد سمع الله) الآية .

(سنكتب ما قالوا) أى سنعاقبهم على ذلك عقاباً لاشك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه ، وهذا استعمال شائع فى اللغة .

(وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نسبه إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه .

وهذا يدل على أن الأمم متكافلة في الأمور العامة ، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه ، لئلا يفشو فيها ، فيصير خلقا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فتستحق العقوبة في الدنيا بالضيق والفقر ، والعقوبة في الآخرة بتدنيس نفوسها ، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة ، فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستهجى ما تستهجىه — عدّ شريكاً له في إثمه ، ومستحقاً لمثل عقوبته .

(ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه المقالة .

ذلك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا ، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألواناً من العذاب ، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والكرب ، فحوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، كما أذقتهم أولياء الله في الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة — ذوقوا ما أتم فيه ، فلستم بمتخلصين منه ، وهذا قول يلقي للتشفي الدال على كمال الغيظ والغضب .

(ذلك بما قدمت أيديكم) أى إن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته ، بسبب أعمالكم في الدنيا كقتل الأنبياء ، ووصف الله بالفقر ، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدي ، من قبل أن أكثر أعمال الإنسان تزاوّل باليد ، وليفيد أن ما عذبوا عليه هو من عملهم على الحقيقة ، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه . (وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، وبكونه تعالى عادلاً فى حكمه وفعله ، لا يجور ولا يظلم ، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب ، ولا يحمل الجرمين كالمعتاد ، والكافرين كالمؤمنين كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ
وَمَمَاتُهُمْ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» وقال: «أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟» وقال: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟» .

والخلاصة — أن ترك عقاب أمثالكم مساواة بين المحسن والمسيء ووضع للشيء
في غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا من كان كثير الظلم مبالغا فيه .

(الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار)
قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وفنحاص
ابن عازوراء في جماعة آخرين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد تزعم
أنك رسول الله، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا، وقد عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن
لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دوى خفيف تنزل من السماء،
فإن جئتنا بهذا صدقناك، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة، فإذا تقبل منه نزلت
عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به .

لكن دعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم، لأن أكل النار للقربان
لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة، فهو وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من
تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت بما قالوه،
ولو أتى به لآمنوا فرد الله عليهم بقوله :

(قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم، فلم قتلتموهم إن كنتم
صادقين؟) أي قل موبخا لهم ومكذبا: قد جاءكم رسل كثيرون من قبلي كزكريا
ويحيى وغيرهما بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم، وبما كنتم تقترحون وتطلبون،
وأتوا بالقربان الذي تأكله النار، فما بالكم لم تؤمنوا بهم، بل اجترأتم على قتلهم؟

وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ القلوب ، وبذلك وصفوا في التوراة قساة القلوب لانفتحون الحق ولا تدعون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشاداً ، بل تعنتاً وعناداً .

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم ، لأنهم راضون عما فعلوه، معتقدون أنهم على حق في ذلك، والأمة في أخلاقها العامة وعاداتها كالشخص الواحد ، وقد كان هذا معروفاً عند العرب وغيرهم ، فتراهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ، ويؤاخذونها بها .

والخلاصة — أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أتم إلا كأسلافكم ، فلم يكن من سنة الله إجابتم إلى ملتصكم بالإتيان بالقرآن ، إذ لا فائدة منه .

(فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير)
 أى فإن كذبوك بعد أن جتتهم بالبينات الساطعة ، والمعجزات الواضحة ، والكتاب الهادى إلى سواء السبيل ، مع استنارة الحجة والدليل — فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم ، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تعنتهم ، فتلك سنة الله في خليقته ، فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات وهزوا العطف بالزواجر والعظات ، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة ، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً ، فصبروا على ما نالهم من أذى ، وما نالهم من سخرية واستهزاء .

وفى هذا تسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طباع البشر في كل الأزمنة سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدر رحيب ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والدواعى إليه ، ويسفه أحلام معتنته .

فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك ، ولا أن يفندوا حجتك ، فإن نفوسهم منصرفة عن طلب الحق ، وتجرى سبل الخير .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَاعُ
الْعُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصَبَرُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

شرح المفردات

توفون أجوركم أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة ، زحزح عن النار نحي عنها ، فاز سعد ونجا ، والمتاع ما يتمتع ويتنفع به مما يباع ويشترى ، والغرور إصابة الغرّة والغفلة من تخذه وتغشه ، لتبلون أى لتختبرن أى لتعاملن معاملة المختبرين تظهر حالكم على حقيقتها ، فى أموالكم أى بالبذل فى سبيل الله وبالجوائح والآفات ، وفى أنفسكم أى بالقتل والأسر فى سبيل الله ، والأمراض وفقد الأقراب ، الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، والذين أشركوا هم كفار العرب ، أذى كثيرا كالظعن فى الدين والافتراء على الله ورسوله ، والصبر: تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع دفعه بروية ، ومقاومة ما يحدث من الجزع ، والتقوى الابتعاد عن المعاصى ، من عزم الأمور أى من صواب التدبير ، وما ينبغى لكل عاقل أن يعزم عليه ويأخذ نفسه به ، من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أى أزمتهك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه .

المعنى الجملى

بعد أن سلى نبيه فيما سلف عن تكذيب قومه له بأن كثيرا من الرسل قبلك قد كذبوا كما كذبت ، ولاقوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لاقيت ، بل أشد

مما لاقيت ، فقد قتلوا كثيراً منهم كيحيى وزكريا عليهما السلام زاده هنا تسليمة وتعزية أخرى ، فأبان أن كل ما تراه من عنادهم فهو مُنته إلى غاية ، وكل آت قريب ، فلا تضجر ولا تحزن على ما ترى منهم ، وأنهم سيجازون على أعمالهم في دار الجزاء كما تجازى ، وحسبك ما تصيب من حسن الجزاء ، وحسبهم ما أصيبوا به وما يصابون به من الجزاء في الدنيا ، وسيوفون الجزاء كاملاً يوم القيامة .

الإيضاح

(كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس تذوق طعم مفارقة البدن وتحس به ، وفى هذا إيماء إلى أن النفس لا تموت بموت البدن ، لأن الذى يذوق هو الموجود والميت لا يذوق ، فالذوق شعور لا يحس به إلا الحى .

(وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) أى وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملاً وأيضاً يوم القيامة ، وفى ذكر التوفية إشارة إلى أن بعض الأجور من خير أو شر قد تصل إليهم فى الدنيا جزاء أعمالهم ، ويؤيده ما أخرجه الترمذى والطبرانى مرفوعاً « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران » .

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أى من خلص من العذاب ووصل إلى الثواب فقد فاز بالمقصد الأسمى والغاية التى لا مطلب بعدها ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتندركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

والخلاصة أن هناك جنة وناراً وأن من الناس من يُلقى فى هذه ومنهم من يلقى فى تلك وأن هول النار عظيم ، وعبر عن النجاة عنها بالزحزحة كأن كل شخص كان مشرفاً على السقوط فيها لأن أعمالهم سائقة لهم إلى النار لأنها أعمال حيوانية تسوق إليها ولا يدخل الجنة أحد إلا إذا زحزح ، فالزحزحة عنها فوز عظيم ، وأولئك

المزحزون هم الذين غلبت صفاتهم الروحية على الصفات الحيوانية فأخلصوا في إيمانهم وجاهدوا في الله حق جهاده ، ولم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله معه في عمل من أعمالهم .

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما حياتنا القربى التى نحن فيها ونتمتع بلذاتها الحسية من مأكل ومشرب ، أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة إلا متاع الغرور ، لأن صاحبها دائماً مغرور مخدوع لها ، تشغله كل حين بجلب لذاتها ودفع آلامها فهو يتعب لما لا يستحق التعب ويشقى لتوهم السعادة .

والخلاصة أن الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغر الإنسان ويشغله عن تكميل نفسه بالمعارف والأخلاق التى ترقى بروحه إلى سعادة الآخرة .

فينبغى له أن يحذر من الإسراف فى الاشتغال بمتاعها عن نفسه وإنفاق الوقت فيما لا يفيد إذ ليس للذاتها غاية تنتهى إليها فلا يبلغ حاجة منها إلا طلب أخرى .

فما قضى أحد منها لباتته ولا انتهى أرب منها إلا إلى أرب

وعليه أن يسعى لكسب علم يرقى به عقله وعمل صالح ينتفع به وينفع عباده مع إصلاح السريرة وخلوص النية وقد قال بعض الصوفية : « عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك » .

(لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) بعد أن سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بما سبق آنفاً زاد فى تسليته بهذه الآية وأبان له أنه كما لقي هو ومن معه من الكفار أذى يوم أحد فسيلقون منهم أذى كثيراً بقدر ما يستطيعون من الإيذاء فى النفس أو فى المال، ولقصد من هذا الإخبار أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع حتى لا يشق عليهم البلاء عند نزوله بهم .

والابتلاء فى الأموال يكون بالبذل فى جميع وجوه البر التى ترفع شأن الأمة الإسلامية وتدفع عنها أعداءها وترد عنها المكاره وتدفع عنها غوائل الأمراض والأوبئة .

فالصدقة وهي من الخير قد يؤدي إظهارها المتصدق عليه ويضع من كرامته ،
ومن ثم قال عز من قائل « إِنَّ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَعِمًا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا
الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة من إيتائه إياها جهرا
ولو مع الإخلاص وابتغاء مرضاة الله .

وكذلك الأمر بالمعروف على مسمع من الناس فكثر ما يستاء منه المأمور به
ولا سيما إذا كان الأمر من أقرانه لأنه يرى في أمره إياه استعلاء عليه بالعلم والفضل
واتهاما له بالتقصير أو الجهل ، فمن ثم كانت النجوى به أبعد عن الإيذاء ،
ومثله الإصلاح بين الناس ، فإنه ربما ترتب على إظهاره والتحدث به كثير من الشر ،
الأتري أن بعض الناس إذا علم أن ما يطالب به من الصلح كان بأمر فلان من الناس
لايستجيب ولا يقبل ، أو يصدده عن الرضا به ذكره بين الناس وعلمه بأنه كان
بسعى وتواطؤ .

أخرج البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له
« يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم ؟ فقال بلى يا رسول الله ، قال
تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا » وعن عبد الله بن عمر قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » .

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أي ومن يفعل
هذه الأعمال الثلاثة من الطاعات لوجه الله وطلب مرضاته فإن الله سيؤتيه الثواب
العظيم والأجر الجزيل ، وإنما تنال مرضاة الله بالشئ إذا فعل على الوجه الذي يحصل
به الخير ويتم به النفع الذي شرع لأجله ، وبذا ترقى روح الفاعل له ارتقاء تصل به
إلى ذلك الفضل وتنال قربا معنويا من الله وتصير أهلا للجزاء الأوفى في حياة أشرف
من هذه الحياة وأرقى .

والخلاصة — أن ابتغاء مرضاته إنما تطلب بالإخلاص وعدم إرادة السمعة والرياء كما يفعل المتفخرون من الأغنياء (تصدقنا . أعطينا . منحنا . عملنا وعملنا) فهؤلاء إنما يبتغون الربح بما يبذلون أو يعملون لا مرضاة لله تعالى ، ولذلك يشق عليهم أن يكون خفيا ، وأن يخلصوا في الحديث عنه نجيا ، لأن الاستفادة منه يجذب القلوب إليهم وتسخير الناس لخدمتهم ورفعهم لمكاتبهم إنما تكون بإظهاره لهم ليرجعوا إليهم .

وبعد أن وعد الله بالجزاء الحسن من يتناجون بالخير ويبتغون نفع الناس مرضاة لله عز وجل أوعد الذين يتناجون بالشر ويبيتون ما يكيدون به للناس فقال :

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) أى ومن يشاقق الرسول بارتداده عن الإسلام وإظهار عداوته له من بعد ما ظهرت له الهداية على لسانه وقامت عليه الحجة ، ويتبع سبيلا غير سبيل أهل الهدى ، نوله ما تولى أى نتركه وما اختار لنفسه ونكته إلى ما توكل عليه ، وفى هذا بيان لسنة الله فى عمل الإنسان وذكر لما أوتيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار ، فالوجهة التى يتولاها ويختارها لنفسه يوليه الله إياها أى يجعله واليا لها وسائرا على طريقها ، فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختار لنفسه على حسب الاستعداد والإدراك وعمل كل فرد ما يرى أنه خير له وأنفع فى عاجله أو آجله أو فيهما معا ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب ، لأنه استحب العمى على الهدى وعاند الحق واتبع الهوى ، وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر! وقد اشترط فى هذا الوعيد أن يتبين له الهدى ، أما من لم يتبين له فلا يدخل فيه .

وهم أصناف : فمنهم من نظر فى الدليل ولم يظهر له الحق وبقى متوجها إلى طلبه بتكرار النظر والاستدلال مع الإخلاص وهذا معذور غير مؤاخذ ومثل هذا مثل من لم تبلغه الدعوة الإسلامية أو بلغت مشوهة معكوسة ككثير من أهل أوروبا فى العصر الحاضر .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا
 وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ
 نَصِيْبَةً مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضَلِّلَنَّهُمْ وَلَا مَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَا مَرِّمَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ آذَانَ
 الْأَنْعَامِ ، وَلَا مَرِّمَهُمْ فَلْيُمَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا نَأْمِيْنَا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
 إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَا وَآهَمُ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

شرح المفردات

يدعون أى يتوجهون إليها ويطلبون منها المعونة لهيبة غيبية لا يعقل الإنسان
 معناها ، إلا إنانا أى أمواتنا ، والعرب تطلق على الميت أى لضعفه وعجزه ، والشيطان
 هو الخبيث المؤذى من الجن والإنس ، والمريد والمراد من مرد على الشىء إذا مرن
 عليه حتى صار يأتيه بلاكف ، والمراد أنه مرد على الإغواء والإضلال أو تمرد واستكبر
 عن الطاعة ، واللعن : هو الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة ، والنصيب : الحصة والسهم
 من الشىء ، والمفروض : المعين ، والأمانى جمع أمنية ، يقال تمنى الشىء إذا أحب أن
 يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه ، والتمنى : تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها سواء
 أكان عن تخمين وظن أم عن رؤية وبناء على أصل ، ولكنه يغلب فيما بينى على
 الحُدس والتخمين وما لاحقيقة له ، البتاك : القطع ، وسيف باتاك أى قاطع والتبتيك

التقطيع ، والغرور الباطل ، والمحيص المهرب والمخلص ، يقال : وقعوا في حَيْصٍ بَيْصٍ وفي حاصٍ باصٍ أى فى أمر يعسر التخلص منه .

المعنى الجملى

علمت فيما سلف أن قوله تعالى : إنا أنزلنا إليك الخ نزلت فى شأن طُعْمَةَ بن أبيرق سارق الدرع ورميه اليهودى بسرته ، وأن قوله : ومن يشاقق الرسول الخ نزلت فى ارتداده عن الدين ولخوقه بالمشركين ، وهنا ذكر أنه لو لم يرتد لم يكن محروما من رحمة الله ولكنه بارتداده صار بينه وبين رحمته حجاب أيما حجاب فإن كل ذنب يجوز أن يغفره الله للناس إلا ذنب الشرك فإن صاحبه مطرود من عفو الله ورحمته .

الإيضاح

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) تقدم هذا النص بعينه فى غرض آخر من هذه السورة ، وأعادها هنا مرة أخرى ، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعانى التى يراد إبداءها فى نفوس السامعين فى كل سياق يقصد فيه توجيهها إليها وإعدادها لقبولها ، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية من تلك المعانى حتى تتمكن فى النفوس بذلك التكرار ، ومن ثم نرى رجال الدين والسياسة الذين عرفوا سنن الاجتماع وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم يكررون فى خطبهم ومقالاتهم ، أغراضهم ومقاصدهم التى ينشرونها فى الصحف والكتب ، فإن الذهن إذا تكرر عليه مدح الشئ* أو ذمه أثر فيه .

المعنى — إن الله أكد لعباده أنه لا يغفر لأحد شركه به البتة ، وأنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين ما دون الشرك من الذنوب فلا يعذبهم عليه .

ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح وضلال العقول ، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وآثامه والعروج بها إلى جوار ربها ، إذ أنها تكون

موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخلوص إليه عز وجل، والله لا يقبل إلا ما كان خالصا له .

و بعض الناس ممن يسمون أنفسهم بالموحدين يفعلون كما يفعل سائر المشركين ، فيدعون حين يشتد الكرب ويعظم الخطب غير الله وحده أو مع الله ولا يسمون عملهم دعاء بل يسمونه توسلا واستشفاعا و يسمون من يدعوهم أولياء وشفعاء ، ولو لم يكن منهم إلا هذا الدعاء لقضاء الحاجات وتفريج الكربات لكفى ذلك عبادة وشركا بالله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » رواه أبو داود أى إن العبادة جدّ العبادة إنما تكون في الدعاء الذى يفيض على اللسان من قرارة النفس حين وقوع الخطب واشتداد الكرب ، وهذا ما تسمعه من أصحاب الحاجات عند حدوث الملمات وفي هياكل العبادات ولدى قبور الأموات ، فكل ذلك يمثل الخشوع والخضوع ويزدرف من العين الدموع « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » .

وما عدا هذا الدعاء من العبادات جله يفعل بالتعليم ويكون فى الغالب خاليا من الشعور الذى به يكون القول أو الفعل عبادة ، إذ هو خال من معنى العبادة وروحها وهو الشعور بالسلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب العادية ، ولا سيما الأدعية التى تكون فى الصلوات أو فى غير الصلوات ، إذ ترى الحافظ لها يحرك بها لسانه وقلبه مشغول بشواغل أخرى ، فمثل هذا لا يمثل العبادة الحقّة التى تملأ القلب نورا ، والنفس استسلاما وخضوعا والروح طهارة وزكاء .

(ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) أى ومن يشرك بالله شيئا فيدعوه معه ويذكر اسمه مع اسمه ، أو يدعوه وحده ملاحظا أنه يقرب به إليه زلفى — فقد ضل عن القصد ، وبعد عن سبيل الرشد ضلالا بعيدا فى سبيل الغواية ، لأنه ضلال يفسد العقل ، ويكدر صفاء الروح ، ويجعله يخضع لعبد مثله ، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه ، ويكون عبدا للخرافات والأوهام .

وخلاصة ما تقدم :

(١) إن الشرك في العبادة الذي يتجلى في الدعاء ، هو أقوى أنواع الشرك ، لأنه يكون باعتقاد ناشئ عن وجدان حاكم على النفس مستعبد لها .

(٢) إن دون هذا — الشرك المبنى على الفكر والنظر الذي يحتاج فيه صاحبه بالشبهات المنتزعة من تشبيه الخالق بالخلق ، وقياسه على ظلمة الملوك ، كقولهم : إن الإنسان الخاطيء لا يليق أن يخاطب الإله العظيم مباشرة ، بل عليه أن يتخذ له وليا يكون واسطة بينه وبينه ، كما يتخذ آحاد الرعية الوسائط إلى الملوك والأمراء من المقرين إليهم .

ومثله من يشرك في ربوبية الله بالتخاذ بعض الخلقين شارعين يحلون له ما يرون تحليله ويحرمون عليه ما يرون تحريمه فيتبعهم في ذلك .

(٣) إن الجزاء في الآخرة يكون تابعا لما تكون عليه النفس في الدنيا من سلامة العقيدة ومقدار درجة الفضيلة التي يلازمها فعل الخيرات ، أو فساد الفطرة وخطأ العقيدة والتدنس بالريذة التي يلازمها فعل السيئات .

(٤) إن الناس متفاوتون فيما بين ذلك من درجات ودرجات ، أحسنها الشرك وأعلاها التوحيد ولكل منهم صفات تناسبها ، فلو جاز أن يغفر الشرك ويجعل صاحبه مع النبيين والصديقين والملائكة المقرين لكان ذلك نقضا لسنة الله التي لا تبديل فيها ولا تغيير .

(إن يدعون من دونه إلا إنانا) أى هؤلاء المشركون لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أموالنا فقد كانوا يعظمون الموقى ويدعونها كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب ومسلمى هذه القرون ، أو إلا إنانا كالكالات والعزى ، وقد كان لكل قبيلة صنم يسمونه أنى بنى فلان .

(وإن يدعون إلا شيطانا مريداً) أى وما يعبدون بعبادتها إلا شيطانا مريداً ، إذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغراهم بها ، فكانت طاعتهم له عبادة .

(لعنه الله) أى أبده الله عن رحمته وفضله ، فإنه داعية الشر والباطل فى نفس الإنسان بما يوسوس فى صدره ويعده ويمنيه .

(وقال لأتخذنّ من عبادك نصيبا مفروضا) النصيب المفروض هو ما للشيطان فى نفس كل أحد من الاستعداد للشر ، إذ ما من إنسان إلا يشعر من نفسه بوسوسة الشيطان ، فإن لم يكن بالشرك بالمعصية والإصرار عليها أو الرياء فى العبادة ، لكن الله أخبر أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين ، وقد جاء فى القرآن والحديث ما يدل على هذا .

وإخلاصة أن الشيطان خالق متهددا على الحق بعيدا من الخير مُغرّى بإغواء البشر وإضلالهم .

(ولأضلّهم ولأمنينهم) إضلال الشيطان لمن يضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى ، وتمنيته لهم تزيينه لهم الاستعجال باللذات الحاضرة والتسويق بالتوبة والعمل الصالح .

وإخلاصة - أن من شأن الشيطان ومقتضى طبعه إضلال العباد وشغلهم بالأمانى الباطلة كرحمة الله للمجرمين بغير توبة والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعاة ، وتزيين لذات الحياة العاجلة على ثواب الآجلة ونعيمها .

(ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) أى ولآمرنهم بالضلال فليقطعن آذان الأنعام بموجب أمرى ، والمراد به ما كانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم كالبحائر التى كانوا يقطعون آذانها أو يشقونها شقا واسعا ويتركون الحمل عليها ، وهذا من سخيف أعمالهم الوثنية الدالة على سنة عقولهم .

(ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) تغيير خلق الله وسوء التصرف فيه شامل للتغيير الحسى كالخصاء ورووا ذلك عن ابن عباس وأنس بن مالك ، وللتغيير المعنوى وروى أيضا عن ابن عباس وغيره ، وعلى هذا فالمراد بخلق الله دينه لأنه دين الفطرة وهى

الخالقة قال تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى إنه يراد به تغيير الفطرة الإنسانية عما فطرت عليه من الميل إلى النظر والاستدلال وطاب الحق وترتيبها وتعويدها الأباطيل والردائل والمنكرات ، فالله قد أحسن كل شئ خلقه ، وهؤلاء يفسدون ما خلق الله ويطمسون عقول الناس .

وإخلاصة — إن الدين الفطرى الذى هو من خلق الله وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التى جاء بها الرسل ليباغوها للناس ، بل هو ما أودعه الله فى فطرة البشر من توحيده والاعتراف بقدرته وجلاله ، وهو ما أشار إليه فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة » .

ومن أهم أسس هذا الدين الفطرية العبودية للسلطة الغيبية التى تنتهى إليها الأسباب وتقف دون الوصول إلى حقيقتها العقول .

(ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) أى ومن يتبع الشيطان ووسوسته وإغواءه وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله ، فقد خسر خسرانا ظاهرا فى الدنيا والآخرة ؛ إذ أنه يكون أسير الأوهام والخرافات ، يتخبط فى عمله على غير هدى ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التى أوتىها الإنسان ويميز بها من بين أصناف الحيوان .

(يعدهم ويمنيهم) فيعد الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئا من أموالهم فى سبيل الله ويوسوس لهم بأن أموالهم تنفذ أو تقلّ ويصبحون فقراء أذلاء ويعدهم الغنى والثروة حين الإغراء بالتمار ، ويعد من يغريه بالتعصب لرأيه وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه للجهنم والشهرة وبعد الصيت .

ويؤيد هذه الوعود بالأمانى الباطلة يلقيها إليهم .

ويدخل فى وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس وهم قرناء السوء الذين يزينون للناس الضلال والمعاصى ويمدوهم فى الطغيان وينشرون مذاهبهم

الفاسدة وآراءهم الضالة التي ينتفون بها الرفعة والجاه والمال ، وهؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان .

(وما يعدم الشيطان إلا غروراً) أى ولا يعدم الشيطان إلا باطلا يعفرون به ولا يملكون منه ما يحبون ، فيزين لهم النفع في بعض الأشياء وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضار ، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيل إليه أنه يتمتع باللذات بينما هو في الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى ، وخيمة العواقب إلى عذاب أخروي لا يعلم كنهه إلا من أحاط بكل شىء علماً .

(أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً) أى أولئك الذين يعذب بهم الشيطان بسوسسته أو باغواء دعاة الباطل من أوليائه ، مأواهم جهنم لا يجدون عنها مهرباً يفرون إليه ، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها ويتهاقنون عليها تهاقت الفراش على النار .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) بعد أن بين الله أولياء الشيطان وما يعدم الشيطان به من الوعود والأمانى بزخرف القول وغروره ، وذكر عاقبتهم بأنهم لا يجدون مستقراً ومكاناً إلا جهنم ذات العذاب التي تصلى وجوههم وجنوبهم وظهورهم .

ذكر هنا عاقبة من لا يستجيب للشيطان دعوة ولا يصيخ لأمره ونهيه ، فبين أنها النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك هو الفوز العظيم لمن آمن وعمل صالحاً وسمت نفسه عن دنس الشرك فلم يجعل لله أندادا ولم تحط بها الخطيئة في صباحها ومسائها في غدوها ورواحها .

(وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً؟) أى ذلك الذى وعدكم الله به هو الوعد الحق فهو القادر على أن يعطى ما وعد بفضلته وجوده وواسع كرمه ورحمته ، وأما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور ، إذ هو عاجز عن الوفاء فهو يدلى إلى

أوليائه بباطله فحتمه ألا يستجاب له أمر ولا نهى ولا تتبع له نصيحة ، فوساوسه أباويل
وسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ
مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَامُونَ
تَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)

شرح المفردات

الأمانى، واحدها أمنية : وهى الصورة التى تحصل فى النفس من تمنى الشئ وتقديره ،
وكثيرا ما يطلق التمنى على ما لا حقيقة له ، ومن ثم يعبرون به عن الكذب كما قال
عثمان رضى الله عنه : ما تمنيت ولا تمنيت منذ أسلمت . وليا : أى بلى أمره ويدفع
العقاب عنه ، ولا نصيرا : أى ينصره وينقذه مما يحل به ، والنقير والنقرة : النكتة التى
تكون فى ظهر النواة ويضرب بها المثل فى القلة ، الحنيف : المائل عن الزيغ والضلال ،
والخليل : المحب لمن يحبه ، من الخلة (بالضم) وهى المودة والمحبة التى تتخلل النفس
وتمازجها قال شاعرهم :

قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلا

محيطا : أى عالما بالأشياء قادرا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله سبحانه فى الآيات السالفة أن الشيطان يعدهم ويمنيهم، ويدخل فى تلك الأمانى ما كان يمينه أهل الكتاب من الغرور بدينهم إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص ويقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالم على الشفاعات وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء ، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم .

حذرنا فى هذه الآيات أن نكون مثلهم ، وكانت هذه الأمانى قد دبت إلى المسلمين فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم كما دلّ على ذلك قوله : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ » الآية ، فلضعفاء الإيمان من المسلمين فى الصدر الأول ولأمثالهم فى كل زمان أنزلت هذه الموعظة ، ولو تدبروها لما كان لهذه الأمانى عليهم من سلطان ، وقد أخرج ابن أبى شيبه عن الحسن موقوفا . « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وفر فى القلب وصدقه العمل » وقال الحسن : إن قوما غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملؤون بالذنوب ولو صدقوا لأحسنوا العمل .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال « التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين: نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا . وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله ليس بأمانيكم الخ الآية «
فأنزل الله حجة المسلمين على من نأواهم من أهل الأديان الأخرى .

الإيضاح

(ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) أى ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم : إن ديني أفضل وأكمل ، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمنى والغرور ، فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوط بالأمانى فى الدين ، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهى ولا تحصل فائدتها بالاتساق إليها دون العمل بها .

(من يعمل سوءا يجز به) أى إن من يعمل سوءا يلقى جزاءه ، لأن الجزاء على حسب سنة الله تعالى أثر طبيعى للعمل لا يتخلف فى اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون ، فعلى الصادق فى دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ويجعل ذلك المعيار فى سعادته ، لا أن يجعل تكاثره أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

وقد روى « أنه لما نزل قوله (من يعمل سوءا يجز به) راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبي صلى الله عليه وسلم قال : من ينج مع هذا يا رسول الله ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أما تحزن ، أما تمرض ، أما يصيبك البلاء ؟ قال بلى يا رسول الله قال هو ذاك » .

وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « سدّدوا وقاربوا فإن فى كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، ومن ثم يرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

ويرى بعضهم أن المصائب لا تكفر إلا إذا أثرت في النفس تأثيرا صالحا وكانت سببا في قوة الإيمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة في صالح العمل بما تحذره من العبرة فتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصائب التي تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلا تكفر شيئا من الخطايا بل تزيدها .

(ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) أى من يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له وليا غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيرا ينصره وينقذه مما يحل به ، لامن الأنبياء الذين تفاخر بهم ولا من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأربابا ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال كما قال :

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) أى ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية ، سواء كان العامل ذكرا أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان - فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بركاء أنفسهم وطهارته أرواحهم ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئا ولو حقيرا كالنقيير، وفي هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التي يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أن الله يحابى من يسمي نفسه مسلما ويفضله على اليهودى والنصرانى لأجل هذا اللقب ، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرموا الاهتداء بهديه ، هم في ضلال مبين . وبعد أن بين سبحانه أن النجاة والسعادة منوطان بصالح الأعمال مع الإيمان أردف ذلك بذكر درجات الكمال فقال :

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أى لا أحد أحسن ممن جعل قلبه خالصا لله وحده فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء ولا يجعل بينه وبينه حجابا

من الوسطاء والشفعاء ، ولا يرى في الوجود إلا الله ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها وهي السنن والأسباب التي سنّها في الخليفة .

وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل متحلّ بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه ، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال أو إعراض وسرور أو كآبة ، وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة .

(واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) أى واتبع إبراهيم في حنيفيته التي كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها، قال تعالى: « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واتخذ الله إبراهيم خليلاً) أى اصطفاه الله لإقامة دينه في بلاد غلبت عليها الوثنية وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلنى عند ربه ما صحح به أن يسمى خليلاً فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه التحليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملته وتؤتسى طريقته .

والخلاصة — أنه منّ عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكال المعرفة وفنائه في التوحيد .

(ولله ما في السموات وما في الأرض) أى إن كل ما في السموات والأرض ملك له ومن خلقه مهما اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره .

(وكان الله بكل شيء محيطاً) إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتديبر ، وإحاطة وجود لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ولا هي ابتدعت نفسها

بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد .

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

(١) بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه إليه في كل حال لأنه هو المالك لكل شيء ، وغيره لا يملك لنفسه شيئا .

(٢) نفي ما يتوهم في اتخاذ الله إبراهيم خليلا من أن هناك شيئا من المقاربة في حقيقة الذات والصفات .

(٣) التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها ، إذ من له ما في السموات والأرض خلقا وملكا فهو أكرم من وعد .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْجَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ، وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

شرح المفردات

يستفتونك أى يطلبون منك الفتيا ، يفتيكم : يبين لكم ما أشكل عليكم ، يقال أفتاه إفتاء وفتيا وفتوى ، وأفتيت فلانا رؤياه عبرتها له ، ما كتب لمن أى ما فرض لمن من الميراث ، وأن تقوموا أى تعنوا عناية خاصة ، بالتوسط أى بالعدل ، خافت أى توقعت ماتكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته ، نشوزا : ترفعا وتكبرا لإعراضا : ميلا وانحرافا ، فلا جناح أى لا إثم ولا حرج ، أحضرت الأنفس الشح أى إن الشح حاضر لها لا يغيب عنها ، المعلقة : التى ليست مطلقة ولا ذات بعل ، من سعته . من غناه ، واسعا : غنيا .

المعنى الجملى

كان الكلام أول السورة فى الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقراة ، ومن قوله واعبدوا الله إلى هنا فى أحكام عامة فى أسس الدين وأصوله وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال - ثم عاد الكلام هنا إلى أحكام النساء لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان فى تلك الأحكام ، فالآيات السالفة أوجبت مراعاة حقوق الضعيفين المرأة واليتيم وجعلت للنساء حقوقا مؤكدة فى المهر والإرث وحرمت ظلمهن وأباحت تعدد الزوجات وحددت العدد الذى يحل منهن حين الخوف من عدم الظلم ، ولكن ربما يحدث لهم الاشتباه فى بعض الوقائع المتعلقة بها كأن يقع الاشتباه فى حقيقة العدل الواجب بين النساء ، هل يدخل العدل فى الحب أو فى لوازمه من زيادة الإقبال على المحبوبة والتبسط فى الاستمتاع بها أولا ، وهل يحل للرجل أن يمنع اليتيمة ما كتب الله لها من الإرث حين يرغب فى نكاحها ؟ وبماذا يصلح امرأته إذا أرادت أن تفتدى منه - كل هذا مما تشدد الحاجة إلى معرفته بعد العمل بتلك الأحكام ، فمن ثم جاءت هذه الآيات مبينة أتم البيان لذلك .

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ أن يقوم في المال ويعمل فيه ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً ، فلما نزلت آيات الموارث في سورة النساء شق ذلك على الناس وقالوا : أيرث الصغير الذي لا يقوم في المال والمرأة التي هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل ، فرجوا أن يأتي في ذلك حدث من السماء فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتي حدث قالوا لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بدءاً ، ثم قالوا سلوا فسالوا النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الإيضاح

(ويستفتونك في النساء) أى يطلبون منك الفتيا في شأنهن ببيان ما غرض وأشكل من أحكامهن من جهة حقوقهن المالية والزوجية كالعدل في المعاملة حين العشرة وحين الفرقة والنشوز .

(قل الله يفتيكم فيهن) بما يوحيه إليك من الأحكام في كتابه .

(وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن والمستضعفين من الولدان) أى ويفتيكم في شأنهن ما يتلى عليكم في الكتاب مما نزل قبل هذا الاستفتاء في أحكام معاملة يتامى النساء اللاتي قد جرت عادتكم ألا تعطوهن ما كتب لهن من الإرث إذا كان في أيديكم لولايتكم عليهن وترغبون في أن تنكوهن لجهلهم والتمتع بأموالهم ، أو عن أن تنكوهن لدمامتهم فلا تنكوهن ولا تنكوهن غيركم حتى يبقى ما لهن في أيديكم ، وقد كان الرجل منهم يضم اليتيمة وما لها إلى نفسه فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال ، وإن كانت دميمة عضلها عن الزوج حتى تموت فيرثها ، وما يتلى عليكم أيضاً في شأن المستضعفين من الولدان الذين لاتعطونهم نصيبهم من الميراث ، وقد كانوا إنما يورثون الرجال دون الأطفال والنساء .

والخلاصة — أن الذي يتلى عليهم في الضعيفين المرأة واليتيم هو ما تقدم في أول

السورة وأن الله يذكركم بتلك الآيات المفصلة ليتدبروها ويتأملوا معانيها ثم يعملوا بها ، إذ قد جرت طباع البشر أن يتغافلوا عن دقائق الأحكام والعظات التي ترجعهم عن أهوائهم وتؤنبهم على اتباع شهواتهم .

(وأن تقوموا لليتامى بالقسط) أى يفتيكم أن تقوموا لليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين بالقسط ، بأن تهتموا بهم اهتماما خاصا وتعنوا بشأنهم ويجرى العدل في معاملتهم على أكل الوجوه وأتمها ، فإن ذلك هو الواجب الذى لا هوادة فيه ولا خيرة فى شأنه .

(وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) أى وما تفعلوه من الخيرات لليتامى فهو مما لا يعزب عن علمه وهو مجازيكم به ولا يضيع عنده شئ منه .

(وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) أى وإن توقعت من بعلها نشوزا وترفا عليها بما لاح لها من مخايل ذلك وأماراته بأن منعها نفسه ونفقتة والمودة والرحمة التى تكون بين الرجل والمرأة ، أو آذاها بسبب أو ضرب أو نحو ذلك ، أو إعراضا عنها بأن قلل من محادثتها ومؤانستها لبعض أسباب من طعن فى سن أو دمامة أو شئ فى الأخلاق أو الخلق أو ملال لها أو طموح إلى غيرها أو نحو ذلك .

لكن الواجب عليها أن تثبت فيما تراه من أمارات الإعراض فر بما كان الذى شغله عن مسامرتها والرغبة عن مباعلتها مسائل من مشاكل الحياة الدنيوية أو الدينية ، وهى أسباب خارجية لا دخل له فيها ولا تعلق لها بكرهاتها والجفوة عنها وحينئذ عليها أن تعذره ، وتصبر على ما لا تحب من ذلك ، أما إذا استبان لها أن ذلك لكرهاته إياها ورغبته عنها .

(فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) أى فلا بأس بهما فى أن يصلحا بينهما صلحا كأن تسمح له ببعض حقها عليه فى النفقة أو المبيت معها أو بحققها كله فيهما أو فى أحدهما لتبقى فى عصمته مكرمة أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق أو بكل

ذلك ليطلقها كما جاء في قوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ »
 وإنما يحمل له ذلك إذا كان برضاها لاعتقادها أن في ذلك الخير لها بلا ظلم لها ولا إهانة.
 وقد روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت
 لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي في كل شهرين ، فقال إن كان هذا يصلح
 فهو أحب إليّ ، فأقرها على ما طلبت .

(والصلح خير) من التسريح والفراق ، لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط
 وأحقها بالحفظ وميثاقها من أغلظ الموثيق .

وعروض الخلاف بين الزوجين وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء
 معاشرة من الأمور الطبيعية التي لا يمكن زوالها من البشر .

وأجل ما جاء في الإسلام لمنعه هو المساواة بينهما في كل شيء إلا القيام برياسة
 الأسرة لأنه أقوى من المرأة بدنا وعقلا وأقدر على الكسب وعليه النفقة كما جاء
 في قوله « وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

فيجب على الرجل أن يعاشرها بالمعروف وأن يتحرى العدل بقدر المستطاع .
 (وأحضرت الأنفس الشح) أي إن النفوس عرضة له ، فإذا عرض لها داع
 من دواعي البذل ألم بها الشح والبخل ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح ،
 فالنساء حريصات على حقوقهن في القسم والنفقة وحسن العشرة ، والرجال حريصون
 على أموالهم أيضا ، فينبغي أن يكون التسامح بينهما كاملا إذا هما قد ارتبطا ارتباطا وثيقا
 بذلك الميثاق العظيم وأفضى بعضهما إلى بعض .

(وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أي وإن تحسنوا العشرة
 فيما بينكم وتتقوا أسباب النشوز والإعراض وما يترتب عليهما من الشقاق ، فإن الله كان
 خبيرا بذلك لا يخفى عليه شيء منه ، فهو يجازي من أحسن الحسنى ويثيبه على ذلك .
 (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) أي مهما حرصتم على العدل
 والمساواة بين المرأتين حتى لا يقع ميل إلى إحداها ولا زيادة ولا نقص ، فنن تستطيعوا

ذلك ، ولو قدرتم عليه لما قدرتم على إرضائها به ، ومن ثم رفع الله ذلك عنكم وما كلفكم إلا العدل فيما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم ، لأن الباعث على الكثير من هذا الميل هو الوجدان النفسى والميل القلبي الذى لا يملكه المرء ولا يحيط به اختياره ولا يملك آثاره الطبيعية ، ولهذا خفف الله ذلك عنكم وبين أن العدل الكامل غير مستطاع ولا يتعلق به تكليف .

(فلا تملوا كل الميل) أى وإذا كان ذلك غير مستطاع فعليكم ألا تملوا كل الميل إلى من تحبون منهن وتعرضوا عن الأخرى .

(فتذروها كالمعلقة) أى كأنها ليست بالمتزوجة ولا بالمطلقة ، فإن الذى يغفره لكم من الميل هو ما لا يدخل فى اختياركم ولا يكون فيه تعمد التقصير أو الإهمال ، أما ما يقع تحت اختياركم فعليكم أن تقوموا به إذ لا هواده فيه .

(وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيمًا) أى وإن تصلحوا فى معاملة النساء وتتقوا ظلمهن وتفضل بضعهن على بعض فيما يدخل فى اختياركم كالتقسيم والنفقة فإن الله يغفر لكم ما دون ذلك مما لا يدخل فى اختياركم كالحب وزيادة الإقبال وغير ذلك .

وفى الآية عظة وعبرة لمن يتأملها من عباد الشهوات الذين لا يقصدون من الزوجية إلا التمتع باللذات الحيوانية دون مراعاة أهم أسس الحياة الزوجية التى ذكرها الله فى قوله « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » ولا يلاحظون أمر النسل وإصلاح الذرية ، هؤلاء السفهاء الذواقون الذين يكثرون من الزواج ما استطاعوا ولا باعث لهم إلا حب التنقل والميل من السابقة ولا يخطر لهم أمر العدل فى بال - عليهم أن يتقوا الله ويفكروا فى ميثاق الزوجية وفى حقوقها المؤكدة وفى عاقبة نسلهم وشؤون ذريتهم وفى حال أمتهم التى تتألف من هذه البيوت المبنية على أسس الشهوات والأهواء وفى حال ذريتهم التى تنشأ بين أمهاتها متعدييات .

(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) أى وإن يتفرق الزوجان اللذان يخافان ألا يقيما حدود الله بأن كره الرجل امرأته لدمامتها أو كبرها وأراد أن يتزوج غيرها أو كان عنده زوجان ولم يقدر على العدل بينهما - يغن الله كلا منهما عن صاحبه بسعة فضله ووافر إحسانه وجوده ، فقد يسخر للمرأة رجلا خيرا منه ، كما يهيئ له امرأة أخرى تحسنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده ، ولن يكون كل منهما جديرا بعناية الله وإغناؤه عن الآخر إلا إذا التزما حدود الله بأن اجتهدا في الوفاق والصلح وظهر لهما بعد التفكير والتروى فى الأسباب أنه غير مستطاع ، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد ونهش العرض ، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة وعدم التلاحى والتنايد والتهاجى واختلاق الأكاذيب ، فالرجل ذوالخلق الكريم إذا علم أن امرأة اختلفت مع بعلمها لأنها لم تقبل أن تعيش مع من يعرض عنها أو يترفع عليها بل أحببت أن تعيش معه بطريق عادلة يرى فيها أفضل صفات الزوجية .

وكذلك كرائم النساء وأولياؤهن يرغبون فى الرجل إذا علموا أنه يمسك المرأة بمعروف أو يسرحها بإحسان ولا يلجئه إلى الطلاق إلا الخوف من عدم إقامة حدود الله .

(وكان الله واسعا حكيما) أى وكان الله ولا يزال واسع الفضل والرحمة ، حكيما فيما شرعه من الأحكام التى جعلها وفق مصالح العباد .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَاخِرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين ، بين أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد ، لأن كل ما فى السموات والأرض ملكه فهو مستغن عنهم وقادر على إثابتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصالحهم ، بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العمل بها والوقوف عند حدودها .

الإيضاح

(ولله ما فى السموات وما فى الأرض) خلقا وملكا ، فهو وحده مدبر الأكوان فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفقر ولا الإيناس بعد الوحشة إلى نحو هذا مما ينبىء عظيم القدرة وكال الجود والإحسان .

(ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) أى ولقد أمرنا من قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأمم كما أمرناكم بتقوى الله فى إقامة سننه وإقامة شريعته ، فبالأولى ترقى معارفكم وبالثانية تزكو نفوسكم وتنظم مصالحكم الدينية والدنيوية .

(وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى وإن تكفروا أنعم الله وتجحدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت لا يضره كفركم ومعاصيكم كما لا ينفعه شكركم وتقواكم ، وصاكم وإياهم لرحمته لا لحاجته .

(وكان الله غنيا حميدا) أى وكان الله غنيا عن كل شىء بذاته ، محمودا بذاته

وكمال صفاته ، فهو لا يحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وفي الحديث القدسي « يَا عَبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِي فَتَضُرُونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مَلَكَى شَيْئًا ، يَا عَبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّمْ كَانُوا عَلَى أَجْرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مَلَكَى شَيْئًا ، يَا عَبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ ، يَا عَبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا مِنْ وَجْدٍ خَيْرًا فَلِيَحْمَدِ اللَّهُ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » رواه مسلم .

(والله ما في السموات والأرض وكنى بالله وكيلا) أى له سبحانه ما فيهما خلقا ومملكا يتصرف فيهما كيفما شاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة ، وكنى به قيا وكفيلا يوكل به أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم .

(إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) أى إن يرد إفناءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قوم آخرين من البشر يحلون محلكم في الحكم والتصرف فهو قادر على ذلك لأن كل ما في السموات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه والخلاصة — أن إبقاءكم على ما أتم عليه من العصيان إنما هو لسكمال غناه عن طاعتكم ، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الإفتاء لحكم ومصالح أرادها سبحانه لا لعجز عن ذلك ، تعالى الله علوا كبيرا .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » وقوله : « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » وفي هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويقاومون دعوته ، وتنبيه الناس إلى التأمل في سنن الله التي جرت في حياة الأمم وموتها ، وإن هذه السنن إذا تعلق بها المشيئة وقعت لا محالة .

(وكان الله على ذلك قديرا) أى وكان الله قديرا على ذلك الإفناء وإيجاد خلق آخر إذ بيده ملكوت كل شيء ، ولكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك .
 (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أى من يرد منكم بسعيه وجهاده فى حياته نعيم الدنيا بالمال والجاه ونحوها ، فعند الله ثواب الدارين معا بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الحواس ، فعليكم أن تطلبوها معا ، ولا تكتفوا بما هو أدناها وهو ما ينفى وتتركوا أعلاها وهو ما يبقى ، مع أن الجمع بينهما هين ميسور لكم وهو تحت قدرتك وسلطانكم ، فمن خطل الرأى أن تتركوا ذلك وترغبوا عنه ، بل عليكم أن تقولوا - ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار - .
 وفى الآية إيماء إلى أن الدين يهذى أهله إلى السعادتين ، وإلى أن ثواب الدنيا والآخرة من فضله تعالى ورحمته .

(وكان الله سميعا بصيرا) أى وكان الله سميعا لأقوال عباده حين مخاطبتهم ومناجاتهم ، بصيرا بجميع أمورهم فى سائر حالاتهم ، فعليهم أن يراقبوه فى الأقوال والأفعال ، وبذا تركو نفوسهم وتقف عند حدود الفضيلة التى بها تستقيم أمورهم فى دنياهم ، ويستعدون لحياة أبدية فى آخرتهم يكون فيها مقيمهم وثوابهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ
 أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا
 الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا ، وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ لَعَنْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرًا (١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
 نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالقسط فى اليتامى والنساء فى سياق الاستفتاء فيهن ، لأن حقهن أكد وضعهن معهود - عم الأمر هنا بالقسط بين الناس ، لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل ، وحفظ النظام لا يتم إلا به وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس والوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره ، لأن العدل مقدم على حقوق النفس وحقوق القرابة وغيرها ، وقد كانت سنة الجاهلية محاباة ذوى القربى لأنه يعتز بهم كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) القوام هو المبالغ فى القيام بالشيء والإتيان به مستويا تماما لا تنقص فيه ، وقد أمر الله بإقامة الصلاة وإقامة الشهادة وإقامة الوزن بالقسط تأكيذا للعناية بهذه الأشياء أى فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم راسخة فى نفوسكم ، والعدل كما يكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم ، يكون فى العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم ، ولو سار المسلمون على هدى القرآن لكانوا أعدل الأمم وأقومهم بالقسط ، وقد كانوا كذلك رَدحا من الدهر حين كانوا مهتدين بهديه ، ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم فصارت تضرب بهم الأمثال فى ظلم حكامهم وسوء أحوالهم .

(شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) أى كونوا شهداء لله بأن تتحروا الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة أحد ولا محاباته ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم (ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها

لأن الشهادة إظهار الحق) أو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم ، إذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوى الرحم أن يعانون على ما ليس لهم بحق بالإعراض عن الشهادة عليهم أو ليها والتحريف فيها ، بل البر والصلة في الحق والمعروف .

وليس من شك في أن الحياة قصاص ، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس ، يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكون المحاباة من أسباب فسوؤ الظلم والعدوان والمفاسد التي لا يؤمن شرها .

(إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) أى إن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، وشرعه أحق أن يتبع فيهما ، فحذار أن تحابوا غنيا طمعا في بره ، ولا خوفا من أذاه وشره ، ولا فقيرا عطفًا عليه وشفقة به ، فمراضة كل منهما ليست خيرا لكم ولا لها من مرضاة الله ، ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما ، ولولا أنه يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهود عليه لما شرع ذلك ولا أوجبه .

وقد روى ابن جرير عن السدى في سبب نزول الآية : أن رجلين فقيرا وغنيا اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان حلفه (ميله القلبي) مع الفقير ، يرى أن الفقير لا يظلم الغنى فأبى الله إلا أن يقوم بالتوسط في الغنى والفقير ، وقال قتادة في هذه الآية : هذا في الشهادة فأتم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو على ذوى قرابتك وأشرف قومك فإنما الشهادة لله وليست للناس ، والعدل ميزان الله في الأرض ، به يرد الله من الشديد على الضعيف ، ومن الصادق على الكاذب ، ومن المبطل على الحق اه .

(فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى فلا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل ، إذ في الهوى الزلل .

(وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أى وإن تلوا أو أستمعتم

بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فإله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه قصدكم فهو مجازيكم بما تعملون .

وعبر بالخبير ولم يعبر بالعلم لأن الخبرة العلم بدقائق الأمور وخفائها ، والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال حتى لقد يغش الإنسان فيها نفسه ويتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها .

فيتدبر المسلمون ذلك وليعملوا بهدى كتابهم وقيموا الشهادة بالحق ففي ذلك فلاحهم في دينهم ودينهم .

(يأيتها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) هذا خطاب للمؤمنى اليهود ، فقد روى عن ابن عباس « أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام ويامين بن يامين ، إذ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله) فقالوا لا نفعل ، فنزلت ، قال فأمنوا كلهم » : وقيل إن الخطاب فيها للمؤمنين كافة ، والمعنى ازدادوا في الإيمان طمأنينة وبقينا وآمنوا برسوله خاتم النبيين وبالقرآن الذي نزله عليه وبالكتب التي نزلها على رسله من قبله ، فإنه لم يترك عباده في زمن ما محرومين من البينات والهدى .

وبعد أن أمر بالإيمان بما ذكر توعد من كفر بذلك فقال :

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضللاً بعيداً) أى ومن يكفر بالله أو بملائكته أو ببعض كتبه أو رسله أو اليوم الآخر (وهى أسس الدين وأركانه) فقد ضل عن صراط الحق الذى ينبجى صاحبه فى الآخرة من العذاب الأليم ويمتعه بالنعيم المقيم .

ومن فرق بين كتب الله ورسله فأمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى

فلا يعتد بإيمانه، لأنه إما يتبع الهوى أو يقلد عن جهل وعمى، ذلك أن سر الرسالة هي الهداية، ولم يكن بعض النبين فيها بأكل من بعض، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل كان كفره بها دليلاً على أنه لم يؤمن بشئ منها إيماناً صحيحاً مبنيًا على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بِشَرِّ الْمُنَافِقِينَ بَانَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَيْتَنِعُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ
فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا
مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ، فَإِنْ
كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ
نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

المعنى الجملى

ذكر الله تعالى في هذه الآيات حال قوم من أهل الضلال البعيد - آمنوا في الظاهر نفاقاً، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم ولم يجعل فيها مكاناً للاستعداد للفهم، ومن ثم لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى، إذ هم لم يفقهوا

حقيقة الإيمان ولا ذاقوا حلاوته ولا أشربت قلوبهم حبه ولا عرفوا فضائله ومناقبه ، ثم أوعد بعدئذ المنافقين بالعذاب الأليم وذكر أنهم أنصار الكافرين على المؤمنين فلا ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء ولا أن يبتغوا عندهم جاهها ولا منزلة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) أى إن هؤلاء قد استبان من ذبذبتهم واضطراب أحوالهم من إيمان إلى كفر ، ثم من كفر إلى إيمان وهكذا دواليك ، أنهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وبقته مزاياه وفضائله ؛ ومثلهم لا يرجى لهم - على حسب سنن الله فى خلقته - أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع ولا أن يسلكوا سبيل الله ، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه ومغفرته وإحسانه لأن أرواحهم قد دنست ، وقلوبهم قد عميت ، فلم تكن محلا للمغفرة ولا للرجاء فى ثواب . والله أرحم الراحمين واسع المغفرة لم يكن ليحرم أحدا المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة ، وإنما مشيئته مقترنة بحكمته ، وقد جرت سنة الله وحكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعولمهم وأعمالهم مؤثرا فى نفوسهم ، فمن طال عليه أمد التقليد حجب عن عقله نور الدليل ، ومن طال عليه عهد الفسوق والعصيان حرم من أسباب الغفران التى ذكرها سبحانه فى قوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

ولا شك أن المغفرة وهى محو أثر الذنب من النفس إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح الذى يزيل ماعلق فى النفس من تلك الآثام كما قال تعالى « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » .

(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) البشارة لاستعمل غالبا إلا فى سائر الأخبار إذ هى مأخوذة من انبساط بشرة الوجه ، فاستعملها فى الأخبار السيئة يكون من باب

التهمم والتوبيخ ، أى بشر المناققين بالعذاب المؤلم الذى لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلا اعلام الغيوب .

(الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى هؤلاء المناقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها ويمالئون الكافرين عليهم اعتقادا منهم أن الدولة ستكون لهم فيجعلون لهم يدا عندهم .

(أيتبعون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعا) الاستفهام هنا للتوبيخ ، والعزة القوة والمنعة أى إن كان المؤمنون يطلبون عندهم الغلبة والمنعة ، فإن العزة لله يؤتيا من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التى أرشد إليها أنبياءه وقد بينوا لهم أسبابها ، وقد آتاه الله المؤمنين حينما اهتدوا بكتابه وساروا على سننه ونهجوا نهجه ، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التى اعتر بها أسلافهم ذلوا وخضعوا لعدوهم وصار منهم مناققون يوالون الكافرين يبتغون عندهم عزة وشرفا وما هم لها بمدركين .

(وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) الخطاب موجه إلى كل من يظهر الإيمان سواء أكان مؤمنا حقا أم منافقا ، وما نزله فى الكتاب هو قوله فى سورة الأنعام المسكية « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » وقد كان بعض المسالمين يجلسون مع المشركين وهم يخوضون فى الكفر وذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن ولا يستطيعون الإنكار عليهم لضعفهم وقوة المشركين ، فأمروا بالإعراض عنهم وعدم الجلوس معهم فى هذه الحال .

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فعل مشركى مكة وكان المناققون يجلسون معهم ويستمعون إليهم فهمى الله المؤمنين عن ذلك .

والخلاصة - أنكم إذا سمعتم الكلام الذي يتضمن جعل الآيات في موضع السخرية والاحتقار فابتعدوا عنهم ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر .
وفي الآية دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية كما يقع من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة ولم يبق في أيديهم إلا قال إمام مذهبنا كذا وقال فلان من أتباعه كذا ، وإذا استدل أحد بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه وظنوا أنه قد جاء بخطب شنيع وجعلوا رأي إمامهم مقدما على ما نطق به الكتاب وأرشدت إليه السنة .

(إنكم إذا مثلهم) أى إنكم إن تعدتم معهم تكونوا شركاء لهم في الكفر ، لأنكم رضيتم به ووافقتموه عليه ، وفي الآية إيماء إلى أن من يقر المنكر ويسكت عليه يقع في الإثم ، وإلى أن إنكار الشيء يمنع من انتشاره بين الناس .
وقد وقع في هذا المنكر كثير من المسلمين ، فإنهم يرون الملحدين في البلاد يخوضون في آيات الله ويستهزئون بالدين وهم يسكتون عن ذلك ولا يبديون إنكارا ولا اشمئزا ولا صدا ولا إعراضا .

(إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا) أى إنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا سيجمعون في العقاب يوم القيامة ولا يخفى ما في هذا من الوعيد للكفار والمنافقين .

(الذين يترصون بكم) يترصون ينتظرون ما يحدث من خير أو شر أى إن هؤلاء المنافقين ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر ، وشر أو خير .

(فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟) أى فإن نصركم الله وفتح عليكم ادعوا أنهم كانوا معكم فيستحقون مشاركتكم في النعمة وإعطاءهم من الغنيمة . (وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) الاستحواذ: الاستيلاء على الشيء والتمسكن من تسخير أو التصرف فيه أى وإن كان

للكافرين نصيب من الظفر منوا عليهم بأنهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين بتخذيلهم والتواني في الحرب معهم وإلقاء الكلام الذي تخوره به عزائمهم عن قتالكم فاعرفوا لنا هذا الفضل وهاتوا نصيبنا مما أصبتم .

والسرف في التعبير عن ظفر المؤمنين بالفتح وأنه من الله ، وعن ظفر الكافرين بالنصب - الأيماء إلى أن العاقبة للحق دائماً وأن الباطل ينهزم أمامه مهما كان له أول أمره من صولة ودولة ، وقد يقع أثناء ذلك نصيب من الظفر للباطل ولكن تنتهي بغلبة الحق عليه كما قال « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » مادام أهله متبعين لسنة الله بأخذ الأهبة وإعداد العدة كما أمر بذلك الكتاب العزيز بقوله « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » .

وإنما غلب المسلمون في هذه العصور على أمرهم وفتح الكافرون بلادهم التي فتحوها من قبل بقوة إيمانهم لأنهم تركوا أخذ الأهبة وإعداد العدة ، وقام أعداؤهم بكل ما تستدعيه الحروب الحاضرة فأنشئوا البوارج والمدافع والدبابات المدرعة والغواصات المهلكة والطائرات المنقضة إلى نحو ذلك من آلات التدمير والهلاك في البر والبحر والجو ووسائل ذلك من علوم طبيعية أو آلية (ميكانيكية) أو رياضية .

(فالله يحكم بينكم يوم القيامة) أى فالله يحكم بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر حكماً يليق بشأن كل من الثواب والعقاب فيثيب أحباءه ويعاقب أعداءه ، أما في الدنيا فأتمم وهم سواء في عصمة الأنفس والأموال كما جاء في الحديث « فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » .

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) أى إن المؤمنين ماداموا مستمسكين بدينهم متبعين لأمره ونهيه قائمين بعمل ما يستدعيه الدفاع عن بيضة الدين من أخذ الأهبة وإعداد العدة ، لن يغلبهم الكافرون ولن يكون لهم عليهم سلطان ، وما غلب المسلمون على أمرهم إلا بتركهم هدى كتابهم وتركهم أوامر دينهم وراءهم

ظهرياً ، فذلوا بعد عزة وأجلب الكفار عليهم بخيلهم ورجلهم ودخلوا عليهم في عُقر دارهم وامتلكوا بلادهم ، والله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَاءٍ وَلَا إِلَى هُوَاءٍ ، وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) .

شرح المفردات

الخداع: إيهام غيرك أن الشيء على ما يجب ويريد تزيينك له وهو على غير ذلك ، كسالى : واحدكم كسلان ، وهو المشاغل المتباطئ ، المراءاة : من الرؤية ، وهى أن يكون من يرائيك بحيث تراه كما يراك فالمرأى يريهم عمله وهم يرونه استحسان ذلك العمل الذبذبة : حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ثم استعملت فى كل اضطراب وحركة .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث فى المنافقين وبيان أحوالهم بعد أن ذكر طرفاً منها قبل ذلك .

الإيضاح

(إن المنافقين يخادعون الله) أى يخادعون رسول الله أى يظهرن له الإيمان ويبطنون الكفر ، ونسب ذلك إلى الله من جهة أن معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » . وفى جعل ذلك خداعاً لله تنبيه إلى شيئين فطاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة

إذهم بمخادعتهم للرسول إنما يخادعون الله ، وعظم شأن المفصود بالخداع وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وأن معاملته بذلك كعاملته الله به .

(وهو خادعهم) أى مجازيهم على خداعهم ، وسمى ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول ، ونظيره « وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » وإنما جعل كذلك لأنه قد استعمل في المعانى المذمومة التى تتضمن الكذب أو تدل على ضعف صاحبها وعجزه غالباً .

وخلاصة المعنى — أنه عبر عن سنة الله فى عاقبة أمرهم فى العاجل والآجل من حيث إنها جاءت على غير ما يحبون بلفظ مأخوذ من الخداعة إذ أنهم بمخادعتهم للرسول والمؤمنين يسرون فى طريق يضاون فيه وينتهون إلى الخزى والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة ، فخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة لله لهم ، إذ جرت سنته تعالى فىمن يعمل مثل عملهم أن يلاقى الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، وهكذا حال المنافقين فى كل أمة وملة يخادعون ويكذبون ويكيدون ويغشون ويتولون أعداء أمتهم يبتغون بذلك يدا عندهم يمتون بها إليهم إذا دالت دولتهم ، وكتب التاريخ ملى بأخبار هؤلاء الأشرار ، ويكثر عددهم فى الامم فى أطوار الضعف وقوة الاعتداء إذ هم طلاب منافع يلتمسونها من كل فج ويسلكون لها كل طريق ولو فيما يضر أمتهم والناس أجمعين ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : خداعه تعالى لهم أن يعطيهم نورا يوم القيامة يمشون به مع المسلمين فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا فى ظلمة ، ودليله قوله تعالى « كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » .

(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) أى متباطئين متثاقلين ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل ولا نشاط يدفعهم على فعل ، لأنهم لا يرجون ثوابا فى الآخرة ، ولا يخشون عقابا إذ لا إيمان لهم ، وإنما يخشون الناس ، فإذا كانوا بمعزل عن المؤمنين

تركوها، وإذا كانوا معهم سايروهم بالقيام بها، ومن كانت هذه حاله وقع عمله على وجه الكسل والفتور.

(يرأون الناس) بها أى يبتغون بذلك أن يراهم المؤمنون فيعدوهم منهم .
(ولا يذكرون الله إلا قليلا) أى لا يصلون إلا قليلا، فإذا لم يرم أحد لم يصلوا
وإذا كانوا مع الناس رآوهم وصلوا معهم .

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أى مضطربين مائلين تارة
إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين لا يخلصون إلى أحد الفريقين لأنهم طلاب منافع
ولا يدرون لمن تكون العاقبة، فتمت ظهرت الغلبة لأحدهما ادعوا أنهم كما بين الله
ذلك فيما سلف .

(ومن يضل الله فلن تجد له سيلا) أى ومن قضت سنته أن يكون ضالا عن
الحق موغلا في الباطل بما قدم من عمل وتخلق به من خلق، فلن تجد له سيلا
للهداية باجتهادك والمبالغة في إقناعه بالحجة والدليل، فإن سنة الله لا تتبدل
ولا تتحول .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِي
اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) .

المعنى الجملي

بعد أن ذم الله تعالى المنافقين بأنهم مذذبون لا يستقر لهم قرار ، فهم تارة مع المؤمنين وأخرى مع الكافرين ، حذر المؤمنين أن يفعلوا فعلهم وأن يوالى بعض ضعفائهم الكافرين دون المؤمنين ، ينتغون عندهم العزة ويرجون منهم المنفعة كما فعل حاطب بن أبي بلتعة إذ كتب إلى كفار قريش يخبرهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم ؛ لأنه كان له عندهم أهل ومال .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) المراد بالولاية هنا النصرة بالقول أو بالفعل بما يكون فيه ضرر للمسلمين ، وهذا كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » . أما استخدام اليمين منهم في الحكومة الإسلامية فليس بمحظور ، والصحابة رضوان الله عليهم استخدموهم في الدواوين الأميرية ، وأبو إسحاق الصابئي جعل وزيراً في الدولة العباسية .

(أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) السلطان الحجة والبرهان ، والمبين هنا بمعنى البين في نفسه .

والمعنى — أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة في استحقاقكم للعقاب إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين ؟ فإن عملاً كهذا لا يصدر إلا من منافق .

(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) الدرك والدرك بالسكون والتحريك : الطبقة أسفل من الأخرى ، فإذا كانت أعلى منها كانت درجة ، والنار سبع دركات سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة ، وفي الآية إشارة إلى أن دار العذاب في الآخرة

ذات دركات بعضها أسفل من بعض ، كما أن دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض .

وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار لأنهم شر أهلها ، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ونفوسهم أحط النفوس ، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها .

أما أكثر الكفار فقد غلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره من صنم أو وثن يتخذونه شفيعا عنده ووسيطا بينه وبينه ، وقد قاسوا ذلك على معاملة الملوك المستبدين والأمراء الظالمين .

(ولن تجد لهم نصيرا) ينقذهم من ذلك العذاب أو يخففه عنهم فيرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها .

(إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) أى هذا الجزاء الشديد الذى أعده الله للمنافقين لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر وندموا على ما فرط منهم وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة :

(١) اجتهادهم في صالح الأعمال التى تغسل أدران النفاق بأن يلتزموا الصدق فى القول والعمل مع الأمانة والوفاء بالوعد ويخاصوا النصح لله ورسوله ، وقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع ومراقبة الله فى السر والعلن .

(٢) اعتصامهم بالله بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله ، مع التمسك بكتابه والتخلق بأدابه والاعتبار بمواعظه والرجاء فى وعده والخوف من وعيده والأتمار بأوامره والانتباه عن نواهيه كما قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا »

(٣) إخلاصهم لله بأن يدعوه وحده ولا يدعوا من دونه أحدا لكشف ضر ولا جلب نفع ، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصا له وحده كما قال : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » وكما جاء في قوله : « فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » .

(فأولئك مع المؤمنين) أى فأولئك التائبون يكونون مع المؤمنين ، لأنهم يؤمنون بإيمانهم ويعملون بعملهم فيجزون جزاءهم .

(وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) أى وسوف يعطيهم الله الأجر العظيم الذى لا يقدر قدره ، كما قال تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) الاستفهام للانكار . والمعنى أنه تعالى لا يعذب أحدا من خلقه انتقاما منه ولا طلبا لنفع ولا دفعا لضر ؛ لأنه تعالى غنى عن كل أحد منزّه عن جلب منفعة له ولا دفع مضرة عنه ، بل ذلك جزاء كفرهم بأنعم الله عليهم فهو قد أنعم عليهم بالعقل والحواس والجوارح والوجدان ، لكنهم استعملوها فى غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها لتكميل نفوسهم بالفضائل والعلوم والمعارف ، كما كفروا بخالق هذه القوى فاتخذوا له شركاء ولا ينفعهم تسميتهم شفعاء أو وسطاء حتى فسدت فطرتهم ودنست أرواحهم ، ولو آمنوا وشكروا لظهرت أرواحهم وظهرت آثار ذلك فى عقولهم وسائر أعمالهم التى تصلحهم فى معاشهم ومعادهم واستحقوا بذلك رضوان الله « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

(وكان الله شاكرا عليا) أى يجعل ثواب المؤمنين الشاكرين على حسب علمه بأحوالهم ، ونيلاهم من الدرجات أكثر مما يستحقون جزاء على شكرهم وإيمانهم كما قال : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فهو يجزى بيسير الطاعات رفيع الدرجات ، ويعطى بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة .

وقفنا الله لصالح العمل وجعلنا من المؤمنين الشاكرين .
وصلى الله على محمد وصحبه وسلم .

وكان الفراغ من كتابة مسودة هذا الجزء في اليوم الثاني من المحرم سنة اثنتين وستين وثلثمائة بعد الألف ، بمدينة حلوان بالديار المصرية .

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	جاء الإحصان فى القرآن لعدة معان .
٧	الاسترقاق المعروف الآن فى بلاد الحجاز ، والسودان ، وبلاد الجراكسة ليس بشرعى .
٨	نكاح المتعة (النكاح المؤقت) حرام كالنكاح بنية الطلاق .
١٠	كان الزنا فى الجاهلية قسمين سرى وعلنى كما هو الآن فى كثير من البلاد الإفريقية ومن قدم فى البلاد الإسلامية .
١٧	مال الفرد مال الأمة مع احترام الحيازة والملكية ، ولا يباح للمحتاج أن يأخذه إلا بإذن صاحبه .
١٨	مدار حل التجارة على التراضى فلا ينبغى أن يكون فيها غش ولا تدليس .
١٩	الدين قد جعل قتل غيرك قتلا لنفسك .
٢٧	أسباب قوامة الرجال على النساء .
٢٨	النهي القويم فى معاملة المرأة .
٣٠	الرجال الذين يستذلون نساءهم يلدون عبيداً لغيرهم .
٣١	علاج الشقاق بين الزوجين إرسال حكيم حكم من أهله وحكم من أهلها
٣٧	أمرنا بحسن معاملة الخادم والمولى .

الصفحة	المبحث
٣٩	المرائى بخيل في الحقيقة — الفارق بينه وبين الخالص في عمله .
٤٠	القرين الصالح عون على الخير .
٤٤	يوم القيامة يود الكافر لو تسوى به الأرض ويكون ترابا .
٤٧	حكمة الاعتسال من الجنابة .
٥١	أهل الكتاب اشتروا الضلالة بالهدى فخرفوا الكلم عن مواضعه .
٥٥	اتفق الرسل جميعاً في أسس الدين واختلفوا في التفاصيل .
٥٨	ضروب الشرك — الحكمة في عدم مغفرته .
٦١	تحذير المسلمين من الغرور بدينهم كما فعل أهل الكتاب .
٦٥	هل يعود الملك إلى اليهود ؟ .
٦٨	الحكمة في تبديل جلود الكفار — رأى الطب في ذلك .
٦٩	أزواج الجنة مبرآت من العيوب الجسمية والنفسية .
٧٠	الأمانة ضروب وأنواع .
٧٣	الأصول التي بُني عليها التشريع في الإسلام .
٧٦	التحاكم إلى الدجالين وأصحاب المنديل والرمل ومدعى التكشف والولاية .
٧٧	المنافقون يصدون عن التحاكم إلى الرسول .
٨٣	صادق الإيمان من يطيع الله في المحبوب والمكروه .
٩٢	جرت سنة الله أن الحق يعلو على الباطل وأن البقاء للأصلح .
٩٧	كل شيء من عند الله فهو خالق الأشياء وواضع نظامها .
٩٨	طاعة الله من أسباب النعم ، وعصيانها مما يجلب النقم .
١٠٢	لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .
١١٧	الناس في عصر التنزيل كانوا ثلاث فرق بالنسبة إلى هذا الدين .
١٢٣	للعلماء في توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة .

الصفحة	المبحث
١٣١	لاتقبل مسابقة أهل البدع والأهواء خوفا من الأذى .
١٣٣	إذا لم يستطع الرجل إقامة دينه في بلد وجبت عليه الهجرة منه إلى بلد آخر
١٣٥	من سافر لأمر فيه ثواب كطلب علم وحج ومات قبل الوصول إلى مقصده كتب له أجر فعل ذلك .
١٣٦	السبب في شرع الهجرة في صدر الإسلام .
١٣٩	صلاة القصر في السفر وشرطها .
١٤٤	الحكمة في توقيت الصلاة .
١٤٨	لا ينبغي أن يظهر الميل الفطري أو الديني في مجلس القضاء .
١٤٩	من شأن العاصين أن يستتروا من الناس حين اجترأ السيئات ولا يستحيون من الله .
١٥٣	النجوى مظنة الشر ولا خير فيها إلا في الأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس .
١٥٥	من یرتد عن الإسلام بعد ما ظهرت له الهداية على اسان رسله فأواه جهنم وبئس المصير .
١٥٧	لا يغفر الله الشرك لأحد ويغفر مادون ذلك لمن يشاء .
١٥٩	الشرك أصناف .
١٦١	من يتبع وساوس الشيطان فقد خسر خسرانا مبينا .
١٦٢	وعد الشيطان غرور من القول وزور .
١٦٥	كل ما أصاب المسلم كفرارة له حتى الشوكة يشاكها .
١٦٦	النجاة والسعادة في الآخرة منوطان بصالح العمل مع الإيمان .
١٧٠	في الكتاب ما يجب من معاملة الضعيفين المرأة واليتيم .

الصفحة	المبحث
١٧١	إذا خافت المرأة من الزوج نشوزا وإعراضا فلا بأس في أن تتسامح في بعض حقوقها عليه أو كلها لتبقى في عصمته .
١٧٢	العدل غير مستطاع بين الأزواج فيجب مراعاته على قدر الإمكان .
١٧٣	ميثاق الزوجية ميثاق مؤكد يجب احترامه .
١٧٤	إذا افترق الزوجان وراعيا حدود الله يسر الله لهما من فضله وجوده خير العوض من صاحبه .
١٧٨	تحرى الحق والعدل في الشهادة ولو على النفس أو الوالدين والأقربين .
١٨٢	المغفرة إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح في النفس حتى يزيل ما علق بها من الآثام .
١٨٣	نهينا عن الجلوس في الأماكن التي فيها ذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن .
١٨٥	ما غلب المسلمون في هذه العصور ولا فتح الكفار بلادهم إلا بترك الأهبة وإعداد العدة .
١٨٥	لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ما داموا مستمسكين بدينهم متبعين لأوامره .
١٨٧	للمنافقون في كل أمة وملة يخادعون ويكذبون ويتولون أعداء أمتهم يبتغون بذلك يدا عندهم .
١٩٠	للمنافق إذا تاب واجتهد في صالح الأعمال واعتصم بالله وأخلص له العمل يعفو الله عنه .
١٩١	العذاب جزاء على الجرائم التي تصدر عن الفاعل لها .

A ٤٠

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء السادس



شركة مكتبة وناشر دارالعلوم الجاهلي وأولاده بمصر

الفتح على الأبيات

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة



الجزء السادس

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ
سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا (١٤٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحججة عليهم ،
وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم كما قال : « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .
بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول وإبداء الخير وإخفائه حتى لا يستدل المؤمنون
بذكر عيوب المنافقين والكافرين في القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول
أو مشروعيته إذا كان حقا على الإطلاق فيفشو ذلك، وفي هذا من الضرر ما استدركه .

الإيضاح

(لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) حب الله لشيء هو الرضا به والإجابة عليه ،
والجهر يقابل السر والاختفاء ، والسوء من القول ما يسوء من يقال فيه كذكر عيوبه
ومساويه التي تؤذى كرامته .

والعنى — إن الله لا يحب من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات
لما في ذلك من المفاسد الكثيرة التي أهمها :

(١) أنه مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء ،
وقد يصل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء .
(٢) أنه يؤثر في نفوس السامعين تأثيراً ضاراً بهم ، فقد جرت العادة بأن
الناس يقتدى بعضهم ببعض ، فمن رأى إنساناً يسب آخر لضغائن بينه وبينه ،
أو لكرهته إياه قلده في ذلك ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم
التقليد أو من طبقة دون طبقة ، إذ عامة الناس يقلدون خواصهم ، فإذا ظهرت
المنكرات في الخاصة لا تلبث أن تصل إلى العامة وتنفش بينهم . ومن تميل نفسه إلى
منكر أو فاحشة يجترى على ارتكابها إذا علم أن له سلفاً وقدوة فيهما ، فسماع السوء
كعمل السوء فذاك يؤثر في نفس السامع وهذا يؤثر في نفس الرائي والناظر ،
وأقل هذه الأضرار أنه يضعف في النفس استقباحه واستبشاعه خصوصاً إذا تكرر
السماع أو النظر .

وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام في القلوب فلا يزهون ألسنتهم
عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه .

وإختلاصة — إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول ولا الإصرار به إذ هو
قد نهى عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ولكنه خص الجهر هنا بالذكر
لمناسبة بيان مفاسد الكفار والمنافقين في هذا السياق .

والجهر بالسوء أشد ضرارا من الإسرار به لأن ضرره وفساده يفسو في جمهرة الناس ويعم سائر الطبقات .

(إلا من ظلم) أى لکن من ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحا لظلمته لحاكم أو غيره ممن ترجى نجاته ومساعدته على إزالة هذا الظلم فلا حرج عليه في ذلك ، فإن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم ولا أن يخضعوا للظلم ، بل يجب لهم العزة والإباء .

فهاهنا تعارضت مفسدتان مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم بقول السوء ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والتماذى فيه ، وذلك مما يؤدي إلى هلاك الأمم وخراب العمران ، وكانت ثانيتهما أخف الضررين فأجيزت للضرورة التي تقدر بقدرها ، وإذا فلا يجوز للظالم أن يتماذى في الجهر بالسوء بما لا يدخل له في دفع الظلم وفي الحديث « إن لصاحب الحق مقالا » رواه الإمام أحمد .

(وكان الله سميعا عليما) فلا يفوته قول من أقوال من يجهر بالسوء ولا يعزب عن علمه البواعث التي أدت إليه ، إذ لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ونياتهم فيها ، فمن جهر بالسوء الذي لا يحبه الله لعباده لضرره ومفسدته لظلم وقع عليه فالله لا يؤاخذ به ، بل ربما أثابه على ذلك لإراحة الناس من شر فاعله فإن الظالم إن لم يؤاخذ على ظلمه يزدد فيه ضراوة وإصرارا .

(إن تبدوا خيرا أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) أى إن فاعلى الخير سرا وجهرا والعافين عن يسئ إليهم يجزئهم ربهم من جنس ما عملوا فيعفو عن سيئاتهم ويجزل ثوابهم ، والله من شأنه العفو وهو القدير الذى لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا

بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

المعنى الجملى

بين الله تعالى أن للإيمان ركنين يبنى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الإيمان بدونهما
وها الإيمان بالله وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر .

الإيضاح

(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون
نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك
هم الكافرون حقا) ليس المراد أنهم يصرحون بالكفر بل هو ما تقتضيه آراؤهم
ومذاهبهم ، وقوله : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بيان لتفريقهم بين الله ورسله .

والمخالصة — إن الكافرين بالرسل فريقان فريق لا يؤمن بأحد منهم
لإنكارهم النبوات وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند
أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق . وفريق
آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بيسى ومحمد
فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد والفريقان
كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدعونه إيمانا .

(وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وأعدنا لكل كافر سواء أكان منهم

أم من غيرهم عذابا فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذي ظنوا فيه العزة والكرامة .
 ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحا
 ولا يهتدى إلى ما يجب له من الشكر ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذي يرضيه ،
 ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لاتبهمم لإشبهواتهم كما أن من يؤمنون ببعض الرسل
 ويكفرون ببعض كأهل الكتاب لا يمتدّ بقولهم لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق
 إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم .

ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها في محمد صلى
 الله عليه وسلم فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحوه كتاب آخر مع أنه نشأ بين قوم
 أميين ، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعي والأسانيد المتصلة دون غيره
 من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفي الذكر ذكر حال فريق ثالث فقال :
 (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم)
 أي والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم علما منهم بأن جميعهم مرسل
 من عند الله ، وما مثلهم إلا مثل ولاية يرسلهم السلطان إلى البلاد ومثل الكتب
 التي جاءوا بها مثل القوانين التي يصدر السلطان مراسيم للعمل بها فكل وال منهم
 إنما ينفذ أوامر السلطان وكل قانون يعمل به لأنه منه وكل قانون جديد ينسخ ما قبله
 ويمنع العمل به . وأولئك يؤتيهم الله أجورهم على حسب حالهم في العمل ، لأنهم
 وقد صح إيمانهم بالله ورسله يهديهم ربهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك
 الإيمان الصحيح .

ولم يقل في هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقا كما قال في أولئك إنهم هم الكافرون
 حقا لثلاث يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح فيعتبر بذلك ويترك
 العمل النافع وهذا مما لا يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقا بقوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ »

(وكان الله غفورا رحيا) أى وكان الله غفورا لهنفوات من صح إيمانه ولم يشرك بره أحدا ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيا به يعامله بالإحسان ويضعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلا منه ورحمة .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَمَّوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا قُورَيْشَهُمُ الطُّورَ بِمِثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا تَقَضَّيْتُمْ مِثَاقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْآنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)

بَلِّغْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى في سابق الآيات حال الذين يكفرون بالله ورسله ويفرقون
بين الله ورسله فيقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب ، بين في هذه
الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين .

الإيضاح

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) فقد قالوا له إن موسى
عليه السلام جاء بالألواح من عند الله فالتفتنا بالألواح من عنده تكون بخط سماوى يشهد
أنك رسول الله إلينا .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : إن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم
لن نبأبعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا يكتب من عند الله يكون فيه (من الله
تعالى إلى فلان إنك رسول الله وإلى فلان إنك رسول الله ، وهكذا ذكروا أسماء
معينة من أحبارهم وما مقصدهم من ذلك إلا التعمت والتحكيم لا طلب الحججة
لأجل الاقتناع) وقال الحسن لو سألوه ذلك استرشادا لأعظام ما سألوها .

(فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) جهرة أى عيانا ننظر
إليه ونشاهده أى لا تعجب أيها الرسول من سؤالهم وتستنكره فقد سألو موسى أكبر
من ذلك وكل من السؤالين يدل على جهل أو عناد .
ذاك أن سؤال الرؤية جهرة دليل على الجهل بالله إذ هم ظنوا أن الله جسم محدود
بدركه الأبصار ؛ وأما سؤال إنزال الكتاب فهو دليل إما على العناد لأنهم اقترحوا

ما اقترحوا تعجيزا ومراوغة وإما على الجهل بمعنى النبوة والرسالة مع ما ظهر فيهم من أنبياء ، إذ هم لا يميزون بين الآيات الصحيحة التي يؤيد الله بها رسله وبين الشعوذة وحيل السحرة المخالفة للعادة ، وكتبهم قد بينت لهم أنه يقوم فيهم أنبياء كذبة وأن النبي يعرف بدعوته إلى التوحيد والحق لا بمجرد أعجوبة يعملها كما نصت على ذلك التوراة في سفر تثنية الاشتراع وغيره .

وأيا ما كان فلا فائدة في إجابتهم إلى ما طلبوا كما قال تعالى : « وَلَوْ تَزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

ونسب سؤال موسى إليهم والذين سألوا إنما هم سلفهم لأن الخلف والسلف سواسية في الأخلاق والصفات ، فالأبناء يرثون الآباء ولا سيما اليهود الذين يأبون مصاهرة الغرباء ، ولأن سنة القرآن قد جرت على أن الأمة تعد كالشخص الواحد في اتباع خلفها لسلفها فينسب إلى المتأخر ما فعله المتقدم كما سبق هذا في سورة البقرة في مخاطبة اليهود وغيرهم .

(فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) الصواعق نيران جووية تنشأ من اتحاد الكهرباء الموجبة بالكهرباء السالبة ، وقوله بظلمهم أى بسبب ظلمهم أى إن الله تعالى عاقبهم على جهلهم بإنزال الصاعقة عليهم عذابا لهم ، إذ شبهوا الخالق بالخلق ورفعوا أنفسهم فوق أقدارها كما قال تعالى « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » .

(ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك) تقدم هذا في سورة البقرة أى وبعد أن جاءتهم المعجزات على يد موسى عليه السلام من قلب العصا حية واليد بيضاء وقلق البحر وغيرها ، اتخذوا العجل إلها وعبدوه ، فعفونا عن ذلك الذنب حين تابوا ، فتوبوا أتم مثلهم حتى نعفو عنكم مثلهم .

(وآتينا موسى سلطانا مبينا) السلطان هنا بمعنى السلطة أى إننا أعطينا سلطة ظاهرة فأخضعناهم له على تمردهم وعنادهم حتى في قتل أنفسهم ، وفي هذا إشارة للنبي

صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندون فإنك ستتغلب عليهم
آخرا وتقهرهم .

ثم حكى الله عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم وقد تقدم بعضها
في سورة البقرة فقال :

(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) الطور الجبل المعروف رفع فوقهم كأنه ظلة
وقد كانوا في واديه ، وقوله بميثاقهم أى بسبب ميثاقهم أن يأخذوا ما أنزل إليهم بقوة
ويعملوا به مخلصين ثم امتنعوا من العمل بما جاء به فرفع عليهم الجبل فخافوا وقبلوا
العمل به .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) الباب هو باب المدينة وهى بيت المقدس وقيل
أريحا ، وقوله سجدا أى خاضعى الرؤوس مائلى الأعناق ذلة وانكسارا لعظمته أى وقلنا
لهم على لسان يوشع عليه السلام ادخلوا باب هذه القرية بذلة وانكسار .

(وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت) والاعتداء تجاوز الحد ، والاعتداء فى السبت
هو اصطياح الحيتان فيه أى وقلنا لهم على لسان داود عليه السلام لاتتجاوزوا حدود الله
فيه بالعمل الدينوى ، وقد خالفوا فى السبت وفى دخول الباب .

(وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الميثاق الغليظ العهد المؤكد أى وأخذنا منهم
عهدا مؤكدا ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يعتدونها ، ويتبع ذلك
البشارة بيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين
وما بعده من سفر تثنية الاشتراع وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

(فبما تقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق) أى فبسبب
نقض أهل الكتاب للميثاق الذى وانقهم الله به فأحلوا ما حرمه وحرموا ما أحله
وكفرهم بآيات الله وحججه الدالة على صدق أنبيائه وقتل الأنبياء الذين أرسلوا
لهدايتهم كزكريا ويحيى عليهما السلام .

(وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو ما عليه غلاف . أى لا ينفذ إليها شيء مما جاء به الرسول ولا يؤثر فيها وهذا كقوله حكاية عن المشركين « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » وغير ذلك من سيئاتهم التي ستذكر بعد - فعلنا بهم ما فعلنا من لعن إلى غضب إلى ضرب الذلّة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال ، لأن هذه الذنوب فرقت شملهم وذهبت بقوتهم وأفسدت أخلاقهم إلى غير ذلك من أنواع البلاء التي سببها الكفر والعصيان .

(بل طبع الله عليها بكفرهم) طبع الله عليها جعلها كالسكة المطبوعة في قساوتها وجعلها بوضع خاص لا تقبل غيره أى ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع ، بل لأن الله ختم عليها بسبب كفرهم الكسبي وماله من الأثر التقيح في أعمالهم وأخلاقهم ، فهم باستمرارهم على ذلك الكفر لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار ، مع أنه من الأمور التي يصل إليها اختيارهم ، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى إلا قليلا من الإيمان لا يعتد به لأنه تفرق بين الله ورسوله ، فالكفر ببعضهم كالكفر بجمعهم وهم قد كفروا بعبسى ومحمد عليهما السلام .

(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) المراد بالكفر هنا الكفر بعبسى عليه السلام بدليل ما بعده ، وبالكفر الذي قبله الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله : وقالوا قلوبنا غلف ، والبهتان الكذب الذي يهت من يقال فيه أى يدهشه ويحيره لبعده وغرابته ، والمراد به هنا رميها بالفاحشة .

والمعنى — أى وطبع الله عليها بكفرهم بعبسى وأمه ومريمهم إياها بالكذب العظيم وأى بهتان تهت به العذراء التقيمة أعظم من هذا ؟

والخلاصة — إن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله .

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى وبسبب قولهم هذا

القول المؤذن بالجراً على الباطل والاستهزاء بآيات الله .
 وذكره بوصف الرسالة تهكما واستهزاء بدعوته بناء على أنه إنما ادعى النبوة
 والرسالة فيهم لا الألوهية ، كما ادعت النصارى إذ جاء في رواية إنجيل يوحنا (وهذه
 هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .
 (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا
 وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ولكن وقع لهم الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى
 وهم إنما صلبوا غيره ومثل هذا الشبه يحدث كثيرا في كل زمان وتحكى عنه نوادر
 وحوادث غاية في القرابة لكنها قد وقعت فعلا .

فقد ذكر بعض المؤلفين في الطب الشرعى من الإنكليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩
 في فرنسا است حضر فيها ١٥٠ شخصا لمعرفة شخص يدعى (مارتين جير) جرم
 أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون إنه غيره والباقون ترددوا ولم يتمكنهم أن يبدو
 رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير واتخذ به هؤلاء
 الشهود المثبتون وعاش مع زوجته مارتين محوطا بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات
 وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة
 استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا أقسم عشرة منهم بأنه
 هو مارتين ، وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقيون على أن هذه الحادثة من خوارق العادات
 التي أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم وأنقذه من أعدائه فألقى شبهه على غيره وغير
 شكك فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفي أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا
 الوجه ؛ وإذا قال قائل : وإذا كان المسيح قد نجا من أعدائه فإين ذهب ؟ والجواب
 أننا إذا قلنا إنه رفع بروحه وجسده إلى السماء فلا ترد هذه الشبهة ، وإذا قلنا إن الله
 توفاه في الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام فلا غرابة في ذلك ، فإن أخاه
 موسى عليه السلام قد انفرد عن قومه في مكان لم يعرفه أحد منهم ، وكانوا الوفا عدة
 خاضعين لأمره ونهيه فكيف يستغرب أن يفر عيسى عليه السلام من قوم هم أعداءه

له لا ولى له فيهم ولا نصير إلا أفراد من الضعفاء قد انفضوا من حوله وقت الشدة ،
وقد أنكره أمثالهم بطرس الحواري ثلاث مرات .

(وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) قال
في لسان العرب : الشك ضد اليقين ، فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أهو
المصلوب كان أم غيره ؟

والمعنى — وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب في شك من
حقيقة أمره وفي تردد إذ ليس لهم به من علم قطعى الثبوت وإنما هم يتبعون الظن
والقرائن التي ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء في بعض الأناجيل التي يعولون
عليها أنه قال لتلاميذه (كلكم تشكون في هذه الليلة) أى الليلة التي يطلب فيها
للقتل (إنجيل متى من ٢٦ — ٣١ ومرقس من ١٤ — ٢٧) .

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه وعرف الناس بأنهم سيشكون
فيه في ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعاً ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من
دونهم في أمره .

(وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه
إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التي يعول عليها صريحة في أن
الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الاسخريوطى وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون
هو المسيح فلما قبله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا
الاسخريوطى نفسه ظناً أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ، ومن هذا تعلم أن الجند
ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

والمختصرة — إن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا
من أعدائه ومريدى قتله فقتلوا آخر ظناً منهم أنه هو .

(بل رفعه الله إليه) هذه الآية كآية آل عمران « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ ارْفَعِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقد روى عن ابن عباس أنه

فسر التوفى بالأمانة ، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرفع إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقربه .

وقال ابن جرير نقلا عن ابن جريج فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا أى فليس المراد الرفع إلى السماء بالروح والجسد ولا بالروح فقط ، وعن تفسير ابن عباس فعنى الرفع رفع الروح ولكن المشهور بين جمهرة المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء بدليل حديث المعراج إذ أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، وأنت ترى أنه لا دليل لهم فى ذلك إذ لو دل هذا على ما يقولون لدل على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السموات ولا قائل بذلك .

وقال الرازى — المعنى رافعك إلى محل كرامتى ، وجعله رفعا للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي » وهو إنما ذهب من العراق إلى الشام ، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله اه .

(وكان الله عزيزا حكيمًا) أى إن الله عزيز يغلب ولا يغلب ، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين وبحكمته جازى كل عامل بعمله ، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد فى الأرض وسيوفهم جزاءهم يوم القيامة « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته) أى إن كل أحد من أهل الكتاب عند ما يدركه الموت يتكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لازيغ فيه ولا ضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته ليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله وليس بإله وليس هو بابن الله وفائدة إخبارهم بذلك — أنه لا ينفعهم حينئذ فعلهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم كما حكى الله عنه من قوله: « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ » فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة ، فيبشرون برضوان الله أو بعدابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا حضر (حضره الموت) بشر بعداب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس « ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار » .

وهذا يؤيد ما روى عن ابن عباس في تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتوبيخ .

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) (١٦٠) وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح اليهود وقبيح أعمالهم ، ذكر هنا تشديده عليهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فبتحريم طيبات كانت محللة لهم ، وأما في الآخرة فبما بينه الله بقوله (وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) .

الايضاح

(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى فبسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولمن قبلهم عقوبة وتريية لهم ، لعلمهم يرجعون عن ظلمهم ، وكانوا كلما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب ، ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه ، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم فكذبهم الله في مواضع كثيرة كقوله : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ » .

أما الطيبات التي حرمها عليهم فهي ما بين في قوله عز اسمه « وَكَانَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مِّنْ كُلِّ ذِي ظُنْفُرٍ » الآية . وقد أبهمها الله هنا لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة لا ببيانها في نفسها ، كما أبهم الظالم الذي كان سببا في العقوبة ليعلم أن أى نوع منه يكون سببا للعقاب في الدنيا قبل الآخرة .

والعقاب إما دنيوى كالتكاليف الشاقة زمن التشريع ، والجزاء الوارد في الكتب على الجرائم كالحد والتعزير وما اقتضته السنن التي سننها الله في نظم الاجتماع من كون الظلم سببا لضعف الأمم وفساد عمرانها واستيلاء الأمم الأخرى عليها ، وإما أخرى وهو ما بينه في الكتاب الكريم من العذاب في النار .

(وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) الصد والصدود المنع وهو يشمل صدهم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى ويعاندونه مرارا ، وصدهم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة أو بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وهو من البيان والتفصيل للظلم بعد إجماله وإبهامه ، وهو أوقع في النفس وأبلغ في الموعظة .

(وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) أى وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على السنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوتهم دون الأجانب فقد جاء فى سفر الخروج (إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لاتضعوا عليه ربا) وفى سفر تثنية الاشتراع (لاتقرض أخاك ربا ، ربا فضة أو ربا شئ ما مما يقرض ربا ، للأجنبي تقرض ربا ، ولكن لأخيك لا تقرض ربا) وهذه عبارة التوراة التى كتبت بعد السبي ، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التى كتبها موسى فقد فقدت بانفاق اليهود والنصارى .

و بعض أنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقا فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود فى المزمور الخامس عشر : فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البرىء ، وقول سليمان فى سفر الأمثال (المسكث ماله بالربا والمرابحة فلمن يرحم الفقراء يجمعه) .

(وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالرشوة والخيانة ونحوهما مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به ، ونحو الآية قوله تعالى : « سَمَاعُونَ لِّلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِّلشَّحْتِ » والشح : السكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان السكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها بين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال : « وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما » أى هيأنا وأعدنا للذين كفروا منهم برسلى الله عذابا مؤلما فى نار جهنم يخالدين فيها أبدا .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يوم أنه شامل لكل أفرادهم جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم فقال : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل »

من قبلك) أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم المستبصرون فيه غير التابئين للظن الذين لا يشترطون به ثمنا قليلا من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسوله بهوى ولا عصبية .

روى ابن إسحق والبيهقي فى الدلائل عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام وأسيد بن سَعِيَّة وثعلبة بن سَعِيَّة حين فارقوا يهود وأسلموا .

(والمقيمى الصلاة) أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان ، إذ إقامتها بتبديل أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

(والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) أى والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تركى النفس وتعالى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » الآية .

(أولئك سنوتهم أجرا عظيما) أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعتهم أجرا عظيما لا يدرك وصفه إلا اعلام الغيوب .

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَسْكِينًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ
أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

المعنى الجملى

لا يزال الحديث مع أهل الكتاب فإنه ذكر عنهم أولاً أنهم يفرقون بين الله
ورسله فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ثم انتقل إلى ذكر شيء من عنادهم وإعنتهم
للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وبين أنه لا غرابة في ذلك
فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك، ثم ذكر كفرهم بعبسى
عليه السلام وبهتيم أمه ومحاولتهم قتله وصلابه، وفي كل هذا دليل على تأصل العناد
فيهم، ولولا ذلك لما شاغبوك، فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله
من قبلك — وهنا ختم الكلام في محاجتهم ببيان أن الوحي جنس واحد، ولو كان
إيمانهم بالرسل السابقين صحيحاً لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

الإيضاح

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الوحي لغة الإيماء
والإشارة كما قال تعالى: « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » والإلهام
الذى يقع في النفس كما قال: « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ » وما يكون
غريزة دائمة كما قال: « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » والإعلام في خفاء بأن تعلم إنساناً بأمر تخفيه على غيره
كما قال: « شَيَاطِينِ الْإِنْسِ الْجِنَّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ».

ووحى الله إلى أنبيائه هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من
قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق

بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجودان الجوع والعطش والحزن والسرور .

والمعنى إنا قد أوحينا إليك هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبیین من بعده ممن يؤمن بهم هؤلاء الناس ، والله لم ينزل على أحد منهم كتابا من السماء كما سألوک للتعجيز والعناد ، لأن الوحي ضرب من الإعلام السريع الخفي ، وليس هو بالأمر للمشاهد الحسی ، وقد بدأ الله بذكر نوح لأنه أقدم الأنبياء ، وقصص بعثته في سفر التكوين وهو أحد الأسفار الخمسة التي تتضمنها التوراة .

(وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان) . الأسباط واحد هم سبط وهو ولد الولد ، وأسباط بني إسرائيل اثنا عشر سبطا وهم أبناء يعقوب العشرة وولدا ابنه يوسف ، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في ولد إسماعيل .

(وآتينا داود زبوراً) الزبور الكتاب وكل كتاب زبور ، وهو هنا اسم للكتاب المنزل على داود وقد أفرد بالذكر لأن له شأننا خاصاً عند أهل الكتاب .

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل) أي وأرسلنا غير هؤلاء رسلاً آخرين قد قصصناهم عليك من قبل تنزيل هذه السورة ، وهم الذين ذكرت أسماءهم في السورة المسكية كقوله في سورة الأنعام في سياق الكلام عن إبراهيم « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلِيَّاسَ كُلًّا مِّن الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ » .

وأجمع السور لقصص الأنبياء هود والشعراء .

(ورسلا لم نقصهم عليك) كالذين أرسلوا إلى الأمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك كالصين واليابان والهند وأوروبا وأمريكا. وإنما لم يقص الله علينا خبرهم لأن القصد من القصص العبرة والتثبيت والذكرى والاحتجاج على نبوته صلى الله عليه وسلم كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» وقوله: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» وكل هذا يثبت بذكر من قصهم الله علينا من الرسل، وعلينا أن نعلم أن الله أرسل رسلا في كل الأمم فكانت رحمته بهم عامة لا مختصة بشعب معين كما يزعم أهل الكتاب، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» وقوله: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» وهذه حقيقة دل عليها الدين السماوي ولم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعمون أن القرآن مقتبس من كتبهم، وكم فيه من حقائق جلاها للناظرين بجميل بيانه واهتدى العلم الصحيح بعد قرون خلت إلى معرفتها، وما كان العقل وحده يكشف عنها لولا أن هدى إليها الكتاب الكريم.

(وكلم الله موسى تكليماً) خاصا له ميزه عن غيره من ضروب الوحي العام لأولئك النبيين وليس لنا أن نخوض في معرفة حقيقته لأننا لم نكن من أهله، فنحن لانعرف حقيقة كلام بعضنا بعضا، وكيف تحمل ذرات الهواء الأصوات إلى الآذان فضلا عن أن تعرف حقيقة كلام الباري.

والوحي إلى الأنبياء يسمى تكليماً والتكليم لهم يسمى وحياً كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلَهُاً وَخِياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ».

والحكمة في الحجاب الاستعداد بالتوجه إلى شيء واحد تتحد فيه هموم النفس وأهواؤها المتفرقة كما كان شأن موسى إذ رأى النار في الشجرة.

والرسول الذى يرسله الله فيوحى بإذنه ما يشاء هو ملك الوحي المعبر عنه بالروح الأمين .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)
 أى أرسلنا رسلا قد قصصنا بعضهم عليك ولم نقصص بعضا آخر ليكونوا مبشرين من آمن وعمل صالحا بالثواب العظيم ، وينذروا من كفر وأجرم بالعذاب الأليم ، إذ لو لم يرسلهم لكان للناس أن يحتجوا إذا هم أجزموا أو كفروا بأنهم ما فعلوا ذلك إلا لجهلهم ما يجب من الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) وقال (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

والخلاصة - إن من حكمة إرسال الرسل قطع حجة الناس واعتذارهم بالجهل عند ما يحاسبهم الله ويقضى بعقابهم ، فلولا إرسالهم لكان لهم أن يحتجوا فى الآخرة على عذابهم فيها وعلى عذاب الدنيا الذى كان قد أصابهم بظلمهم .

والدين وضع إلهى لا يستقل العقل بالوصول إليه ولا يعرف إلا بالوحى وهو موافق لسنن الفطرة فى تزكية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية فى عالم القدس ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حده الله فى الدنيا والآخرة ولن يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح

(وكان الله عزيزا حكيمًا) أى وكان الله عزيزا لا يغالب فى أمر يريده ، ومن عزته ألا يجاب المتعنت إلى مطلوبه ، حكيمًا فى جميع أفعاله ، وحكمته تقضى هذا الامتناع ، لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجاحهم كما فعلوا مع موسى بعد أن جاءهم بما طلبوا .

(لكن الله يشهد بما أنزل إليك) هذا استدراك على ما علم من السياق من إنكارهم نبوته صلى الله عليه وسلم وعدم شهادتهم بها وهى واضحة عندهم فى مرتبة المشهود به ، لكنهم استبدلوا المباهة والمكابرة بالشهادة والإيمان ، فسألوه أن

ينزل عليهم كتابا من السماء يثبت دعواه ، ويكون شاهدا له ، فكأنه تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنهم مع وضوح نبوتك لا يشهدون بما أنزل إليك ، لكن الله يشهد به .

(أنزله بعلمه) أى فإنه أنزله بعلمه الخاص الذى لم تكن تعلمه أنت ولا قومك بتأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان ، وبما فيه من العلوم الإلهية والأدبية والسياسية والاجتماعية ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم ، وبما له من السلطان على الأرواح بهدائه ، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضى والحاضر والمستقبل وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به وأنه وحى من عنده .

والخلاصة - كأن الله تعالى يقول لنبيه إن جحود هؤلاء اليهود وعدم شهادتهم لك لا يضرك بشيء فالله يشهد بما أنزل إليك وأنت على يقين من ذلك الوحي ، وقد أيد الله شهادته لك بما أودعه فى هذا القرآن فكان بذلك مثبتا لكونه أنزل عليك من ربك ، كما أيدته بتصديق ما أنزله فيه من الوعد بالفلاح والنصر والوعيد لمن عادك بالخذلان والخسران .

(والملائكة يشهدون) أى والملائكة يشهدون بذلك أيضا ، لأن الذى نزل به إليك هو الروح الأمين وهو منهم كما يؤيدك بجند منهم يثبتونك ويثبتون المؤمنين فى القتال كما فى غزوة بدر قال تعالى « إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ » .

(وكفى بالله شهيدا) على ما شهد به لك حيث نصب الدليل وأوضح السبيل فشهادته أصدق وقوله الحق « قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَ كُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا
بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ

وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

المعنى الجملى

بعد أن أوضح سبحانه في الآيات السالفة الحجة ، وأزال ما كان لليهود من شبهة ، وأثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة الله بما أنزل عليه مما لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله - أُنذِر في هذه الآيات من يصرّ منهم على الكفر ويستمر على الإعراض والظلم ، وبين لهم سوء العاقبة .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى إن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وصدوا غيرهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات في قلوبهم كقولهم لو كان رسولا لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء كما نزلت التوراة على موسى ، وقولهم إن الله تعالى ذكر في التوراة أن شريعة موسى لا تبدل ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا لأن أشد الناس ضلالا من كان ضالا ويعتقد في نفسه أنه محق ، ويتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال فهو قد سار في سبيل الشيطان وبعد عن سبيل الله فلم يعد يفقه أنها هي الموصلة إلى خير العاقبة .

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم) أى إن الذين كفروا بما أنزل إليك وظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الطريق الموصول إلى الخير والسعادة وظلموا غيرهم بإغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم وصددهم عن الصراط

المستقيم - ليس من سنته تعالى أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء لأن الكفر والظلم قد أفسدا فطرتهم وأثرا في نفوسهم وأعميا قلوبهم وجعلها تستمرى قبيح الأفعال وتهوى شر الخلال والأعمال - ولا يزول هذا إلا إذا اتجھت نفوسهم إلى ما يضاد ذلك من إيمان صحيح وعمل صالح يزكي النفوس مما ران عليها ويطهرها وينشئها نشأة أخرى ، ولا سبيل إلى ذلك يوم الجزاء والحساب ومن ثم قال تعالى :

(ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم) أى وليس من شأنه أن يهدى أمثالهم طريقا يوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم إلا طريق جهنم ، فهى الطريق التى ينتهى إليها من دس نفسه بالكفر والظلم وأوغل فى السير فيها طول عمره واستمرأ الشرور والمفاسد حتى هوت به إلى واد سحيق .

فانتظار المغفرة ودخول الجنات لأمثال هؤلاء انتظار لإبطال نظام العالم وتقض لسنن الله وحكمته فى خلق الإنسان .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس (خالد بن عبد الله) الخلود بقاء الشيء مدة طويلة على حال واحدة لا يطرأ عليه فيها تغيير ولا فناء ، والأبد الزمن الممتد ، وتأبد الشيء بقى أبدا وأبد بالمكان أبودا أقام به ولم يبرحه ، أى يدخلونها ويدوقون عذابها حال كونهم خالد بن عبد الله لا يخرجون منها .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الجزاء سهلا على الله دون غيره لأنه مقتضى حكمته وسننه وليس بالعزير على قدرته . أية من آيات القرآن وفى هذا تحمير لأمرهم وبيان لأن الله لا يعاب بهم ولا يبالي بشأنهم .

(يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) بعد أن أقام الحججة على أهل الكتاب ورد شبهاتهم واقتراحهم ما اقترحوا تعنتا وعنادا - خاطب جميع الناس

وأمرهم بالإيمان وشفعه بالوعد على عمل الخير والوعيد على عمل الشر ، للإيمان إلى أن الحججة قد وضحت والحجة قد لزمتم فلم تبق معذرة في الإعراض والصد عن اتباع الدعوة وقبول الحق من هذا الرسول الكريم ، وقد كان اليهود ينتظرون من الله مسيحا ونبيا بشر بهما أنبياؤهم ، فقد جاء في الفصل الأول من انجيل يوحنا - أنهم أرسلوا بعض الكهنة والأخبار إلى يوحنا (يوحى عليه السلام) ليسأله من هو؟ وكانت قد ظهرت عليه أمارات النبوة - فسأله أنت المسيح؟ قال لا ، قالوا أنت النبي؟ قال لا - من هذا تعلم أن يهود العرب ونصاراهم لما سمعوا هذه الآية زمن التنزيل فهموا أن المراد به الرسول الذى بشرهم به موسى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فى سفر تثنية الاشرع وعيسى فى الإنجيل وغيرها من الأنبياء .

(فآمنوا خيرا لكم) أى فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم لأنه يزيكم ويطهركم من الدنس والرجس ويؤهلكم للسعادة الأبدية .

(وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) أى وإن تكفروا فإن الله غنى عن إيمانكم وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وسوء عملكم ، فإن له ما فى السموات والأرض ملسا وخلقا وكلهم عبيده ينقادون لحكمه طوعا أو كرها ، فعبادة الكره وعدم الاختيار تكون بالخضوع لقدرته وسننه فى الأكوان وهى عامة فى جميع الخلق سواء منها العاقل وغيره ، وعبادة الاختيار خاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار . (وكان الله عليا حكيا) أى وكان شأنه تعالى العلم المحيط والحكمة الكاملة فى جميع أفعاله وأحكامه فهو لا يخفى عليه أمركم فى إيمانكم وكفركم وسائر أحوالكم ، ومن حكمته أن يجازيكم على ما تجتريحون من الآثام والموبقات ، فإنه لم يخلقكم عبثا ولن يترككم سدى فطوبى لمن نهى النفس عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا ، وويل لمن أعرض عن ذكر ربه وأعرض عن أمره ونهيه وحالف الشيطان وحزبه .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ
 مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ
 إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
 عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
 فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيمًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا
 وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
 وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

شرح المفردات

الغلو: مجاوزة الحد، و كلمته أى إنه حدث بكلمة كن من غير مادة معتادة، ألقاها
 إلى مريم: أوصلها وأبلغها إيها، وروح منه أى لأنه خلق بنفخ من روح الله
 وهو جبريل، الاستنكاف: الامتناع عن الشيء أنفة وكبرا، والاستكبار أن يجعل
 الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه غرورا وإعجابا بها.

المعنى الجملى

بعد أن انتهى من محاجة اليهود وإقامة الحججة عليهم، وهم قد غلوا في تحقير
 عيسى وإهانتته وكفروا به - ذكر هنا محاجة النصارى خاصة ودحض شبهاتهم،
 وهم قد غلوا في تعظيم عيسى وتقديسه، كما دحض شبهات اليهود فيما سلف.

الإيضاح

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) أى لا تتجاوزوا الحدود التى حدها الله ، فإن الزيادة فى الدين كالتقص فيه ، ولا تعتقدوا إلا القول الحق الثابت بنص دىنى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد شىء منها .

(إنما للمسيح عيسى بن مريم رسول الله) إلى بنى إسرائيل ، وقد أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وزهدهم فى الدنيا ، وحشهم على التقوى ، وبشروهم بمحمد خاتم النبيين ، وأرشدهم إلى الاعتدال فى كل شىء فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان .

(وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه) وهو مكون بكلمته وأمره الذى هو «كن» من غير واسطة أب ولا نطفة ، فإنه لما أرسل إليها الروح الأمين جبريل بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً فاستنكرت ذلك إذ هى عذراء لم تتزوج فقال لها : «كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون» فكلمة (كن) هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشىء وإيجاده .

وهو أيضاً مؤيد بروح منه كما قال تعالى : «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» وكما قال فى صفات المؤمنين «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» .

آية الله فى خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه كمايته فى خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه فخلقهما كان بغير السنة العامة فى خلق الناس من ذكر وأنى «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» :

وزعم بعض النصارى أن كلمة (منه) تدل على أن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه ، فقد نقل بعض المفسرين أن طيبيا نصرانيا للرشيدي ناظر على بن حسين الواقدي المرورى ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى . وتلا الآية ، فقرأ له الواقدي قوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » فائن صح ما تقول لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى - فأغم النصراني وأسلم ففرح بذلك الرشيدي ووصل الواقدي بصلة عظيمة .

وقد جاء في إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس) . (وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيرها بإياها بولد ومحاورتهما في ذلك ، ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها (الروح القدس يحل عليك) .

وفي هذا الفصل أن اليصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس وبذلك حملت ويحيى وكانت عاقرا وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس .

ومن هذا تعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم وأن عيسى خلق بواسطته وكذلك يحيى وكان خلقه من وجه آخر إذ كان أبوه شيخا كبيرا وأمهم عاقرا ولكن الواسطة والسبب واحد وهو الملك المسمى بروح القدس أيدهم الله به رجالا ونساء فلا يستفاد إذاً من قوله : وروح منه ، أنه جزء من الله ، تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقته .

(فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة) أى فآمنوا بالله إيماننا يليق به ، وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث ، وأن كل ما في الكون مخلوق له وهو الخالق له ، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها ، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها ، وآمنوا برسوله كلهم إيماننا يليق بشأنهم وهو

أنهم عبيد له خصمهم بضروب من التكريم والتعظيم وأهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه ، ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة الأب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد .

فإن في هذا تركا للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء واتباعا لعقيدة الوثنيين ، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول ولا يقبله أولو الألباب . (انتهى خيرا لكم) أى انتهوا عنه وقولوا قولا آخر خيرا لكم منه ، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه ، فإن المسيح الذي سميتوه إلهًا يقول كما في إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

(إنما الله إله واحد) بالذات منزه عن التعدد ، فليس له أجزاء ولا أقانيم ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات . (سبحانه أن يكون له ولد) أى قدس عن أن يكون له ولد كما قلتم في المسيح إنه ابنه وإنه عينه فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولدا .

والتعبير بالولد دون الابن الذي يعبرون به في كلامهم ، لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولدا أى مولودا من تلقيح أبيه لأمه وهذا محال على الله تعالى ، وإن أرادوا الابن المجازى لا الحقيقي فلا خصوصية لعيسى في ذلك لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار .

(له مافى السموات ومافى الأرض) أى إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابنا له حقيقة بل له كل مافى السموات ومافى الأرض خلقا وملكا والمسيح من جملتها كما قال تعالى : « **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا** » .

ولا فرق في هذا بين الملائكة والنبين ، ولا بين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم ، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى ، فكل هؤلاء عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كما يشاء .

(وكفى بالله وكيلا) أى كفى به حافظا ووكيلا إذا وكلوا أمورهم إليه ، فهو غنى عن الولد فإن الولد إنما يحتاج إليه أباه ليعينه في حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته ، والله تعالى منزّه عن كل ذلك .

هذا ، وعقيدة الثلاث وثنية نقلها الوثنيون المنتصرون إلى النصرانية واعتمدوا في ذلك على بعض ألفاظ في الكتب اليهودية جعلوها تكأة على ما أرادوا وحرّفوا فيها وأولوا تنفيذ ما ادعوا ، وبذا هدموا آيات التوحيد ، وقد فصل ذلك علماء أوروبا وأتوا عليه بشواهد كثيرة من الآثار القديمة والتاريخ ، فقال البحاثة موريس في كتابه (الآثار الهندية القديمة) كان عند أكثر الأمم البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي أو الثالوثي .

وقال مستر فابر في كتابه (أصل الوثنية) كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من برهما وشنوسيفا ، نجد عند البوذيين ثالوثا فإنهم يقولون إن (بوذه) إله ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود .

وقال مستر دوان في كتابه (خرافات التوراة) وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس في تعليمهم المبتدئين بقولهم إن الأول خلق الثاني وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس ، وسأل تولىسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى - هل كان قبله أحد أعظم منه؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمة ومعهما روح القدس ، ولهذا الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يا فانى يا صاحب الحياة القصيرة ، ثم قال المؤلف لا ريب أن تسميه الأقوم

الثاني من الثالوث المقدس (كلمة) هو من أصل وثني مصري دخل في غيره من الديانات المسيحية و (أبولو) المدفون في (دهلي) يدعى الكلمة، وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بستين عدة (الكلمة هي الإله الثاني) ويدعى أيضا ابن الله البكر، وقال هييجين في كتابه (الانكلوسكسون) كان الفرس يسمون (متروسا) الكلمة والوسيط ومخلص الفرس، وقال دوان : كان الفرس يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم مثل الهنود ويسمون الأقانيم (أوزمرد . مترات . أهرمن) . فأوزمرد الخلاق ومترات ابن الله المخلص والوسيط . وأهرمن الملك ، والمشهور عن مجوس الفرس التثنية دون التثليث فكانوا يقولون بإله هو مصدر النور والخير وإله هو مصدر الظلمة والشر .

وقال صاحب كتاب (ترقى الأفكار الدينية) إن اليونانيين كانوا يقولون إن الإله مثلث الأقانيم وكان قساوستهم إذا شرعوا في تقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات (إشارة إلى الثالوث) ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويعتقدون أن الحكماء قالوا إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة ولهم اعتناء بهذا العدد في جميع شعائرهم الدينية .

وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم ، هذه الشعائر كلها ونسخت بها شريعة المسيح التي هي التوراة ، وظلموا المسيح بنسبتها إليه .
واختلاصة — إن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص فحولها الكهنة إلى ديانة وثنية تقول بتثليث غير معقول أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة اقتباسا مشوها ، ونسخوا شريعة سماوية برمتها واستبدلوا بها بدعا وتقاليد غريبة عنها ، فقد كانت ديانة زهد وتواضع فجعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر ، ديانة نسبوها إلى المسيح

وليس عندهم نص فيها يدل على التثليث ، بل عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد وإبطال التثليث ، ولو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا مارواه يوحنا في إنجيله لكفى من قوله عليه السلام (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فهذا نص واضح في أنه هو الإله وحده وأنه هو رسوله .

وقال مرقس في الفصل الثاني عشر من إنجيله : إن أحد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا فأجاب ، أول الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد الخ ، فقال له الكاتب (جيدا) يا معلم بالحق قلت لأنه واحد وليس آخر سواه ، فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له (لست بعيدا عن ملكوت السموات) ومن هذا النص يعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ^(١) .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) أى لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبدا لله لعلمه بعظمة الله وما يجب له من العبودية والشكر ، ولا الملائكة المقربون يستنكف أحد منهم أن يكون عبدا له .

ومن هذه الآية يفهم أن الملائكة أعظم من المسيح خلقا وأفعالا ، ومنهم روح القدس الذى بنفخة منه خلق المسيح ، ومن ثم استدلت بها كثير من العلماء على تفضيل الملائكة المقربين على الأنبياء . إذ السياق فى رد غلوّ النصارى فى المسيح باتخاذها لها ورفعها عن مقام العبودية فالرد عليهم يقتضى الترقى من الرفيع إلى الأرفع كما تقول إن فلانا التقى لا يستنكف من تقبيل يد الوزير ولا الأمير ، فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير فائدة ، بل يكون لغوا لأنه يندمج فى الأول بالطريق الأولى .

وقال آخرون إن الآية لاتدل على ذلك لأنها فى معرض تفضيل هؤلاء الملائكة فى عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة وهو المناسب للرد على من استكبروا خلق

(١) كل ما تقدم فى هذا الفصل مأخوذ من تفسير النار .

المسيح من غير أب وصدور بعض الآيات عنه فجعلوه إلهًا ، مع أن الملائكة خلقوا من غير أب ولا أم ويعملون ما هو أعظم من آيات المسيح فهم بهذا أفضل منه وأعظم وأيا كان فالفاضل في هذا من الرجم بالغيب ، إذ لا يعلم إلا بنص مع أنه ليس له فائدة في إيمان ولا عمل .

(ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) أى ومن يترفع عن عبادته تعالى أنفة وكبرا فيرى أنه لا يليق به ذلك فسيجزيه أشد الجزاء ، إذ يحشر الناس جميعا للجزاء المستنكفين منهم والمستكبرين مع غيرهم في صعيد واحد كما ورد في الحديث ثم يحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم .

(فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفىهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أى فهؤلاء الذين عملوا الصالحات سيعطيهم أجورهم وافية كاملة على إيمانهم وعملهم الصالح على حسب سنة الله في ترتيب الجزاء على مقدار تأثير الإيمان والعمل الصالح في النفس وتركيتها وطهارتها من أدران الشرور والآثام .

(وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) أى فهؤلاء يعذبون عذابا مؤلما يستحقونه على حسب سنن الله أيضا ، لكن لا يزيدهم على ما يستحقون شيئا ، لأن رحمته سبقت غضبه ، فهو يجازى المحسن على إحسانه بالعدل والفضل ويجازى المسيء على إساءته بالعدل .

(ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى لا يجدون لهم من غير الله تعالى وليا يلى أمورهم ويدبر مصالحهم ، ولا نصيرا ينصرهم من بأسه ويرفع عنهم العذاب إذ لا عاصم اليوم من أمر الله (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا
مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ
مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

المعنى الجملى

بعد أن حاج أهل الزينغ والضلال جميعا ، فحاج النصارى فى الآية السابقة ،
وحاج اليهود فى الآية التى قبلها ، وحاج المنافقين والمشركين أثناء السورة وفى سور كثيرة
غيرها وأقام الحجة عليهم جميعا وظهرت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ظهور الشمس
فى رابعة النهار - نادى الناس كافة ودعاهم إلى اتباع برهانه والاهتداء بنوره .

الإيضاح

(يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ) أى قد جاءكم من قبل ربكم برهان
جلى يبين لكم حقيقة الإيمان بالله وجميع ما أتم فى حاجة إليه من أمر دينكم مؤيد
بالدلائل والبيّنات ، ألا وهو النبي الأمى الذى هو برهان على حقيقة ما جاء به بسيرته
العملية ودعوته التشريعية ، فإن أميّا لم يتعلم فى مدرسة ولم يعن فى طفولته بما كان
يسمى عند قومه علما كالشعر والنسب وأيام العرب بل ترك ولدان المشركين وشأنهم
ولم يحضر سُمّار قومه ولا معاهد هومم ولم يحظ من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعى
فى أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذى تصدى له فى كهولته ، وهو تربية الأمم تربية
دينية اجتماعية سياسية حرّية ، وهو مع هذا قد قام به على أتم وجه وأكمل طريق -
هو برهان على عناية الله به وتأيدته إياه بوحيه وهديه .
(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) أى وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتابا هو كالنور
فى الهداية للناس مبينا لكل ما أنزل لبيانه من توحيد الله وربوبيته وهو المقصد

الأعلى الذي بعث به جميع الرسل وكان كل منهم يدعو أمته إليه ويستجيب له الناس بقدر استعدادهم لفهم حقيقته ثم لا يلبثون أن يشوهوه بالشرك وضروب الوثنية التي تدنس النفوس وتهبط بها من أوج العزة والكرامة إلى المهانة والذلة بالخضوع لبعض مخلوقات من جنسهم أو من أجناس أخرى .

ولما تغلغت الوثنية في جميع الأديان المعروفة وأفسدتها على أهلها أنزل الله هداية البشر هذا النور المبين وهو القرآن ، فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية والعقلية مع ضرب الأمثال وذكر شيء من القصص لكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضلين وأوهام الضالين التي مزجتها بالشرك . هذا البيان الذي جاء به القرآن لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية لم يكن معهودا مثله من الحكماء ولا من الأنبياء ، فمن ثم وجب أن يكون من رب العالمين « وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

والخلاصة — أن محمدا النبي الأُمِّي صلى الله عليه وسلم كان برهانا على حقيقة دينه وكتابه القرآن أنزل من العلم الإلهي ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله، وأنزل نورا مبينا لجميع الناس ما هم في حاجة إليه في معاشهم ومعادهم ليتدبروا آياته ويسعدوا به في حياتهم الدنيا وينالوا به الخير في العقبى .

(فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل) الاعتصام التمسك بما يعصم ويحفظ أي فأما الذين يمتصمون بهذا القرآن فيدخلهم الله في رحمة خاصة منه لا يدخل فيها سواهم ، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم ، ولكنه يختص من يشاء بما يشاء من أنواعهما ، وقال ابن عباس : الرحمة الجنة ، والفضل ما يتفضل به عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ويهديهم إليه صراطا مستقيما) أي ويهديهم طريقا قويا وهداية خاصة تبلغهم السعادة في الدنيا بالعزة والكرامة وفي الآخرة بالجنة والرضوان ، وهذا

الصراف المستقيم لا يهتدي إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد أنه يوقفهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم، وسكت عن القسم الآخر المقابل لهؤلاء المؤمنين المعتصمين للايدان بأنه بعد ظهور البرهان لا ينبغي أن يوجد، وإن وجد لا يؤوبه له ولا يهتد به بشأنه.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ
وَلَدٌ وَهِيَ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ،
فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا
وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦).

المعنى الجملى

بعد أن تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ختم آخرها بذلك ليكون الآخر
مشاكلة للأول، والوسط مشتمل على المناظرة مع فرق المخالفين للدين :

روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال : « دخل على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لأعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت، فقلت
إنه لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث؟ فنزلت آية الميراث (يريد هذه الآية) » .

وروى ابن عبد الرزاق وابن جرير عن ابن سيرين قال « نزلت (يستفتونك قل الله
يفتيكم في الكلاله) والنبي صلى الله عليه وسلم في مسير له وإلى جنبه حذيفة بن

اليمان فبلغها النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير
خلفه، فلما استخلف عمر سأل عنها حذيفة ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له

حذيفة: والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملنى على أن أحدثك ما لم أحدثك

يومئذ . فقال عمر لم أرد هذا رحمك الله « قال الخطابي أنزل الله في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء وفيها إجمال وإبهام لا يكاد يتبين المعنى من ظاهرها ، ثم أنزل الآية الأخرى في الصيف وهي التي في آخرها وفيها من زيادة البيان ما ليس في آية الشتاء ، فأحال السائل عليها ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها اه .

الإيضاح

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) الكلالة : ما عدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم ، قال في لسان العرب - وهو المستعمل - والمعنى يطلبون منك أيها النبي الفتيا فيمن يورث كلالته كجابر بن عبد الله الذي ليس له والد ولا ولد وله أخوات من العصبة لم يفرض لهم شيء في التركة من قبل ، وإنما فرض للإخوة من الأم السدس للواحد منهم والثالث لما زاد على الواحد وهم شركاء فيه مهما كثروا لأنه ميراث أمهم ليس لها سواء - فقل لهم جوابا عما سألتهم عنه .

(إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك) هلك مات - أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد والحال أن له أختا من أبويه معا أو من أبيه فقط فلها نصف ما ترك .

(وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أى والأخ يرث أخته إذا ماتت إن لم يكن لها ولد ذكر ولا أنثى ولا والد يحجبه عن إرثها، وإنما أطلق الإرث ولم يبين النصيب لأن الأخ ليس صاحب فرض معين بحيث لا يزيد ولا ينقص بل هو عصبة يجوز كل التركة عند عدم وجود أحد من أصحاب الفروض، وعند وجود أحد منهم يرث هو معه كلالته جميع ما بقى .

(فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) فإن كان من يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوهما كلالته ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين كأخوات جابر

فقد كن سبعا أو تسعا والباقي لمن يوجد من العصابة إن لم يكن هناك أحد من أصحاب
الفروض كالزوجة وإلا أخذ كل ذى فرض فرضه أولا .

(وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) أى وإن كان
من يرثون بالأخوة كلاله ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين كما هي القاعدة
في كل صنف اجتمع منه أفراد في درجة واحدة إلا أولاد الأم فإنهم شركاء
في سدس أمهم لحولهم محلها ولولا ذلك لم يرثوا إذ هم ليسوا من عصابة الميت .

(يبين الله لكم أن تضلوا) أى يبين الله لكم أمور دينكم التى من أولها
تفصيل هذه الأحكام كراهة أن تضلوا أى لتتقوا بمعرفتها الضلال فى قسمة
التركات وغيرها .

(والله بكل شىء عليم) فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير
لكم وصلاح أنفسكم وذلك شأنه فى جميع أفعاله وأحكامه ، فكلمها موافقة للحكمة
دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة .

سورة المائدة

هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهي مدنية بناء على المشهور من أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو في مكة ، وقد روى في الصحيحين عن عمر : أن قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم الخ نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع » .

وآياتها مائة وعشرون في العد الكوفي ، ومائة وثمان وعشرون في العد الحجازى ، ومائة وثلاث وعشرون في العد البصرى .

ووجه التناسب بينها وبين ما قبلها من وجوه :

(١) إن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً ، فالصريح عقود الأنكحة والصدقات والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة .

(٢) إن سورة النساء مهلت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشيء مما قبلها .

(٣) إن معظم سورة المائدة في محاجة اليهود والنصارى مع ذكر شيء عن المنافقين والمشركين ، وقد تكرّر ذكر ذلك في سورة النساء وأطيل به في آخرها .

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة أن الأولى بدئت بيا أيها الناس وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المسكى ، والثانية بيا أيها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدني المتأخر عن الأول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ النَّبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ،
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) .

شرح المفردات

الوفاء والإيفاء: الاتيان بالشيء وافيا لا نقص فيه، قال تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
إِذَا كَلَّمْتُمْ» والعقود: واحدها عقد، وهو في الأصل ضد الحل ثم أطلق على الجمع بين
أطراف الشيء وربط بعضها ببعض، ويستعمل في الأجسام الصلبة كعقد الحبل
وعقد البناء، ويقال عقد اليمين وعقد النكاح أى أبرمه كما قال تعالى « وَالَّذِينَ
عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » والبهيمة: ما لا نطق له لما فى صوته من الإبهام، وخص فى العرف
بما عدا السباع والطيور، والأنعام: البقر والإبل والغنم، الحرم: جمع حرام، وهو
الحرم بالحج أو العمرة، وشعائر الله معالم دينه، وغلب فى مناسك الحج واحدها
شعيرة، والهدى، وهو ما يهذى إلى الكعبة من الأنعام ليذبح هناك، وهو من
النسك، والقلائد: واحدها قلادة وهو ما يعلق فى العنق، وكانوا يقلدون الإبل من
الهدى بنعل أو حبل أو لحاء شجر ليعرف فلا يتعرض له أحد، آمين أى قاصدين،
وفضلا أى ربحا فى تجارتهم، ورضوانا أى رضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته
فى الدنيا، يجرمنكم: من جرمة الشيء أى حمله عليه وجعله يجرمه أى يكسبه ويفعله،
وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة، والشنان: البغض مطلقا، وألذى يصحبه التقزز
من البغوض .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) روى عن ابن عباس : أن المراد بالعقود عهود الله التي عهد بها إلى عباده أي ما أحل وما حرم وما فرض وما حدّ في القرآن كله لا غدر فيها ولا نكث ، وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بين العبد ونفسه ، وعقد بينه وبين غيره من البشر .

وكل واحد منها إما أن يوجب العقل الذي أودعه الله في الإنسان ويتوصل إليه بديهية العقل أو بأدنى نظر ويدل على ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَىٰ » وإما أن يوجب الشرع وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وأساس العقود في الإسلام هو هذه الجملة (أوفوا بالعقود) أي إنه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التي أمر بالإيفاء بها وبدأ بما يتعلق بضروريات معاشهم فقال :

(أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أي أحل الله لكم أكل البهيمة من الأنعام وهي الأزواج الثمانية المعدودة في سورة الأنعام وألحق بها الطيأ وبقر الوحش ونحوها ، إلا ما حرم فيما سيتلى عليكم في الآية الثالثة من هذه السورة (حرمت عليكم الميتة والدم) الخ .

(غير محلى الصيد وأنتم حرم) أي أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلى الصيد الذي حرمه الله عليكم : أي لا تجعلوه حلالا باصطياده أو الأكل منه وأنتم محرمون بالحج أو العمرة أو كليهما أو داخلون في أرض الحرم فلا يحل الصيد لمن كان

في أرض الحرم ولو لم يكن محرما ولا نلمحرم بالحج أو العمرة وإن كان في خارج حدود الحرم بأن نوى الدخول في هذا النسك وبدأ بأعماله كالتلبية ولبس الخيط .
والخلاصة — أحلت لكم هذه الأشياء غير محلي الاصطياد ولا أكل الصيد في الإحرام .

(إن الله يحكم ما يريد) الحكم القضاء أى إن الله جل ثناؤه يقضى في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه كما شاء على حسب الحكم والمصالح التي يعلمها سبحانه فأوفوا بعقوده وعهوده ولا تنكثوها ولا تنقضوها .
(يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) شعائر الله ما أراد جعله أمارات تعلمون بها الهدى من الضلال كمناسك الحج وسائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم .

والمعنى — يأيها الذين آمنوا لا تجعلوا شعائر دين الله حلالا لكم تتصرفون فيها كما تشاءون بل اعملوا بما بينه لكم ، ولا تتهاونوا بجرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها وتصدوا الناس عن الحج في أشهر الحج .

(ولا الشهر الحرام) المراد به هنا ذو القعدة وذو الحجة والحرم أى ولا تحلوا الشهر الحرام بأن تقاتلوا فيه أعداءكم من المشركين كما روى عن ابن عباس وقتادة .
(ولا الهدى) أى ولا تحلوا الهدى الذي يهذى إلى البيت الحرام من الأنعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقربا إلى الله ، وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقة أو حبسه عند من أخذه .

(ولا القلائد) ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى وهى البدن ، وكأنه قال لا تحلوا الهدى مقلدا ولا غير مقلد ، وخص المقلد بالذكر لأنه أكرم الهدى وأشرفه .
(ولا آمين البيت الحرام) أى ولا تحلوا قتال قاصدى البيت الحرام لزيارته ، لتصدمهم عن ذلك بأى وجه كان .

(ينتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى يطلبون ربحا فى التجارة ورضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته فى الدنيا لثلاثى بهم ما حل بغيرهم فى عاجل دنياهم .
وهذا كلام مع المشركين ، كما روى عن قتادة أنه قال : هم المشركون يلتمسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم ، وفى رواية أخرى عنه : والرضوان الذى ينتغون أن يصلح لهم معاشهم فى الدنيا وألا يعجل لهم العقوبة .
(وإذا حلتم فاصطادوا) أى إذا خرجتم من إحرامكم بالخبج أو العمرة أو من أرض الحرم فاصطادوا إن شئتم فإنما حرم عليكم الصيد فى أرض الحرم وفى حال الإحرام فقط .

وهذا تصريح بمفهوم قوله فى الآية السابقة (غير محلى الصيد وأنتم حرم) .
(ولا يجزئكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى ولا يخلصكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام ، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية ، فهى المؤمنون أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع وهو العام الذى نزلت فيه هذه السورة لأجل اعتدائهم السابق .

ولما كان اعتداء قوم على قوم لا يحصل إلا بالتعاون قفى على النهى عن الاعتداء بقوله :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) البر : التوسع فى فعل الخير ، والتقوى : اتقاء ما يضر صاحبه فى دينه أو دنياه ، والإثم : كل ذنب ومعصية ، والعدوان : تجاوز حدود الشرع والعرف فى المعاملة والخروج عن العدل فيها ، وفى الحديث « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن ، وروى أحمد والدارمى عن وابصة بن معبد الجهنى أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ، قلت نعم » وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما فى نفسه وأجابه

فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .
والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن ، إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات في دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره ، ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا في حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب (التعاون على البر والتقوى) .

وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا .
(واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى اتقوا الله بالسير على سننه التي بينها لكم في كتابه وفي نظم خلقه حتى لا يصيبكم عقابه بالإعراض عن هدايته ، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه ومراعاة سننه في خلقه ، إذ لا محابة ولا هوادة في عقابه ، فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعا ولم ينه عن شيء إلا إذا كان ضارا ، وكذلك بعدم مراعاة السنن لأن لذلك تأثيرا في خلق الإنسان وعقائده وأعماله وكل ذلك مما يوقعه في الغواية وينتهى به إلى سوء العاقبة .

وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة كما جاء في بعض الآيات التصريح بذلك ، وفي بعضها التصريح بأحدهما كقوله في عذاب الأمم في الدنيا « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فَنسَى، الْيَوْمَ يَأْتِسُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ. فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا،
فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣).

الإيضاح

هذا شروع في بيان المحرمات التي أشير إليها في أول السورة بقوله (إلا ما يتلى عليكم) وهي عشرة أنواع :

(الأول الميتة) ويراد بها عرفا مامات حتف أنه أى بدون فعل فاعل، ويراد بها في عرف الشرع مامات ولم يذكر الإنسان لأجل أكله، والحكمة في التحريم :

(١) استتذار الطباع السليمة لها .

(٢) إن في أكلها مهانة تنافي عزة النفس وكرامتها .

(٣) الضرر الذي ينشأ من أكلها سواء كانت قد ماتت بمرض أو شدة ضعف

أو بجراثيم (ميكروبات) انحلت بها قواها .

(٤) تعويد المسلم ألا يأكل إلا مما كان له قصد في إزهاق روحه .

(الثاني الدم) والمراد به الدم المسفوح : أى المائع الذى يسفح ويراق من الحيوان

وإن جمد بعد ذلك ، بخلاف المتجمد طبيعة كالتطحال والسكيد وما يتخلل اللحم عادة .

فإنه لا يسمى مسفوحا .

وحكمة تحريم الدم الضرر والاستتذار أيضا ، أما الضرر فلأنه عسر المضمجد

العسر ويحمل كثيرا من المواد العفنة التي تنحل من الجسم ، وهي فضلات لفظتها

الطبيعة كما تelfظ البراز ونحوه واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم ، وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المعدية وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية .

(الثالث لحم الخنزير) لما فيه من الضرر والاستقذار لملازمته للقاذورات ورغبته فيها ، أما ضرره فقد أثبتته الطب الحديث ، إذ أثبت أن له ضررا يأتي من أكله القاذورات ، فإن ذلك يولد الديدان الشريطية كالودودة الوحيدة ودودة أخرى تسمى الشعرة الخلزونية وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة ، كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضما لكثرة الشحم في أليافه العضلية ، وأن المواد الدهنية التي فيه تمنع وصول عصير المعدة إلى الطعام فيعسر هضم المواد الزلالية وتتعب المعدة آكله ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه ، فإن زرعه التي فقذف هذه المواد الخبيثة خف ضرره ، وإلتهيجت المعدة وأصيب بالإسهال ، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلا وشربا وتدخيننا ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة .

(الرابع ما أهل لغير الله به) الإهلال رفع الصوت ، يقال أهل فلان بالحج إذا رفع صوته بالتلبية له ، واستهل الصبي إذا صرخ عند الولادة والمراد به ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيما دينيا ويتقربون إليها بالذبايح ، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم باسم اللات أو باسم العزى . وحكمة التحريم في هذا أنه من عبادة غير الله ، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه وهو مما يجب إنكاره لإقراره .

ويدخل في ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبي أو ولي كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم وساروا على نهجهم باعابا فباعا ووزاعا فذراعوا .

(الخامس المنخقة) وقد روى ابن جرير في تفسيرها أقوالاً ، فمن السدى أنها التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق فتموت ، وعن ابن عباس والضحاك هي التي تختنق فتموت ، وفي رواية عن الضحاك هي الشاة توثق فيقتلها خنقها ، ثم قال : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : هي التي تختنق إما في وثاقها أو بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه فتختنق حتى تموت .

وهي بهذا المعنى من قبيل ما مات حتف أنفه من حيث إنه لم يمت بتذكية الإنسان له لأجل أكله فهي داخلة في الميتة ، وإنما خصها بالذكر لأن بعض العرب في الجاهلية كانوا يأكلونها ، ولئلا يشبه فيها بعض الناس لأن لموتها سبباً معروفاً . والعبرة في الشرع بالتذكية التي تكون بقصد الإنسان لأجل الأكل حتى يكون وثاقاً من صحة البهيمة التي يريد التغذي بها .

(السادس الموقوذة) الوقذ : شدة الضرب ، وشاة وقيد وموقوذة ، والموقوذة هي التي تقتل بعصا أو بحجارة لاحد لها فتموت بلا ذكاة ، وكانوا يأكلونها في الجاهلية . والوقذ يحرم في الإسلام لأنه تعذيب للحيوان ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

ولما كان الوقذ محرماً حرم ما قتل به ، وهي تدخل في عموم الميتة على الوجه الذي ذكرنا فإنها لم تكن تذكية شرعية ، ويدخل في الموقوذة ماري بالبندق (وهو نحو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد يبسها) لما روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف (الرمي بالحصى والخزف وكل يابس غير محدد سواء رمى باليد أو الخدفة أو المقلع) وقال : إنه لا يفقأ العين ولا ينسكي العدو ولا يجرز صيدا ففي هذا الحديث نص على العلة وهو أنه تعذيب للحيوان وليس سبباً مطرداً ولا غالباً للقتل .

أما بندق الرصاص المستعمل الآن وما في حكمه فإنه يصيد وينكأ ، ولذا أفتى العلماء بجواز الصيد به .

(السابع المتردية) وهي التي تقع من مكان مرتفع كجبل ، أو في منخفض كبئر ونحوها فتموت وهي في حكم الميتة لأنه لم يكن للانسان عمل في إمامتها ولا قصد به إلى أكلها .

(الثامن النطيحة) وهي التي تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح من غير أن يكون للانسان عمل في إمامتها .

(التاسع ما أكل السبع) وهو ما قتله بعض سباع الوحوش كالأسد والذئب والنمر ليأكله ، وأكله منه ليس بشرط للتحريم إذ يكفي فرسه إياه وقتله في تحريمه .

وكان العرب في الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع ، ولكنه مما تأنفه أكثر الطباع ، وأكثر الناس يعد أكله ذلة ومهانة وإن كانوا لا يخشون منه ضررا .

(إلا ما ذكيتم) أي إلا ما أدركتموه وفيه بقية حياة ويضطرب اضطراب المذبوح فذكيتموه وأتمموه إماتة شرعية لأجل أكله - وهو استثناء من جميع ما تقدم

ذكره من المحرمات سوى ما لا يقبل التذكية من الميتة والدم والخنزير وما أكل السبع ، وذلك هو - ما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة .

وخلاصة المعنى - ولكن لا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية ، ويكفي في صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة بأن يطرف

بعينه أو يضرب بذنبه ، وقد قال على كرم الله وجهه : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يدا أو رجلا فكلها .

(العاشر ما ذبح على النصب) والنصب واحد الأنصاب ، وهي حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرا وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها

ويعدون ذلك قربة .

ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهل به لغير الله من حيث أنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى ، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل

لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير الله عليه ، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها .

وخلاصة ما تقدم - إن الله تعالى أحل أكل بهيمة الأنعام وسائر الطيبات من الحيوان ، مادبّ منها على الأرض ، وما طار في الهواء ، وما سبح في البحر ، ولم يحرم إلا الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .

وقد كان بعض العرب يذبح الحيوانات على اسم غير الله وهو شرك وفسق ، وبعضهم يأكل الميتة ويقول لم تأكلون ما قتلت ولا تأكلون ما قتل الله ؟ ولكن في هذا مظنة الضرر ، وفيه مهانة للنفس ، ومن ثم جعل الله حل أكل المسلم لذلك منوطاً بإتمام موته والإجهاز عليه بفعله هو ليدكر اسم الله عليه فلا يكون من عمل الشرك ، ولئلا يقع في مهانة أكل الميتة وخسة آكلها بأكله المنخفة والموقوذة والمتردية والنطيحة وفريسة السبع - إلى ما في الموقوذة من إقرار الواقذ على القسوة وظلم الحيوان وذلك محرم شرعاً .

ثم أضاف إلى محرمات الطعام التي كان أهل الجاهلية يستحلونها عملاً آخر من أعمالهم وخرافاتهم فقال :

(وأن تستقسموا بالأزلام) الأزلام واحدها زلم ، وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم ، لكن لا يركب فيه النصل الذي يجرح ما يرمى به من صيد وغيره ، وكانت الأزلام ثلاثة ، كتب على أحدها « أمرني ربي » وعلى الثاني « نهاني ربي » والثالث غفل ليس عليه شيء فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً أو نحو ذلك أجال « حرك » هذه الأزلام ، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه « أمرني ربي » مضى لما أراد ، وإن خرج المكتوب عليه « نهاني ربي » أمسك عن ذلك ولم يمض فيه ، وإن خرج الغفل الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام ، وهو : طلب معرفة ما قسم له دون ما لم يقسم بواسطة الأزلام .

أي وحرّم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما كانت تفعل العرب في الجاهلية .

وحكمة هذا التحريم أنه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل يفعل ما يفعل عن غير بينة ولا بصيرة ويترك ما يترك كذلك ويجعل نفسه أعبوبة للسكينة والسندنة ويتشاءم ويتشائم بما لا فأل فيه ولا شؤم ، ومن ثم أبطل ذلك دين العقل والبصيرة كما أبطل التطير والكهانة والعيافة والعرافة وسائر خرافات الجاهلية ، إلى أن فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم « أمرني ربي » الله عز وجل ، وجهلا وشركا إن أرادوا به الصنم ، إلى أن فيه طلبا لعلم الغيب الذي استأثر الله به .

وقد استن بعض جهال المسلمين بسنة مشركي الجاهلية أو بما يشبهها فترام يستقسمون بالشبح وغيرها ويسمون ذلك استخارة أو فالأ فيقتطعون طائفة من حب السبحة ويحركونها حبة بعد أخرى ، يقولون : « افعل » على واحدة « لا تفعل » على الثانية ، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة ، وما هذا بالاستخارة التي ورد الإذن بها بل قد ورد ما يؤيد تحريمها .

ومنهم من يستقسم أو يأخذ الفأل من القرآن الكريم فيصبغون عملهم بصبغة الدين ، ويلبسون الباطل ثوب الحق ، ولم يرد في هذا نص يجوز العمل به ولكن الإلف والعادة جملا هذه البدع مستحسنة وتأولوا لها اسم الفأل الحسن ورووا في ذلك حديث أبي هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يعجبه الفأل الحسن » وليس هذا من الفأل الحسن ، بل الفأل ضد الطيرة التي أبطلتها الأحاديث . والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن وحرموه على أنفسهم واكتفوا من الإيمان به والتعظيم له بالاستقسام به كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام ، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته في كاغد أو جام (فنجان) وكل هذا من الضلالات والخرافات التي لم يرد شيء منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف الصالح .

وأعجب من ذلك جعل بعض الدجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة ، وكل ذلك ضلال إذ لا بينة فيه ولا سلطان .

والاستخارة التي وردت بها السنة هي التوجه إلى الله والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن الإنسان الحيرة ويرشده إلى ما فيه الفائدة فيما تتعارض فيه الدلائل والبيّنات فلا يستبين له إن كان الخير في الإقدام أو في التّرك ، فإذا شرح الله صدره لشيء أمضاه .

وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن من حديث جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به » قال ويسمى حاجته .

والقرعة تشبه هذا بل أمرها أظهر ، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعاً كالقسمة بين اثنين إذ لا وجه للإلزام من تقسم بينهما بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصّة وعمرو الأخرى ، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة .

(ذلكم فسق) أي كل محرم مما سلف فسق وخروج من طاعة الله ورغبة عن شره إلى معصيته .

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوم واخشون) اليوم هو يوم عرفة من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة وكان يوم الجمعة ، وهو اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية المبينة لما يقر من الأحكام التي أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية وخبائثها

وأوهامها ، والمبشرة بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم في زواله ، ولا حاجة معه إلى شيء من مداراتهم أو الخوف من عاقبة أمرهم .

روى البيهقي في كتاب شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : (اليوم ينس الذين كفروا من دينكم) يقول ينس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم وهو عبادة الأوثان أبدا (فلا تخشوهم) في اتباع محمد (واخشوني) في عبادة الأوثان وتكذيب محمد .
والخلاصة — إن الله أخبر المؤمنين بأن الكفار أنفسهم قد ينسوا من زوال دينهم ، وأنه ينبغي لهم — وقد بدلم بضعفهم قوة وبخونهم أمانة وبفقرهم غنى — ألا يخشوا غيره وقد عرفوا فضله وإعزازه لهم .

وإجمال المعنى — انقطع رجائهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه لما شاهدوا من فضل الله عليكم إذ وفي بوعده وأظهره على الدين كله .

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)
في الآية بشارات ثلاث فسرها السلف بما سندكره بعد :

روى عن ابن عباس أنه قال لما كان النبي صلى الله عليه وسلم واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يده والمسامون يدعون الله (اليوم أكملت لكم دينكم) أى حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعده حلال ولا حرام (وأتممت عليكم نعمتي) أى منتهى فلم يحج معكم مشرك (ورضيت) أى اخترت (لكم الإسلام دينا) .

وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية واحدا وثمانين يوما ثم قبضه الله إليه ، وروى ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا أنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدا ، وقد رضيه فلا يسخط أبدا .

وقال صاحب الكشاف : (اليوم أكملت لكم دينكم) كفيتمكم أمر عدوكم وجعلت اليد العليا لكم كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك ، وكل لنا ما نريد .
إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومنافعهم .

(وأتمت عليكم نعمتي) بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية وإبطال مناسكها وأن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

(ورضيت لكم الإسلام ديناً) يعنى اخترته لكم من بين الأديان وأذنتكم بأنه هو الدين الرضى وحده « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » . اهـ

(فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم) الاضطرار : حمل الإنسان على ما يضره وإجأؤه إليه ، والمخمصة : الجماعة تخصص لها البطون أى تضمير ، والمتجانف للإثم : المائل المنحرف إليه المختار له ، أى فمن وقع في ضرورة تناول شيء من المحرمات بسبب مجاعة تخصص لها البطون ويخاف منها الموت أو مبادئه حال كونه غير مختار للإثم بأن يأكل منه ما يزيد على ما يمسك به رمقه ، فإن ذلك حرام كما روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة رضى الله عنهم :

وفي معنى الآية ما جاء في سورة البقرة « فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى فمن اضطر غير طالب له ولا متعد ومتجاوز قدر الضرورة فلا إثم عليه . وإنما اشترط هذا لأن الإباحة للضرورة وهى تقدر بقدرها وذلك نافع للمضطر أدباً وطبعاً لأنه يمتعه أن يتجراً على ما تعود فيه مهانة له وضرر .

(فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى أكل شيء مما ذكر فأكل في مجاعة لا يجد فيها غيره وهو غير مائل إليه لذاته ولا جائر فيه متجاوز قدر الضرورة ، فإن الله غفور لمثله لا يؤاخذة عليه ، وهو رحيم به يرحمه ويحسن إليه .

ولما كان الأصل في الأشياء الحل لأن الله سخر لنا مافى الأرض جميعاً لننتفع به ، والمحظور علينا هو ما يضرنا ، ولكن الناس يتصدون أحياناً لفعل ما يضرهم وترك ما ينفعهم ، كما كانت تفعل العرب إذ استباحت أكل الميتة والدم ونحوها من الخبائث ، وحرمت على نفسها بعض الطيبات من الأنعام بخرافات وأوهام باطلة كالبهيرة والسائبة ونحوها - كانت الحاجة ماسة إلى بيان ما يحله الله تعالى مما حرموه بعد بيان ما حرمه مما أحلوه فقال :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ
 الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ
 عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)
 الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ
 وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ
 مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ
 وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥).

شرح المفردات

الطيبات ضد الخبيث ، والجوارح : واحدها جارحة ، وهي الصائدة من الكلاب
 والفهود والطيور من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى : « وَيَعْلَمُ مَا جَرَّحْتُم بِالنَّهَارِ »
 أى كسبتم ، ومكلبين من التكليب وهو تعليم الكلاب وإضراؤها بالصيد ثم استعمل
 في تعليم الجوارح مطلقا ، والمحصنات هنا : الحرار ، وقيل العفيفات عن الزنا ، والأجور
 المهور ، والمراد بالمحصنين الأعفاء عن الزنا ، مسافحين مجاهرين بالزنا ، متخذى أخدان :
 مسيرين به ، والخدن : الصديق يقع على الذكر والأنثى ، حبط عمله : بطل ثواب عمله .

المعنى الجملي

روى ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي « أن النبي صلى الله عليه وسلم
 لما أمر أبا رافع بقتل الكلاب في المدينة جاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحمل لنا

من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فأنزل الله الآية فقرأها، وذكر مسألة صيد الكلاب
وأكل ما أمسكن منه كأنه تفسير لها .

الايضاح

(يسألونك ماذا أحل لهم) أى يسألك المؤمنون ماذا أحل الله لهم من الطعام؟
(قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعملون من مما علمكم الله)
الطيبات ما تستطيعها النفوس السليمة الفطرة، المعتدلة المعيشة بمقتضى طبعها فتأكلها
باشتهاء، وما أكله الإنسان كذلك يسيغه ويهضمه بسهولة ويتغذى به غذاء
صالحا، وما يستخبثه ويعافه لا يسهل عليه هضمه ويضره غالبا، فما حرمه الله
في الآية السابقة خبيث بشهادة الله الموافقة للفطرة المعتدلة، وأصحاب الفطر السليمة
يعافون أكل الميتة حتف أنفها وما مائلها من فرائس السباع والمترديات والنطائح والدم
المسفوح، وكذلك الخنزير يعافه من يعرف ضرره وانهما كه في أكل القاذورات .
والمخالصة - أحل لكم أيها المكلفون ما يستطاب أكله ويشتهى دون
ما ينجث أو يعاف، وأحل لكم صيد الجوارح بشرط أن يكون الجارح الذى صاده
مما أدبه الناس وعلموه الصيد حتى يصح أن ينسب الصيد إليهم ويكون قتل الجارح
له كتذكية مرسله إياه .

أما الطيبات فهي ما عدا المنصوص على تحريمه كبهيمة الأنعام وصيد البر
والبحر أى ما من شأنه أن يصاد منهما، فالبحر كل حيوانه يصاد، والبر يصاد منه
ما يؤكل ماعدا سباع الوحش والطيور، لحديث ابن عباس «نهى رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير» وحديث
ثعلبة الخشني «كل ذى ناب من السباع فأكله حرام» رواها أحمد ومسلم
وأصحاب السنن .

(فكلوا مما أمسكن عليكم) أى فكلوا من الصيد ما تمسكه الجوارح عليكم،

أى تصيده لأجلكم فتحبسه وتقفه عليكم بعدم أكلها منه ؛ فإن أكلت منه فلا يحل أكل ما فضل عنها عند الجمهور ، لأنه مثل فريسة السبع المحرمة فى الآية السالفة .

(واذكروا اسم الله عليه) أى سموا عليه عند إرساله كما روى ذلك عن ابن عباس ، لحديث عدى بن حاتم « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فكل » والتسمية واجبة عند أبى حنيفة ، ومستحبة عند الشافعى .

(واتقوا الله إن الله سريع الحساب) أى اتقوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، ولا تقدموا على مخالفته فتأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة ، أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على نفسها ، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبايح مما صاده أهل الأوثان فإن الله قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه واعلموا أن الله لا يضع شيئاً من أعمالكم ، بل تحاسبون عليها وتجازون فى الدنيا والآخرة وهو يحاسب الناس كلهم يوم القيامة فى وقت واحد ، فما أجدر حسابه أن يكون سريعاً .
و بعد أن بين وجوب التذكية للذبايح لإبعاد المسلمين مما كان عليه المشركون من أكل الميتة ، وشدد فى التسمية على الطعام من صيد وذبيحة لإبعادهم عما كانوا عليه من الذبح لغير الله بالإهلال به لأصنامهم ليطهرهم من كل ما كانوا عليه من أدران الشرك .

بين حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناحتهم ، لأنهم لما كانوا فى الأصل أهل توحيد ثم سرت إليهم نزغات الشرك ممن دخل فى دينهم من المشركين كان هذا مظنة التشديد فى مؤاكلتهم ومناحتهم ، كما شدد فى أكل ذبايح مشركى العرب ونكاح نسائهم ، فذكر أنا لانعامهم معاملة المشركين فى ذلك بل تحل لنا مؤاكلتهم ونكاح نسائهم فقال :

(اليوم أحل لكم الطيبات) أى اليوم أحلت لكم الطيبات على سبيل التفصيل بعد أن كانت حلالاً بالإجمال وصار حكمها مستقراً ثابتاً .

(وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) الطعام هنا الذبائح لأن غيرها حلال بأصله ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى أى وذبائح أهل الكتاب ممن أوتوا التوراة والإنجيل ودانوا بهما أو بأحدهما حلال لكم دون ذبائح أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من عبدة الأصنام والأوثان .

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء وابن زيد أنهما سئلا عما ذبحوه للكنائس فأفتيا بأكله ، قال ابن زيد أحل الله طعامهم ولم يستثن منه شيئا ، وقال أبو الدرداء - وقد سئل عن كبش ذبح لكنيسة يقال لها جرجيس أهدها لها أنا كل منه ؟ اللهم عفوا إنما هم أهل كتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم ، وأمره بأكله .
(وطعامكم حل لهم) أى وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب ، فلا جناح عليكم أن تطعموهم من طعامكم أو تبيعوهم منه .

وفائدة ذكر ذلك بيان أن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين ، وليس كذلك إباحة المناكحة ، فذكره للتمييز بين النوعين .

(والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) .

المحصنات هنا الحرائر أى وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر من المؤمنات ونكاح الحرائر من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى إذا أعطيت من نكحتن من محصناتكم ومحصناتهم مهورهن .

وتقييد الحل بإتيان المهور لتأكيد الوجوب لا لاشتراطه في الحل ، وتخصيص الحرائر بالذكر للحث على ما هو الأولى منهن لأن من عداهن لا يحل ، إذ نكاح الإمام المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح الإمام الكتابيات عند أبي حنيفة .
(محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) المحصنون : الأعفاء عن الزنا ، والمسافحون الذين يأتون الفاحشة مجاهرين بها ، والمتخذى الأخدان : الذين يأتونها سرا .

بالاختصاص بخذن من الأخدان ؛ والخذن يطلق على الصاحب والصاحبة أى هن حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن فعلا والتزمت به حال كونكم أعفَاء عن الزنا جهرا وسرا، إذ المقصد من الزواج أن يكون الرجل محصنا والمرأة محصنة يعف كل منهما الآخر ويعمله في حصن يمنعه من الفاحشة على أى وجه كانت ، فلا يزنى الرجل جهرة ولا سرا باتخاذ صاحبة خاصة به ولا تكون المرأة كذلك .

(ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) أى ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جعلتها ما بين هنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمه ويمتنع عن قبولها فقد حبط عمله الصالح الذي عمله قبل ذلك وبطل ثوابه وخسر في الآخرة ما أعدده الله للمؤمنين من الجزاء العظيم على الإيمان الصحيح وهو إيمان الإذعان والعمل .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن ناسا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم يعنى نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا ؟ فأنزل الله عز ذكره ومن يكفر بالإيمان الخ . فأحل الله تزويجهن على علم اه .

والمغزى من الآية تعظيم شأن ما أحله الله وما حرمه والتغليظ على من خالف ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ
وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ
مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

وَإِذْ كَرُمَا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمُ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) .

المعنى الجملى

اعلم أن بين العبد وربه عهدين عهد الربوبية والإحسان ، وعهد العبودية والطاعة ، و بعد أن وفى له سبحانه بالعهد الأول وبين له ما يحل وما يحرم من لذات الحياة فى الطعام والنكاح وطلب إليهم الوفاء بالعهد الثانى وهو عهد الطاعة ، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، والصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لاجرم بدأ الله بذكر فرائض الوضوء .

و بعد أن بين لنا طائفة من الأحكام المتعلقة بالعادات والعبادات ذكرنا بعهد وميثاقه علينا وما التزمناه من السمع والطاعة له ورسوله بقبول دينه الحق لنقوم به مخلصين .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة على حد قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام للصلاة إلا إذا كان محدثاً .

أى إذا قمت إلى الصلاة محدثين فاغسلوا الخ . وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية فى الصدر الأول ، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بُرَيْدَةَ قَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خَفِيهِ ، وَصَلَّى الصَّلَاةَ بِوَضُوءٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ فَقَالَ : (عَمْدًا فَعَلْتَهُ يَا عُمَرُ) » وروى البخارى وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ

عند كل صلاة ، قال قلت : فأتم كيف تصنعون ؟ قال كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث ، وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا في عهد النبي يتوضئون لكل صلاة وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة غالباً ، وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك . ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة وهو الأفضل ، وإنما يجب على من أحدث . وآخر الآية يدل على ذلك فإنه ذكر الحديثين ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدها فلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما ، ولو كانت الطهارة واجبة لكل صلاة لما كان لهذا معنى .

والخلاصة — أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث وإنما يستحب تجديده لكل صلاة .

(فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) الغسل (بالفتح) إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونحوه ، والوجوه واحدها وجه ، وحده من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللحيين طولاً ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً ، والأيدى واحدها يد وحدها في الوضوء من رءوس الأصابع إلى المرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد .

روى مسلم من حديث أبي هريرة : أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد ، ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ . (وامسحوا برءوسكم) الرأس معروف ويمسح ما عدا الوجه منه . وقد اختلف فقهاء الأمصار في أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس ، فقال الشافعي يكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة ، وقال مالك يجب مسح الكل أخذاً بالاحتياط ،

وأوجب أبو حنيفة مسح الربع لأن المسح إنما يكون باليد وهي تستوعب مقدار الربع في الغالب . ولما روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على ناصيته » (وهي مقدار الربع) .

(وأرجلكم إلى الكعبين) الكعبان هما العظامان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين ، أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ويؤيده عمل النبي صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال : « ويل للأعقاب من النار » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا قال فنأدى بأعلى صوته « ويل للأعقاب من النار » مرتين أو ثلاثاً .

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الأرجل ، وقد روى ذلك خلائق لا يحصون من الصحابة ، قال الحسن : حدثنى سبعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يمسح على الخفين » وقال الحافظ بن حجر : قد صرح جمع من الحفاظ بأن لمسح على الخفين متواتر وأقوى الأحاديث حجة فيه حديث جرير ، فقد روى أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى أنه قال ثم توضحاً ومسح على خفيه فقيل له تفعل هكذا ؟ قال نعم . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضحاً ومسح على خفيه .

والخلاصة — أن غسل الرجلين المكشوفتين ومسح المستورتين هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة .

(وإن كنتم جنباً فاطهروا) الجنب لفظ يستعمل للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث والمراد به المضاجعة والوقاع أى وإن كنتم أصابتم جنباً قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فتمتم إليها فتطهروا منها بغسل البدن كله قبل دخولكم في صلاتكم التى تتم إليها .

وفي معنى الوقاع خروج المنى بالاحتلام فهو جنابة شرعا ، وفي الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم ، أى إنما يجب ماء الغسل من الماء الدافق الذى يخرج من الإنسان مهما كان سبب خروجه .

ولما بين سبحانه وجوب الطهارتين وكان المسلم لا بد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك فى اليوم ولا بد له من الغسل فى كل أسبوع أو أكثر مرة غالبا بين الرخصة فى تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يسر لا حرج فيه ولا عنت فقال :

(وإن كنتم مرضى) أى وإن كنتم مرضى مرضا جليدا كالجدري والجرب وغيرهما من القروح والجروح أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .
(أو على سفر) طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

(أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط المكان المنخفض من الأرض ، ويراد به شرعا قضاء الحاجة من بول وغائط أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها كالطواف ، ويسمى الحدث الأصغر .

(أو لامستم النساء) المراد باللامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء ، والحدث الموجب للغسل يسمى الحدث الأكبر .

(فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين فاقصدوا ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهرا لا نجاسة عليه فاضربوا بأيديكم عليه وأصقوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين بحيث يصيبها أثر منه .
(ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم فى هذه الآية وفى غيرها حرجا ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة لأنه تعالى غنى

عنكم رحيم بكم فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم .
 (ولكن يريد ليظهركم) من الأقدار والرزائل والمنكرات والمعقائد الفاسدة ؛
 فتكونوا أنظف الناس أبدانا وأزكاهم نفوسا وأصحهم أجسادا وأرقاهم أرواحا .
 (وليم نعمته عليكم) فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ،
 والإنسان إنما هو روح وجسد والصلاة تطهر الروح وتركي النفس ، فهي تنهى عن
 الفحشاء والمنكر وتعود المصلي مراقبة ربه في السر والعلن وخشيته حين الإساءة
 والرجاء فيه لدى الإحسان ، والطهارة التي جعلها الله شرطا للدخول في الصلاة
 ومقدمة لها تطهر البدن وتنشطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجل
 نعم الله على عباده ، وما أجدد من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية
 الكريمة بقوله :

(لعلكم تشكرون) أي وليعدكم بذلك لدوام شكره على تلك النعم الظاهرة والباطنة.

الحكمة في شرع الوضوء والغسل

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

(١) أن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطا وهمة ويزيل
 ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث أو غيره من الأعمال التي تؤثر
 تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .
 إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقوع أو الإنزال
 حصل تهيج عصبى كبير يعقبه فتور شديد على حسب سنة رد الفعل ، ولا يعيد نشاطه
 إلا غسل البدن كله .

(٢) أن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقذار مجلبة الأمراض
 والأدواء الكثيرة ، ومن ثم ترى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المعدية
 في المبالغة في النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجسادا وأقلهم أمراضا

لأن دينهم مبنى على المبالغة في نظافة الأبدان والثياب والأمكنة فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تفتنى الأسباب التي تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

(٣) تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديرا بحضور كل مجتمع ولقاء أشرف الناس وفضلائهم ومن كان وسخا قذرا فإنه يكون محتقرا عند كرام الناس ولا يعدونه أهلا لأن يحضر مجالسهم ويشعر في نفسه بالضععة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل يوم الجمعة والطيب ولبس الثياب النظيفة لأنه يوم يجتمع فيه الناس في المساجد لعبادة الله تعالى ، روى مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم من طرق عدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الحرج الذى تم به الإنعام ذكرنا بنعمه التى أنعم بها علينا فقال :

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) أى تذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفارا متباغضين فأصبحتم بهداية الدين إخوانا متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المنشط والمكروه (المحبوب - والمكروه) والعسر واليسر حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيئنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ما جئتنا به فهو معروف .

وكل نبي بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة وقبول الدعوة . والدخول فى الدين يعدقبولا لهذا العهد ، فعلىنا أن نعد هذا التذكير خطابا لنا كما عد السلف من الصحابة خطابا لهم .

(واتقوا الله) فلا تنقضوا عهده وتخالقوا ما أمركم به وما نهاكم عنه سواء أكان فى هذه الآيات أم فى غيرها .

(إن الله عليم بذات الصدور) فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق من نية الوفاء به أو عدم الوفاء ، وما تنطوى عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) .

شرح المفردات

القوام بالشئ : هو القائم به حق القيام ، شهداء أى شهداء بالعدل بلا محاباة ، ولا يجرمنكم أى ولا يحملنكم ، والشنان : العداوة والبغضاء ، الجحيم : العالم بالشئ على وجه الدقة والضبط ، والجحيم : النار العظيمة ، وهى هنا دار العذاب وأصحابها هم ملازموها ، بسط إليه يده : إذا بطش به ، و بسط إليه لسانه : إذأشتمه ، والتقوى هى اتقاء عقاب الله وسخطه بترك معاصيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم وتحرير ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام

أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم - ذكر هنا ما ينبغي أن يكون من معاملتهم سواء أكانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ليكون الشكر أتم والوفاء الأزم .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ) أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ما تعملونه من أمر دينكم أو أمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

(شهداء بالقسط) الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أى إظهاره هوله بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة فالعدل هو ميزان الحقوق ، إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس وانتشرت المفاصد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغايرها ، ولكن الناس لا يعتبرون .

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب حق أو الحكم لهم بذلك ، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ويجعله فوق الأهواء وحفظ النفس وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها .

(اعدلوا هو أقرب للتقوى) هذه الجملة تؤكد للجملة السالفة العناية بأمر العدل وأنه فريضة لا هواده فيها لأنه أقرب لتقوى الله والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات وتقطع الروابط بين الأفراد وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

(واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) أى واتقوا سخطه وعقابه لأنه لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ظاهرها وباطنها ، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل وقد مضت سنته فى خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل فى الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد وفى الآخرة الخزى يوم الحساب .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه ما وعدهم به بعد أن ذكره أولا مجملا لتتوجه النفس للسؤال عنه حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد فقال :

(لهم مغفرة وأجر عظيم) المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستتران ويحويان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة فيغلب عليها حب الحق والخير وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والظهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح فضلا من الله ورحمة من لده .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) الكفر هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض .

وآيات الله قسمان آياته المنزلة على رسله وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، والجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم « قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا

فَأَلْتَمَوْا فِي الْجَحِيمِ « أَى أَن هُوَ لَاءَ الْكُفَّارِ الْمَكْذِبِينَ سَيَصَلُّونَ الْعَذَابَ فِي نَارٍ عَظِيمَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَن كَفَرَ وَكَذَبَ بِآيَاتِهِ لِأَن نَفْسَهُمْ قَدْ فَسَدَتْ ، وَسُوءَ أَعْمَالِهِمْ قَدْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا صُمًّا عَمِيًّا لَا يَبْصُرُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كَرَّمْنَاكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت في رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم أرسله قومه لذلك وكان بيده سيف وليس مع النبي صلى الله عليه وسلم سلاح وكان منفردا . روى الحاكم من حديث جابر قال : قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال الله ، فوقع السيف من يده فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال كن خير آخذ ، قال تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، نفلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس .

وفي رواية أخرى « أن السيف الذى كان بيد الأعرابي كان سيف النبي صلى الله عليه وسلم علقه فى شجرة وقت الراحة فأخذه الرجل وجعل يهزه بهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سقط من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى ؟ قال لا أحد ، ثم صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد تكريمهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من الحنن الكبرى التى تصيب المسلمين .

وقيل إن المراد تكريمهم بما أنعم الله عليهم من قوة الإسلام وعظمة شوكة المسلمين فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم بدل الله الحال غير الحال وأصبحوا أعزة بعد الذلة وغالبين بعد أن كانوا مقهورين فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلهما

سواء في ذلك حادثة الحاربي أو مثالها لأن حفظه لأولئك السلف هو حفظه لذلك الدين التويم ، فالذي صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأصحابه هم الذين تاقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً .

ومن فوائد هذا التذكير المتأخر ترغيبه في التأسى بالسلف في القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر .

ومعنى قوله : إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم ، أي شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء من قتل ونهب فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

(واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي واتقوا الله الذي أراكم قدرته على عدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بمن يكون مورم إليه بعد مراعاة سننه والسير عاينها في اتقاء كل ما يخشى ضره وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب ويحجبون داعي البأس إذا اشتد البأس ، والحلفاء قد يغدرون كما غدروا بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو الذي يجير ولا يجار عليه فتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه كما حدث لأولئك السكلة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقتلهم وقرمهم وتآلب الناس كلهم عليهم .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ اشْتِيَ عَشْرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْ أَوْلِيَاءَكُمْ لَأُقْرِضَنَّكُمْ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بِعَدْلِكَ مِنْكُمْ

فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) .

شرح المفردات

تقيب القوم : من ينتقب عن أحوالهم ويبحث عن شؤونهم ، وتقب عليهم نقابة صار نقيبا عليهم ، والتعزير : النصره مع التعظيم ، وأقرضتم الله أى بذلتم المال فوق ما أوجبه عليكم ، والقرض الحسن : ما كان عن طيب نفس ، سواء السبيل : وسطه ، لعنهم : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، وقاسية : يابسة غليظة تنبو من قبول الحق ، والتحريف : إمالة الشيء عن موضعه إلى أى جانب من الجوانب ، والخائنة : الخيانة ، الإغراء : أصله التحريش ، يقال أغرى الشيء بالشيء والمراد هنا تفرق الأهواء الموجب للعداوة والبغضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا الله بميثاقه الذى واثقنا به على السمع والطاعة لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم - بين لنا فى هذه الآيات أخذ الميثاق على اليهود والنصارى وما كان من تقضيمهم له ومن عقابه لهم على ذلك فى الدنيا بضرور الذلة والمسكنة وفى الآخرة الخزي والعذاب لنعتر بحالهم ونبتعد أن نكون على مثالهم وليشرح لنا العلة فى كفرهم

بالنبي صلى الله عليه وسلم وسبب تصديهم لا يذأه وعداوة أمته وليقيم الحجة عليهم بما تراه من ذكر الحاجة وبيان أنواع كفرهم وضلالهم .

الإيضاح

(ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) أى ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بني إسرائيل ليعملن بما فى التوراة وفيها شريعتهم التى اختارها لهم ، ولا يزال هذا الميثاق فى آخر الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام .

(وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) نقيباء بني إسرائيل زعماء أسباطهم الاثنى عشر وبعثنا أى أرسلنا لمقاتلة الجبارين الذين سيأتى ذكرهم بعد .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم إني جعلتها لكم وطنا ودار هجرة فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم ، وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا بالوفاء بتنفيذ ما أمروا به فاختر النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وتكفل له به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار فرأوا أجساما قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد كذب موسى عنهم عن ذلك فنكثوا الميثاق إلا نقيبين وهما اللذان قال فيهما (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ) الآية ، وسيأتى الكلام فى ذلك بعد .

(وقال الله إني معكم) أى وقال الله هذا لموسى وهو بلغه عنه ، ومعنى كونه معهم أنه ناصرهم ومعينهم ماداموا محافظين على الميثاق ، وهو راء لأفعالهم ، سميع لأقوالهم عليهم بضائرهم ، وقادر على مجازاتهم .

(لنن أقم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتتم برسلى وعزرتهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) أى لنن

أديتم الصلاة على وجهها، وأعطيتم ما فرض عليكم من الصدقات التي تنزكي بها نفوسكم، وآمنتم برسلي الذين أرسلهم إليكم بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد ونصرتهم معظمين لهم، وبذلتهم من المال زيادة على ما أوجبه الله عليكم بالزكاة فكنتم بذلك بمثابة من أقرض ماله لغنى مليء وفي لا يضيع عليه، بل يجده أمامه عند شدة الحاجة إليه - لئن فعلتم كل هذا لأزيلن بتلك الحسنات تأثير سيئاتكم التي سلفت منكم من نفوسكم فلا يبقى فيها رجس ولا خبث يقتضى العقاب، فإن الحسنات يذهبن السيئات كما يغسل الماء الأدران والأوساخ، ولأدخلنكم تلك الجنات التي لا يدخلها إلا من كان طاهراً من الشرك وما يتبعه من المعاصي والآثام التي تفسد الفطرة .

(فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أى فمن جحد منكم شيئاً مما أمرته به فتركه أو عمل شيئاً مما نهته عنه بعد أخذ الميثاق عليه بالوفاء لى بطاعتي واجتنباه معصيتي فقد أخطأ الطريق الواضح وضل الصراط المستقيم الذى يوصل سالكه إلى إصلاح قلبه وتركية نفسه ويجعله أهلاً لجوار ربه فى تلك الجنات .

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) أى فبسبب نقضهم للميثاق الذى أخذ عليهم - ومن ذلك الإيمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم - استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد من أطفاننا فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ودنس نفوسهم وقسى قلوبهم حتى قتلوا الأنبياء بغير حق وافتروا على مریم وأهانوا ولدها الذى أرسل إليهم وإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم، وحاولوا قتله وافترخوا بذلك - فبكل هذا بدوا عن رحمة الله إذ جرت سنته أن الأعمال السيئة تؤثر فى النفوس آثاراً سيئة فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد من فضله ورحمته، وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ولا يراعى القوانين الصحية فهو لا شك سيصاب بالأمراض والأسقام ولا يلومن فى هذه الحال إلا نفسه إذ كان هو السبب فى ذلك بإهماله .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) تحريف الكلم عن مواضعه يكون : إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وإما بتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، وكل منهما قد وقع في التوراة وغيرها من كتبهم ، فإن التوراة التي كتبها موسى وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها كما نص على ذلك في الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع ، قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ولم يكونوا يستظهرونها كما كان المسلمون يستظهرون القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وهناك أسفار خمسة ينسبوننها إلى موسى - فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعا ، وفيها خبر موته وأنه لم يبق بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت أى الوقت الذى كتب فيه سفر تثنية الاشتراع ، وفى هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى بردح من الزمن طويل كما أن فيها كثيرا من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبى .

لكل هذا حقق كثير من مؤرخى الفرنجة أن هذه التوراة التى بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

(ونسوا حظا مما ذكروا به) روى عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب ؛ وعن مجاهد أنه قال : نسوا كتاب الله إذ أنزل عليهم ، ومرادها أنهم نسوا طائفة من أصل الكتاب ، وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به . وفى الحق أنهم أضاعوا كتبهم وفقدوه عند ما أحرق البابليون هيكلهم وخرّبوا عاصمتهم وسبوا من بقى منهم حيا ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه وعملوا به .

وهذا الخبر من أعظم الأدلة على أن القرآن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أثبتتها التاريخ بعد بعثة النبى بعدة قرون من موت موسى .

(ولا تزال تطلع على خائنة منهم) الخائنة بمعنى الخيانة كالفائلة بمعنى القيلولة
والخاطئة بمعنى الخطيئة .

أى إنك أيها النبي لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة
فلا تظن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمان ،
فمن نقض عهد الله وميثاقه ، كيف يرجى منه وفاء ؟ وكيف يطمع منه في أمانة ؟
(إلا قليلا منهم) كعبد الله بن سلام وإخوانه ممن أسلموا وصدقوا الله ورسوله
فلا تظن بهم سوءا ولا تخف منهم خيانة ولا خداعا .

(فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) أى فاعف عما فرط من هؤلاء
القليل واصفح عن أساء منهم وعاملهم بالإحسان الذى يحبه الله تعالى فانت أحق
الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهذا رأى أبى مسلم ، وقال غيره : فاعف عن هؤلاء
اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل واصفح لهم عن
جرمهم فإنى أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه إثارا للإحسان
والفضل على ما يقتضيه العدل .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رغب عند ما دخل المدينة في مصالحة
اليهود وموادعتهم فعقد معهم العهد على ألا يجاربه ولا يظاهروا من يجاربه ولا يمالئوا
عليه عدوا له ، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحرثهم ، وكان إذ ذلك
منهم ثلاث طوائف حول المدينة وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فنقضوا
العهد وهموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فحل له قتالهم ولكنه رجح السلم على
الحرب واكتفى بطردهم من جواره وبعث إليهم « أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى
وقد أجلتكم عشرا فمن وجدته بها بعد ذلك ضربت عنقه » فأقاموا يتجهزون أياما
ثم ثبط عزيمتهم عبيد الله بن أبى وأرسل إليهم ألا تخافوا إن معى ألفين يدخلون
معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان وكان رئيسهم

المطاع حيي بن أخطب شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي زين لهم قتله والغدر به فركن إلى قول ابن أبي وبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنا لن نخرج من المدينة فافعل ما بدا لك .

فعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون الحرب فخرج هو والمسلمون للقائهم يحمل لواءه على بن أبي طالب كرم الله وجهه فلما وصلوا إليهم أقاموا على حصونهم يرمونهم بالنبل والحجارة ، ولما اشتد عليهم الحصار ورأوا ألا سبيل لهم إلا المقاومة رضوا بالخروج سالمين وعلموا أن وعد ابن أبي كان هو الغدر والخيانة بعينها وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قادرا حينئذ على استئصالهم والقضاء عليهم ولكنه اختار العفو والإحسان واكتفى بإبعادهم عن المدينة على أن يخرجوا منها وليس معهم إلا أولادهم وما حملت إلا السلاح ، ورحلوا إلى خيبر .

وهذه الآية نزلت بعد هذا كله لأنها من آخر ما نزل ولم يعاقب اليهود بعدها على خيانتها ولا غدر ولكنها أوصى بإجلالهم عن جزيرة العرب .

(ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) أى وكذلك أخذنا من النصارى الثبات على طاعتى وأداء فرائضى واتباع رسلى والتصديق بهم ، فسلوكوا فى ميثاقى الذى أخذته عليهم طريق اليهود الضالين ، فبدلوا دينهم وتقضوا الميثاق الذى أخذته عليهم بالوفاء بعهدى وضيعوا أمرى .

(فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فكان نسيان خطر عظيم من كتابهم سببا لتفرقهم فى الدين واتباع أهوائهم ، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى فى هذه الحياة ومن أجل هذا نسه سبحانه إلى نفسه مع أنه من أعمالهم الاختيارية لأنه كان نتيجة حتمية لتلك السنن التى وضعت فى الخليقة .

(وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) أى وسينبئهم الله عند الحساب فى الآخرة بما كانوا صنعوا فى الدنيا من نقض الميثاق ونكث للعهد وتبديل للكتاب

وتحريف للأوامر والنواهي ويجازيهم على ذلك على حسن استحقاقهم فيعلمون أنه حكم عدل لا يظلم مثقال ذرة .

بين الله في هذه الآية أن النصارى نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود ، وسر هذا أن المسيح عليه السلام لم يكتب ما ذكرهم به من المواعظ وتوحيد الله وتزييه وطرق الإرشاد إلى عبادته وكان الذين اتبعوه من العامة وأمثلهم حواريه وهم من الصيادين ، وقد اشتد اليهود في مطاردتهم في كل مكان ، ومن ثم لم تكن لهم جماعات ذات نفوذ وقوة وعلم تدون ما حفظوه من الإنجيل .

إلى أن كثيرا من الناس كانوا يبشرون تعاليم باطلة عن المسيح ومنهم من كتب مثل هذا حتى إن الكتب التي سموها الأناجيل كانت كثيرة جدا ، ولم تظهر الأناجيل الأربعة التي عليها المعول عندهم الآن إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عند ما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية وإدخاله إياها في طور جديد من الوثنية وهي تاريخ ناقص للمسيح على ما بها من تعارض وتناقض مع كونها مجهولة الأصل والتاريخ وقد أقاموا بناء دينهم وكتبهم التي يسمونها (العهد الجديد) على أساس كتب اليهود التي يسمونها كتب (العهد العتيق) وقد علمت شأنها فيما سلف .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى كما أخذه على هذه الأمة وأنهم نقضوا العهد والميثاق وتركوا ما أمروا به ، وأنهم أضاعوا حظا عظيما مما أوحاه إليهم ولم يقيموا ما حفظوا منه - دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذى جاء به .

الإيضاح

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) قال ابن عباس أخفوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأخفوا أمر الرجم ، وعفا عن كثير مما أخفوه فلم يفضحهم بيانه .

أى إنا قد أرسلنا إليكم محمدا رسول الله وخاتم النبيين يبين لكم كثيرا من الأحكام التى كنتم تخفونها وقد أمرها الله عليكم حكم رجم الزانى وهو مما حفظتموه من أحكام التوراة كما هو ثابت فى سفر التثنية ، لكنكم لم تلتزموا العمل به وأنكره عالمكم ابن صوريا أمام النبي صلى الله عليه وسلم فأقسم عليه وناشده الله فاعترف به ، وكذلك أخفى اليهود والنصارى صفات النبي صلى الله عليه وسلم والبشارات به وحرفوها بالحمل على معان أخرى إلى ما أضاعوه من كتبهم ونسوه كنسيان اليهود ما جاء فى التوراة من أخبار الحساب والجزاء فى الآخرة وأظهره الرسول لهم وكانت الحجة عليهم فيه أقوى إذ هم يعلمون أنه نبي أمى لم يطلع على شيء من كتبهم ومن ثم آمن به من آمن من علمائهم المنصفين واعترفوا بعد إيمانهم بما بقى عندهم من البشارات وصفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا البيان من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزات القرآن التى لا ينبغى أن يمتري أحد فيها ومع هذا فقد كان يعفو عن كثير مما كانوا يخفونه ولا يظهر الكثير مما يكتمونه ، وإنما لم يظهره لأنه

لا حاجة إلى إظهاره في الدين ، والفائدة في ذكر بعضه إعلامهم بأن الرسول عالم بكل ما يخفونه فيكون ذلك داعياً لترك الإخفاء حتى لا يفتضحوا .

ومن شأن علماء السوء في كل أمة أن يكتسبوا من العلم ما يكون حجة عليهم وكاشفاً عن سوء حالهم أو يحرفوه بحمله على غير ظاهر معناه .

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) النور هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمى بذلك لأنه للبصيرة كالنور للبصر ، فكما أنه لولا النور ما أدرك البصر شيئاً من المبصرات كذلك لولا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة الدين الحق ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضهما أو نسيانه ، وعبث الرؤساء بالبعث الآخر بإخفاء شيء منه أو تحريفه وظلوا في ظلمات الجهل والكفر لا يبصرون .

والكتاب المبين هو القرآن الكريم وهو بين في نفسه مبين لما يحتاج إليه الناس لهدايتهم .

(يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) من اتبع رضوان الله أي من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله لا تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذ من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال ، والسلام بمعنى السلامة أي طرق السلامة من كل مخافة ، وقوله من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقوله بإذنه أي بإرادته أو بتوفيقه بالجرى على سننه تعالى في تأثير الأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها ، وقوله إلى صراط مستقيم أي إلى الدين الحق لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته ؛ أما الباطل فمتعدد الطرق وكلها معوجة ملتوية ، وقد ذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد :

(١) أن المتبع لما يرضى الله بالإيمان بهذا الكتاب يهديه إلى الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك فيقوم في الدنيا بحقوق الله

والحقوق الواجبة عليه لنفسه (روحية كانت أو جسدية) وللناس ويكون في الآخرة
منعاً نعيماً روحياً وجسدياً .

وخلاصة ذلك :

(١) إنه يتبع ديناً يجد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة
لأنه دين الإخلاص والعدل والمساواة .

(٢) إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها
الرؤساء جميع الأديان إلى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حراً كريماً بين
يدى الخلق خاضعاً للخالق وحده .

(٣) إنه يهdy إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين بأقرب الوسائل .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ، وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ
قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَفْقَهُ لِمَنْ يَشَاءُ ،
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ
مِنَ الرَّسُلِ أَنَّ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجج على أهل الكتاب عامة بين ما كفر به النصارى خاصة .

الإيضاح

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) المسيحيون في هذا العصر فرق ثلاث: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أى إصلاح النصرانية) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد فى أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا؛ وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التى كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى، ومع كل هذا فهولاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذى هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء، فلا يزالون يقولون بألوهية المسيح وبالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح بن مريم وإن للمسيح بن مريم هو الله، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة إذ كان بعضهم يفسر الأب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة والقول بها لا ينافى توحيد الخالق، كما أنه يوجد الآن فى نصارى أوربة وغيرهم من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبي ورسول لا إله .

قال الدكتور بوست البروتستانتى فى تاريخ الكتاب المقدس (طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر : الله الأب، الله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن القدى وإلى الروح القدس التطهير) غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء، والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا وهى (فى البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله، والله هو الكلمة) وقد فسروا الكلمة بالمسيح فيصير معنى الفقرة الثالثة من إنجيل يوحنا (والله هو المسيح بن مريم) وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم .

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثني الشرق والغرب .

(قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا) أى قل أيها النبي الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه بل عن سائر الخلق جميعا إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم .
 وخلاصة هذا — إن المسيح وأمه من الخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعا لا يستطيع أحد أن يردَّ إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شيء .

(والله ملك السموات والأرض وما بينهما) أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة وهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما أى ما بين العالمين بالنسبة إليكم .

(يخلق ما يشاء) أى إن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله — هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالا عجيبية لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ولا على ألوهية بعضها ولا حلول الإله الخالق فيها ، وكذلك سنة الله فى خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلهًا وربًا لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج بها الخلق عن كونه مخلوقا .

(والله على كل شيء قدير) أى إنه تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له كما فى عيسى عليه السلام إذ كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعدّ بعضه غريبا بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابية بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبيّ يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى و بحرى بن عمرو وشأس بن عدى فكلّمهم وكلّوه ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) إلى آخر الآية ، وقد جاء إطلاق هذا اللفظ فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين كما حكاه متى فى وعظ المسيح على الجبل من قوله : (طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون) وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية (لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله) ومن هذا يعلم أن (ابن الله) يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله الذى يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكّموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لئيبه : .

(قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر من خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر ولبلدكم المرة بعد المرة ومن إزالة ملككم من الأرض ، والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه فلستم إذا

أبناء الله ولا أحباؤه ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يحب أحدًا ، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يميزكم فتيلا ولا قطميرا وإنما الذى ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب .

(والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير) أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع المخلوقات عبيد له لأبناء ولا بنات «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا» وفى ختمها بقوله «وإليه المصير» إشارة إلى أنه سيعذبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة وأنهم عند ما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد آتون يجازون ، لأبناء ولا أحباء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر ، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم وإن كان أصح منهم إيمانا وأصلح أعمالا ، ولا ينبغي أن يتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه عربى لا إسرائيلى والفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعراء ، والنصارى قد زادوا عليهم غرورا فهم قد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح ، والمسيح ابنه الحقيقى ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب .

وقد جاهد النبى صلى الله عليه وسلم غرور اليهود جهادا عظيما ولم يُجِدْ ذلك فيهم شيئا فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة الله وبه تنال ترقية النفس وإصلاحها كما جاهد صلف النصارى وكبرهم ، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فسادا وظلما وعدوانا بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم ليسوا فى حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة - إن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) أى قد جاءكم رسولنا الذى بشرتم به فى كتبكم وأخبركم به أنبياءكم ، فقد جاء على لسان موسى (أنه سيقم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم) وعلى لسان عيسى (أنه سيجيء البارقليط روح الحق الذى يعلمكم كل شيء) وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين (أجبارا) فسألوا يوحنا عليه السلام : أنت المسيح ؟ قال لا . أنت إيليا ؟ قال لا . أنت النبي ؟ قال لا .

هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأسمى يبين لكم على فترة من الرسل أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى ، جميع ما أتمم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزغات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم فى الأمور المادية والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تحفون من الكتاب لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئا مما جاء به .

وقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وقد فشا التغيير والتحريف فى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب وصار ذلك عذرا ظاهرا فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكن كيف نعبدك فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين لإزالة هذا العذر ، وهذا معنى قوله :

(أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) أى إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين

(فقد جاءكم بشير ونذير) يبين لكم أمر النجاة والخلص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يجابي أحدا .
 (والله على كل شيء قدير) ومن دلائل قدرته نصر نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته في الدنيا ، وفي ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى الأحلام إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة .

روى ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله لتعلمن أنه رسول الله ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا : إنا ما قلنا لكم هذا وما أنزل من كتاب من بعد موسى ولا أرسل الله بشيرا ولا نذيرا بعده فأنزل الله الآية .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مِمَّا كُم مَالًا يُؤْتِي أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)
 يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)
 قَالَ رَبِّ اجْلِسْ مِنَ الَّذِينَ يَخْفُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَ كَلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)
 قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُرْمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ
سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على بنى إسرائيل وأثبت لهم رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحاه إليه بشأنهم وثمان كتبهم وأنبيائهم من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال غرورهم وهم مع كل هذا لم يزدادوا إلا كفرا وعنادا - قص علينا في هذه الآيات خبرا من أخبارهم مع موسى عليه السلام وهو المنقذ لهم من الرق والعبودية واضطهاد المصريين لهم إلى الحرية والاستقلال لكنهم مع هذا كله كانوا يخالفونه ويعصون أوامره - ليعلم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن مكابرتهم للحق خلق من أخلاقهم توارثوها من أسلافهم وتأصلت في طباعهم فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك وصدوا عن هديك - وفي هذا من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، إلى ما فيه من زيادة معرفة طبائع الأمم وسنن الاجتماع البشرى .

الايضاح

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) أى واذكر أيها الرسول الكريم لبنى إسرائيل وسائر من تبلغهم دعوتك حين قول موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه على ذلك بالطاعة له ، لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى :

« لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ » وتركها يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد كما قال تعالى « وَلَنْ كُفِّرْتُمْ إِنْ عَدَّيْتُمْ لَشَدِيدٌ » .

وقد بين لهم موسى أصناف هذه النعم التي منحها لهم مولاهم وحصرها في ثلاثة أشياء :

(١) وهو أرفمها قدرا وأعلاها ذكرا أنه جعل كثيرا منهم أنبياء كوسى وهرون ومن كان قبلهما ، وقد حكى ابن جرير أن السبعين الذين اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل حين يصعده لمناجاة ربه صاروا كلهم أنبياء ، والمعروف أن النبوة عند أهل الكتاب المراد منها الإخبار ببعض الأمور الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل ، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما في التوراة ويعملون بها حتى المسيح عليه السلام .

(٢) أنه جعلهم ملوكا ، والمراد من الملك هنا الحرية في تدبير أمورهم وأمور أسرهم بأنفسهم ، وفي هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى ، يؤيد هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا « كان بنو إسرائيل إذا كان لأخدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » ، وما رواه أبو داود عن زيد بن أسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » .

ولا شك أن من كان متمتعا بمثل هذا كان متمتعا بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف في سياسة بيته ، والناس يقولون إلى الآن لمن كان نخدوما مع عشيرته هائنا في معيشته مالكا لمسكنه (هذا ملك - أو ملك زمانه) يريدون أنه يعيش عيشة الملوك .

(٣) أنه آتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين أى عالمى زمانه وشعوبه التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك ؛ فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام ، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسلوى وأظل فوقهم الغمام .

و بعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم أمرهم بمجاهدة العدو وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصره فقال :

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) المقدسة المطهرة من الوثنية لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد ، روى ابن عساكر عن معاذ ابن جبل أن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات ، وبعضهم يسمي القسم الشامي من هذا القطر باسم سوروية والباقي باسم فلسطين أو بلاد المقدس أو الأرض المقدسة أو أرض الميعاد ، لأن الله وعد بها ذرية إبراهيم ويدخل فيها وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب .

فقول موسى : كتب الله لكم ، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى في تلك البلاد المقدسة لأن المراد أنها تكون كلها ملكا لهم لا يراحمهم فيها أحد لأن هذا مخالف للواقع ولن يخلف الله وعده ، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح .

ونص هذا الوعد في سفر التكوين من التوراة إنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب وقال : (لنسلك أعطى هذه الأرض) وجاء فيه أيضا في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا : (لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) .

(ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) أي لا ترجعوا عما جئتمكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية والفساد في الأرض بالظلم والبغى واتباع الأهواء فإن في هذا الرجوع خسرانا لكم ، إذ تخسرون فيه هذه النعم ومنها الأرض المقدسة التي ستعطيونها جزاء شكركم فتحرمون من خيراتها وبركاتها ، وقد جاء في بعض أوصافها (إنها تفيض لبنا وعسلا) وتعاقبون بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم .

(قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) الجبار لفة الطويل القوى المستكبر العاني المتمرد الذي يجبر غيره

على ما يريد من قولهم نخلة جبارة أى طويلة لا ينال ثمرها بالأيدى .
 كان سكان تلك البلاد فى ذلك الحين هم بنى عناق وكانوا أولى قوة وبأس ،
 طوال القامة ضخام الأجسام ، وقد ورد فى وصفهم فى الاسرائيليات من الخرافات
 التى كان يبثها اليهود فى المسلمين ما لا يصدقه العقل ولا ينطبق على ما عرف من سنن
 الله فى خلقه كقولهم : إن العيون الاثني عشر (الجواسيس) الذين بعثهم موسى إلى
 ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الأرض ومن فيها قبل أن يدخلها
 قومه رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم فى كسائه وفى رواية أخرى أن أحدهم كان
 يجنى الفاكهة فكان كلما أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه فى كفه مع الفاكهة -
 إلى نحو أولئك من روايات بعيدة عن الصدق فالمصريون هم هم ونسل الكنعانيين
 مشاهد معروف لا يمكن أن تكون أصوله على ما وصفوا .

وهذه القصة مبسطة فى السفر الرابع من أسفار التوراة فيها : إن الجواسيس
 تجسسوا أرض كنعان كما أمروا وأنهم قطعوا فى عودتهم زرجونة فيها عنقود عنب
 واحد حملاوه بعثة بين اثنين منهم مع شئ من الرمان والتين وقالوا لموسى وهو فى ملاء
 بنى إسرائيل : قد صرنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها فإذا هى بالحقيقة تدر لنا وعسلا
 وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكنين فيها أقوياء والمدن حصينة عظيمة جدا ورأينا
 ثم أيضا بنى عناق - إلى أن قال وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بنى عناق فصرنا
 فى عيوننا كالجراد ، وكذلك كنا فى عيونهم - وذكر فى فصل آخر تدمير بنى إسرائيل
 من أمر موسى لهم بدخول تلك الأرض ، وأنهم بكوا وتمنوا لو أنهم ماتوا فى أرض
 مصر أو فى البرية وقالوا : لماذا أتى الرب إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف
 وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ، أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر؟ الخ

والخلاصة - إن موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة
 أمرهم بدخولها مع الاستعداد لقتال من يقاثلهم من أهلها ، وإنهم لما غلب عليهم من
 الضعف والذل واضطهاد المصريين لهم وظلمهم إياهم ، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم

وقوة أهل تلك البلاد وحاولوا الرجوع إلى مصر وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، وقولهم (فإن يخرجوا منها فإننا داخلون) تأكيد لما فهم مما قبله مشعر بأنه لا علة لامتناعهم إلا ما ذكره .

وفي إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف وخور العزيمة وعلى أنهم لا يريدون أن يأخذوا شيئاً باستعمال توهم البدنية ولا العقلية ، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ولا أن يجلبوا لها الخير ، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة .

ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال وتحيا حياة العز والكرامة وتكون ذات تصرف مطلق في شئونها ، ومن ثم لم تقم لها دولة بعدُ « وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) قوله : يخافون أى يخافون الله تعالى ، وقوله : أنعم الله عليهما أى بالطاعة والتوفيق لما يرضيه حتى في حال الخوف والذعر ، والتوراة وتبعها المفسرون قاطبة على أن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يفتنة ، وأنهما كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أرض الجبارين ثقة بوعد الله بالنصر وتأييده إياهم .

(ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى ادخلوا عليهم باب المدينة ، فإذا فعلتم ذلك نصركم الله وأيدكم بروح من عنده بعد أن تعملوا مافى طاقتكم من طاعة ربكم وثقوا به فيما لا يصل إليه كسبكم إن كنتم مؤمنين بأن وعد الله حق وأنه قادر على الوفاء به ، وإنما جزم هذان الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا ثقة بنبوة موسى وهو قد أخبرهم بأن الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، لا جرم قطعاً بالنصر والغلبة على العدو .

(قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إناها هنا قاعدون) أى إنهم أصروا على العناد والتمرد ولم تعفن عنهم عظام الرجلين

شيئا ، فأكدوا لموسى أنهم لا يدخلون هذه الأرض مدى حياتهم ما دام فيها الجبارون ، لأنهم لا طاقة لهم بالحرب والقتال إذ ليسوا من أهله ، فإن صحت عزيمتك على ذلك فإذهب أنت وربك الذي أمرك بذلك فقَاتِلَا الجبارين وأخرجاهم من هذه الأرض وإنا هاهنا قاعدون منتظرون .

وهذا القول الذى صدر منهم يدل على منتهى الجفاء والبعد عن الأدب وليس هذا بالغريب من أمثال هؤلاء الذين عبدوا العجل وكان دأبهم الشغب مع أنبيائهم وقتلوا كثيرا منهم كإشعيا وزكريا وقص القرآن كثيرا من فساد طباعهم وقسوتهم وغلظتهم .

(قال رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى) أى قال موسى باثنا شكواه إلى ربه معذرا من فسق قومه عن أمره الذى يبلغه عن ربه - إني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثق بغيرنا أن يطيعك فى السر والسر والمُنشَط والمَكْرَه (المحبوب والمكروه) .

وفى هذا إيماء إلى أنه لم يكن موقنا بثبات يوشع وكالب ورغبتهما فى الطاعة إذا أمر الله بدخول أرض الجبارين والتصدى لقتالهم ، فإن من يجروء على القتال مع الجيش الكبير فرما لا يجروء عليه مع العدد القليل ، وأما ثقته بأخيه فلما رأى من بلانه معه فى مقاومة فرعون وقومه ولسياسة أمور بنى إسرائيل عند مناجاة ربه ، ولما يعلم من تأييد الله له بمثل ما أيده به .

(فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) الفرق : الفصل بين الشئين أو الأشياء أى فافصل بيننا (يريد نفسه وأخاه) وبين القوم الفاسقين عن طاعتك بقضاء تقضيه بيننا فتحكم لنا بما نستحق ، وعليهم بما يستحقون فقد صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا ، وقيل إن المعنى : إنك إذا أخذتهم بالعقاب على قسوتهم فلا تعاقبنا معهم فى الدنيا . (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) التيه الخيرة ، يقال تاه يتيه : إذا تحير ومفازة تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التى يهتدى بها ،

والتحريم: المنع أى قال الله لموسى مجيبا دعوته: إن الأرض المقدسة محرمة على بنى إسرائيل تحريما فعليا لا تكليفا شرعيا مدة أربعين سنة يتيمون فيها فى الأرض أى يسرون فيها فى برية تأميين متحيرين لا يدرون أين مصيرهم .

(فلا تأس على القوم الفاسقين) الأسمى الحزن يقال أسيت عليه أسى وأسيت له أى فلا تحزن عليهم ، لأنهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلهى .

جاء فى الفصل الرابع من سفر العدد أن بنى إسرائيل لما تمردوا وعصوا أمر ربهم ، سقط موسى وهرون على وجوههما أمامهم ، وأن يوشع وكالب مزقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين ليطيع ، فهم الشعب برجمها وظهر مجد الرب لموسى فى خيمة الاجتماع (وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقونى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم) فسفع موسى فيهم لئلا يشمت بهم المصريون ، وبه تقبل الرب شفاعته ثم قال (إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولى ، لن يروا الأرض التى خلقت لأبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها) واستنتى الرب كالبيا فقط ... (أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا وكل هذه الجماعة الشريرة المتففة على ، فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون) .

وإن فى هذا العقاب الإلهى لعبرة لأولى الألباب ، يستفيدون منها أن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستعباد تذهب أخلاقها ويذهب بأسها وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتأنس بالمهانة ، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطبعا خلقية لها فإذا خرجوا من بيتهم ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد حنوا إلى ما كانوا فيه وتآقت نفوسهم إلى الرجوع إليه ، وهذا شأن البشر فى جميع ما يأنفون ، ويمجرون عليه من خير وشر .

وقد أفسد ظلم الفرعنة فطرة بنى إسرائيل في مصر وطبع عليهم بطابع الذلة
 والمهانة ، وقد أراهم الله تعالى مالم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته
 وصدق رسوله موسى عليه السلام ، وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من
 العبودية إلى نعيم الحرية ، ومع هذا كله كانوا إذا أصابهم نصب أو جوع أو كلفوا
 أمرا يشق عليهم يتطيلون بموسى ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها ، وحين
 غاب عنهم لمناجاة ربه اتخذوا لهم مجلا من حليهم وعبدوه وكان الله يعلم أن نفوسهم
 ميتة لا تطيعهم على دخول أرض الجبارين وأن وعده تعالى لأجدادهم إنما يتم إذا
 هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية ونشأ بعده جيل فى حرية البداوة وعدل الشريعة .
 وعلى هذه السنة العادلة أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بعد أن
 أراهم عجائب تأييده لرسوله لكنهم أبوا واستكبروا فأخذهم بذنوبهم وأنشأ من بعدهم
 قوما آخرين جعلهم الأئمة الوارثين بهمهم الموافقة لسنته فى الاجتماع .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانَ بَانًا فَتُكِبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
 وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)
 لَنْ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي
 أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْمِي وَإِغْمِكَ فَتَكُونَ
 مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ
 أَخِيهِ فَفَتَنَّهُ فَاصْبِحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ
 فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْمَزْتُ أَنْ
 أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ
 أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
 أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ
 بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

التلاوة: القراءة، ولاتكاد تستعمل إلا في قراءة كلام الله تعالى ، والنبأ: الخبر الذي
 يهتم به لفائدة ومنفعة عظيمة ، والقربان : ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها ،
 وهو في الأصل مصدر فلهذا يستوى فيه الواحد وغيره، وبسط اليد إليه: مدها ليقتله؛
 البوء : اللزوم ، وفي النهاية لابن الأثير: أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي أي ألزمت وأقر ،
 فطوعت أي فشجعت وزينت، والسوءة: ما يسوء ظهوره، والويل حلول الشر، والويلة:
 الفضيحة والبلية أي وافضيتها، والأجل: في الأصل الجناية، يقال أجل عليهم شرا
 أي جنى عليهم جناية ثم استعمل في تعليل الجنایات ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل
 سبب ، والبيّنات الآيات الواضحة، والإسراف: البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عز اسمه حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن
 دعوته مع وضوح البرهانات الدالة على صدقه وكثرة الآيات المثبتة لنبوته ، حتى هم
 قوم منهم أن يبسطوا أيديهم لقتله وقتل كبار أصحابه ، كما ذكر ذلك في قوله :
 « إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » ذكر هنا قصة
 ابني آدم بيانا لكون الحسد الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم
 وحملهم على عداوته عريقا في الآدميين وأثر من آثار سلفهم كان لهؤلاء منه الحظ الأوفر

فلا تعجب من حالهم بعد هذا ، فإن لهم أشباها ونظائر في البشر كابني آدم ، وقد حدث بينهم من أجل التحاسد سفك الدماء وقتل الأخ أخاه وبذر تلك البذور السيئة في بني آدم إلى قيام الساعة .

الإيضاح

(وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) جمهرة العلماء على أن هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه ، وفي سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم ، اسم أحدهما قين أو قايين وهو البكر ، وسماه المفسرون والمؤرخون من المسلمين قاييل وهو القاتل ، واسم الثاني هايليل وهو المقتول ؛ وقد ذكروا روايات غريبة عنهما لا تعرف إلا من الوحي وفي وصف الله تعالى ما قاله « بالحق » دليل على أن ما يلوكه الناس سوى ذلك فيا طل .

أى وائل أيها الرسول على أهل الكتاب وغيرهم من الناس ذلك النبأ العظيم نبأ ابني آدم تلاوة كاشفة للحق مظهرة له مبينة لفراتر البشر وطبائعهم ، وهي أنهم حببوا على التباين والاختلاف الذي يفضى إلى التحاسد والبغى والقتل ، ليعلموا الحكمة فيما شرعه الله في عقاب البغاة من الأفراد والجماعات ويفقهوا أن بغى اليهود على الرسول والمؤمنين ليس من دينهم في شيء ، وإنما ذلك للحسد والبغضاء ؛ فما مثلهم إلا مثل ابني آدم إذ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله وكان مآله ما بينه الله في الآيات بعد .

(إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) أى اتل عليهم نبأهما وقت تقديم كل منهما القربان وما تبعه من البغى والعدوان فتقبل الله من أحدهما قربانه لتقواه وإخلاصه وطيب نفسه به ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والإخلاص ، ولم يبين لنا سبحانه كيف علما أنه تقبل من أحدهما دون الآخر ، وربما كان ذلك بوحى من الله لأبيهما آدم عليه السلام .

وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما أن أحدهما كان صاحب حرث وزرع

فقرب شر ما عنده وأردأه غير طيبة به نفسه، وكان الآخر صاحب غم وقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة به نفسه، كما روى عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار من السماء لتأكله ولا تأكل غير المقبول، وكل هذا من الأخبار الإسرائيلية التي ليس لها مستند يوثق به، والقرايين عند اليهود أنواع :

(منها) الحرقات للتكفير عن الخطايا بدم ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب

(ومنها) التقدّمات من الدقيق والزيت والألبان .

(ومنها) ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى .

والقربان عند النصارى ما يقده الكاهن من الخبز والخمر فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة .

والقربان عند المسلمين اسم لذبائح النسك كالأضاحي وغيرها .

(قال لأقتلنك) أي إن من لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه فأجاب

الآخر أحسن جواب .

(قال إنما يتقبل الله من المتقين) أي لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال

إلا ممن يتصف بتقوى الله والخوف من عقابه باجتنابه الشرك وسائر المعاصي كالرياء

والشح واتباع الأهواء .

وخلاصة جوابه — إنني لم أذنب إليك ذنبا تقتلني به ، فإن كان الله لم يتقبل

قربانك فحاسب نفسك لتعرف سبب ذلك ، فإن الله إنما يتقبل من المتقين ، فاحمل

نفسك على تقوى الله والإخلاص له في العمل ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك

قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وفي الحديث : « إن الله تعالى

طيب لا يقبل إلا الطيب » .

وفي هذا من العبرة ما كان ينبغي أن يتعظ به المرءون الذين يبيعون

بما يتصدقون به الصيت واجتلاب الثناء من الناس وحسن الأحدثوة .

ثم بين سبحانه ما يجب للناس من احترام الدماء وحفظ الأنفس ولا سيما بين الإخوة فقال :

(لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك) أى إن مددت يدك لتقتلني فما أنا بالمجازى لك على السيئة بسيئة مثلها فذاك لا يتفق مع شمالي وصفاتي ، إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التي تنافي تقوى الله والخوف من عذابه وهذا ما عناه بقوله :

(إني أخاف الله رب العالمين) أى إني أخاف الله وأخشى أن يراني باسطا يدي إلى الإجرام وسفك الدماء بغير حق ، وهو رب العالمين الذي يغذيهم بنعمه ويربهم بفضله وإحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التربية .

ولا شك أن هذا الجواب يتضمن أبلغ الموعظة والاستعطاف لأخيه العازم على الجنابة ، وليس في الكلام ما يدل على عدم الدفاع البتة ، ولكن فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل ، وقد روى أحمد والشيخان وغيرهم قوله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالتقاتل والمقتول في النار، قيل يارسول الله هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

ثم قفى على عظته البالغة ونصائح النافعة بالتذكير بعذاب الآخرة ، من قبل أن الوعظ لا يؤثر في كل نفس فقال :

(إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) أى إني أريد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها أن ترجع إن فعلتها ملتبسا بإثمي وإثمك أى بإثم قتلك إياي ، وإثمك الخاص بك الذي كان من آثاره عدم قبول قربانك ، وروى هذا عن ابن عباس .

وقيل إن المراد - أن القاتل يحمل في الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق العباد لا يغفر الله منها شيئا حتى يأخذ لكل ذي حق حقه فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوى حقه إن كانت له حسنات

توازي ذلك ، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إن كان له آثام وأوزار وما نقص من هذا أو ذلك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار . (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) أى فتكون بما حملت من الإثم من أهل النار في الآخرة جزاء ظلمك ، والنار جزاء كل ظالم . وقد سلك في عظته وجوها تأخذ بمجامع اللب ، ويرعوى لها فؤاد النصف ، فقد تبرأ من كونه سببا في حرمانه من تقبل القربان ، لأن سبب التقبل عند الله هو التقوى .

ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله ، ثم إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه ، ثم إلى تذكيره بعذاب النار لأنها مثوى الظالمين . ثم أبان سبحانه أن المواعظ لم تُجد فيه فتبلا ولا قطميرا ، فمأذا تغنى الزواجر والعظات في نفس الحاسد الظالم ؟ فقال :

(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) أى إنه كان يهاب قتل أخيه وتجنب فطرته دونه ، وما زالت نفسه الأمانة تشجعه عليه حتى تجرأ وقتله عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر في العاقبة ، والمشاهد بالاختبار من أعمال الناس أن من تمدنه نفسه بالقتل يجد من نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن القتل حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح الفعل على الترك ، فحينئذ يقتل إن قدر .

(فأصبح من الخاسرين) أى من الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا قد قتل أبر الناس به وهو الأخ التقي الصالح ، وخسر الآخرة لأنه لم يصر أهلا لتعيمها الذى أعد للمتقين .

(فبعث الله غرابا يبعث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه) لما كان الإنسان في أعماله موكولا إلى كسبه واختياره ، وكان هذا القتل أول قتل وقع من بنى آدم - لم يعرف القاتل كيف يوارى جثة أخيه المقتول الذى يسوؤه أن يراها

بارزة للعيان ، وفي ذلك دليل على أن الإنسان في نشأته الأولى كان ساذجا قليل المعرفة ، لكن لما فيه من الاستعداد والعقل كان يستفيد من كل شيء علما واختبارا وتمية لمعارفه وعلومه ، وقد أعلمنا الله أن القاتل تعلم دفن أخيه من الغراب ، فإنه تعالى بعث غرابا إلى ذلك المكان الذى هو فيه فبحث في الأرض أى حفر برجله فيها يفتش عن شيء كالطعام ونحوه فأحدث حفرة في الأرض فلما رآها القاتل - وقد كان متحيرا في مواراة أخيه - زالت الحيرة واهتدى إلى دفنه في حفرة مثلها . وقوله ليريه : أى إنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن .

وحين رأى القاتل الغراب يبحث في الأرض وتعلم منه سنة الدفن وظهر له جهله وضعفه :

(قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) أى قال وافضحتى أقبل فقد آن الأوان لمجيثك ، فهل بلغ من عجزى أن كنت دون الغراب علما وتصرفا ؟ والندم الذى أظهره من الأمور التى تعرض لكل من يفعل شيئا ثم يتبين له خطأ فعله وسوء عاقبته .

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل (نصيب) من دمها لأنه أول من سن القتل » .

والندم الذى يكون توبة هو ما يصدر من الشخص خوفا من الله وحسرة على تعدى حدوده ، وهو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « الندم توبة » رواه أحمد والبخارى والحاكم والبيهقى .

(من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) أى إنه بسبب هذا الجرم الفظيع والقتل الشنيع الذى فعله أحد هذين الأخوين ظلما وعدوانا فرضنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أى بغير سبب موجب للقصاص الذى شرعه فى قوله « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » الآية ، أو قتل نفسا بغير سبب فساد فى الأرض يسلب

الأمن والطمأنينة وإهلاك الحرث والنسل كما تفعله عصايات اللصوص المسلحة المستعدة لقتل الأنفس ونهب الأموال أو إفساد الأمر على الدولة التي تقوم بتنفيذ حدود الله تعالى. من يفعل شيئا من ذلك فكذا قتل الناس جميعا إذا الواحد يمثل النوع ، فمن استحل دمه بغير وجه حق استحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله ، والمقصود من ذلك تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه ، أى فكذا أن قتل كل الخلق مستعظم مستبشع لدى الناس فكذلك قتل الواحد مستفزع مستعظم ، وكيف لا يكون مستعظما وقد قال تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤَمِّناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » .

(ومن أحيائها فكذا ما أحيأ الناس جميعا) أى ومن كان سببا فى حياة نفس واحدة بإفقادها من موت كانت مشرفة عليه فكذا ما أحيأ الناس جميعا ، لأن الباعث له على الإنفاذ وهو الشفقة والرحمة واحترام الحياة الإنسانية والوقوف عند حدود الشرائع ، دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من الهلاك لا يدخر وسعا ولا يبنى فى ذلك .

وفى الآية إرشاد إلى ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع والابتعاد عن ضرر كل فرد ، فانتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحق الفرد بمقدار ما قرر له فى الشرع قيام بحق الجميع ، وتقدم أن قلنا إن القرآن كثيرا ما يشير إلى وحدة الأمة ووجوب تكافلها حتى إنه ليسند أعمال المتقدمين منها إلى المتأخرين ويشير إلى أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم .

وقد وردت قصة ابنى آدم فى الفصل الرابع من سفر التكوين ، فقد جاء فيه : إن قايين لما قدم للرب من ثمرات الأرض وقدم هايليل قربانا من أبكار غنمه ونظر الرب إلى هايليل وقربانه دون أخيه اغناط قايين وقتل هايليل فسأله الرب عنه : أين هو فأجاب : لا أعلم ، هل أنا حارس لأخى ، فلعنه الرب وطرده عن وجه الأرض فندم

واسترحم الرب وخاف أن يقتله كل من وجدته ، فقال له الرب لذلك : كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجدته ، فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نوح شرقى عدن .

(ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) أى ولقد جاءهم الرسل بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم المؤكدة لوجوب مراعاته والحفاظة عليه لكنها لم تغن عن الكثير منهم شيئا فلم تهذب نفوسهم ولم تظهر أخلاقهم فكانوا بعد كل هذا التشديد عليهم في أمر القتل يسرفون فيه وفي سائر ضروب البغى والعدوان .

والعبرة في قصة ابني آدم أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر ولا يزال هو أسّ المفاسد في المجتمع فترى الحاسد تنقل عليه نعمة الله على أخيه نسيا أو جنسا أو دينيا فيبغى عليه ولو بما فيه ضرره ولهذا الحسود .

والأمة التي تنتشر بين أفرادها هذه الرذيلة قلما تتوجه هم أبناءها إلى ما يرق شأنهم بين الأمم الأخرى ، وقلما يتعاونون على ما فيه صلاحهم وتقدمهم في سائر مرافق الحياة فيصبحون عبيدا لسواهم بعد أن كانوا سادة ، وأذلاء ، بعد أن كانوا في عزة وبلهنية من العيش .

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) .

شرح المفردات

المحاربة : من الحرب ضد السلم ، والسلم : السلامة من الأذى والضرر والآفات والأمن على النفس والمال ، والأصل في معنى كلمة الحرب التعدي وسلب المال ، وحرية الرجل : ماله الذي يعيش فيه ، والفساد : ضد الصلاح ، وكل ما يخرج عن وضعه الذي يكون به صالحا نافعا يقال إنه فسد ، ومن كان سببا لفساد شيء يقال إنه أفسده ، وإزالة الأمن على الأنفس أو الأموال أو الأعراس ومعارضته تنفيذ الشريعة العادلة كل ذلك إفساد في الأرض ، والتقتيل : المبالغة في القتل بكونه حتما لا هواده فيه ولا عفو من ولى الدم ، والتصليب المبالغة في الصلب أو تكرار الصلب كما قال الشافعي : يصلب بعد القتل ثلاثة أيام بأن يربط على خشبة ونحوها منتصب القائمة ممدود اليدين ، وربما طعنوا المصلوب ليعجلوا موته ، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف : معناه إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والنفي من الأرض : النقل من البلد أو القطر الذي أفسدوا فيه إلى غيره من بلاد الإسلام إذا كانوا مسلمين ، فإن كانوا كفارا جاز نفيهم إلى بعض بلاد الإسلام أو بعض بلاد الكفر ، والخزى الذل والفضيحة ، ومن قبل أن تقدروا عليهم : أى من قبل التمكن من عقابهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فظاعة جرم القتل وشدد في تبعة القاتل فذكر أن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا - ذكر هنا العقاب الذى يؤخذ به المفسدون فى الأرض حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم ، وقد ذهب أكثر الأئمة إلى أن الآيتين نزلتا فى عكّل وعرينة ، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أنس « أن ناسا من عكّل وعرينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا

بالإسلام ، فاستوخموا المدينة (وجدوها رديئة المناخ) فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بنود (بضع من الإبل) وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ؛ فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعي النبي واستاقوا النود ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب في آثارهم ، فأمر بهم فسَمروا أعينهم (ككلوها بمسامير الحديد الحمأة) وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم « زاد البخاري أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس قال: «بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يبحث على الصدقة وينهى عن المثلة» . وروى أبو داود والنسائي عن أبي الزناد « أن رسول الله لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار ، عاتبه الله في ذلك فأنزل : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا) » الآية .

الإيضاح

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر - عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جنائياتهم ومفاسدهم لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزله الله على رسوله ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه في حفظ الحقوق كما قال تعالى في المصرين على أكل الربا « فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك كما فعل أبو بكر بمانى الزكاة ، حتى يفيثوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف

عنه ، وقوله : ويسعون في الأرض فسادا أى يسعون فيها سعى فساد أى مفسدين لما صلح من أمور الناس في نظم الاجتماع وأسباب المعاش . (راي كان ، ص ٤٤)

وجمهور العلماء على أن الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثة العرنيين الذين خدعوا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بإظهار الإسلام حتى إذا تمكثوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم ، وقد عاقبهم النبي صلى الله عليه وسلم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ويشترط في المخاريق ثلاثة شروط : (١) أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير مخاريق . (٢) أن يكون ذلك في الصحراء فإن فعلوا ذلك في البنيان لم يكونوا مخاريق كما قال أبو حنيفة والثوري وإسحق . (٣) أن يأتوا بمجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فمهرورم فهم قطاع طريق .

والجزء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد في تقدير العقوبة بقدر الجريمة ، والحكمة في عدم التعيين والتفصيل أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ومنها إهلاك الحرث والنسل أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب أو الجمع بين جر يمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فلا إمام أن يقتلهم إن قتلوا ، أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد العدوان يوجب القتل ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص فعلاظ ذلك في قاطع الطريق وصار القتل حتما لاهوادة فيه ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى في غير قاطع الطريق فعلاظ في قاطع الطريق بقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع في حقهم بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوطين في ممر الطرق يكون سببا لاشتهار إيقاع هذه العقوبة فيصير ذلك زاجرا لغيرهم عن الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصرنا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهي النفي من الأرض .

(لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) أى ذلك الذى ذكر من عقابهم - ذل لهم وفضيحة في الدنيا ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم في تدنيس نفوسهم وتدنيسها وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره إلا من قطعوا الطريق وعاثوا في الأرض فسادا ثم تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن توبتهم حينئذ وهم في قوة ومنعة جديرة بأن تكون توبة خالصة لله صادرة عن اعتقاد بقبوح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال :

(فاعلموا أن الله غفور رحيم) أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب في الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلنن سلهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولنن قتل منهم أحدا أن يطالبوه بدمه ، وهم مخيرون بين القصاص

والدية والعفو ، فقد ثبتت عن الصحابة إسقاط الحد عن تاب ، ولم يثبت أن أحدا تقاضى التائب حقا ولم يسمع له الحاكم .

وإذا فتوته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوقة إلى أربابها ، فإذا رأى ولى الأمر إسقاط حق مالى عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة وجب أن يضمنه من بيت المال (وزارة المالية) .

والخلاصة — أن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب الحاربين المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالا مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام معتصمين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردهم الحكام ويتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات بل حكمه حكم سائر المسلمين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف أن اليهود قد هموا بيسط أيديهم إلى الرسول حسدا منهم له وغرورا بدينهم واعتقادا منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه — أمر المؤمنين بأن يتقوه وابتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح ولا يفتنوا بدينهم كما فعل أهل الكتاب.

الإيضاح

(بأبيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه بعدم مخالفة دينه وشرعه ، والوسيلة ما يتوصل به إلى مرضاته والقرب منه واستحقاق مشوبته في دار الكرامة .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال في تفسير الآية أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وروى أحمد والبخارى وأصحاب السنن من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء - الأذان - اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » وروى أحمد ومسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وبهذا يعلم أن هذه الوسيلة هى أعلى منازل الجنة فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبي صلى الله عليه وسلم كافأه النبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة وهى دعاء أيضا ، والجزاء من جنس العمل .

(وجاهدوا فى سبيله) الجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب ، وسبيل الله هى طريق الحق والخير والفضيلة ، وكل جهد فى الدفاع عن هذه ، وحمل للناس عليها فهو جهاد فى سبيل الله .

أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن أهوائها ، وحملها على النصفة والعدل فى جميع الأحوال ، وجاهدوا أعدائى وأعداءكم وأنهبوا أنفسكم فى قتالهم ومنعهم من مقاومة الدعوة .

(لعلكم تفلحون) أى افعلوا كل هذا رجاء الفوز والفلاح والسعادة فى المعاش والمعاد والخلود فى جنات النعيم .

وبعد فلم يؤثر عن صحابى ولا تابعى ولا أحد من علماء السلف أن الوسيلة هى التقرب إلى الله تعالى بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل كاللذعاء ونحوه .
ولكن جد فى القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين أى جعلهم وسائل إلى الله تعالى والإقسام بهم على الله ، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضرر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو بعيدا عنها ، وكثر هذا حتى أصبح الناس يدعون مع الله أصحاب القبور فى الحاجات أو يدعونهم من دون الله وألف بعض الناس كتباً فى هذا وزعم أنهم يسمعون ويستجيبون للداعى ، وشغف العامة بمثل هذا القول الخالف لقول الله تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ » وقوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

والذى عليه المعول فى ذلك أن لفظ التوسل يراد به أحد معان ثلاثة :

(١) التوسل إلى الله بطاعته والتقرب إليه بفعل ما يرضيه ، وهذا فرض حتم وبه جاءت الشرائع وهو أس كل دين .

(٢) التوسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بدعائه وشفاعته كما كان الصحابة يفعلون ، وهذا كان فى حال حياته ولهذا قال عمر بن الخطاب : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فنتسقين ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فأسقنا » أى بدعائه وشفاعته ، ويوم القيامة يتوسل المؤمنون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته .

(٣) التوسل بالله بمعنى الإقسام بذاته وهذا لم تكن الصحابة تفعله فى الاستسقاء ونحوه لافى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعد مماته لا عند قبره ولا بعيدا عنه

ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المأثورة عندهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة أو عن ليس قوله حجة ، وقد قال أبو حنيفة وأصحابه : إن مثل هذا لا يجوز وقالوا لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك ، ولا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وكرهوا أن يقال بمعاقب العز من عرشك أو بحق خلقك لأنه لاحق للخلق على الخالق .

والخلاصة — أن الوسيلة ما تتقرب به إلى الله وترجو أن تصل به إلى مرضاته بما شرعه لتزكية نفسك ، وقد دل كتاب الله في جملته وتفصيله على أن مدار النجاة والقلاح هو الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » وقال : « لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » وقال : « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

نعم دلت السنة على أن دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه ، وثبت أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إيمان عمه أبي طالب فأنزل الله عليه « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

والخلاصة — أن العمدة في تقرب الإنسان إلى الله وابتغاء مرضاته هو إيمانه وعمله لنفسه ، فإذا لم يعمل لنفسه ما شرعه الله وجعله سبب فلاحه ، فهل يكون قد ابتغى إليه الوسيلة بطلب الدعاء من بعض عباده المكرمين أو طلبه منهم بعد موتهم أن يشفعوا له أى يدعوا له .

كلا إن الطلب من الميت غير مشروع فضلا عن أنه لا يعلم إن كان مقبولا أو غير مقبول ، فإن ذلك من أمور الآخرة « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله ضعيف بل موضوع ، وحديث الأعمى الذى علمه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » لا يصلح حجة في هذا الباب ، لأنه إنما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « اللهم

شفعه في » وقد رد الله عليه بصره حين دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحلف بالخلوقات حرام عند أبي حنيفة والشافعي ، وحكى إجماع الصحابة على ذلك حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليّ من أن أحلف بغير الله صادقا ، وقد جاء في الصحيحين أنه قال : « من كان حالفا فليحلف بالله » وقال : « لا تحلفوا بأبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم » .

والحلف بالأنبياء ليس يمين عند مالك وأبي حنيفة والشافعي فلا كفارة فيه ، وكذلك الحلف بالخلوقات المحترمة كالعرش والكرسي والكمبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين .

(إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) أي إن الذين جحدوا ربوبية ربهم وعبدوا غيره من محل أو صنم أو وثن وهلكوا وهم على هذه الحال قبل التوبة لو أن لهم ملك مافي الأرض كلها وضعفه معه ليفتدوا به من عقاب الله إياهم على تركهم أمره وعبادتهم غيره ؛ فافتدوا بذلك كله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضا من عذابهم وعقابهم ، بل هو معذبهم عذابا موجعا مؤلما لهم ، لأن سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَتَدَخَّلَ مِنْ دَسَّاهَا » .

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم ، والمسامون يعتقدون أن العمدة في النجاة تركية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة .

وهذه الجملة جاءت مؤكدة لبيان أن أساس الفوز في الآخرة تقوى الله والتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيله .

(يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) المقيم هو الثابت الذي لا يرتحل أبدا ، أى يتمنون الخروج من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها وما هم بخارجين منها البتة ، ثم أكد ذلك بإثبات العذاب المقيم لهم فيها .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه عقاب الحارين الذين يفسدون في الأرض ويأكلون أموال الناس بالباطل حجرة ، وأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله ، وهى الأعمال التى يكمل بها الإيمان وتمهذب بها النفوس حتى تنفر من الحرام وتبتعد عن المعاصى .

ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها كذلك خفية ، وجمع فى هذه الآيات بين الوازع الداخلى وهو الإيمان والصلاح والوازع الخارجى وهو الخوف من العقاب والنكال .

الإيضاح

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أى ومن سرق من رجل أو امرأة فاقطعوا يا ولاة الأمور والقضاة والحكام يده من الكف إلى الرسغ ، لأن السرقة

تحصل بالكف مباشرة والساعد والعضد يحملان الكف كما يحملهما معهما البدن ،
والتي تقطع أولا هي اليمنى لأن التناول غالبا يكون بها .
وقد اختلف الأئمة في المقدار الذي يجب قطع اليد في السرقة ، فروى عن
الحسن البصرى وداود الظاهري أنه يثبت القطع بالقليل والكثير لظاهر الآية
وللحديث « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجمل فتقطع يده »
رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وجهور العلماء من السلف والخلف على أن القطع
لا يكون إلا في سرقة ربع دينار « ربع مثقال من الذهب » أو ثلاثة دراهم من
الفضة لحديث عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق في ربع
دينار فصاعدا » رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن ، ولحديث ابن عمر
في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قطع في حَجَنِّ (تُرْس) ثمنه ثلاثة دراهم .
ويرى الحنفية أن القطع لا يكون إلا في عشرة دراهم فأكثر لا مادونها ، ولا بد أن
يكون المال محفوظا في حرز وإلا فلا قطع .

وتثبت السرقة بالإقرار أو البينة ، ويسقط الحد بالعتو عن السارق قبل رفع أمره
إلى الإمام .

(جزاء بما كسبا نكالا من الله) النكال من النكل (بالكسر) وهو قيد
الدابة ، فالنكال ما ينكل الناس ويمنعهم أن يسرقوا .

أى اقطعوا أيديهما جزاء لما بعملهما وكسبهما السوء ونكالا وعبرة لغيرهما ،
ولا عبرة أعظم من قطع اليد الذي يفضح صاحبه طول حياته ويسمه بيمس العار
والخزي ، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم
وأرواحهم ، فالأرواح كثيرا ما تهرق إذا قاوم أهلها السراق وحاولوا منعهم من
أخذ الأموال .

(والله عزيز حكيم) أى عزيز في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما
من أهل المعاصي ، حكيم في صنعه فهو يضع الحدود والعقوبات على حسب الحكمة

التي توافق المصلحة ، فما أمر الله بأمر إلا وهو صلاح ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد
وكانه يقول : اشتدوا على السراق فاقطعوا يدا يدا ورجلا رجلا .

(فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم)
أى فمن تاب من السراق ورجع عن السرقة بعد ظلمه لنفسه بعمله مانهاه الله عنه من
سرقة أموال الناس وأصلح نفسه وزكاها بأعمال البر فإن الله يقبل توبته ويرجع
إليه بالرضا ويغفر له ويرحمه .

ولا يسقط الحد عن التائب ولا تصح التوبة إلا بإعادة المال المسروق بعينه
إن كان باقيا وإلا فدفع قيمته إن قدر .

(ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء
والله على كل شىء قدير) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله له ملك السموات والأرض
يدبر الأمر فيهما بحكمته وعدله ورحمته وفضله ، ومن حكمته أن وضع هذا العقاب
لكل من يسرق ما يعد به سارقا كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين فى الأرض ،
ويغفر لمن تاب من هؤلاء وهؤلاء ويرحمه إذا صدق فى التوبة وأصلحا عملهما
ويعذب من يشاء تعذيبه من العصاة تربية له وتأمينا لعباده من أذاه وشره ، كما يرحم
من يشاء من التائبين برحمته وفضله ، ترغيبا لهم فى تركية أنفسهم ، وهو القادر على
كل شىء من التعذيب والرحمة لا يعجزه شىء فى تدبير ملكه .

يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمِ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ
مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ
يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

يُطَهَّرُ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)
 سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَآخِمْ بَيْنَهُمْ أَوْ
 أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ
 فَآخِمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ
 وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
 بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) .

شرح المفردات

الحزن : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، وسارع إلى الشيء : إذا أسرع إليه
 من خارج ليصل إليه ، وأسرع فيه : إذا أسرع في أعماله وهو داخل فيه ، وهنا كان
 الكفار داخلين في ظرف الكفر وهو محيط بهم سراقه، والفتنة : الاختبار كما يقف
 الذهب بالنار فيظهر مقدار ما فيه من الغش والزغل ، والسحت : ما خبث من المكاسب
 وحرّم فلزم عنه العار وقبح الذكر كشم الكلب والخنزير والحمر والرثوة في الحكم ،
 والقسط : العدل .

المعنى الجملى

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن النذر عن البراء بن عازب قال :
 «مر النبي صلى الله عليه وسلم بيهودى محمما^(١) مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون
 حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى
 أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا

(١) التحميم : وضع الحمة أى الفحمة فى الوجه ، وهو كالنسخيم الذى جاء فى الرواية الأخرى ،
 من السخام : وهو سواد القدر .

أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله (يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر - إلى قوله (إن أوتيتهم هذا فخذوه) » .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويغزيان ، قال : كذبتن إن فيها الرجم (فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارى لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح (أى آية الرجم) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ولكننا كنا نتكلمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما فلقد يجأ عليها (ينحنى) يقبها الحجارة بنفسه » .

الإيضاح

(يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) خاطب الله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله يأيها النبي فى مواضع كثيرة وما خاطبه بيأيها الرسول إلا فى هذا الموضع وموضع آخر بعده « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم (يا رسول الله) وجهل هذا بعض الأعراب لخشوتهم وسذاجة فطرتهم فكانوا ينادونه (يا محمد) حتى أنزل الله « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » فكفوا عن نداءه باسمه .

أى لا تهتم أيها الرسول بهؤلاء المنافقين الذين يسارعون في إظهار الكفر والتحيز إلى أعدائه المؤمنين عند ما يرون الفرصة سانحة ، فالله يكفيك شرهم ويقيك شرهم وينصرك عليهم وعلى من شايعهم وناصرهم .

والنهي عن الحزن وهو أمر طبعى وليس للانسان اختيار فيه يراد به النهي عن لوازمه التى يفعلها الناس مختارين من تذكر المصائب وتعظيم شأنها ، وبذا يتجدد الألم ويبعد أمد السلوى .

ثم بين أولئك المسارعين في الكفر من المنافقين فقال :

(من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) أى لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

(ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) الذين هادوا هم اليهود ، والمراد بالسماع سماع القبول والاعتقاد بصحة ما يقال ، والمراد بالكذب ما يقوله رؤسائهم فى النبي صلى الله عليه وسلم وفى أحكام دينهم التى يتلاعبون فيها بأهوائهم .

أى إن هؤلاء القوم كثيرو الاستماع لكلام الرسول صلوات الله عليه والإخبار عنه لأجل الكذب عليه بالتحريف واستنباط الشبهات ، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم ، يبلغون الرؤساء أعداء الإسلام كل ما يقفون عليه ليكون ما يفترون عليه من الكذب مقبلا لأنه مبنى على وقائع معينة ، يزيدون فى روايتها وينقصون ، ويحرفون منها ما يحرفون ؛ وقد جرت العادة بأن الكذب لا يجد له نفوقا بين الناس إلا من يشاهد ويرى ، أما البعيد فيظهر اختلاق كذبه سرىعا ، ولهذا كانوا ينقلون تلك الأكاذيب لمن لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم من الرؤساء وذوى الكيد ليسمعوا منه بأذانهم إما كبرا وتمردا وإما خوفا على أنفسهم وهذا معنى قوله : سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، أى سماعون لأجلهم .

(يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أى يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه

في مواضعه إما تحريفا لفظيا بإبدال كلمة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، وإما تحريفا معنويا بحمل اللفظ على غير ما وضع له .

(يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) أى يقولون لمن أرسلوهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم وأرادوا أن يجابوها بعدم رجمهما ، إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضا عن الرجم فخذوها وارضوا بها ، وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك ولا ترضوا به .

وقد سبق أن ذكرنا أنهم جاءوه فسألهم عن حد الزناة في التوراة ، فقالوا : نفضحهم ويجلدون وجاءوا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع فإذا هي آية الرجم ، فاعترفوا بصدق النبي صلى الله عليه وسلم وظهر كذبهم وعبثهم بشرعيتهم وكتابتهم .

(ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) أى ومن يرد الله أن يُختبر في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئا من الهداية والرشد ، فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم مقدار فسادهم ، فهم يقبلون الكذب دون الحق وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم اتباعا لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم وذوى الجاه فيهم .

فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم في الكفر ولا تطمع في جذبهم إلى الإيمان ، فإنك لا تملك لأحد نفعا ، وإنما عليك البلاغ والبيان ، ولا تحف عاقبة تفاقهم فإنما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان ، ولهم الجزى والهوان .

(أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أى إن أولئك الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق ، لأن إرادته إنما تتعلق بما اقتضته سننه العادلة في نفوس البشر ، من أنها إذا دأبت على الباطل ومرنت على الكيد والشر وألفت الخلاف والضر تحيط بها خطيئتها وتطبق عليها

ظلمتها فلا يبقى لديها نور الحق منفذ ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذي جعله الله وسيلة للاتعاظ والهداية ، فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعوانهم لا تقبل طباعهم سواها فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهيرهم وإلا كان ذلك خلافا لما اقتضته سننه ، وتبيديلا لنظمه في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) خزي المناقين في الدنيا هتك أستارهم باطلاع الرسول على كذبهم وخوفهم من القتل ، وخزي اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصوص كتابهم في إيجاب الرجم وعلو الحق على باطلهم ، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز ، كما يصدق على من يبطنون الكفر والنفاق في كل زمان ، وعذابهم في الآخرة نجزم بحصوله ، ولا نعلم مقدار كنهه وحقيقته أمره .

(سماعون للكذب أكلون للسحت) أعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب للتأكيد وتقرير المعنى ، إفادة اهتمام المتكلم بأمره وبيان أن أمرهم كله مبني على الكذب الذي هو شر الرذائل وأضر المفاصد ، وهكذا شأن الأمم الذليلة تلوذ بالكذب وتدأب به عن نفسها ما تتوقع من ضرر ربما يلحقها .

وكذلك انتشر بين أفرادها أكل السحت لأنها كانت تعيش بالحجابه والرشا في الأحكام ففسدت بينها أمور المعاملات واستبدلت الطمع بالعفة كذلك ، وكان أحبار اليهود ورؤساؤهم عصر التنزيل كذابين أكلين للسحت من رشوة وغيرها من الدناءات كما هو دأب سائر الأمم عهد فسادها وأزمان انحطاطها .

(فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) أي فإن جاءوك متحكما بين إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواثيق وسائر العقود إلا في بيع الحنظل والخنزير فإنهم يقرون عليه ويمنعون من الزنا كالمسلمين فإنهم نهوا عنه ولا يرجعون ، إذ من شروط الرجم الإسلام .

(وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم فلن يضروك شيئا من الضرر فالله حافظك من ضررهم .

(وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) أى وإن اخترت أن تحكم بينهم فاحكم بالعدل الذى أمرت به وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الإسلام .

(وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى وكيف يحكمونك فى قضية كقضية الزانين وعندهم التوراة وهى شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقتهم إياها .

وخلاصة ذلك — أن أمرهم من أعجب العجب ، وما سبب إلا أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيمانا صحيحا ولا هم مؤمنون بك إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضا أيد به الأول أو نسخته لحكمة اقتضت ذلك .

ولكن هؤلاء تركوا حكم التوراة التى يدعون الإيمان بها لأنه لم يوافق أهواءهم وجاءوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق أهواءهم ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يأت على وفق رادهم .

وقد جاء فى سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج عذراء فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها ، وإذا وجد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فنزع الشر من إسرائيل ، وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة

لرجل فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوها كليهما إلى باب المدينة وارجموها بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ،
وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ،
وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ
بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) .

تفسير المفردات

التوراة : الكتاب الذي أنزل على موسى ، والذين هادوا : هم اليهود ، والرَّبَّانِيُونَ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، والأحبار : واحدٌ هم حَبْرٌ وهو العالم ، وبما استحفظوا من كتاب الله أي بما طلب إليهم حفظه منه ، وشهداء

أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به ، قفاه به تقية : جعله يقفوا أثره كما قال : « وَقَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » والفاشقون أى الخارجون من حظيرة الدين المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عجيب حال اليهود من تركهم حكم التوراة وهم يعلمونه ، وطلبهم من النبى صلى الله عليه وسلم الحكم بينهم ورضاهم به إذا وافق أهواءهم وتركهم له إذا جاء على غير ما يريدون .

ذكر هنا أمر التوراة وأنها أنزلت هداية لبني إسرائيل ثم أعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد ، وفى ذلك من العبرة أن الانتماء إلى الدين لا ينفع أهله إذا لم يقيموه ويهتدوا بهديه وأن إيثار أهل الكتاب أهواءهم على هدى دينهم هو الذى عماهم عن نور القرآن والاهتداء به .

الإيضاح

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) أى إنا أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق ونور وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم ، وبهذا الهدى أخرج بني إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم ، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال فى أمر دينهم ودنياهم .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أى أنزلناها قانونا يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين - موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل إلى عيسى عليه السلام ، للذين هادوا أى لليهود خاصة ، لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة ، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها .

(والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله) أى ويحكم بها الربانيون

والأخبار في الأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء معهم أو يحكمون مع وجودهم بإذنهم بسبب ما أودعوه من الكتاب وأتمنوا عليه وطلب منهم أن يباؤهم حفظه ، كالعهد الذي أخذه موسى بأمر الله على شيوخ بني إسرائيل بعد أن كتب التوراة أن يحفظوها ولا يبيدوا عنها . ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال : أنا رباني هذه الأمة ، وأطلق لقب حبر الأمة في الإسلام على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأطلق لقب الرباني على علي المرتضى عليه الرحمة .

وقال ابن جرير الربانيون جمع رباني وهم العلماء الحسكاء البصراء بسياسة الناس وتدير أمورهم والقيام بمصالحهم ، والأخبار جمع حبر وهو العالم المحكم للشيء اه .
(وكانوا عليه شهداء) أى وكان السلف الصالح منهم رقباء على الكتاب وعلى من تحدته نفسه للعبث به كما فعل عبد الله بن سلام في مسألة الرجم ، لا كما فعل الخلف من كتمان بعض أحكامه اتباعا للهوى أو خوفا من أشرافهم إن أقاموا عليهم حدوده أو طمعا في صلاتهم إذا هم حابوهم .

وما كتموه صفة النبي صلى الله عليه وسلم والبشارة به .

ثم خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا زمن التنزيل لا يخافون الله في الكتمان والتبديل بعد أن قص سيرة السلف الصالح من بني إسرائيل لعلمهم يعتبرون ويرعون عن غيهم فقال :

(فلا تخشوا الناس واخشون) أى إذا كان الحال كما ذكر أيها الأخبار ولا شك أنكم لا تنكرونه كما تنكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سيرة أسلافكم - فلا تخشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب خشية أحد أو طمعا في منفعة عاجلة منه ، واخشوني واقتدوا بمن كان قبلكم من الربانيين والأخبار واحفظوا التوراة ولا تعدلوا عن ذلك فإن النفع والضرر بيدي .

(ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) أى ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها لقاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه أو غيرها من الحظوظ العاجلة

التي تصدكم عن الاهتداء بآيات الله وتمنعكم عن الخير العظيم الذي تناولونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . (المائدة : ١٠٢)
 (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) أى وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود فى الزانيين المحصنين بالتحميم وكتمانهم الرجم وقضائهم فى بعض قتلاهم بدية كاملة وفى بعضها بنصف الدية ، والله قد سوى بين الجميع فى الحكم - فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحق الذى كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه وأظهروا لهم غيره وقضوا به .

قال الرازى نقلا عن عكرمة : إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله - إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله ولكنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة ومن لم يحكم بما أنزل الله الخ ليس فى الإسلام منها شىء هى فى الكفار ، وعن الشعبي أنه قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة أولها فى هذه الأمة والثانية فى اليهود والثالثة فى النصارى .
 وخلاصة المعنى - ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكر له كان كافرا لوجوده به واستخفافه بأمره .

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) أى إن الجروح ذوات قصاص يعتبر فى جزائها المساواة بقدر الاستطاعة .

وقد جاء فى التوراة فى الفصل الحادى والعشرين من سفر الخروج (وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويديا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برضا) .

وجاء فى الفصل الرابع والعشرين من سفر اللاويين (وإذا أمات أحد إنسانا

أنه يقتل ، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس وإذا أحدث إنسان في قريبه عيبا فسكا فعل كذلك يفعل به ، كسر بكسر وعين بعين وسن بسن ، كما أحدث عيبا في الإنسان كذلك يحدث فيه) .

(فمن تصدق به فهو كفارة له) أى فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص وعفا عن الجاني فهذا التصدق كفارة له ، يكفر الله بها ذنوبه ويعفو عنه كما عفا عن أخيه .

وهذا كقوله تعالى « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من تصدق من جسده بشيء كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه ، ويقرب منه قوله صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ كان إذا خرج من بيته تصدق بعرضه على الناس » .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) أى إن كل من أعرض عما أنزل الله من القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس وحكم بغيره فهو من الظالمين ، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر وغصص حق المفضل عليه وظلمه .

(وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) أى وبعثنا عيسى بن مريم بعد هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعا طريقهم جاريا على هديهم مصدقا للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله ، فشرية عيسى عليه السلام هي التوراة ، وقد نقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال : ما جئت لأتقض الناموس (شرية التوراة) وإنما جئت لأتمم - أى لأزيد عليها ما شاء الله أن أزيد من الأحكام والمواعظ ، ولكن النصارى نسحوها وتركوا العمل بها اتباعا لبولس .

(وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) أى وأعطيناه الإنجيل حال كونه مشتقلا على الهدى ومنقذا من

الضلال في العقائد والأعمال كالتوحيد والتنزيه النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل .

وعلى النور الذي يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه ، وهو مصدق للتوراة التي تقدمته أي إنه مشتمل على النص بتصديقها زيادة على تصديق المسيح لها بقوله وعمله .

وقد وصف القرآن الإنجيل بمثل ما وصف به التوراة وبكونه مصدقا لها وجعله هدى وموعظة للمتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداه لجرصهم عليه وعنايتهم به . والسرف في ذلك أن فيه أسرار الشريعة وبيان حكمتها والمقصد منها ومعرفة أن بعد هذه التوراة وهذا الإنجيل هداية أعم وأشمل وهي التي يجيء بها النبي الأخير (البَارَقْلِيْطُ) الأعظم .

(وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) أي وقلنا لهم ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام ، والمراد وأمرناهم بالعمل به ، فهو كقوله في أهل التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » .

وخلاصة ذلك — زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التوراة .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أي المتمردون الخارجون عن حكمه .

والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت ، لا بما في التوراة خاصة ، ويشهد لذلك حديث البخاري « أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها وأهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به » .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (جميع بني إسرائيل كانوا متعبدين بشريعة موسى عليه السلام مكلفين التزام أحكام التوراة .

والإنجيل النازل على عيسى عليه السلام لا يحتضن أحكاما ولا يستبطن
 حلالا ولا حراما ولكنه رموز وأمثال ومواعظ وما سواها من الشرائع والأحكام
 (بحال على التوراة) .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
 الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
 عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
 إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ
 أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ
 عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنْتُمْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ
 بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَخْكُمِ الْجَاهِلِيَّةِ
 يَبْتَغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) .

شرح المفردات

المهمين: على الشيء القائم على شئونه وله حق مراقبته وتولى رعايته ، والشرعة
 والشرعية: مورد الماء من النهر ونحوه ، وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة ،
 ومن ذلك شريعة الإسلام لشروع أهلها فيها ، والمنهاج: السبيل والسنة ، والابتلاء:
 الاختبار ، استبقوا ابتدروا وسارعوا ، أن يفتنوك أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بنى إسرائيل وذكر ما أودعه فيهما من الهدى والنور وما أزمهم به من إقامتهما وما أوعدهم به من العقاب على ترك الحكم بهما .

ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ومنزلته من الكتب قبله وأن الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر .

الإيضاح

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه)
 أى وأنزلنا إليك أيها الرسول الكتاب (القرآن الكريم) الذى أكلنا به الدين مشتملا على الحق مقرر له « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » مصدقا لما تقدمه من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل ، ومهيمننا وشهيدا عليها بما بينه من حقيقة أمرها وما كان من حال من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وتحرير كثير مما بقى وتأويله والإعراض عن العمل به .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال (ومهيمننا عليه) يعنى أميننا عليه يحكم على ما كان قبله من الكتب .

(فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى إذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله من الكتب الإلهية وهو أنه رقيب وشهيد عليها ، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام ، دون ما أنزله إليهم إذ شريعته ناسخة لشرعهم .

(ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أى ولا تتبع ما يريدون وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخفف احتمالاه مائلا بذلك عما جاءك من الحق الذى لا شك فيه ولا ريب .

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا
 شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها ، ومنهاجا وطريقا فرضنا عليهم سلوكه لتزكية
 أنفسهم وإصلاح سرائرهم .

من قبل أن الشرائع العملية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع وطبائع البشر
 واستعداداتهم وإن اتفق الرسل جميعا في أصل الدين وهو توحيد الله والإخلاص له
 في السر والعلن وإسلام الوجه له .

روى عن قتادة أنه قال في تفسيرها : أى سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة ، للتوراة
 شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء
 كى يعلم من بطيعه ممن يعصيه ولكن الدين الذى لا يقبل غيره هو التوحيد
 والإخلاص الذى جاءت به الرسل؛ وروى عنه أنه قال الدين واحد والشريعة مختلفة .
 ومن هذا يفهم أن الشريعة هى الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل
 وينسخ اللاحق منها السابق وأن الدين هو الأصول الثابتة التى لا تختلف
 باختلاف الأنبياء .

وهذا هو العرف الجارى الآن إذ يخصون الشريعة بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم
 فيه إلى الحكام .

وإخلاصة — أن الشريعة اسم للأحكام العملية ، وأنها أخص من كلمة
 (الدين) وتدخل فى معنى الدين من جهة أن العامل بها يدين لله تعالى بعمله ويخضع
 له ويتوجه إليه مبتغيا مرضاته وثوابه بإذنه .

(ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة) أى ولو شاء تعالى أن يجعلكم أمة واحدة
 ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد تسيرون عليه وتعملون به بأن يخلقكم على استعداد
 واحد وأخلاق واحدة وطور واحد فى معيشتكم فتصلح لكم شريعة واحدة فى كل
 الأزمان فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التى يقف استعدادها عند مستوى معين
 كالطير أو كالدجل — لفعل ذلك إذ هو داخل تحت قدرته تعالى لا يستعصى عليه .

(ولكن ليلوكم فيما آتاكم) أى ولكن لم يشأ ذلك ، بل شاء أن يجعلكم نوعا ذا عقل وفكر واستعداد للفهم والعلم ، يرتقى فى أطوار الحياة بالتدرج وينضج لسنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل أطواره وفى سائر جماعاته ؛ فكانت الشرائع فى أطوار الطفولة من نوع يغلب عليه المادة ، وفى طور التمييز تغلب عليه العواطف والوجدانات النفسية ، وفى طور الرشد واستقلال العقل ختمت الشرائع والمناهج بالدين المحمدى المبني على فتح باب الاجتهاد الفكرى ، وجعل أمره شورى فى القضاء والسياسة وأصول الاجتماع بين أولى العلم والرأى .

وإخلاصة — إنه سبحانه عاملنا معاملة المخبر لاستعدادنا فيما آتانا من المناهج والشرائع لتظهر حكمته فى تمييز نوعنا عن غيره من الأنواع التى تدب على وجه البسيطة ، بأن جمع لنا بين الحيوانية والملكية .

وإنك لو نظرت إلى سالف الشرائع ترى الشريعة اليهودية مبنية على الشدة ، وليس لأهلها فيها رأى ولا اجتهاد إذ هى نزلت لقوم ألغوا الذل والاستعباد فوجب أخذهم بالشدة والصرامة ، وترى الشريعة النصرانية تأمر أهلها بأن يسلّموا أمورهم للمتغلبين عليهم من أهل الساطة والحكم ويقبلوا كل ما يسامون به من ذل وخسف ويعملوا عنايتهم بالأمر الروحية وتربية الوجدانات النفسية ، وترى الديانة الإسلامية قائمة على أساس الاستقلال والعقل جامعة بين مصالح الروح والجسد « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ولا يليق ذلك إلا بأمة بلغت سن الرشد العقلى والارتقاء الفكرى ، ومن ثم كانت أحكامها الدنيوية قليلة فى كتابها ، وفوض الأمر فيها إلى الاجتهاد ، إذ الراشد يفوض أمره إلى نفسه ، ومن ثم صارت صالحة لكل زمان ومكان ، إذ مدارها على الاجتهاد وطاعة أولى الأمر ، فمنع الاجتهاد فيها يبطل مزيته ويجعلها لا تصلح لجميع الأزمان ولا لجميع الأمكنة ، إذ أنك تعلم أن للزمان والمكان والأحوال من التشريع ما يوافقه ، انظر إلى الإمام الشافعى تجد أنه حين كان بالعراق وضع أسسا للتشريع والأحكام (المذهب القديم) فلما انتقل إلى مصر ورأى عادات

أهلها وأطوارهم غير كثيرا من تشريعه إلى ما يناسب الشعب الذي يعيش بين
ظهرانيته (المذهب الجديد) وما سر هذا إلا ما علمت من خضوع التشريع
لزمان والمكان .

(فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أي إذا
كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ما هو خير لكم في دينكم ودنياكم ، وابتدروا الخيرات
وصالح الأعمال اتهازا للفرصة وإحرازا للفضل فالسابقون السابقون أولئك المقربون .
وإنكم إلى الله دون غيره ترجعون جميعا في الحياة الثانية فينبئكم عند الحساب
بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين ، ويمجزي الحسن على قدر إحسانه
والمسيء بإساءته فاجعلوا الشرائع سببا للتنافس في الخيرات ، لا لإقامة الشحنة
والعداوة بين الأجناس والعصبيات .

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض
ما أنزل الله إليك) أي إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله ، وأنزلنا إليك فيه :
أن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لهم وقبول كلامهم ولو لمصلحة
في ذلك كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام ، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل ،
واحذرهم أن يفتنوك وينزلوك عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره .

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله
ابن صوريا وشاس بن قيس من اليهود : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه
فأتوه فقالوا : يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن
اتبعتك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنخاصمهم إليك
فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك وأنزل الله عز وجل فيهم .
(وأن احكم بينهم بما أنزل الله - إلى قوله : لقوم يوقنون) اه . يريد أن الحكمة
في إنزال هذه الآية إقرار النبي على ما فعل والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام
حكم الله ، وعدم الانخداع لليهود .

(فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى فإن أعرضوا عن حكمك بعد تحاكمهم إليك ، فما ذلك إلا لأن الله يريد أن يعذبهم فى الحياة الدنيا قبل الآخرة ببعض ذنوبهم ، لأن استنقالم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك لعلك تتبع أهواءهم ، ومحاولتهم لفتنتك عن بعض ما أنزل إليك - كل هذه أمارات على فساد الأخلاق وانحلال روابط الاجتماع ولا بد أن تكون نتيجةها وقوع العذاب بهم ، وقد حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم ما حل ، فقد أجلي النبي صلى الله عليه وسلم بنى النضير عنها وقتل بنى قريظة .

(وإن كثيرا من الناس لفاسقون) أى متمردون فى الكفر مصررون عليه خارجون من الحدود والشرائع التى اختارها الله لعباده .
وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على عدم إذعانهم لما جاء به من الهدى والدين وإعراضهم عن ذلك النور الذى أنزل إليه .

(أتحكم الجاهلية يبيغون ؟) أى أيتولون عن قبول حكمك بما أنزل الله فيبغون حكم الجاهلية المبني على التحيز والهوى لجانب دون آخر وترجيح القوى على الضعيف .
روى « أن بنى النضير تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة كانت بينهم وبين بنى قريظة وطلب بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرظى ضعفى دية النضيرى لمكان القوة والضعف فقال عليه السلام : القتلى بؤالا (سواء) فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية » .

وخلاصة ذلك - توبيخهم والتعجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم ومع ذلك كانوا يبيغون حكم الجاهلية التى هى محض الجهل وصريح الهوى .
(ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) أى لا أحد أحسن حكما من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويزعنون لشرعه ، لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق

من الحاكم ، والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه ، وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلهية والقوانين البشرية .
 واختلاصة — إن مما ينبغي التعجب منه من أحوالهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ويؤثرونه على حكم الله العادل، وفي الأول تفضيل القوى على الضعيف واستدلاله واستئصال شأفته ، وفي الثاني العدل الذي يستقيم به أمر الخلق ، وبه يستتب الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)
 فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) .

شرح المفردات

الولاية : ولاية التناصر والمخالفة على المؤمنين ، في قلوبهم مرض أى إن إيمانهم معتل غير صحيح ، الدائرة : ما يدور به الزمان من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها ، والفتح : القضاء ، وهو يكون بفتح البلاد وبغير ذلك ، وحبطت أى بطلت أعمالهم التي كانوا يتكفونها نفاقا كالصلاة والصيام والجهاد معكم نفسروا أجرها وثوابها .

المعنى الجملى

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال : «جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من موالاة موالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى (يا أبا الحباب أرايت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه) قال إذن أقبل فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى . . . إلى قوله والله يعصمك من الناس » .

وروى أرباب السير : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه أحدا ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دماهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يثول إليه أمره وأمر أعدائه ، ثم من هؤلاء من كان يجب ظهوره وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المناقون .

وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه به ، فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة - بنى قَيْنُقَاعَ وبنى النضير وبنى قريظة - فخارته بنو قَيْنُقَاعَ بعد بدر وأظهروا البغى والحسد ، ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر ، ثم نقض بنو النضير العهد لما خرج إلى غزوة الخندق وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حارب كل طائفة وأظهره الله عليها وكان نصارى العرب والروم حربا عليه كاليهود .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ) أى لا يوالى أفراد أو جماعات من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المعاندين للنبي والمؤمنين ، ويعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خذل المسلمون وغلبوا على أمرهم .

قال ابن جرير : إن الله تعالى نهي المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أن من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فهو منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين ، وأن الله ورسوله منه بريئان . . . إلى أن قال غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك اه .

(بعضهم أولياء بعض) أى إن اليهود بعضهم أنصار بعض ، والنصارى بعضهم أنصار بعض ، وهذه العبارة كالعلة والسبب للنهي ، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع حربا للرسول ومن معه من المؤمنين .

(ومن يتولم منكم فإنه منهم) أى ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه في الحقيقة منهم لامنكم لأنه معهم عليكم .

قال ابن جرير فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم ، فإنه لا يتولى متولى أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضى ورضى دينه فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه اه .

ومن هذا تعلم أنه إذا وقعت الموالاة والمخالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين

لمصالح دنيوية لا تدخل في النهي الذي في الآية ، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها ، فمثل هذا لا يكون محظورا . ثم ذكر العلة والسبب في الوعيد السابق فقال :

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن من يوالى أعداء المؤمنين وينصرهم أو يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها ، والله لا يهديه خيبر ولا يرشده إلى حق .

(فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم) أى فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم ولم يصل إلى مرتبة اليقين كعبد الله بن أبي وغيره من المنافقين ، يمتنون إلى اليهود بالولاء والعهود ويسارعون في هذه السبيل التى سلكوها ، وكلما سئحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ليزيد تمكنا وثباتا .

(يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) أى يقولون بألسنتهم نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصائب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا ، فعلينا أن نتخذ لنا أيدى عندهم في السراء ننتفع بها إذا مستنا الضراء .

وخلاصة ذلك — إنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين فيحل بهم العقاب ، لأنهم فى شك من نصر الله لنبيه وإظهار دينه على الدين كله ، إذ لم يوقنوا بنبوته ولا بصدقها ، وهكذا شأن المنافقين فى كل زمان ومكان ، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدا عند دولة قوية يلجأ إليها إذا أصابتها دائرة ، فتغلغل نفوذ هذه الدول فى أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها فى بلادها بعملهم ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

(فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) هذا رد من الله تعالى على المنافقين عصر التنزيل وقطع لأطماعهم وبشرى للمؤمنين بحصول ما يمتنون أى فاعل الله بفضله وصدق ما وعد به رسوله أى بالفتح والفصل بين المؤمنين ومن يعاديهم من اليهود والنصارى ، أو بأمر من عنده فى هؤلاء

المنافقين كفضيحتهم أو الإيقاع بهم ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه وأضمره في أنفسهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين ، وتوقع الدوائر عليهم .
والفتح إما فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام والثقة بقوته وإنجاز الله وعده لرسوله ، وإما فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وغيرها ، والأمر إما الإيقاع باليهود وإجلاؤهم عن موطنهم وإخراجهم من حصونهم وصياصبهم ، إما القهر والإيجاف عليهم بالخيال والركاب كبنى قريظة، وإما إلقاء الرعب في قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم كبنى النضير ، وإما ضرب الجزية على أهل الكتاب فينقطع أمل المنافقين ويندمون على ما كان من إسرارهم بالولاء لهم .

(ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟)
أى يقول بعض المؤمنين متعجبين من حال المنافقين إذ أقسموا بأغلظ الأيمان لهم إنهم معكم وإنهم معاضدكم على أعدائكم اليهود ، فلما حل باليهود ما حلّ أظهر ما كانوا يسرونه من موالاتهم وممالاتهم على المؤمنين كما قال في سورة براءة « وَبِحَيْفُونَا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا نَمْنُكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » أى فهم لفرقتهم وخوفهم يظهرن الإسلام تقية .

(حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) أى ويقول المؤمنون حبطت أعمالهم التى كانوا يتكفونها نفاقا كالصلاة والصوم والجهاد معنا ليقنعونا بأنهم منا ، فخرسوا بذلك ما كانوا يرجون لها من أجر وثواب لو صلحت حالهم وقوى إيمانهم .

وفى هاتين الآيتين إخبار بالغيب وقد صدق الله وعده وخذل الكافرين وفضح المنافقين والعاقبة للمتقين ، ولكن أنى لهم أن يعتبروا بمثل هذا؟ « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا قَالَهُ مِنْ نُورٍ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يتولى الكافرين من دون الله يعد منهم ، وأن
الذين يسارعون فيهم من مرضى القلوب مرتدون بتوليهم إياهم ، فإن أخفوا ذلك
فأظهارهم للإيمان نفاق .

بين هنا حقيقة دعمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل ، فالحقيقة هي أن
المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم ولا يعتد بهم في نصر الدين وإقامة الحق ، فالله
إنما يقيم دينه بصادق الإيمان الذين يحبهم فيزيدهم رسوخاً في الحق وقوة على إقامته ،
ويحبونه فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال وممتاع
وأهل وولد .

وخبر الغيب أنه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الإسلام جهراً ولا يضره ذلك
لأن الله تعالى يسخر من ينصره ويحفظه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم
ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون
لومة لائم) .

روى ابن جرير عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدون
من الناس ، فلما قبض الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ارتد عامة العرب عن الإسلام
إلا ثلاثة مساجد - أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس - قال :
المرتدون نصلى ولا نركى ، والله لا تعصب أموالنا ، فكلتم أبو بكر في ذلك فقيل له :

إنهم لو قد قهوا لهذا أعطوها وزادوها فقال : لا والله ، لا أفرق بين شيء جمع الله بينه ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصابة مع أبي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل وحرق بالنيران أناسا ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فقاتلتهم حتى أفرأوا بالمعون (الزكاة) صغرة (واحد صاغر وهو المهين الذليل) أقياء (واحد هم قبيء وهو الذليل الضعيف) فأنته وفود العرب خيبرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية فاختاروا الخطة المخزية وكانت أهون عليهم أن يستعدوا أن قتلاهم في النار ، وأن قتلى المؤمنين في الجنة ، وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم وما أصاب المسلمون لهم من مال فهو لهم حلال اه .

وعلى هذا فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ، قاله قتادة والضحاك ، ورجح ابن جرير أن الآية نزلت في قوم أبي موسى الأشعري من أهل اليمن لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : - يعنى قوم أبي موسى - وإن لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبي بكر لأن الله وعد بأن يأتي بخير من المرتدين بدلا منهم ولم يقل إنهم يقاتلون المرتدين ويكفى في صدق الوعد أن يقاتلوا ولو غير المرتدين .

وقد ارتد كثير من القبائل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، فقد ارتدت إحدى عشرة فرقة منها ثلاث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم :

- (١) بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسى وكان كاهنا ، تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن ، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فسر به المسلمون ، وقبض عليه السلام من الغد .
- (٢) بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، وقد تنبأ مسيلمة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك : أما بعد

فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قریشا قوم يعتدون ، فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب (السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وكان ذلك سنة عشر ، وحاربه أبو بكر ، وقتله وحشى قاتل حمزة وكان يقول : قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس .

(٣) بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، وقد تنبأ فبعث إليه أبو بكر خالد بن الوليد فانهزم وهرب إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .

وارتدت سبع في عهد أبي بكر وهم :

(١) فزارة قوم عيينة بن حصن .

(٢) غطفان قوم قرة بن سلمة القشيري .

(٣) بنو سليم قوم الفجاءة بن عبدالميل .

(٤) بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .

(٥) بعض بني تميم وزعيمته سجاح بنت المنذر الكاهنة ، وقد تنبأت وزوجت نفسها من مسيلة ولها قصص طويل في التاريخ ، وصح أنها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها .

(٦) كندة قوم الأشعث بن قيس .

(٧) بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد ، وقد كفى الله المؤمنين

شرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه ، وارتدت قبيلة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم ، تنصر جبلة ولحق بالشام ومات مرتدا . ويروى أن عمر كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتابا جاء فيه : إن جبلة ورد إلى في سراة قومه فأسلم فأكرمه ثم سار إلى مكة فطاف فوطىء إزاره رجل من بني فزارة فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه فاستعدى الفزاري على جبلة إلى فخكت إما بالعفو وإما بالقصاص ، فقال : أتقتص مني وأنا ملك وهو سوقة ، فقلت شملك وإياه الإسلام ،

فما تفضله إلا بالعافية ، فسأل جبهة التأخير إلى الغد ، فلما كان من الليل ركب مع نبي
 عمه ولحق بالشام مرتدا . وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تنصرت بعد الحق عارا للظمة ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
 فأدركني منها لجاح حمية فبعت لها العين الصحيحة بالعمور
 فيا ليت أمي لم تلدني وليتني صبرت على القول الذي قاله عمر

وهؤلاء المرتدون لم يقاتلهم أحد ، فإن أبا بكر هو الذي قاتل جماهير المرتدين
 بمن معه من المهاجرين والأنصار وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين بست صفات .

(١) إنه تعالى يحبهم وحبه تعالى وبقضه شأن من شئونه لا نبهث عن كنهه
 ولا عن كيفيته .

(٢) إنهم يحبون الله تعالى وحب المؤمنين لله جاء في غير موضع من القرآن
 كقوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ »
 وفي حديث أنس في الصحيحين « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون
 الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود
 في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار » .

(٣ ، ٤) الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين وهما بمعنى ما جاء في قوله
 تعالى : « أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ » .

(٥) الجهاد في سبيل الله ، وسبيل الله طريق الحق والتخير الموصلة إلى مرضاته
 تعالى ، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق ، وهو من أكبر
 آيات المؤمنين الصادقين .

(٦) كونهم لا يخافون لومة لائم ، وفي ذلك تعريض للمناققين الذين يخافون
 لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين ، إذ هم لا يرغبون في جزاء أو ثناء
 من الناس بل يعملون العمل لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى ذلك الذى تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده وبه يمتازون عن غيرهم ، وهذه المشيئة وفق السنن التى أقام بها أمر النظام فى خلقه ، فجعل من الناس الكسب والعمل نفسيا كان أو بدنيا ، ومنه سبحانه آلات الكسب والتقوى ما بين بدنية وعقلية حسية ومعنوية ، كما أن منه التوفيق والهداية واللفظ والمعونة .
 (والله ذو الفضل العظيم) فعاينا ألا نغفل عن فضله ومنته ، ولا عما يقتضيه ذلك من الشكر له والإجابة إليه ، والإحبات والعبادة له .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغَالِبُونَ (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فى الآيات المتقدمة عن موالاة الكافرين ، أمر فى هذه الآية بموالاة من تحب موالاتهم وهم الله ورسوله والمؤمنون .

الايضاح

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) أى لاولى لكم أيها المؤمنون ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بتلك الصفات الآتية بعد . وفى هذا تعريض بمن ينصر مرضى القلوب فى توليهم الكفار من دون الله . ولما كانت كلمة (المؤمنين) تشمل كل من أسلم ولو ظاهرا بين المراد منها بقوله : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون) قال فى الأساس : العرب تسمى من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راکعا ، وقال أبو مسلم المراد بالركوع الخضوع

أى إن المؤمنين الذين يقومون بحق الولاية والنصرة لكم هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدون حق الأداء باشتغالها على الآداب الظاهرة والباطنة ، ويعطون الزكاة مستحقيها وهم خاضعون لأوامر الله مع طيب نفس وهدوء بال لاخوفا ولا رياء ولا سمعة ، دون المنافقين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها ؛ فإذا هم قاموا إليها قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

(ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) أى ومن يتولهم الله بالنصرة والولاية والرسول والذين آمنوا بالتبع لولايته فهم الغالبون والله ناصرهم ، ومن يتول الله يتول الإيمان به والتوكل عليه ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزهم والاستنصار لهم دون أعدائهم فإنهم هم الغالبون ولا يغلب من يتولاهم لأنهم حزب الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُوبَهُ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنِّي إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَ كُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءَوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ

قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يُنَاهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٣) .

شرح المفردات

نقم منه كذا: إذا أنكره عليه وعابه به بالقول أو الفعل، والثوبة: من تاب إليه إذا رجع، ويراد به الجزاء والثواب، والطاغوت: من الطغيان، وهو مجاوزة الحد المشروع وهو يشمل كل من أطاعوه في معصية الله تعالى، والسحت: الدنيء من المحرمات .

المعنى الجملي

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون الله وبين العلة في ذلك فأرشد إلى أن بعضهم أولياء بعض ولا يوالى المؤمنون منهم أحد، ولا يوالىهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب والمناققون الذين يتر بصون بالمؤمنين الدوائر . أعاد النهى هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء مع بيان الوصف الذى لأجله كان النهى، وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء، ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء) أى لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء وأنزلت عليهم الكتب من قبل بعث نبينا صلى الله عليه وسلم ومن قبل نزول كتابنا - أولياء وأنصارا حلفاء فإنهم لا يألونكم خبالا وإن أظهروا لكم

موددة وصداقة ؛ ذلك لأنهم اتخذوا هذا الدين هزوا ولعبا فكان أحدهم يظهر الإيمان للمؤمنين وهو على كفره مقيم وبعد اليسير من الزمن يظهر الكفر بلسانه بعد أن كان يبدي الإيمان قولاً وهو مستبطن للكفر تلاعباً بالدين واستهزاء به كما قال تعالى عنهم « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » .

وكذلك نهى الله عن موالاته جميع المشركين ، لأن موالاته المسلمين لهم بعد أن أظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا - تكون قوة لهم وإقراراً على شركهم الذي جاء الإسلام لمحوه من جزيرة العرب .

وقد نهج الإسلام مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب فأباح أكل طعامهم ونكاح نسائهم وشرع قبول الجزية منهم وإقرارهم على دينهم . وخصهم هنا بلقب أهل الكتاب ولقب المشركين بالكفار ، وفي آيات أخرى بالمشركين والذين أشركوا لأنهم لوثنيتهم عريقون في الشرك والكفر أصلاء فيه ، أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضا وليس من أصل دينهم .

(واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى وخافوا الله أيها المؤمنون في موالاته هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا حتى لا يضيع الغرض منها وتكون وهنا لكم ونصرا لهم - إن كنتم صادقي الإيمان تحفظون كرامته وتجتنبون مهانتة وتصدقون بالجزاء والوعيد على معصيته تعالى .

(وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) أى وإذا أذن مؤذنكم داعيا إلى الصلاة سخر من دعوتكم إليها من نهيتهم عن ولايتهم من أهل الكتاب والمشركين ، واتخذوها هزوا ولعبا .

(ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) أى ذلك الفعل الذى يفعلونه وهو الهزؤ والسخرية

إنما كان لجهلهم بحقيقة الأديان وما أوجب فيها من تعظيم الله والثناء عليه بما هو أهله ولو كان عندهم عقل نلشعت قلوبهم كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويمجده بصوته الندى ويدعو إلى الصلاة له والفلاح بمناجاته وذكره ، فهو ذكر مؤثر في النفوس لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة في إرسال الشرائع ويؤمن بالله العلي الكبير .
(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟) أى قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل تعيبون علينا من شيء وتكرهوننا لأجله ، إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وإثبات صفات الكمال له ، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله ، لقلة إنصافكم ، ولأن أكثركم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية والتقاليد الباطلة .

والخلاصة — إنه ما عندنا سوى ذلك ، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم ، بل يمدح صاحبه ويكرم ، لكنكم لفسقكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عتيم الحسن من غيركم ورضيتم بالتبجح من أنفسكم .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع في جماعة فسألوه عن من يؤمن به من الرسل؟ فقال: (أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا تؤمن بمن آمن به فأنزل الله فيهم (قل يا أهل الكتاب ... الخ) » .

وفى قوله: (وأن أكثركم فاسقون) دقة في الأحكام على الأمم والشعوب ، إذ هو يحكم على الكثير أو الأكثر وما عم إلا استثنى وقد كان في أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عند ما عرفوا حقيقة أمره وتجلي لهم صدق الداعي إليه

لا يكون له نسل ، ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا
 قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله « كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »
 (أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) أى إن أولئك الذين اتصفوا
 بما ذكر من الخاى وشنيع الأمور شر مكانا إذ لا مكان لهم فى الآخرة إلا النار
 وأضل عن سواء الطريق ووسطه الذى لا إفراط فيه ولا تفریط .

ومثل هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم
 إلا الجهل وعمى البصيرة .

(وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) أى وإذا
 جاءكم المنافقون من اليهود قالوا للرسول ولكم إننا آمنا بالرسول وما أنزل عليه ،
 وحالهم الواقعة منهم أنهم دخلوا عليكم وهم مقيمون على الكفر والضلال وخرجوا
 وهم كذلك ، فخالهم عند خروجهم كخالهم عند دخولهم لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول
 وما نزل من الحق ؟ ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء فى سورة البقرة :
 « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ
 بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟ » الآية

(والله أعلم بما يكتمون) حين دخولهم من قصد تسقط الأخبار والتوسل إلى ذلك
 بالنفاق والخداع وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب .

وفى قوله: وهم قد خرجوا به تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول ،
 واحتياج إليه لحيثه على خلاف المعروف لأن من كان يجالس الرسول صلى الله عليه
 وسلم وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة ، ويرى من أحسن أخلاقه ما يؤثر
 فى القلوب ويلين قاسمها - يرجع عن سوء عقيدته ، وتصفو نفسه من كدورتها إلا إذا
 كان متعننا محادعا ، فإن الذكرى لا تنفعه ، والعظاى والزواجر لا تؤثر فيه .

وقد كان الرجل يحىء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يريد قتله حتى إذا رآه وسمع

كلامه انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق وآمن به وأحبه ، وما شذ هؤلاء إلا لسوء نيتهم وفساد طريقتهم ، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكر والاعتبار ووجه همتهم إلى الكيد والخداع ، فلم يكن لديهم عقل يعي ولا يفقه مغزى الحكم والآداب . (وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت) أى وترى أيها الرسول كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا يسارعون في الظلم والعدوان وتجاوز الحدود التي ضربها الله للناس ، وفي أكل السحت وكل ما يعود على فاعله بالضرر في الدين والدنيا ، فهم غارقون في الإثم والعدوان ، فكلموا قدروا عليهما ابتدروها ولم يتأخروا عن ارتكابها .

(لبئس ما كانوا يعملون) أى والله ما أقبح هذا العمل الذى يعمله هؤلاء من مسارعتهم فى كل ما يفسد الأخلاق ويدنس النفوس ويقوض نظم المجتمع ، وويل للأمة التى يعيش فيها أمثال هؤلاء ، فهلا نهتهم وزجرتهم عن أفعالهم ؟ ولم لم يتم أحد من علمائها وزهادها وعبادها بأمرهم بالمعروف ونهيبهم عن المنكر قبل أن يستفحل الشر ويم الضر ولا زاجر ولا وازع ؟ وإلى هذا أشار بقوله :

(لولا ينهائم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) قال فى الكشف : لا يسمى العامل صانعا ولا العمل صناعة حتى يتمكن فيه العامل ويتدرب وينسب إليه وفاعل المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذى ينهاه فلا شهوة معه فى فعل غيره ، فإذا فرط فى الإنكار على المعصية كان أشد إثما وأعظم جرما من الفاعل لها .

أى هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصى - أئمتهم فى التريية والسياسة وعلماء الدين من الأحبار والرهبان ، لبئس ما كانوا يصنعون من الرضى بهذه الأوزار والخطايا ، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

روى عن ابن عباس أنه قال : ما فى القرآن أشد توبيخا من هذه الآية - يريد بذلك أنها حجة على العلماء إذا هم قصرُوا فى الهداية والإرشاد ، وتركوا النهى عن

الشرور والآثام التي تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع ، فحق على العلماء والحكام أن يعتبروا بهذا النعى على اليهود ساسة وعلماء ومریین فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظة وذكري لهم إن نعتت الذكري .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاءَهَا اللَّهُ ، وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

للید لغة معان عدة : الجارحة والنعمة ، تقول لفلان عندي يد أشكره عليها كما قال تعالى : « أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أي ذوى القوة والعقول، والملك كما يقال هذه الضيعة في يد فلان أي ملكه وقال تعالى : « الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ » أي يملك ذلك ، وغلت أيديهم أي أمسكت وانقبضت عن العطاء ، يدها مبسوطتان أي هو كثير العطاء ، والحرب : ضد السلم فهي تصدق بالإخلال بالأمن والسلب والنهب ولو بغير قتل ، وبتهيبج الفتن والإغراء بالقتل ، وإقامة التوراة : العمل بما فيها على أتم الوجوه سواء في ذلك عمل النفس بالإيمان والإذعان ، وعمل الجوارح والقوى البدنية ؛

وقوله : لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم أى لوسع الله عليهم موارد الرزق ،
والمقتصد المعتدلة فى أمر الدين فلا تغلو بالإفراط ولا تهمل بالتقصير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة بعض مخازيهم من مسارعتهم فى الإثم
والعدوان وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختل به نظام الأفراد والجماعات
وأصبحوا قوماً أنانية ، همه كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أى صورة كانت
وبأى وجه جمع ، وقد أثر هذا فى أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر تشهد بذلك كتبهم ودينهم .
ذكر هنا أفضع المخازى وأقبحها بجرأتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من
صفته وإنكارهم جميل أيديه عندهم وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم جرمهم
توبيخاً لهم وتعريفاً لنبيه صلى الله عليه وسلم قديم جهلهم واحتجاجاً له بأنه مبعوث
ورسول إذ أخبر بخفى علومهم ومكنون أخبارهم التى لا يعلمها إلا أخبارهم دون غيرهم
من اليهود .

روى ابن إسحق والطبرانى عن ابن عباس قال « قال رجل من اليهود يقال له
النباش بن قيس للنبي صلى الله عليه وسلم : إن ربك بخيل لا ينفق فأنزل الله (وقالت
اليهود ...) الآية » وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت فى فحاص رأس يهود
بنى قينقاع . وروى ابن جرير عن عكرمة مثله ، وروى عن مجاهد أنهم قالوا : لقد
يجهدنا الله يا بنى إسرائيل حتى جعل يده إلى نحره - يريدون أنه ضيق عليهم الرزق .
وروى عن ابن عباس أنه قال : ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، لكنهم يقولون
إنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى ربنا عما يقول الظالمون .

الإيضاح

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) أى قال ذلك بعض منهم ونسبه إلى الأمة بناء
على التكافل العام بين أفرادها ، وكونها كالشخص الواحد ، وأن الناس فى كل زمان

يعزون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قاله أو فعله سلفهم منذ قرون .

ولا عجب في صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم فإننا نرى من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق وفي إبان المصائب .

(غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدي عن العطاء والإمساك عن الإنفاق في سبيل البر والخير ، وما زالوا أبخل الأمم فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا كان يرى أن له من ورائه رجلاً كما دعا عليهم بالطرد والابعاد من رحمته وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين .

وقيل إن المراد بغل الأيدي ربطها إلى الأعناق بالأغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما ، فقد نقل عن الحسن البصري أنه قال : يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم ، وقال في تفسير اللعنة : عذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار .

ثم رد الله عليهم ما قالوه وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء وأن كل مافي العالم من خير هو سجل من ذلك الجود فقال :

(بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء) أي بل هو الجواد المتصرف على وفق الحكمة وسننه في الاجتماع .

وتعتبر الرزق على بعض العباد لا ينفق سعة الجود وسريانه في كل الوجود ، فإن له سبحانه الإرادة والمشية في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق على حسب السنن التي أقام بها نظام الخلق .

وعبر عن سعة الجود ببسط اليدين ، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبذل في العطاء جهد استطاعته يعطى بكتفَيْ يديه كما قال الأعشى يمدح جواداً :

يداك يدا جود ، فكف مفيدة وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق

(وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى إن هذا الذى أنزلناه عليك أيها النبى من خفى أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشئون كتبهم وحقائق تاريخهم - هو من أعظم الأدلة على نبوتك وكان ينبغى أن يجذبهم إلى الإيمان بك ، إذ لولا النبوة والوحى ما علمت من هذا شيئا ، فلا تعرف الماضى لأنك أى لم تقرأ الكتب ولا تعرف الحاضر لأنه من مكرهم الخفى وكيدهم السرى - لكنهم لظغيانهم وتجاوزهم الحدود فى الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك إلى الإيمان ولم يقرب إلا قليلا منهم ، ووالله ليزيدن ذلك كثيرا منهم طغيانا فى بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به ، وقال قتادة حملهم حسد محمد صلى الله عليه وسلم والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه .

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) أى ألقينا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء فهى لا تنقطع أبدا وهى على أشدها الآن فى روسيا وألمانيا وأقليا فى إنجلترا وفرنسا .

واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية ولهم النفوذ والتأثير فى السياسة وسائر شئون الاجتماع مبعوضون من جماهير النصارى .

وقد ألف الكثير من الكتب فى فرنسا وغيرها فى التحريض عليهم ، وقد استأصلوا شافتهم فى ألمانيا وكثير من البلاد المجاورة لها بعد الحرب العظمى وأصبح هذا الشعب عندهم من أقبح شعوب العالم ، وكذلك العداوة بين بعض النصارى وبعض لا تزال آثارها تظهر بين حين وآخر لدى الدول الكبرى القوية فهى دائما فى استعداد لحرب يسحق بها بعضهم بعضا والحرب القائمة الآن بين الدول المسيحية الكبرى أكبر برهان على صدق ذلك .

(كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما هوا بالكيد للرسول وللمؤمنين الصادقين خذلهم الله وهم إما أن يخيبوا فى سعيهم ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض ، وإما أن ينصر الله رسوله وللمؤمنين .

والمعروف في كتب السيرة أن اليهود كانوا يعرون المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومنهم من سعى لتجريض الروم على غزوهم ، ومنهم من كان يؤوى أعداءهم ويساعدهم ككعب بن الأشرف ، وما سبب ذلك إلا الحسد والعصبية وخوف الأبحار والرهبان من إزالة الإسلام لامتيازاتهم العلمية والدينية التي كانوا معروفين بها في بلاد الحجاز ، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه ، والدليل على ذلك أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين في الشام والأندلس لما رأوا من عدلهم وإزالة الجور والظلم الذي كان عليه الروم والقوط . وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر ، وكان نصارى البلاد أقرب ميلا إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم وزال عنهم ظلم الروم مع كونهم من أهل دينهم ، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون في العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم .

(ويسعون في الأرض فسادا) أى إن ما يأتونه من عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشئون العمران والاجتماع بل كانوا يقصدون السعى في الأرض للفساد ويحاولون الكيد للمؤمنين ومنع اجتماع كلمة العرب ويودون ألا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان ، ولا من الوثنية إلى التوحيد حسدا لهم وحبا في دوام امتيازهم عليهم .

(والله لا يحب المفسدين) في الأرض بل يبغضهم ، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم ، لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى في صلاح الناس وعمران البلاد .

ومن ثم أبطل سبحانه كل ما كاده أولئك القوم للنبي صلى الله عليه وسلم والعرب والإسلام ، وأصلح بالإسلام ما كانوا خربوه من البلاد ونصر المسلمين على كل

من نواهم ، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم .

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم لكفرنا عنهم سيئاتهم التي اقترفوها ومحونا عنهم ذنوبهم ولم نفضحهم بها ولأدخلناهم جنات ينعمون بها في الآخرة .

وفى ذلك إعلام من الله بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله وفتح باب التوبة لكل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى ، وإخبار بأن الإيمان لا ينجى إلا إذا شفع بالتقوى ، ومن ثم قال الحسن هذا العمود فأين الأطناب ؟ .

(ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى ولو أقاموا ما فى التوراة والإنجيل المنزلين بنور التوحيد للبشرين بالنبي الذى يأتى من أبناء إسماعيل والذى قال فيه عيسى عليه السلام :
إنه روح الحق الذى يعلمهم كل شىء ، وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم على هذا النبي الكريم الذى بشرت به كتبهم لوسع الله عليهم رزقهم ولأعظمهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها وخيرها كما قال تعالى : « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وفى هذا تنبيه إلى أن ما أصابهم من الضنك والضييق إنما هو من شؤم جنائياتهم لا من تصور فى فيض الله وعظيم عطائه ، وإشارة إلى أنهم لو أقاموها ما عاندوا النبي ذلك العناد ، فالدين عندهم إنما كان أمانى يتمنونها وبدعا وتقاليد يتوارثونها ، فهم بين غلو وتقصير وإفراط وتفریط .

(منهم أمة مقتتة وكثير منهم ساء ما يعملون) أى منهم جماعة معتدلة فى أمر دينها لا تفرط ولا تهمل وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأضرابه من

اليهود ، والنجاشى وأصحابه من النصارى ، وكثير منهم أجلاف متعصبون ساء ما يعملون من كفرهم بالله واجتراح المعاصى ، ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ويكذب اليهود بعيسى ومحمد صلى الله عليهما .

والمعتدلون لا تخلو منهم أمة لكنهم يكثررون فى طور صلاح الأمة وارتقاؤها ، ويقولون فى طور فسادها وانحلالها ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها ، وقلة من يعمل الصالحات من أخيارها ، وهؤلاء المعتدلون هم السابقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء فى مختلف العصور ، ومن ثم قبل هذا الدين الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب ، والمحبين للعلوم والفنون .

روى ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يرفع العلم ، قلت : وكيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : شكلك أمك يا ابن نفير ، إن كنت لأراك من أئمة أهل المدينة ، أو ليست التوراة والانجيل بأيدي اليهود والنصارى ، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ، ثم قرأ : (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) الآية » .

وأخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن ليبيد قال : « ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال : وذلك عند ذهاب العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : شكلك أمك يا ابن أم ليبيد ، إن كنت لأراك من أئمة رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء » .

ومغزى هذا أن العبرة فى الأديان هو العمل بها والاهتداء بهديها ، وقد كان أهل الكتاب فى ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له ، كما هو شأن المسلمين اليوم .

وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » وقوله « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ » الآية .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) أى يا أيها الرسول بلغ إلى الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك مالك أمرك ومبلغك إلى كمالك ، ولا تخش في ذلك أحدا ولا تخف أن ينالك من ذلك مكروه .

(وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ) أى وإن لم تفعل ما أمرت به من التبليغ لما أنزل إليك بأن كتمته ولو مؤقتا خوفا من الأذى بالقول أو بالفعل - فحسبك جرما أنك ما بلغت الرسالة ولا قت بما بعثت لأجله ، وهو تبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم كما قال تعالى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

والحكمة في التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيده بجمل كتمان بعضه ككتمان

كله ، مع العلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شيء مما أمرهم الله بتبليغه وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ - الحكمة في ذلك بالنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه ولو إلى حين بتأخير شيء عن وقته على سبيل الاجتهاد ، ولولا هذا النص لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله .

والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأى والفهم ، ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحي غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم لا يتفق مع الدين في شيء ولا يعول على ما رووه من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة في هذا الباب .

والحق الذى لا شبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن وبينه ولم يخص أحدا بشيء من علم الدين ، وأنه لا امتياز لأحد عن أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن فهما يتوسل إليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار فى الصدر الأول ، وبمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها ، ومعرفة علوم الكون وشئون البشر وسنن الله فى الخلق .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس فى الموسم ، فنزل على جبريل فقال : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) الآية قال - فقامت عند العقبة فقلت : أيها الناس من ينصرفنى على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم ، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة - قال صلى الله عليه وسلم فما بقى رجل ولا أمة ولا صبى إلا يرمون على بالتراب والحجارة

ويقولون : كذاب صابئ . فعرض علىّ عارض فقال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، وانصرتني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك ، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه . »

(والله يعصمك من الناس) أى يمنعك من فتكهم مأخوذ من عصام القربة وهو ماتوكاً به أى يربط به فيها من سير جلد أو خيط ، والناس هم الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم والنعمى عليهم وعلى سلفهم ، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على الإيذاء ، ومن ثم كان المشركون يتصدون لإيذائه صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، وأتمروا به بعد موت أبى طالب وقرروا قتله فى دار الندوة ولكن الله تعالى عصمه منهم وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة .

روى الترمذى وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن بضعة رجال من الصحابة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرس فى مكة قبل نزول هذه الآية فقال : يا عم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث . »

وقد وضعت هذه الآية وهى مكية فى سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنى لتدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عرضة لإيذائهم أيضاً وأن الله تعالى عصمه من كيدهم ولتذكر بما كان من إيذاء مشركى قومه من قبلهم .

(إن الله لا يهدى القوم الكافرين) أى إنه تعالى لا يهدى أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون بل يكونون خائبين وتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين .

(قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أى قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلفهم عن الله تعالى (لستم على شىء) يعتقد به من أمر الدين ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبين .

(حتى تقيموا التوراة والإنجيل) فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح وفيما بشرنا به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد إسماعيل الذي سماه المسيح روح الحق والبارقَلَيْط .

(وما أنزل إليكم من ربكم) على لسان محمد وهو القرآن المجيد فهو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين على حسب سنن الله في الكون .

(وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى وأقسم بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوا في تكذيبهم وكفرا على كفرهم ، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف ، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان إذ كانوا على تقاليد وثنية وأعمال وعادات مسخيفة ، فلم يكن لهم من الدين الذى يدينون به ما يقر بهم إلى فهم حقيقة الإسلام ليعلموا أن دين الله واحد وأن ما سبق بدء وهذا إتمام .

أما غير الكثير وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة فيعاملون أنه الحق من ربهم ، وأن من أنزل عليه هو النبي المبشر به في كتبهم فيسارعون إلى الإيمان به على حسب حظهم من سلامة الوجدان واطمئنان النفس بما لديها من العلم والعرفان .

(فلا تأس على القوم الكافرين) قال الراغب : الأسى الحزن ، وأصله إتباع الفأنت بالغم ، أى فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين ، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمنى قومك ومن مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره من علمهم .

والعبرة للمسلم من هذه الآية أن يعلم أنه لا يكون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيم القرآن وما أنزل إليه من ربه فيه ويهتدى بهديه ، فحجة الله على عباده واحدة فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ماورثوه من تلك التقاليد التى صدتهم عما عندهم من وحى الله ، فإنه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابنا

والناس عن مثل هذا غافلون و إلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون ، و يحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون .
 (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله والذين دخلوا اليهودية والصابئين الذين يعبدون الملائكة و يصلون إلى غير القبلة والنصارى ، من أخلص منهم الإيمان بما ذكر دواما وثباتا كما فى المؤمنين المخلصين أو إيجادا وإنشاء كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى ، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزييل ثوابه .

وفى الآية إيحاء إلى أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله لا الوسائل منه ولا المقاصد ، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذى كان عليه سلفهم الصالح ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون ، إلا قليلا منهم عذبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التى شرعها الأحرار والرهبان ، كما أن فيها ترغيبا لمن عدا من ذكروا فى الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالُوا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِئْتَةً فَمَمُّوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أخذ الميثاق على بنى إسرائيل وبعث فيهم النقباء أعاد التذكير به هنا مرة أخرى وبين عتوهم وشدة تمردهم وما كان من سوء معاملتهم لأنبيائهم .

الإيضاح

(لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) الميثاق هو العهد الموثق ، وقد أخذ الله عليهم العهد فى التوراة بتوحيده واتباع الأحكام التى شرعها لهدى خلقه وتحليلهم بحلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وقد نقضوا هذا الميثاق كما تقدم أول السورة وعاملوا الرسل تلك المعاملة - وهو أنه كلما جاءهم رسول بشيء لا تهواه أنفسهم عاملوه بأحد الأمرين إما التكذيب المستلزم للإعراض والعصيان وإما القتل وسفك الدماء .

وخلاصة ذلك - إنهم بلغوا من الفساد واتباع الأهواء أخشنها مركبا وأشدّها

عتوا وضلالا حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل ولا هديهم بل صار ذلك مغريا لهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة البررة والسادة الأخيار .

(وحسبوا ألا تكون فتنة) الفتنة الاختبار بشدائد الأمور كتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد أى وظنوا ظنا قويا تمكن من نفوسهم أنه لا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد لأنهم كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ويعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب .

(فعموا وطمعوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وطمعوا كثير منهم) أى فعموا عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه مرشدة إلى عقابه للأمم المفسدة الظالمة ، وعموا وضعه من السنن فى خلقه مصدقا لذلك ، وطمعوا عن سماع المواعظ التى جاءهم بها أولئك الرسل وأنذروهم بالعقاب إذا هم خالفوها ونقضوا الميثاق وخرجوا عن هدى الدين ، وظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم وساروا فى غيرهم ، وانهمكوا فى ضلالهم ، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار ، نجس البابليون خلال ديارهم وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا أموالهم وسبوا أولادهم ونساءهم وسلبوا أموالهم وثلوا عروش ملكهم ، ثم رحمهم الله وتاب عليهم حين أقلعوا عن الفساد وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس إذ جاء إلى بيت المقدس وعمره ورد من بقى من بنى إسرائيل فى أسر ^{بِحُتْنَصْرَ} إلى وطنهم ورجع من تفرق منهم فى الأقطار فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا .

ثم عموا وطمعوا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم فى الأرض وقتلوا الأنبياء بغير حق فقتلوا زكريا وإشعيا وأرادوا قتل عيسى عليه السلام ، فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم (الرومانيين) فأزالوا ملكهم واستملاهم .

وفى قوله (كثير منهم) إشارة إلى أن عمى البصيرة والصمم عن المواعظ لم يكن

للجميع بل كان للكثير منهم ، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذي لا يؤثر في صلاح ولا فساد ومن ثم قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(والله بصير بما يعملون) لنبية وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتديير الإيقاع به وتأليب القبائل والشعوب المختلفة لتكون يدا واحدة للفتك به ، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى وأنهم عموا وصموا مرة أخرى فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات وسيعاقبهم الله على ذلك بمثل ما عاقبهم به من قبل وينكل بهم أشد النكال ، ويذيقهم أنواع الويل .

وبعد أن عدد قبائح اليهود ومخازيهم شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة وآراءهم الزائفة ، فقال :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) أى أقسم إن هؤلاء الذين ادعوا أن الله هو المسيح بن مريم - قد كفروا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ هم في إطرانه ومدحه غلوا أشد من غلو اليهود في الكفر به وتحقيره وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيماً ؛ وقد صارت هذه المقالة هي العقيدة الشائعة عندهم ، ومن عدل عنها عدّ مارقا من الدين فقالوا إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها (الأقانيم الثلاثة) وهى الآب والابن وروح القدس ، فالمسيح هو الابن والله هو الآب وقد حل الآب في الابن واتحد به فكوّن روح القدس ، وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخرين .

وخلاصة ذلك — الله هو المسيح ، والمسيح هو الله كما يزعمون .
(وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) أى والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون : فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده ، ولا يزال هذا الأمر محفوظاً فى الأنجيل التى كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه ، فى انجيل يوحنا

(وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فدين المسيح مبني على التوحيد المحض وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله .

وفي هذه المقالة تنبيه إلى ماهو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى لأنه عليه السلام لم يفرق بين نفسه وغيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع .
وبعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص ، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه ، فقال :

(إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)
أى إن كل من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك فيجعله نداً له أو متحداً به أو يدعو له لطلب نفع أو دفع ضرر أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى فيتخذة شفيعاً ليؤثر في إرادته تعالى وعلمه ، ويحمله على شيء غير ما سبق به علمه وخضصته إرادته في الأزل - من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة في سابق علمه ، وبمقتضى شرعه الذى أوحاه إلى جميع رسله ، فلا مأوى له إلا النار التى هي دار العذاب والنزل والهوان - وما للظالمين لأنفسهم بشركهم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع يتقدم مما يحل بهم « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

وفي هذا إيماء إلى أن النصارى كانوا يتكلمون على كثير من القديسين ، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم وإن لم تكن من أصل دينهم .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) أى لقد كفر الذين قالوا إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما - ثالث أقانيم ثلاثة ، أب والد غير مولود وابن مولود غير والد ، وزوج متبعة بينهما .

والخلاصة - إن الفرق ثلاثة : (١) إن إلههم ثالث ثلاثة (٢) إن الله هو المسيح بن مريم (٣) إن المسيح هو ابن الله وليس هو الله .

والتأخرون من النصارى يقولون بالأقانيم الثلاثة وأن كل واحد منها عين الآخر فالآب عين الابن وعين روح القدس ، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الآب وروح القدس أيضا ، وقد ذكرنا فيما سلف أن النصارى أخذوا عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين .

ثم رد الله عليهم ما قالوه بلا روية ولا بصيرة ، فقال :

(وما من إله إلا إله واحد) أى لا يوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية وهو الإله الذى لا تركيب فى ذاته ولا فى صفاته ، فليس ثم تعدد ذوات وأعيان ولا تعدد أجناس وأنواع ولا تعدد جزئيات وأجزاء .

(وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه ، ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه ، فوالله ليصيبنهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم .

وفى الآية إيحاء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها .

ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات وقامت عليهم الحجج المبطله له والنذر بالعذاب المرتب عليه ، فقال :

(أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟) أى أيسمعون ما ذكر من التنفيذ لآرائهم والوعيد عليها ، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد واستغفار الله عما فرط منهم ، والحال أن ربهم واسع الرحمة عظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويفقر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات .

(ما للمسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) أى ليس المسيح إلا رسولا من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده قد مضت من قبله رسل اختصهم الله مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات ، وأمه صديقة

فلها في الفضل مرتبة تلي مرتبة الأنبياء والمرسلين ، ونحو الآية قوله : « وَصَدَقْتُ
بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنْ الْقَاتِلِينَ » .

أما حقيقتهما النوعية والجنسية فهي مساوية لحقيقة غيرها من أفراد نوعهما
وجنسهما، فهما يأكلان الطعام ليقما بنيتهما ويمددا حياتهما لثلاثنحل بدنهما ويهلكا،
وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات فلا يمكن
أن يكون كل منهما إلها خالقا ولا ربا معبودا ، ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه
ويحتقر جنسه ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية والمشخصات والممتازة بميزات
عرضية فيجعل نفسه عبدا لها ويسميا آلهة أو أربابا .

وبعد أن بين حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة من الريب ، تعجب من حال من
يدعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ولا يتأمل فيما هو عليه من إفن الرأي
والخطأ ، فقال :

(انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) الآيات هي الدلائل
القاطعة ببطلان ما يدعون ، ويؤفكون أى يصرفون عن التأمل فيها لسوء استعدادهم
وخبث نفوسهم .

أى انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر ، كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات
والبراهين البالغة أقصى الغايات فى الوضوح على بطلان ما يدعون فى أمر المسيح ثم هم
بعد ذلك يعرضون عنها ، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها ومن مبادئها
إلى غاياتها فكانهم فقدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا

عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ
 دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا
 لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى
 كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ
 سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
 فَاسِقُونَ (٨١) .

شرح المفردات

الغلو: الإفراط وتجاوز الحد، والأهواء: الآراء التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة،
 واللعن: الحرمان من لطف الله وعنايته، يتولون الذين كفروا أي يوالونهم ويزينون
 لهم أهواءهم .

الإيضاح

(قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟) أي قل أيها الرسول
 لهؤلاء النصارى وأمثالهم ممن عبدوا غير الله - أتعبدون من دونه أي متجاوزين
 عبادته وحده - ما لا يملك لكم ضرا تخشونه أن يعاقبكم به إذا أتمت تركتم عبادته
 ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه؟ .
 وفي هذا إيماء إلى دحض مقالاتهم بالحجة والدليل، فإن اليهود وقد كانوا يعادون
 المسيح ويقصدونه بالسوء لم يقدر على الإضرار بهم، وأنصاره وصحابته مع شديد
 محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الضر والنفع
 كيف يعقل أن يكون لها؟

وإذ كان قول النصارى فى المسيح من أشد أنواع الغلو فى الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم وكان إيذاء اليهود له وسعيهم فى قتله من الغلو فى الجود على تقاليد الدين التى ابتدعوها واتباع أهوائهم بلا علم ، وكان هذا الغلو هو الذى دعاهم إلى قتل زكريا وإشعيا قال تعالى :

(يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) سواء السبيل وسطه الذى لا غلو فيه ولا تفريط وهو الإسلام ، وضلّاهم ترك شريعتهم واتباعهم الأهواء الفاسدة الموافقة لشهوات النفوس الجالحة بها إلى الحصول على اللذات والإعراض عن الدين جانبا وضلّاهم عنه هو إعراضهم عن اتباعه .

نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا فى عصر التنزيل عن الغلو الذى كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم ، وعن التقليد الذى كان سبب ضلّاهم ، إذ هم قد اتبعوا أهواءهم وتركوا سنن الرسل والنبیین والصالحين من قبلهم ، لأن كل أولئك كانوا موحدين وكانوا ينكرون الشرك والغلو فى الدين ، فعقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنسية المستحدثة من بعدهم كشرع عبادات لم يأذن بها الله ، وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم مبالغة فى التنسك والزهد أورياء وسمعة ، وجعل الأنبياء والصالحين أربابا ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله فى الأسباب والمسببات الكسبية ، ولذا جعلهم آلهة يعبدون من دون الله أومع الله .

كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم فيه وسيكون سبب شقائهم وعذابهم فى الآخرة إن لم يرجعوا عنه وينيبوا إلى الله منه .

وبعد أن بين الله ضلّاهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به ، فقال :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك

بما عصوا وكانوا يعتدون) أى لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل فى الزبور والإنجيل على لسان هذين النبیین فقد لعن داود عليه السلام من اعتدى منهم فى السبت أو لعن العاصین المعتدين عامة ، وكذلك لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم ، وما سبب ذلك اللعن الذى امتد واستمر إلا تماديهم فى العصيان وتمردهم على الأديان كما يدل عليه قوله : وكانوا يعتدون .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أسباب استمرارهم على العصيان وتعدي الحدود فقال : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أى كان من دأبهم ألا ينهى أحد منهم أحدا عن منكر يقتضيه مهما قبح وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر هو حفاظ الدين وسياج الفضائل والآداب ، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وفجورهم ورآهم الغوغاء من الناس قلدوهم فيه وزال قبحه من نفوسهم وصار عادة لهم وزال سلطان الدين من قلوبهم وتركت أحكامه ورأهم ظهريا .

وفى الآية إيماء إلى فشو المنكرات فيهم ، وانتشار مفسادها بينهم ، إذ لولا ذلك ما كان ترك التنهى شأننا من شئونهم وعادة من عاداتهم .

(لبئس ما كانوا يفعلون) هذا تقييح لسوء فعلهم وتعجب منه وذم لهم على اقتراف بعضهم للمنكرات وإصرارهم عليها وسكوت آخرين ورضاهم بها ، وفى سوق الآية إرشاد للمؤمنين وعبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ويحل بهم من غضب الله ولعنه مثل ما حل بينى إسرائيل .

روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال : (لعن الذين كفروا - إلى قوله فاسقون) ثم قال صلى الله عليه وسلم : كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم

ولتأطرنه (تعطفنه) على الحق أطرا ولتقسرنه على الحق قسرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم .

وأخرج الخطيب من طريق أبي سلمة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفس محمد بيده ليخرجن من أمتي ناس من قبورهم في صورة القردة والخنازير بما داهنو أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون » .

والآثار في هذا الباب كثيرة وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي ، فهل من مدكر وإلى متى نعرض عن أوامر ديننا ولا نزعوى عن غينا ولا ننبع أوامر شرعنا ؟ .

وبعد أن ذكر الله لنبيه أحوال أسلافهم ذكر له أحوال حاضرهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم ، فقال :

(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) أى ترى أيها الرسول الكريم كثيرا من بنى إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركى قومك ويحالفونهم عليك ويحرضونهم على قتالك ، وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه وتشهد لهم بصدق الرسالة ، وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا يعبدون إلها واحدا ، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم ما فعلوا ذلك ولا دار هذا بخاطرهم وما استحجوا العمى على الهدى ، ومن يضل الله فما له من هاد .

وقد روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يتم لهم ما أرادوا إذ لم يلبوا لهم دعوة ولا استجابوا لهم كلمة .

(لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) أى لبئس شيئا قدموه لأنفسهم فى آخرتهم - الأعمال التى أوجبت سخط الله وعظيم غضبه ، وسيجزون بها شر الجزاء إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفا ويخلدون فى النار أبدا ، فالنجاة منه إنما تكون برضا الله عن عبده ، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه وشديد غضبه :

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) أى ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركى العرب - يؤمنون بالنبي الذى يدعون اتباعه وهو موسى عليه السلام وما أنزل إليه من الهدى والبينات ، لما اتخذوا أولئك الكافرين ممن يعبدون الأوثان والأصنام أولياء وأنصارا إذ كانت العقيدة الدينية تصدمهم عن ذلك وتدفع عنهم هذه الآصار والآثام التى يقترفونها .
والخلاصة - إن هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها من سبب إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله والتعاون على حربه وإبطال دعوته والتنكيل بمن آمن به .

ويرى مجاهد أن المراد بالذين كفروا المنافقون أى إن أولئك المنافقين كفار ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه كما يدعون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم ، فتولاهم أيام من أعظم الأدلة على أنهم يسترون الكفر ويظهرون الإيمان نفاقا ، وكان اليهود يتولون المشركين والمنافقين جميعا لاشتراكهم فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقد بين الله أسباب هذه الألفة والعلّة الجامعة بينهم فقال :

(ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى ولكن كثيرا منهم متمرّدون فى النفاق خارجون عن حظيرة الدين لا يريدون إلا الرياسة والجاه ويسعون إلى تحصيلهما من أى طريق قدروا عليه ، ومتى سار الكثير من الأمة على طريق تبعه الباقون إذ لا عبرة بالقليل فى سيرة الأمة وأعمالها .

وكان الفراغ من مسودة تفسير هذا الجزء فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلثائة وألف من الهجرة النبوية بجلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية، والله الحمد أولا وآخرا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

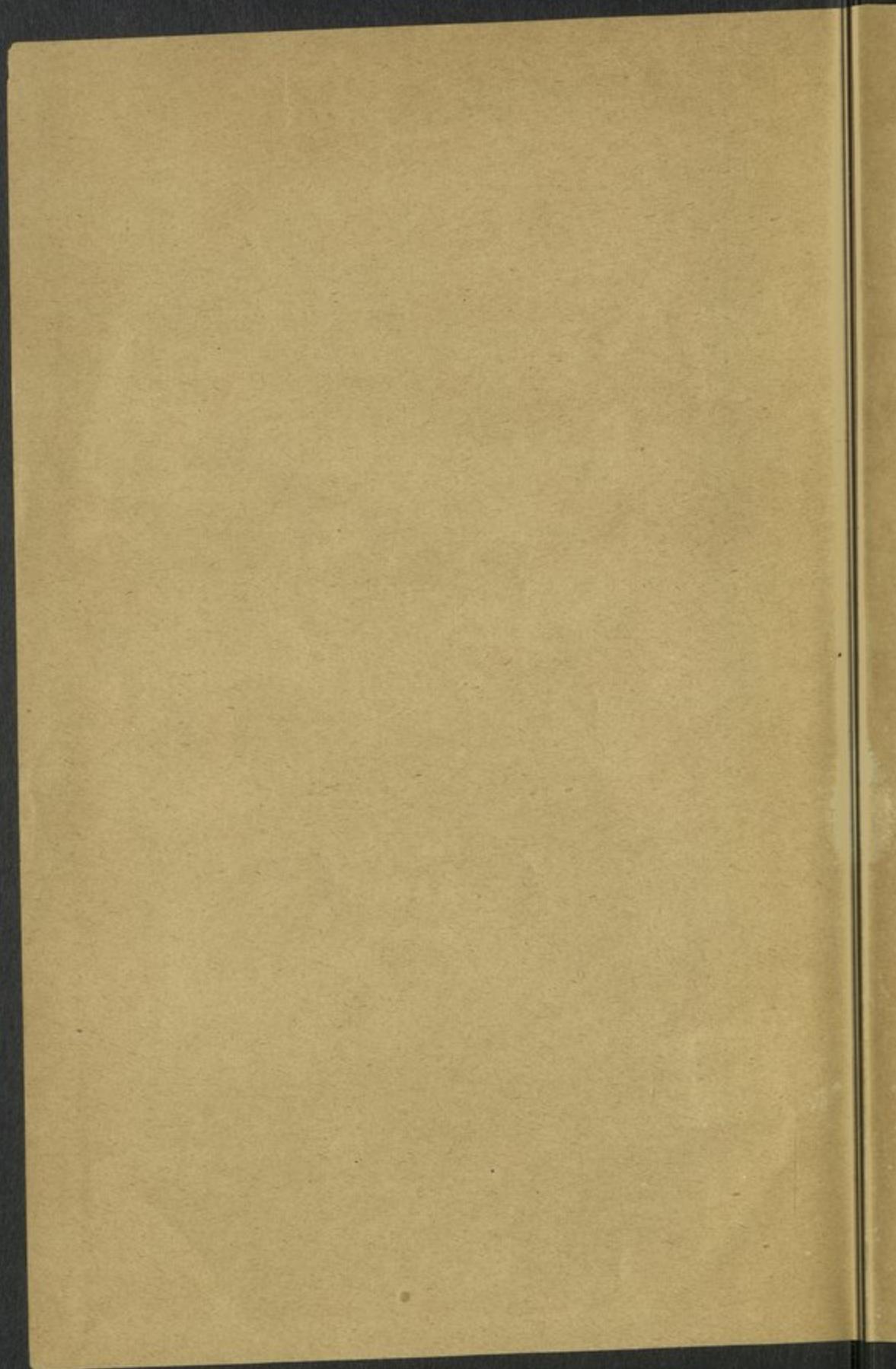
فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

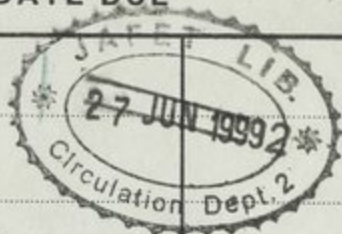
الصفحة	المبحث
٤	مفاسد الجهر بالسوء من القول .
٩	سؤال أهل الكتاب للرسول أن ينزل عليهم كتابا من السماء .
١٣	حدوث الاشتباه في الأشخاص لتقارب الشبه جد التقارب .
١٤	المراد من التوفى والرفع في قوله تعالى : إني متوفيك ورافعك إلي .
١٨	في التوراة التي بين أيديهم جواز أخذ الربا من غير اليهود .
٢٣	حكمة إرسال الرسل .
٢٩	آية الله في خلق عيسى كآيته في خلق آدم .
٣٢	عقيدة الثلاث عقيدة وثنية .
٣٦	الديانة النصرانية أساسها التوحيد الخالص وحوثها الكهنة إلى الوثنية .
٤٣	العقود ثلاثة أضرب .
٤٥	الأمر بالتعاون على البر والتقوى .
٤٧	الحكمة في تحريم أكل الميتة والدم .
٤٩	الوقد تعذيب للحيوان .
٥٢	الاستقسام بالسبح والقرآن .
٥٣	الاستخارة التي ورد النص عليها .

الصفحة	المبحث
٥٨	حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناحتهم .
٦٥	الحكمة في شرع الوضوء والغسل .
٦٩	آيات الله قسمان .
٧٣	نقباء بني إسرائيل .
٧٥	تحريف الكلم وأنواعه .
٧٩	القرآن يبين كثيرا مما كان يخفيه أهل الكتاب .
٨٥	اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار من سائر البشر .
٩٣	عقاب بني إسرائيل بالتية أربعين سنة .
٩٨	القرابين لدى اليهود والنصارى والمسلمين .
١٠١	متى يكون الندم توبة ؟ .
١٠٣	العبرة من قصص ابني آدم .
١٠٥	جزاء قطاع الطرق .
١٠٩	معنى الوسيلة والتوسل .
١١٤	المقدار الذي يوجب قطع اليد عند السرقة .
١١٦	إنكار اليهود لحكم الزاني في التوراة حتى أطلعهم النبي صلى الله عليه وسلم
١١٨	كان من وظيفة اليهود التجسس للمشركين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢٠	اليهودي سماع للكذب على الرسول أ كمال للسحت .
١٢١	اليهود تركوا التوراة وتحاكموا إلى الرسول ليحكم على حسب أهوائهم .
١٢٤	كتمان اليهود لوصف النبي صلى الله عليه وسلم والبشارة به .
١٢٨	الإنجيل لا يحتضن أحكاما .

المبحث	الصفحة
الشريعة اسم للأحكام العملية ، والدين أعم من ذلك .	١٣٠
الشرائع تختلف باختلاف الزمان والمكان .	١٣٠
توبيخ اليهود على طلب حكم الجاهلية وهم أهل كتاب .	١٣٣
عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة انقسم الكافرون أقساما ثلاثة .	١٣٥
الموالاتة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية ليس بالمنهى عنها .	١٣٦
ارتد كثير من القبائل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده .	١٣٩
صفة المؤمن حقا .	١٤٢
الله ورسوله وليّ المؤمنين .	١٤٣
النهي عن موالاتة أهل الكتاب والمشركين .	١٤٥
الإسلام نهج مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب .	١٤٦
النهي على اليهود لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .	١٥٠
المقصد من الأديان العمل بها .	١٥٧
كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزل (والله يعصمك من الناس) فترك ذلك .	١٦٠
المسلم ليس على شيء يعتد به من الدين حتى يقيم القرآن ويهتدى بهديه .	١٦١
النصارى يقولون : الله هو المسيح والمسيح هو الله .	١٦٥
النصارى فرق ثلاث .	١٦٦
نهى الله أهل الكتاب عن الفلأ في دينهم .	١٧٠
كان كثير من أهل الكتاب يوالون المشركين .	١٧٢



DATE DUE

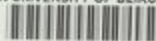


297.207:M291A:v.4-6:c.1

المراعي، احمد مصطفى

تفسير المراعي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01818033

American University of Beirut



297.207

M291A

v. 4-6

General Library

AUB Libraries